

نبات ... ونمو ..

بهذا العدد الخاص تحتفل «المجلة» مع الوطن بالعيد الحادى عشر لثورة ٢٣ يوليو ، وفى كل عيد لنا وقفة نستعرض فيها الماضى ونتطلع للمستقبل ، ولا نملك حينئذ الا أن يخالجنا شعور غريب : اننا نسير فى طريق معبد مستقيم ، ليس فيه التواء أو انحناء ومع ذلك ففى كل خطوة يتكشف لنا افق جديد مذهل يؤكد لنا أننا واصلون اليه بعد قليل ، وكلما تتابعت الخطى زادت الثقة بالنفس وأرتفع حساب النجاح من المتتالية العديدة الى المتتالية الهندسية .

ذلك أن ثورتنا جمعت فى نواتها عنصرين قد يبدوان لأول وهلة أنهما غير مؤتلفين : النبات والنمو .

نبات على النبات والقصد والهدف ، لا يسمح لآى عائق أو حتى لآية مصلحة انانية عارضة ان تمس ارادته ، أو ان تحيد به عن طريقه . ونمو متفتح مقدم ، لا يعرف التهيب ، من أهم خصائصه قدرته الفائقة على مطابقته للواقع المتجدد والوفاء بمطالبه مهما اختلفت أو تعددت أو عظمت . والهدف الذى ضمن النبات هو أولا الايمان بالشعب ، باعتباره صاحب الحق الاول ، والذى ينبغي أن تتصرف كل الجهود الى خدمته ، انتهت النظرة اليه من عل ، انتهى تفسير الاصلاح بأنه احسان ، لم تعد المسألة انتزاع الشعب لحقوقه وكأنما يستخلصها جبرا من يد غاصب يعتبر كل نصر للشعب هزيمة له ، بل أصبحت المسألة كيف يمارس الشعب كل حقوقه بأفضل الطرق . ولم يكن من المستطاع للشعب أن يمارس حقوقه الا بعد زوال الاستعمار والاقطاع والاستغلال والفروق الكبيرة بين الطبقات وانعدام تكافؤ الفرص .

والاتحاد الاشتراكى العربى هو تجميع لقوى الشعب العاملة فى كيان واحد ليمارس حقوقه ، ويشرف على تنفيذها . لا ممارسة محكوم بل ممارسة حاكم . أحس الشعب بكيانه ويوحدته وبتضامنه وكفالة كل فرد لآخيه . ومن السهل أن نحصر الثروة المادية التى كسبها الشعب منذ الثورة ولكن من العسير أن نحصر الثروة المعنوية التى تملكها . وكل مراقب نزبه التى ينظره الى بلدنا يشهد بهذا التحول الذى يبلغ حد المعجزة - بمسند أن كان الشعب يعاني من الشك فى قدرته وقدره ، أصبح شديد الوثوق بنفسه ، مؤمنا ومعتدا بها .

كما يشهد هذا المراقب النزبه بأننا لم نقلد الغير تقليدا اعمى بل اعتمدنا على تاريخنا وديننا وقوميتنا وطبعنا الاصيل فى وضع نظامنا ، انه بكره العنف والجبروت وسفك الدماء والتضحية بأجيال عديدة من أجل جيل قادم ، ومن العجيب ان الذى لم تقتبسه من أحد أصبح منارا تستهديه شعوب كثيرة ليس بيننا وبينها قرى أو نسب ، كأنها لم تعد تجد دواءها فى المدينة القريبة مع أنها تعيش فى احضانها .

وهذه الثروة المعنوية هى الضمان الاكيد لتحقيق الثروة المادية ورسوخها - بل هى دعامة التشريعات التى ستتوالى لتنظيم الأسرة ، واعتناق الشعب

لقانون اخلاقي جديد ، تزول عنه جرائم الانانية والضعف والخوف والجبن ؛ بل اكاد اقول : اعتناق الشعب للغة جديدة تكره الهذر والزخارف الباطلة . ثبات على اعتناق القومية العربية ، لا تحول عنها رغم المصاعب ، بل رغم النكسات . فلا يمكن للشعوب العربية ان تلعب دورها الجدير بها في العصر الحديث الا اذا عادت سيرتها الاولى واتحدت ، فاذا اتحدت ملكت ثرواتنا الطبيعية خالصة لها وصانتها من التيب وسهل بعد ذلك الانتقال من التملك الى القدرة على الاستغلال بغير عون مستبد من الخارج . اذا اتحدت وقفت في وجه العدو الذي اقتصب رقعة من بلادها واعلن بلاحياء ان سياسته قائمة على التوسع والعدوان .

ثبات على سياسة الحياد الايجابي من اجل السلم ، ومناصرة حق كل شعب في التحرر من الاستعمار ومن الاضطهاد بمختلف صوره ومن التعبير بسبب الفروق في الألوان .

هذا هو وجه وطننا الطيب الذي تبديه للعالم الخارجي . انه لم يتغير منذ ان قامت الثورة ، وجه قد في المترك الدولي لانه يانف من التخفي وراء الاقنعة او الجري وراء مصلحة انانية اذا كان بها ولو قدر قليل من التضحية بمبادئه ، بل قد يتحمل صاحبه من اجل اداء رسالته اعباء فوق اعبائه ولكنها تهون عليه . ولم يسفر وجه الشعب للعالم الخارجي مشعا ينور هذه المبادئ الانسانية السامية التي يهفو اليها العالم اليوم الا لان قيادته - وهي قلبه ووجدانه ورمزه وصورته المرئية - تمسكت بالاستقامة الخلقية ، متمثلة في العكوف على اداء الواجب بغير استهانة ، وفي براوة السيرة من كل الحراف او انزلاق . وعنصر النمو هو الذي ينفي خطر الجمود ، والقناعة بما تحقق ، وهو الذي يتيح النقد الذاتي ، ويجد الاجابة الصحيحة على كل سؤال يطرا . نمو في السياسة الخارجية ، من وحدة الوطن ، الى وحدة الشعوب العربية ، الى وحدة الشعوب الافريقية ، بل لنا تايد لكل الجهود المخلصة الرامية الى تحقيق الوحدة العالمية ، وهكذا نمائى خطو التاريخ الى غايته المحتومة .

نمو - في الداخل - في رفع مستوى المعيشة بالمضى قدما في التصنيع ، اصبحنا نصنع الآلات المنتجة للبضائع والخامات، وسنمو فنصنع الآلات التي تنتج هذه الآلات حتى تتم حلقة التصنيع كلها داخل بلادنا . نمو في أنظمة الحكم المحلي ، في بناء السد العالي ، يقاس بالساعة لا باليوم نمو في الخدمات الاجتماعية - كانه القفز - في التعليم والصحة والثقافة والفنون .

اصبح كل ثوب يفصل على قد هذا الشعب يضيق عنه في لمح البصر - ليس مما يبهج النفس ان نقول - كما يقول كل اب يلحظ ابنه الصبي وهو ينمو متفجرا بالصحة والعافية : هذه هي مشكلتنا الجيدة !

جيدى حقى

انقاذ معبدى ابوسمبل



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

يسرنى أن أعلن الآن في الوقت الذى تجتمع فيه اللجنة التنفيذية لمشروع انقاذ معبدى أبو سمبل في مقر هيئة اليونسكو بباريس أنه :

منذ أن بدأت حكومة الجمهورية العربية المتحدة في تنفيذ مشروع السد العالى لتوفير الرخاء لابناء هذه الجمهورية ، وهى تولى تراث النوبة نفس العناية التى توليها لتوفير هذا الرخاء .

واذا كنا اليوم بصدد انقاذ « معبدى أبو سمبل » فذلك لانهما يعتبران اعظم تراث في بلاد النوبة .

ولهذا فقد أعلنت الحكومة اكثر من مرة ان المحافظة على هذين المعبدين هى في المرتبة الاولى من الاهمية ، وقد بذلت هيئة اليونسكو كل جهد في سبيل تحقيق هذا الهدف سواء بمعاونة حكومة الجمهورية العربية المتحدة في الدراسات الخاصة بانقاذ هذين المعبدين أو ببذل الجهد في الدعوة الى مساهمة الدول والهيئات في هذا المجال .



بقلم : الدكتور عبد القادر حاتم

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ورغم أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة قد أعلنت مساهمتها في تنفيذ هذا المشروع بأحد عشر مليوناً ونصف مليون من الدولارات ورغم ما بذلته الحكومات والهيئات المختلفة من معونة صادقة لتحقيق تنفيذ المشروع فإن المساهمات الدولية لم تبلغ الحد الأدنى الذي طلبته حكومة الجمهورية العربية المتحدة للمضي في تنفيذ المشروع ومن لم حل الوقت المحدد لبدا التنفيذ مما اضطر هيئة اليونسكو لأن تعلن أنه أصبح من المتعذر أن تغطي المساهمات الدولية في الوقت المحدد لبدا التنفيذ ما هو مطلوب لتمويل المشروع في مرحلته الأولى .

وأزاء هذا الموقف اضطرت حكومة الجمهورية العربية المتحدة مع شعورها بالأسف أن تبحث الحلول الأخرى التي قد تسمح بانقاذ العبدین على الوجه الذي يتيحها الوقت الضيق المتبقى على ارتفاع مياه السد العالي وفي حدود الإمكانيات المالية التي يمكن توفيرها لتنفيذ مثل هذه الحلول . وفي هذا الحال

وبدل الخبراء الذين عهد إليهم بالدراسات الفنية للمشروعات المختلفة التي كانت موضع البحث لانتقاد هذين المعبدین أقصى الجهود طوال السنوات الماضية واكتملت هذه الدراسات حتى حل موعد تنفيذ مشروع رفع المعبدین وهو المشروع الذي كانت قد قدمته الحكومة الإيطالية مساهمة منها في المحافظة على هذا التراث وأقرته حكومة الجمهورية العربية المتحدة . وفي سبيل تمويل هذا المشروع عرضت حلول مختلفة انتهت بأن عرض على المؤتمر العام الثاني عشر لهيئة اليونسكو مشروع بمعدل قرض يسدد على سنوات تقوم به هيئة اليونسكو التي تبنت مشروع الانتقاذ استجابة لرغبة الجمهورية العربية المتحدة ولكن هذا الاقتراح لم يلق قبولا من المؤتمر العام الذي رأى أن تحتفظ الحملة الدولية بصفتها الاختيارية على نحو ما قامت على أساسه ومن ثم أوصى المؤتمر ببذل جهود مضاعفة للحصول على المساهمات التي تكفل تنفيذ مشروع الرفع ،

الخبراء لم تصل الى قرار جماعى فيما يتعلق بالنواحي الفنية والمالية للمشروعين مما ادى الى ان توصى هذه اللجنة بقيام المجلس الاستشارى الدولى لمشروع ابي سمبل بإبداء الراى فى المشروعين من جوانبهما الفنية والمالية ، وقد اقر المجلس التنفيذى لهيئة اليونسكو هذه التوصية وخول المدير العام لليونسكو السلطة فى اتخاذ الخطوات اللازمة لتحويل المشروع الذى تختاره حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى ضوء دراسات لجنة الخبراء الدولية والمجلس الاستشارى الدولى لمشروع ابي سمبل على ان يكون مفهوما ان كلا المشروعين المقترحين يتفقان مع الاهداف الثقافية لهيئة اليونسكو وان المشروع المختار يتنبى الا تزيد تكاليفه عن اربعين مليوناً من الدولارات وهو التقدير الذى ترى الهيئة ان المساهمات الدولية يمكن ان توفره .

وفقاً لهذا القرار دعت حكومة الجمهورية العربية المتحدة المجلس الاستشارى الدولى لمشروع ابي سمبل للانقاد فى القاهرة خلال الفترة من ٥ - ٧ يونيو سنة ١٩٦٣ لهذا الغرض

وقد حضر اجتماعات المجلس السيد / باولو كارنيرو والسيد / على فريونى ممثلين للمدير العام لليونسكو تنفيذاً لقرار المجلس التنفيذى للهيئة

وبعد ان قام المجلس بدراسة المشروعين اصدر توصياته التى تتضمن ان المشروعين المطروحين على بساط البحث قابلين للتنفيذ من الناحية الفنية غير ان المشروع المقترح لقطع المعبدتين واعادة بناءهما فى مرحلة متقدمة من حيث الدراسة عن المشروع المقترح لرفع المعبدتين بواسطة تعويمهما ، فضلاً عن ان المشروع الثانى يحتاج الى وقت لاعادته فى صورة تجعله فى مرحلة قابلة للتنفيذ مما يعنى وقتاً لا يتحبه الوقت المتبقى على بدء ارتفاع مياه السد العالى ولهذا يعتبر المجلس ان البرنامج التنفيذى لهذا المشروع يتعدى تنفيذه والى جانب هذا اجمع المجلس على ان تكاليف المشروع الثانى يبلغ على الأقل سبعة وخمسين مليوناً من الدولارات بينما اقر المجلس ان تكاليف المشروع الاول المقدرة بستة وثلاثين مليوناً من الدولارات صحيحة وان البرنامج التنفيذى لهذا المشروع قابل للتنفيذ فى مواعيده المحددة وأوصى المجلس باستكمال بعض الدراسات الخاصة باستشارة بعض المتخصصين فى اعمال القطع والنقل بحيث يتم تنفيذ هذا المشروع على وجه يحفظ القيم

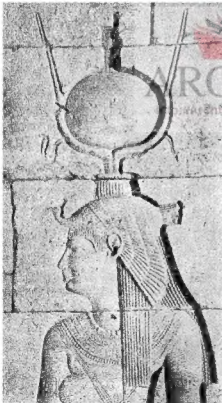
تود حكومة الجمهورية العربية المتحدة ان تعلن انها تلقت عدداً من الأفكار التى كانت تهدف الى ايجاد هذه الوسائل لانقاذ المعبدتين ولتلت هذه الحلول من الافراد والهيئات الفنية والعلمية المختلفة فاولتها جميعها كل عناية وقامت بواسطة اجهزتها الفنية بدراساتها غير ان هذه الحلول لم تكن تفى بالغرض الذى تهدف اليه كل من حكومة الجمهورية العربية المتحدة واليونسكو من المحافظة على التراث الانسانى فى معبدى «ابو سمبل» على الوجه المطلوب وفى الحدود الممكنة .

ومن لم قامت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بدراسة لمشروع تقدمت به بعض الهيئات الدولية يقوم على أساس قطع المعبدتين ونقلهما الى أعلى الهضبة ثم اعادة بناءهما . وبعد الدراسات اوضح امكان تنفيذ هذا المشروع بتكاليف اقل من تكاليف مشروع الرفع وفى الحدود التى يمكن ان توفرها المساهمات الدولية . ولذلك تقدمت حكومة الجمهورية العربية المتحدة الى هيئة اليونسكو تعرض هذا الاقتراح ليكون بديلاً لمشروع الرفع الذى لم يتم تنفيذه بكل اسف للأسباب التى اوضحت . واذ قامت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بهذا العرض اتسعت هذفت الى ان يتحقق اتفاقاً أبو سمبل . وكذا قبل ان يصبح هذا الاتفاق امراً مستحيلاً من الناحية العملية بسبب الوقت الضيق الذى امام الحكومة لتنفيذ أى مشروع يرمى الى هذا الغرض .

وفى الوقت نفسه ، تقدمت الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة للجمهورية الفرنسية مشكورة الى هيئة اليونسكو بمشروع آخر يقوم على أساس رفع المعبدتين بواسطة المياه فوجت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بعرض المشروعين على لجنة دولية من الخبراء لدراستهما فدعا المدير العام لليونسكو لجنة تضم عدداً من الخبراء وعلماء الآثار لإبداء الراى فى الاقتراحين المقدمين واجتمعت هذه اللجنة بين اليوم الخامس والسابع من شهر مايو سنة ١٩٦٣ وبعد دراساتها اصدرت توصياتها متضمنة ان الاقتراح المقدم من الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة للجمهورية الفرنسية اكثر ملاءمة من التاحيتين الأثرية والجمالية لان هذا المشروع يعمل على انقاذ المعبدتين كوحدة متكاملة على نحو مشروع الرفع الذى سبق ان اقرته حكومة الجمهورية العربية المتحدة ومضت فى خطوات تنفيذه ، قرر ان لجنة

ان حكومة الجمهورية العربية المتحدة تتوجه كذلك بالشكر الى الشعب القومية للتربية والعلوم والثقافة للجمهورية الفرنسية على ما بذلته من جهد لمعاونة الجمهورية العربية المتحدة في تحقيق هذا الهدف ، كما تعبر عن شكرها للجنة الخبراء التي اجتمعت في باريس خلال شهر مايو الماضي والمجلس الاستشاري الدولي لانقاذ معبدى « أبو سمبل » ، الذى اجتمع فى القاهرة خلال هذا الشهر .

وحكومة الجمهورية العربية المتحدة اخيرا ترحب ان تجد مزيدا من التعاون الدولي في سبيل تحقيق هذا الامل العزيز ، في نطاق هذه المنظمة الدولية الكبيرة .



الاثرية لهذا الاثر . وانتهى المجلس الى التعبير عن عطفه على كل مشروع يهدف للمحافظة على تراث ابي سمبل كاملا ولكنه ازاء التكاليف الباهظة لمثل هذا المشروع يوصى المجلس حكومة الجمهورية العربية المتحدة باعتماد المشروع الاول لقطع المعبدتين واعادة بنائها .

وفي ضوء دراسات لجنة الخبراء الدولية والمجلس الاستشاري الدولي لمشروع ابي سمبل وازاء الظروف التي اوضحها هذا البيان فان حكومة الجمهورية العربية المتحدة اذ تبدي أسفها لان المساهمات الدولية لم تف لتنفيذ مشروع الرفع الذي خطت حكومة الجمهورية العربية المتحدة واليونسكو خطوات فعالة في سبيل تنفيذه واذ تعبر عن شكرها للحكومة الايطالية التي تقدمت بهذا المشروع لهيئة اليونسكو التي بذلت كل جهد في سبيل تمويله ، وللحكومات والهيئات التي ابدت رغبتها في المساهمة فيه ، تجد نفسها بسبب الظروف التي احاطت بالحملة الدولية وازاء الوقت الضيق الذي يمكن ان يسمح بتنفيذ مشروع بديل ، وبعد التوصيات التي اصدرتها لجنة الخبراء وفي ضوء ان اتحاد المجلس الاستشاري الدولي لمشروع « أبو سمبل » قراره بالتوصية بمشروع قطع المعبدتين .

وحكومة الجمهورية العربية المتحدة وهي تعلن موافقتها على هذا القرار حتى لا يفقد العالم هذا التراث الى الابد ، ويتحمل امام الاجيال القادمة مسؤولية تبيده . لا يقوتها ان توجه الى العلماء والخبراء والهيئات العلمية والفنية بالشكر على ما قدمته من جهود استعانت بها بالاشتراك مع هيئة اليونسكو لتحقيق امل عيسق في نفس شعب الجمهورية العربية المتحدة الذي يؤمن بضرورة التكامل بين عناصر الثقافة الانسانية في الماضي وفي الحاضر جميعا . كما قال السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة :

« ولا شك ان ايمان شعبنا جزء من ايمان شعوب العالم جميعا بضرورة هذا التكامل لتحقيق للعالم الامن والسلام » .

ومشروعات إنقاذها

بقلم : الدكتور عبد المنعم أبو بكر

أبو سمبل

بعثات مختلفة ، بعضها ليدعم أركان المعابد التي قدر لها أن تختفي في مياه الخزان ، وأخرى لتكشف عن الآثار المغمورة في باطن الأرض والتي ستطفي عليها المياه بعد أن ترتفع إلى منسوب ١٢١ مترا فسوق سطح البحر ، واستمرت هذه البعثات تعمل وتعمل حتى قبيل انتهاء التعلية الثانية لسد اسوان أي إلى عام ١٩٦٤ .

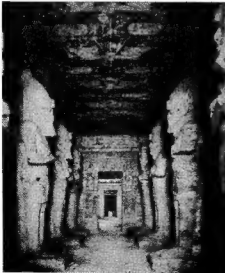
ومن المعروف أن بناء السد العالي سيرفع منسوب المياه إلى الجنوب منه إلى حوالي ١٨٠ مترا فوق سطح البحر ، أي بزيادة تتراوح بين ٥٠ إلى ٦٠ مترا أكثر من المنسوب الحالي ، ومعنى ذلك أن جميع المناطق الأثرية بما فيها المعابد المشيدة والمنقورة في باطن الصخر ستستقر في قاع البحيرة الهائلة

هو الأسماء ولي موزعة الصورة الصالة الصغيرة ثم
تدس الإنداس

توت عنخ آمون ومراكب الشمس وأبو سمبل ، أسماء ثلاثة في دنيا الآثار ، دوت في العالم شرقا وغربا ، وكان لدويها صوت الرعد سمعته كل الأذان وتمجيب من أمها كل انسان ، وتهافت على رؤيتها الناس من كل مكان ، من منا (أقصد أولئك الذين وصلوا سن الشباب عام ١٩٢٤) لا يذكر الكشف عن كنوز هذا الفرعون الصغير ، ولا يذكر الانبهار الذي طغى على العالم على اثر ذلك ، صفحات وصفحات من صحف العالم تملأ كل يوم بأخبار هذا الكشف ، آلاف وآلاف من السياح يهرعون إلى مصر ثم إلى الأقصر لعل حسن الطالع يتيح لهم لقاء نظرة عابرة على هذه الكنوز ، لقد كان اسم مصر يحتل الصدارة في كل مكان ولازلت أذكر أن كل شيء كان يطلق عليه اسم توت عنخ آمون .

الحدث التاريخي الآخر هو الكشف عن مركب خوفو عام ١٩٥٤ وكان له نفس الأثر في العالم وحدث بالنسبة إليه نفس الدوي في صحف للعمورة من اليابان في الشرق إلى الأمريكتين في الغرب .

ولست أشك أن « أبو سمبل » هو الاسم الثالث الذي ملا على العالم أسماعه وأبصاره حدث هذا منذ عام ١٩٥٨ ، منذ أن دخل مشروع السد العالي في حيز التنفيذ وأصبح لزاما علينا أن نعمل شيئا لانقاذ ما تبقى من آثار في منطقة بلاد النوبة السفلى ، وأقول ما تبقى لأن عملية انقاذ آثار بلاد النوبة بدأت منذ عام ١٩٠٧ ، أي منذ أن فكرت مصر في تعلية سد اسوان وبعد أن وجدت جزيرة أسس الوجود قد غرقت بما عليها من معابد فاخرة في مياه الخزان . ولقد قامت مصلحة الآثار في ذلك الحين بإرسال





ممسيد « ايسوسيل الصغير » الملكة بقاوها المشوق وأولتها
العائنة تفق بين ايزيس الى اليسين وتحجور الى اليسار يشبان
التاج فوق راسها

الذي بعد من اعظم ما خلفه لنا التاريخ . وانا شخصيا
اشعر بالاشفاق على اى رجل يمكنه أن يقدم على هذا الاختيار
دون أن يشعر بالاسى كما اتى اشفق على اى انسان يمكنه أن
يتخذ قرارا بهذا الشأن لم يتحمل ثمة فرائد ايا كان ، دون
الشعور بالأسف .

ابدا لم يكن غريبا أن توجه حكومة الجمهورية العربية
المتحدة وحكومة الجمهورية السودانية الى منظمة اليونسكو
تطلبان محاولة انقاذ الآثار المهددة ، وذلك الآثار التي ربما
تضيع في غد قريب ليست ملكا للبلدين المؤتمنين عليها فقط ،
بل هي ملك للعالم كله ، وللعالم الحق كل الحق في ضمان
بطلها ، فهي جزء من تراث مشترك كالتراث الذي يفسر سالة
« سقراط » و« فيثاغورس » و« فيثاغورس » ولذلك فان هذه
الآثار ذات القيمة العالية يجب على العالم اجمع ان يقدم
بمحبتها .

ولذلك فان هذا فان الامر ليس مجرد اقبال ثوب مهمل
بالضيق ، بل هو ايضا اكتشاف ثروة لا تزال خفية واخراجها
الى النور ، فهو امر يستحق به الجميع . وبذلك ستقدم على
عصر جديد تفتح فيه الآفاق للتقدم الرابع والثراء الكبير في
ميدان الدراسات المصرية القديمة وبدلا من أن يحرم العالم من
جزء من تراثه الفنية سوف يعود للانسانية بان تكتشف وتعالج
أخرى لازالت مطمورة ومهجولة حتى اليوم .

وانى أوجه بكل ثقة الدعوة الى الحكومات والمؤسسات
والإساست العامة والخاصة وانى الرجال المخلصين في كل
مكان للاسهام في انجاح هذه المهمة التي لم يسبق لها مثيل في
التاريخ كما ادعو الى تقديم الخدمات التي يتطلبها هذا
التاريخ .

وأخيرا .. « مصر هبة النيل » وهذه جملة افريقية قديمة
انتشرت وطغمتها بعد لا حصر له من الطلاب ، فعلى شعوب
العالم اجمع ان تحدد اليوم لكي لا يطوى النيل في قاعه ،
يسبب المشاريع الكهانة التي ترمي الى زيادة الغصب ومتابع
القوى ، ان يطوى التجارب التي ورثناها نحن الاجيال
العاصرة من اجيال طرتها الدهور منذ ازمة سحيقة » .

هذا النداء العالمى البليغ الذي يعبر تماما عن
تقدير العالم بأجمعه للتراث المصرى القديم يعتبره
الناس بمثابة أول مشعل هدى للناس منذ أول التاريخ
الى العلم والمعرفة بل بمثابة التراث الأول للبشرية
عصماء ، وقد اعقبته ندابات أخرى مختلفة ، ولبي

التي ستنشأ ابتداء من أكتوبر عام ١٩٦٤ ،
وتستكمل مداها في عام ١٩٦٨ ، ومن اجل هذا بدأت
مصلحة الآثار تفكر منذ عام ١٩٥٤ في الطرق التي
يجب اتخاذها لانقاذ معابد بلاد النوبة وما تبقى من
آثار القدماء عظمورا في أرضها ، ولقد وضع مسند
البداية أن العمل أضخم من أن تنفرد به مصر وحدها ،
فهناك مسئوليتان أولاهما مسئولية التنقيب على شاطئ
النيل في مسافة تقرب من ٣٥٠ كيلو مترا في
المسئولية الثانية هي المحافظة على ١٦ معبد
بعضها مشيد بالحجارة والبعض الآخر منقر في باطن
التلال الحجرية ، ولذلك اضطرت مصر أن تفكر منذ
عام ١٩٥٩ بنقل مشروع انقاذ بلاد النوبة من المجال
المحل الى المجال الدولى ، لانا اذا كنا نعتبر هذه
الآثار من أمجادنا القديمة فهي ولا شك تعتبر أيضا
من بين تراث البشرية .

نجحت الجمهورية العربية المتحدة في اقتناع
منظمة اليونسكو في أن تتبنى هذا المشروع وفيما
على مقتضات من النداء الدولى الذى القاه مسدير
عام اليونسكو الدكتور فيتسو ريتو فيرونز في
٨/٣/١٩٦٠ في الحفل الكبير الذى اقيم في بناء
هذه المنظمة في باريس لحض الدول على المساعدة
في مشروع انقاذ بلاد النوبة .

« بدأ العمل في بناء السد العالمى الذى سيحول وادى
النيل الاوسط الى بحيرة واسعة في خلال بضعة سنوات مما
يهدد بالغرق ابنية عظيمة تعد من اروع المنشآت المعمارية في
العالم ، وسيبعت بناء السد العالمى الضخيم في مساحات
مترامية الاطراف من الصحراء ، ولكن يبدو ان توفير حقوق
جديدة للزراعة ومتابع ضخمة للقوى التي ستغلب مصانع
الاستغلال سوف يكلفنا ثمنا باهظا . وليس من السهل الاختيار
بين تراث الماضي ورفاهية شعب يعيش في ظل هذا التراث

العالم صوت الضمير وهرع عشرات من الناس والهيئات والبعثات تقدم المعونة لاتقاذ آثار بلاد النوبة ، وتكونت اللجان القومية فى كثير من بلاد العالم لبحث الناس على المساهمة فى انقاذ هذا التراث .

لقد سار المشروع حينها وكادت الكثير من اجزائه تتم ولكن بلى مشروع انقاذ معبدى «ابوسمبل» دون تنفيذ ، اذ ان معضلته تعتبر أكثر معضلات آثار بلاد النوبة تعقيدا ، ولقد طال النقاش عنها وملا أسماع العالم ، وكلنا يعلم أن مشروع انقاذ آثار بلاد النوبة يفهم فى كثير من بلاد العالم على أنه هو مشروع انقاذ معبدى « ابو سمبل »

واعتقد أن من واجبى قبل التحدث عن المشروعات المختلفة التى قدمت للجمهورية العربية المتحدة لاتقاذ معبدى « ابو سمبل » ، أن أقدم وصفا موجزا لهذين المعبدين وللأسباب التى جعلتهما ييزان بقية معابد بلاد النوبة فى الأهمية .

قام رمسيس الثانى (١٢٩٠-١٢٢٢ ق م) فى مدة حكمه الطويلة التى قاربت ٦٧ عاما بتشيسيد عمائر عديدة ، بل لم تخل منطقة أثرية فى مصر من اسمه ، وفى العاصمة طيبة فقط شيد الجزء الأمامى من معبد الأقصر وأهم أجزاء معبد الكرنك ، ثم معبد الرامسيوم الضخم على الشاطئ الغربى للنيل ، غير هذا فقد نقر فى باطن الصخر بمنطقة القبلة السفلى معابد ستة هى :

١ - بيت الوال ، ٢ - جرف حسين ، ٣ - وادى السبوع ، ٤ - الدرد ، ٥ - أبو سمبل الكبير ، ٦ - أبو سمبل الصغير .

وليس من شك فى أن معبدى «ابوسمبل» يعتبران أهم وأضخم وأجمل معابد بلاد النوبة الصغرى التى بنيت فى عصر رمسيس الثانى ، ونحن لانستطيع على وجه التحديد التعرف على الأسباب التى جعلت هذا الفرعون يوجه كل هذه العناية بهذين المعبدين مع أنهما أكثر معابده توغلا الى الجنوب ، واتى أود تفسير هذه العناية بإرجاع أهمية هذين المعبدين الى سببين :

١ - تمتعت منطقة أبو سمبل عند المصريين القدماء بأهمية خاصة ، اذ لدينا من الأدلة مايشهد أن خوفو (أحد ملوك الأسرة الرابعة ومشيد الهرم الأكبر ٢٨٠٠ ق م) قد أقام معبدا هناك ، كما شيد ملوك الدولة الوسطى (٢٠٠٠ ق م) معبدا آخر وكلاهما قد تهدم ولم تبق منهما الا بضعة أجزاء متناثرة . ولعل الأهمية الخاصة لهذا المكان ترجع الى أن الناس هناك عبدوا الالهة « أبشك » التى صورها المصريون على

هيئة البقرة « حتحور » وان هذه العبادة لعبت دورا رئيسيا عند الكثيرين من أهل بلاد النوبة .

٢ - تنضح من النقوش والمناظر المختلفة التى تملأ جدران معبد الملك رمسيس الثانى فى أبو سمبل (وهو المعبد الكبير) ان الفنانين بعد الانتهاء من هذه النقوش اضطروا الى اجراء كثير من التعديلات فيها تنصب معظمها على ادخال صورة الملك بين صور الالهة التى تعبد فى المعبد ويعنى ذلك أن الملك كان يهدف الى أن يرتفع بشخصه الى مرتبة الالهة التى تعبد فى هذا المعبد ، وفى كثير من المناظر نرى الملك الحى يقدم للملك الاله القرايين المختلفة .

لم يكن هذا الاتجاه فى تاليه الملك الحى جديدا عند المصريين القدماء ، فنحن نعرف ان الملكسنوسرت الثالث والملك امنحوتب الثالث قد عبدا فى منطقة النوبة ، ولو أن هؤلاء لم يعبدا قط فى مصر نفسها كما أن اطلاق اسم الاله الطيب « على فرعون مصر وتلقبه بلقب « ابن رع » أو « اب الاله » ، لايعنى مطلقا ان تقام له المعابد وأن يصور على جدرانها كاله أو توضع فى هيكل المعبد تماثيل تجرى أمامها الطقوس الدينية المعتادة والمخصصة للالهة المعبودة أعود فأقول ان الملك رمسيس الثانى قد نفذ فكرته الجديدة على الألوحت المصرى برفع نفسه كملك حى الى مرتبة الالهة الكبرى ، نفذ هذه الفكرة لأول مرة فى معبد «ابوسمبل» ثم نفذها دون تردد فى معابده الأربعة الأخرى فى بلاد النوبة ، فالملحظ أن صوره فى أبو سمبل مزادة على مناظر الالهة فى حين أنها أصيلة دون تعديل فى المعابد الأخرى السالفة الذكر . وعلى كل حال هذا موضوع يحتاج الى كثير من الدراسة العلمية ولا يتسع له المجال هنا .

يطالعنا المعبد الكبير بواجهته الضخمة التى تعتبر من أروع مانفذه المهندس المصرى المشهور بحساسيته الفنية المرحلة . لقد اعترف فنانون العالم أن التناسق الفنى بين عناصر هذا المعبد ، والانسجام الكلى بين واجهة المعبد والبيئة الجبلية المنقود فيها ، يعتبران من أعظم وأجمل مانفذته يد بشرية فى جميع الحضارات القديمة .

تحتل واجهة المعبد الكبير على هيئة صرح (بيلون) عرضه ٤٠ مترا وارتفاعه ٣٠ مترا ، ويعلو هذا الصرح أكثر من عشرين تمثالا لقردة انتصبت قائمتها واقفة على أقدامها الخلفية رافعة أيديها الى أعلى كما لو كانت قد توجهت بالعبادة الى قرص الشمس عندما يطل على المعبد من وراء قمم التلال العالية المعتدة على

شكلت قممها على هيئة رأس حتحور ، ثم صالة ثانية ثم ثلاث حجرات الوسطى منها كانت قدس الأقداس .

ولقد امتلأت جدران الصالتين بنقوش ومناظر مختلفة تمثل تارة الملكة وأخرى الملك يقدم كل منهما الى آلهة المعبد وخاصة حتحور إيشك القرابين من الزهور والشراب ، ولقد استطاع الفنان أن يقدم لنا لوحات دقيقة تتم على جبال نفرتارى وأوتنيسا الفاتنة . اعتقد أن القارئ يستطيع أن يتخيل معنا عظمة هذين المعبدين ، ويوافق على أنه ليس من السهل علينا ، بل على العالم المتحضر أن يدع هذين الأثرين يخفيا عن الأبد في قاع بحيرة السد العالي ، فهما لا يخصان من شيدهما فقط ، بل يخصان السمات الثقافية للبشرية كلها . أقول هذا لأن هناك من يقترح ترك معابد النوبة بما فيها معبدى «أبوسمبل» لمصرهما المحتوم ، ومن الطريف أن أصحاب هذا الاقتراح وبعضهم من المشتغلين بالدراسات الأثرية لا يفوتهم أن يضيفوا على اقتراحهم هذا مسحة علمية فيقولوا أن ملء المعابد بالرمال الساقية وسد مدخلها سدا محكما وتغطية واجهاتها بطبقة طينية صلبة وتركها في قاع البحيرة ، سيجعل من السهل في يوم من الأيام المقبلة وبعد مئات السنين إعادة حفرها والكشف عنها . وإذا سألت أصحاب هذا الرأي ولماذا لا توافقون على انقاذها ، مادامت هناك إمكانيات للانقاذ وسر في التنفيذ ، ردوا عليك بأن قدسية المعبد وجعل موقعه وفكرة ارتباطه بمكانه الأصل ، كل هذه العناصر الأثرية ستضيع وتختفى ، وفي ضياعها واختفائها جرم كبير يجب علينا ألا نتفكره .

لنترك أصحاب هذا السراى ولنستعرض الآن المشروعات الكثيرة التي تقدم بها أصحابنا لانقاذ معبدى «أبوسمبل» ، واعتقد أن الحديث عن هذه المشروعات وقد قارب عددها من المائة أمر لا جدوى فيه ، وسأقتصر على المشروعات الثلاثة الرئيسية التي حدث إن قبلتها منظمة اليونسكو وقامت الجمهورية العربية المتحدة بالصرف على دراساتها الميدانية توطئة للنظر في قبولها للتنفيذ . ليس من شك أن من بين هذه المشروعات الثلاثة ، كان هناك مشروعان كبيران معروضان للتنفيذ ، يحاول صاحب كل مشروع أن يفوز به بكل الوسائل . وكثيرا ما كانت بعض هذه الوسائل من النوع الذى لا يمت للصالح العام بأية صلة . . المشروع الأول

الضاطئ الشرقى في الصباح المبكر . غير هذا فقد تحت الفنان أربعة تماثيل ضخمة تمثل رمسيس الثانى جالسا على عرشه وهى تعتبر من أضخم التماثيل التى نفذها الفنان المصرى ، إذ يبلغ ارتفاع الواحد منها أكثر من عشرين مترا .

يتوسط الواجهة المدخل الى الصالات الداخلية للمعبد ، وهى تبدأ بصالة الأعمدة الكبيرة وتمتاز بأعمدتها الثمانية المربعة الضخمة والتى شكلت جوانبها المطللة على الردهة الوسطى على هيئة تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى تمثله فى هيئة أوزيريه . . ولقد امتلأت جدران هذه الصالة بمناظر مختلفة متعددة الموضوعات ، بعضها يمثل الملك يقدم التحية لمجموعة الآلهة التى تعبد فى المعبد ومن بينها رمسيس الثانى نفسه كما سبق القول ، والبعض الآخر يسجل مواقف حربية جريئة للملك ، وأهمها تلك المسجلة على الحائط الشمالى والتى تحكى قصة المواقف الباسلة ، التى وقها الملك أثناء معركة قادش فى السنة الخامسة من حكمه ضد حاتوسيل ملك الحيثيين . حين أراد أن يقرر بغرور مصر ويوقعه فى كمين لولا يقظته وشجاعته الخارقة فاستبدل بالهزيمة المتكررة نصرا مبينا . فصل بعد ذلك الى صالة صغيرة تحوى أربعة أعمدة وعليها مباشرة قدس الأقداس ، وهو عبارة عن حجرة متسعة جدارها الخلفى يحوى أربعة تماثيل تحت من الصخر الطبيعى وتمثل آلهة المعبد وهم : « بتاح » و « حوراختى » و « آمون » و « رمسيس الثانى نفسه » ومن أهم المظاهر التى تميز هذا المعبد عن غيره من معابد المصريين القدماء ، دخول أشعة الشمس فى الصباح المبكر وعند شروقها مباشرة ، الى قدس الأقداس ووصولها الى التماثيل الأربعة فتضى هذا المكان العميق فى الصخر اضاءة خافتة بعد أن تغترق صالات المعبد التى يبلغ طولها ستين مترا .

والمعبد الصغير شيدته رمسيس الثانى لزوجته المفضلة الملكة « نفرتارى » ولقد رفعها هى الأخرى الى مرتبة الآلهة ، وكانت تقام لها فيه الطقوس الدينية مع الآلهة المحلية « حتحور » ويقع هذا المعبد الى الشمال من المعبد الكبير وتحوى واجهته سمت مشكاوات ثلاث منها على كل جانب من جانبيه المدخل يقوم فى كل مشكاة منها تماثيل ضخمة يزيد ارتفاع كل منها على أحد عشر مترا ، أربعة منها للملك رمسيس ، والاثنان الآخران للملكة « نفرتارى » .

يتوسط الواجهة المدخل الى صالات المعبد ، وهى تبدأ بصالة الأعمدة الكبيرة ذات الأعمدة الستة التى

تقدمت به شركة من أهم شركات السدود في العالم وهي الشركة الفرنسية « كورين ويلييه » ويهدف مشروعها إلى بناء سد ترابي نصف دائري يحيط برامتهي المعبدين بحيث تترك مسافة لا تقل عن ٣٠٠ متر بين الجدار الواسع وبين واجهة المعبدين الكبيرين حتى لا يقلب ارتفاع الجدار مانعا يحول دون وصول أشعة الشمس عند شروقها إلى قدس الأقداس ١٠٠٠ الم شروع الثاني فهو يهدف إلى رفع المعبدين إلى ما فوق مستوى مياه السد ، أي إلى ١٨٣ مترا فوق سطح البحر ، وتقدم بهذا المشروع المسيو جازولا ، أستاذ العمارة في كلية الهندسة بجامعة ميلانو مشتركا مع شركة هندسية عالية هي شركة « إيتالكوستول » قام رجال كل شركة من الشركتين السالفتين الذكر بدراسات واسعة النطاق في منطقة « أبو سمبل » وتقدمت كل منهما بتقرير شامل عن مشروعها وطريقة تنفيذه ومواصفات كاملة لأراحل التنفيذ والتكاليف . حدث هذا في أواخر عام ١٩٦٠ ، وواجهت حكومة الجمهورية العربية المتحدة صعوبة اختيار أي المشروعين ، ولذلك اتفقت مع منظمة اليونسكو على استدعاء لجنة من خبراء عالميين متخصصين في الهندسة والجيولوجيا ، واجتمعت هذه اللجنة في القاهرة برئاسة الدكتور حسين كركي ودرست المشروعين دراسة مستفيضة وقدمت تقريرا بنتيجة هذه الدراسة إلى الحكومة المصرية .

اجتمعت اللجنة الاستشارية الدولية لانتقاد آثار بلاد النوبة في يناير عام ١٩٦١ في القاهرة ودرست التقارير المختلفة وأخذت بمشروع الرفع ورفضت مشروع إقامة سد ترابي حول المعبدين .

وتتلخص أسباب رفض مشروع بناء السد فيما يلي :
١ - نتيجة لبناء السد سوف يتحول مجرى النهر في اندفاعه نحو الشمال ، إلى الشرق ، وسينتج عن ذلك تآكل أسفل السد مما يستلزم بناء جسر أو أكثر لتجنب هذا التآكل .

٢ - سيبنى السد فوق طبقة من طمي النيل يبلغ سمكها حوالي ٣٥ مترا وتتخلل هذه الطبقة السمكية طبقات من الرمل والحصى تزيد من قابلية السد لترشيح الماء ، الأمر الذي يحتم تقوية هذه الطبقات الطميية بحوائط خاصة ، وهي عملية تكثفها صعوبات فنية معقدة .

٣ - سيستعمل لبناء لب السد صخور رملية تختلف صلابتها واتساع مسامها ، وبالتالي تختلف قوة تماسكها ، وهذا الاختلاف يتطلب اجسراء

مجهودات ضخمة لتقليل عملية الرشح .
٤ - نظرا لأن المعبدين سيكونان في منخفض تحيط به المياه من كل جهاته ، ونظرا لأنهم سيكونان في هذا المنخفض معرضين لكميات كبيرة من الرطوبة ، لذلك يجب إحاطة كل من المعبدين بسمرات واسعة للتهوية ولتخفيف حدة الرطوبة ، ولكن هذه الاحتياطات سوف تسمح أيضا لكمية من الرطوبة بالبقاء في جنبات المعبدين وستؤثر على الرسوم والنقوش الأمر الذي يجعل المعبدين في حاجة مستمرة إلى عمليات واسعة النطاق من الترميم .

٥ - سوف تجمع كميات كبيرة من مياه الرشح أمام المعبدين ويستلزم هذا إقامة محطتين كبيرتين تنضج هذا المياه ، على أن تعمل هاتان المحطتان ليل نهار .

٦ - إذا حدث أن تعطلت هاتان المحطتان لسبب خارج عن الإرادة فإن المعبدين سيتلطان بالمياه في مدة أسبوعين فقط .

٧ - يتكلف هذا المشروع ٨٠ مليون دولار ، كما يتكلف سنويا ٥٠ ألف جنيه تصرف على صيانة السد وتشغيل محطتي النضج .

هذه هي الأسباب القوية التي دفعت للجنة الاستشارية الدولية لرفض مشروع بناء السد ، أما الأسباب التي جعلتها تفضل مشروع الرفع فهي لأن التآكل الذي لانهل السد أظهرت أن المشروع وإن كان يبدو خياليا - فمن السهل تنفيذه .

وتتلخص تفاصيل مشروع رفع المعبدين فيما يلي :
١ - تزال الكتل الضخمة من الصخر التي تعلو المعبدين .

٢ - يفصل كل من المعبدين من التل الصخري بواسطة منحدر كهربائية خاصة لا تسبب ذبذبة تؤثر على جدران المعبدين ونقوشه .

٣ - يحاط المعبدين بجدران من الخرسانة المسلحة أشبه ما تكون بصندوق ضخم لتتجنب عن المعبدين الهزات ، وتجعله يتحمل الضغوط العالية .

٤ - تفصل أرضية المعبدين من التل الصخري .

٥ - توضع روافع ميكانيكية ضخمة أسفل المعبدين

٦ - تتحرك هذه الروافع إلى أعلى دفعة واحدة بمقدار مليمترين ، وتستمر الدفقات إلى أعلا لتصل إلى ٣٠ سنتيمترا وهو أقصى امتداد الروافع إلى أعلا .

وكان المفروض أن يتم هذا المشروع على مرحلتين الأولى وتنتهى برفع المعبدين إلى مستوى ١٨٠ مترا فوق سطح البحر والثانية ويؤجل تنفيذها إلى المستقبل

وهي إعادة المظهر الخارجى للمعبد إلى نفس الشكل الذى كان لهما فيما سبق . وكان المفروض أيضا أن تتكلف المرحلة الأولى ٢٩ مليون دولار والثانية ٢٤ مليون دولار .

الآن هذا المشروع لم يكتب له النجاح ، ومن أهم أسباب إخفاقه أن الدول المشتركة فى منظمة اليونسكو وعددها ١١٢ دولة لم تتقدم بالمساهمة المالية الكافية لتغطية تكاليف هذا المشروع ، وكان المفروض أن تبدأ عملية التنفيذ فى يناير عام ١٩٦٣ ، واجتمع المجلس التنفيذى فى نوفمبر سنة ١٩٦٢ وتصدت جلسات وكثرت كلمات خطبائه ، ولكن للأسف الكبير لم تتمخض هذه الخطب عن أى مبلغ يغطى نفقات المشروع ، وانفض المجلس التنفيذى على أن يعود للاجتماع لكى يناقش مشروعين جديدين أحدهما يتلخص فى قطع كل من المعبد من التل الجبرى وارسانهما على عوامات ضخمة من الصلب وتركهما يرتفعان مع ارتفاع منسوب مياه بحيرة السد العالى حتى إذا ما استقرت المياه سحبت العوامات بالمعبد إلى مكان يختار لاقامتهما فوق سطح التل فى منطقة « أبوسميل »

ويبدو أن هذا المشروع وإن أظهرت الدراسات الأولية له أن فى الاستطاعة تنفيذ ، إلا أن تكاليفه سوف تزيد عن المبلغ الذى اعتقدت منظمة اليونسكو أن فى الاستطاعة جمعه من الدول الأعضاء وهذا المبلغ هو ٤٠ مليون دولار .

واتجهت الأنظار إلى المشروع الآخر الذى قبلته منظمة اليونسكو والذي تبذل الجهود الآن لتنفيذه . ويتلخص هذا المشروع فيما على :

- ١ - تفصل التماثيل الأربعة الضخمة ويقطع كل تماثيل إلى أجزاء يمكن رفعها ونقلها بسهولة .
- ٢ - تفصل الأعمدة الثمانية فى الصالة الكبرى ويقطع كل عمود أيضا إلى أجزاء يمكن رفعها ونقلها .
- ٣ - نظرا لأن عملية تقطيع واجهة المعبد الضخمة والسطوح الشاسعة من جدران المعبد الداخلية التى تحوى النقوش والمنابر ، سيصعب تنفيذها مع وجود الأجزاء من التل الصخرى التى تملأ كلا من المعبد ، فيقتراح منفذو المشروع نزع كميات من صخور قمة التل لتخفيف الثقل وتسهيل عملية القطع
- ٤ - يبدأ بعد ذلك بتقطيع السقف إلى مربعات سمكها ٦٠ سنتيمترا على أن تكون مساحاتها صغيرة حتى يمكن رفعها ونقلها بسهولة .

٥ - يتحتم أثناء هذه العملية تقوية جدران المعبد بأقامة سقالات من الحديد تركز عليها جنبات المعبد وتمنع انهيار أى جزء من أجزائه .

٦ - بعد الانتهاء من إزالة السقف يبدأ بنزع التماثيل الأربعة الموجودة فى حجرة قدس الأقداس والمثلة لإلهة المعبد ، وهى كما نعرف منحوتة من الصخر الطبيعى ويستعمل معها نفس الطريقة التى استعملت فى تماثيل الواجهة مع الفارق الكبير فى الأحجام .

٧ - يبدأ تقسيم مناظر ونقوش جدران المعبد إلى مربعات سهلة التحريك سواء فى الرفع أو النقل ويقطع كل مربع بحيث يكون سمكه ٨٠ سنتيمترا .

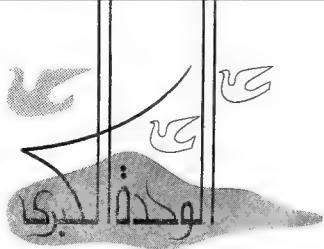
٨ - إذا ماتت هذه العملية الضخمة يجب إقامة هيكل للمعبد يمثل أجزائه المختلفة على أن يبنى هذا الهيكل من الخرسانة المسلحة ثم تركيب الأجزاء المقطوعة من المعبد فى أماكنها تماما .

٩ - يجب إيجاد مكان فسيح يكفى لتخزين القطع المشونة والمصولة من المعبد توطئة لاعادة تركيبها على الوجه السالف الذكر .

١٠ - يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن تركيب هذه الأجزاء بعضها إلى البعض سيكون بواسطة ملاط لونه مائل تمام للون الحجر الرمل للمعبد ، ولكن سيصبح مؤكدا أن المشاهد سيلتفت إلى هذا الأمر وسوف تبدو جدران المعبد بعد تركيبها وضخم أجزائها بعضها إلى البعض وقد تغلثت المساطر خطوط افقية ورأسية .

١١ - سيتكلف هذا المشروع من أوله حتى نهايته أى حتى إعادة المعبد إلى حاله الأصل مبلغ ١٨ مليون جنيه أى ٤٠ مليون دولار .

هذا المشروع تقدمت به الجمهورية العربية المتحدة بعد أن تعذر تنفيذ مشروع رفع المعبد ، أو قل بعد أن استحال جمع المال لتنفيذه ، وستقوم شركة عالمية بتنفيذ المشروع الأخير ونرجو أن تستمر الجهود حتى يتحقق لنا انقاذ هذين المعبدتين وإبقائهما دليلا على حضارة أجدادنا ومدى التقدم الجبار الذى وصل إليه الفنان المصرى فى شئون العمارة والجمال الفنى . ولقد طالعنا الصحف منذ أيام قليلة بأن المجلس التنفيذى لمنظمة اليونسكو قد حصل على كسب التأكيدات بأن المبلغ سوف يجمع وإن المشروع سينفذ ، هذا مع العلم أن الجمهورية العربية المتحدة قد أعلنت رصد مبلغ ٥ مليون جنيه مساهمة منها فى انقاذ معبدى « أبو سمبل »



للشاعر: محمود غنيم

هل سمعتم كما سمعتُ الأذانا ؟
 سدة من عالم الخلود دعانا
 في البهاليل من بنى عدنانا
 وأثرتَ الشعورَ والوجدانا
 سرّ وفي جلقٍ وفي بغدادنا
 هزّ عطفه في الثرى نشوانا
 ن نشيدا فزلزل الميدانا
 سلا ورهط ابن هاشم قرآنا
 ما أحبّ الشفاهة والألحانا
 لا ولا سالت الدُّما غدراننا
 سلا وفي كل مهجة مهرجاننا

أيها العربُ أرهقوا الأذانا
 هاتف علوى الدعاء إلى الوحـ
 أيها الهاتف السماوى أذنْ
 قدلمست الشَّغاف من كل قلب
 رجعت صوتك الحناجرُ في مصـ
 نبأ حين زار قبر صلاح
 رددته الجنود في كل ميّدا
 ووعاه رهط ابن مريمَ لإنجيـ
 وتغننت به شفاهُ العذارى
 وحدة لم تُشَنّ فيها حروب
 قد أقمنا في كل صدر لها حفـ





حققتها إرادة حرة في أمم حرة تعاف الهوانا
ما بنوها إلا أشاؤس صيد عثرة السَّبَط أو بنو مروانا

• • •

ياوفود الأحرار من كل قطر
يمقت الضيم كلما سيم ضيا
قد رسمتم خطوط وحدتنا الكب
ووضعتم أساس بنيانها العا
لكأني بغيشها صار سيلا
وكأني بظلمها صار لقعدا
وكأني بسلمها صار حربا
واستحالت أنغامها زمجرات
وأحاطت بالمارقين وإن لم
قوة الشعب من قوى خالق الشع
وإذا الشعب ثار يوما على الغا
وغدت كل ذات طوق عقابا
يفغر الشعب كل ذنب ولايم
عصف الدهر بالعروش وولى
ليس في كف عاهل صولجان

• • •

ياحماة الذمار في سفح أورا
يابني العم في العقيق ونجد
أزفت ساعة النهوض فهيا
س وأسدَّ العرين في نجرانا
وبني الخال في ربا عمّانا
ليس باليعرُبي من يتوانى

تم وجدتم ببابها رضوانا
 ب لمن زار يفتح الأحضان
 صار رمزا لها وصار كيانا
 لا وريداً أبقت ولا شريانا
 كان شطاً تلقى عليه الأمانا
 لو رماها الزمان أصمى الزمانا
 وجمال في حبها يتفانى
 لبني العرب صُورت إنسانا
 جعلتنا بفضله إخوانا
 وتخوما تفرق الأوطانا
 يجمع المرسلين والأديانا
 ودفناً الأحقاد والشنانا
 مُسَبِّلُ جُلِّ قدره أوهانا
 تِ الموالي وتذكر الإحسانا
 جعل الضاد للكرام لسانا

فُتِحَتْ دَارَةُ الخلود فإن زر
 باسمِ الشجر قبل أن يفتح البا
 رجلٌ دانَ بالعروبة حتى
 هي في جسمه مع الدَّم تسرى
 كلما حاق بالعروبة خطبُ
 واقفٌ عمره على الذود عنها
 أمة في هوى جمال تفانت
 ما جمال في الأرض إلا أمان
 شملتنا عنايةُ الله حتى
 قد مَحَوْنَا من الوجود حدوداً
 وتخذنا حبَّ العروبة ديناً
 وحفرنا في باطن الأرض جيّاً
 وصلاتُ القربى على الذنب سترُ
 وكرام النفوس تنسى إساءا
 إن من خص كل قوم بِلِسْنِهِ

بل جَنَيْنَا من الخلاف وروداً
 كَرَّةُ الأرض تستبيح حمانا
 ما دهاناً من الأسي مادهاناً
 ر وقُتْنَا من لحمه النيانا
 د سليمانَ والرياح استعاناً
 إن نسيناه فهو لا ينسانا

ما جَنَيْنَا من الخلاف وروداً
 حَسْبُنَا أَنَّ عَصَبَةَ لَفْظَتِهَا
 ولو انا كنا لدى الزحف صفّاً
 بل قذفنا العدو في شبح البه
 ولو آن العدو بالجن من جُنْدِ
 إن حول الأردن حقاً سليباً



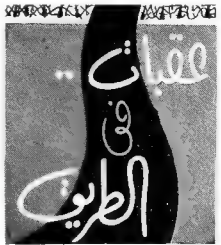


الشطوط التي على جانبيه
والنجوم التي تطل عليه
لهف نفسي على عرينه أسد
وطيور عن الخمائل ذيدت
ومغان حنت إلى الأهل أرضا
أيها الدهر إننا عرب لسـ
ليس يرضى الكريم أن يلبس العا
نبيه القوم أن للقوم يوما

• • •

جمع العرب أمرهم من شتات
سوف نحى تراثنا من جديد
أولسنا الشعب الذي قهر الفر
وله كانت الملوك عبيدا
أولسنا الشعب الذي رد كيد ال
سائلوا موكب الحضارة عنا
أين عهد الرشيد حين تحدى
كان هذا تاريخنا يوم كنا
إن للعرب ماضيا فاطلبوه
انزعوه من فكى الدهر قسرا
املثوا البر زاحفات ثقالا
واملثوا غارب العباب سفينا
نحن في عالم الصواريخ والذر

إن للعرب بعد ذلك شانا
ونزيد التراث آنا فانا
من قديما ودوخ الرومانا ؟
وبنات الملوك كانت قيانا ؟
غرب إذا جاء يحمل الصلبان ؟
من حماها من المغول سوانا ؟
في السموات عارضا هتانا ؟
وحدة في الحروب لا وخذانا
في مناطق الجوزاء أو كيوانا
كل صعب يراض بالقسر لانا
واملثوا الجو كله عقبانا
ثم غوصوا في جوفه حيتانا
فلا عاش من يعيش جبانا



بقلم : الدكتور يوسف مراد

الجاهل قبل محاولة معرفة طبيعة المجهول . وإذا كان الأمر كذلك فإن مشكلة الجاهل من حيث هو جاهل تدخل بالضرورة في دائرة المجهول على الإطلاق وعندئذ يصبح السير إلى الأمام ولو خطوة واحدة ، في سبيل المعرفة ، أمراً محالاً .

هل معنى هذا أنه مقضى علينا ألا نخرج أبداً من دائرة الشك الذي لا سبيل إلى تخرجه . وإن كل ما نقوله هو موضع شك ، حتى هذا التقرير الذي نحن بصده الآن وهو أن كل قول أو كل تقرير أو كل حكم تصدره غير قابل للبرهنة على صحته أو خطئه .

وإذا وصلنا السير في هذا الطريق من التفكير المجرد البحث فأننا سنحس أنفسنا داخل دائرة سحرية من المحال فك حصارها وسنصاب بدوار فكري يجزنا إلى العدم إذ سيعطل هذا الدوار الفكر فقط بل الفعل نفسه . ولكن مهما كان الدوار العقل الذي يسببه التفكير المجرد البحث قويا وقهريا فإنه في واقع الأمر خداع ، لأن الفكر مهما كانت صفته التجريدية كبيرة ينطوي على عامل إيجابي أصيل هو القصد ، والذي نعتيه بالقصد ليس الشيء المقصود أو تصور هذا الشيء المقصود بل هذا النشاط الخلاق الذي يوجه العناصر الفكرية نحو هدف لا يتضح إلا بفضل محاولة الاقتراب منه وتحتيقه . فالقصد هو من قبيل الفعل لأن قبيل

عندما يقوم الرحالة بوضع خطة سفره إلى بلد مجهول لاستكشاف معالمه ودراسة أحواله فإنه يحاول في بادئ الأمر أن يجمع ما يتيسر له من معلومات عن الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه وعن العقبات التي قد تعترض سيره وذلك لاختلال الاحتياطات اللازمة لتذليل هذه العقبات وتسهيل السبيل المؤدى إلى الهدف . وكذلك يجب على من يريد أن يكتشف أسرار النفس الإنسانية (١) أن يكون على حذاية بما قد يعوقه عن الوصول إلى المعرفة الحقة للطبيعة البشرية وللدوافع والعوامل التي تعين سلوك الإنسان وتشكله في مختلف سبل الحياة وشتى ميادين النشاط .

والعقبات التي تعترض معرفتنا لأنفسنا عديدة متنوعة ، ويجدر بنا ، أن نحاول حصر هذه العقبات قدر المستطاع .

قد يكون من مستخف القول أن نقرر أن الجهل هو العقبة الأولى التي تعترضنا وإن من شأن نور المعرفة تبديد ظلمات الجهل . غير أن المشكلة ليست بهذه البساطة التي نبدو عليها لأن هناك أنواعا من الجهل والخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها في سبيل التغلب عليه هي معرفة طبيعة

(١) راجع مقالنا : الواجب الأكبر ، في عدد يونيو ١٩٦٢ من « المحلة » .

الفكرة سواء كانت مجردة أو مجسدة ، هو القدرة التي تأخذ في إدراك نفسها عندما تبدأ تعمل ، أي عندما تنشط ، هو الحركة في صميمها وفي وئبتها قبل أن ندرك ما هو الشيء الذي يتحرك ، والخلط بين الحركة والمتحرك يؤدي حتما إلى جعل الحركة شيئا في حين أنها ليست شيء .

وتتمثل هذه القدرة على التصدد وعلى بدء الحركة في اتجاه ماديون غيره في القدرة على مواصلة التفكير أو كفه وعلى استئنافه إذا شئنا . وفي هذه الحالة تكون أدوات التفكير ، أي اللغة ، مهما كانت إشاراتها ورموزها ، خاصة لهذا النشاط التصدي . أما إذا طفت الأداة على النشاط وقع هذا الأخير أسيرا داخل الدائرة السحرية التي أشرنا إليها من قبل وأصيب بالدوار .

والأخطار التي تهدد التفكير المجرد إلبحت تهدد أيضا الفعل المحض الذي لا يركز خلال وثباته المتتابعة على تحقيقات واقعية ، فلا بد ، لكي يتجنب الفعل الدوار ، الدوار الذي تخلقه التكرارات الزمنية أو الحركة الفوضوية على حد سواء ، لا بد له من أن يثبت اتجاهه نحو المقصود كلما اقتضت معالم هذا المقصود .

فالمقصود هو النشاط الكامن خلف التفكير وخلف الفعل ، هو يقوم بالربط بينهما وبتهيئتهما فيقيد التفكير بالواقع ويوجه الفعل نحو تحقيق الصورة التمثيل التي يتوقعها الفاعل . وهذا النشاط القصري الذي نتحدث عنه هو العروة الأولى في عالم المجهول والدعامة الأولى التي تقوم عليها ثقة الإنسان في قدرته على التفكير والفعل ، أي قدرته على المعرفة ، لأن المعرفة هي ثمرة التفكير والفعل متضامين .

فالشك المطلق خداع لفظي ، والجهل المطبق أمر يتنافى مع الوجود لأن العدم والوجود متناقضان ينفي أحدهما الآخر بالضرورة . غير أن الطريق الموصل بين هذا الوميض الخفيف الذي يبشر بالمعرفة وبين نور المعرفة الساطع طريق طويل وعمر . إلا أننا بدأنا نتحرك ومهما تعددت العقبات فحركاتنا المقصودة كفيفة بتذليل هذه العقبات أو هي على أقل تقدير كفيفة بعث الأمل المظرد في تذليلها .

وقبل المضي في ذكر العقبات التي تعترض طريق معرفة الإنسان نفسه نود أن نوضح ما سبق بذكر

الأعراض الرئيسية لمرشحين خطيرين من الأمراض العقلية هما مرض القصام ومرض الهوس . فهذان المرضان يمثلان بوضوح نوعين متقابلين من الاضطراب الذي يصيب العلاقة بين التفكير والفعل والتشويه الذي يلحق بتصور المريض للسواقع . فالمرض بوجه عام ، من حيث هو اختلال للتوازن أو الانسجام الذي تحققه الوظائف عندما تعمل بصورة سوية ، يفكك النظام الطبيعي فيضخم بعض العوامل ويسبب ضهور العوامل الأخرى مما يؤدي إلى انحراف الوظائف عن سيرها السليم . فالمرض إذن بمثابة التجربة التي يقيمها العالم لتحليل ظاهرة من الظواهر للكشف عن جميع مقوماتها وعن طبيعة العلاقات القائمة بينها .

فمرض القصام ، كما يتبين ذلك من اسمه (١) يفيد معنى القطع والتصدع . ولهذا المرض مجموعة من الأعراض الرئيسية الثابتة التي تظهر في جميع حالات المرض ومجموعة أخرى غير ثابتة لا تظهر إلا في بعض الحالات دون غيرها وسنقتصر القول هنا على الأعراض الثابتة المشتركة .

فالسمة الأساسية للقصام هي التفكك . ويظهر التفكك في مجالين ، المجال الداخلي والمجال الخارجي . والمقصود بالمجال الداخلي العلاقات السائدة بين الوظائف النفسية من حيث هي عمليات ذهنية . أما المجال الخارجي فهو علاقة الشخص بالعالم الخارجي . والمجال الخارجي تابع للمجال الداخلي وهو ثانوي بالنسبة إليه ، أي أن العالم النفسي الداخلي هو الذي يعين نمط الاستجابة للعالم الخارجي .

والتفكك بين الوظائف النفسية يؤدي إلى تحطيم الوحدة والانسجام والاتصال في النشاط النفسي في جميع ميادين : الفكر واللغة والوجدان والميول والإرادة . والصفات الرئيسية لاضطراب هذه الوظائف هي : أولا : الكف والتعطيل والإعاقة والعناد والخلفة . ثانيا : يكون نشاط المريض إما

(١) وتسمت لفظ « القصام » منذ عام ١٩٤٣ ترجمة للفك Schizophrenia الذي وضعه طبيب الأمراض العقلية السويسري بلوهر Bleuler عام ١٩١١ ليشير إلى الاضطراب الرئيسية لمرض الجنون المبكر Dementia Praecox وتركب لفظ Schizophrenia من Schizein وهو فعل يوناني معناه قسم ، قطع ، شق ومن Phrène عقل . وقد شاع استخدام لفظ « القصام » مع غيره من المصطلحات التي اقترحتها كالمصاب والذهان والحصار والذهاء والهجاس وهي على وزن لعال الذي يعيد معنى المرض كالكوام والجنام والصراع والسيات الخ . . (انظر الطبعة الأولى من كتاب « شفاء النفس » للمؤلف نشر دار المعارف بمرح عام ١٩٤٣)

اندفاعاً انفجارياً أو متصلياً ومتحجراً تغلب عليه الآلية ، أى أنه يسير على وتيرة واحدة وومعاً لمنطق واحد كثيراً ما يكون متصنعاً . ثالثاً : السلبية والقابلية للإبواء ولحكاة عمياء للحركات التى يشاهدها المريض .

والسمة الرئيسية لجميع هذه العمليات المرضية هى التناقض : التناقض بين ما يشعر به المريض وبين ما يقوله ، فهو يؤكد وينفى فى آن واحد نفس الفكرة أو العاطفة أو الميل (١) وهو عاجز عن أن يتجاوز فى الخبرات التى يعايتها حدود ذاته ، وينتهى به الأمر الى أن يعيش فى عالم من الأخيلة الوهمية ومن الاجترار الفكرى ويصبح فريسة للهذيان غير المنظم الممل بالتناقض والتفكك .

ويؤدى هذا الاضطراب البالغ فى النشاط النفسى الداخلى الى قطع الصلة تدريجياً بين المريض والعالم الخارجى . فيفقد المريض الاتصال الحسى بما يحدث حوله فيضعف اهتمامه بالعالم الخارجى ويصاب بالبلادة الوجدانية ويصبح عاجزاً عن إدراك القيم المادية والفكرية والاجتماعية مما يؤدى فى نهاية الأمر الى انهيار جميع مقومات الشخصية . والحالة الفصامية تمثل لما مدى الاضطراب الذى يصيب عمليات التفكير والتصور والخيال . هنا تبدأ تنطلق هذه العمليات وتتحرك من الآثار الصابغة التى يفرزها الواقع على العالم ذهنى ، ويؤدى هذا التحرك ، لا الى زيادةفاعلية والكفاءة ، بل الى الاضطراب والفوضى فى مجال النشاط ذهنى والسلوك الخارجى على السواء .

وقبل الخفى فى ذكر اعراض مرض الهوس نود أن نستخلص من وصفنا لاعراض الفصام ما يمكن الاستفادة منه فى مجال معرفة الانسان نفسه .

لا بد للوصول الى المعرفة من القيام بعملية تحليل المعطيات والحقائق التى تقع فى نطاق المشاهدة والملاحظة . فتحليل الانسان لحالاته الشعورية ولخبراته النفسية أمر ضرورى ، وتعرف عملية

(١) يشير هنا الى ما ساء بلور Ambivalence ومعناه ازدواج تبيين متضادين - وقد اقترحت ترجمة هذا اللفظ المركب بلفظ مركب من مركب من « ايسى » ومعناه الانبيات من « ليس » ومعناه النفى ، فنقول « ايسيليس » ترجمة Ambivalence و « ايسيليس » ترجمة Ambivalent . وقد تمت هذه الاقتراح الى مؤتمر مصطلحات علم النفس والتربية الذى نظمه المجلس الاطلى لرعاية الفنون والآداب والعلم والاحتمالية فى مجلس الأمة من ١٥ الى ٣٠ مايو سنة ١٩٦٣ . وقد اذنت عليه لجنة مصطلحات علم النفس فى بداية الامر ثم عدلت منه لغرائبه ، وأقرت اقلية رجبته «تناقض وجداني» مع العلم بان التناقض غير مقصور على الجانب الوجداني .

التحليل هذه بالاستبطان ، ولا تقتصر هذه العملية على مجرد الإدراك المباشر لمضمون الحالات النفسية وتعاقب اطوارها واشكائها ، بل ترمى ايضا الى تفسير حوتها وتطورها بالربط بينها بشتى العلاقات التى يستخدمها العالم لتفسير ظواهر الطبيعة الخارجية وربما بانواع أخرى من العلاقات تقتضيها طبيعة الحالات النفسية بقدر ما لها من نوعية تميزها عن الظواهر الخارجية .

وهناك عقبات كثيرة تعترض سير التحليل النفسى الذاتى سيأتى ذكرها فيما بعد ، وكل ما نريد توضيحه الآن هو الخطر الذى ينطوى عليه الأسراف فى التحليل الذاتى ، أى أن نبين ماهو فى ظاهر الأمر قدرة فائقة هو فى الواقع نقص وانحراف

فى قدرة الانسان أن ينتقل من عالم الواقع الخارجى الى عالم الخيال ثم يعود من عالم الخيال الى الواقع . وفى امكانه كذلك ان يتناول الواقع بالنشاط الحركى الفعّال أو بالتفكير فيه ، وقد يصبح التفكير غاية لذاته بدلا من ان يكون وسيلة تمهيد سبل النجاح والتوافق للفعل . كما ان التفكير بما يصاحبه من مواكب الأخيلة والتصورات قد ينفصل عن الواقع الزمانى فينتجه اما نحو الماضى أو

تحرر المستقبل . والشطآن السوى يتوقف على تحقيق التوافق بين جميع هذه العوامل التى ذكرنا أو على تضامنها الفعل والفكر ، وعلى تحقيق التوافق بين الوسائل والغايات . فاذا كانت الغاية اجترار ذكريات الماضى أو الاستغراق فى أحلام اليقظة التى تصور للمتناهل مستقبلا خياليا محال التحقيق فعندئذ تهدد صلة الشخص بالواقع الحى بالانقسام والتفكك ويصبح سلوك الشخص سلوكا تكوسيا أو انسحابيا سواء كان الانسحاب نحو الماضى أو المستقبل . والدافع الى الانسحاب هو فى آن واحد الفرار من الواقع الخارجى الذى يطالب المرء بالعزم والتنفيذ ، والرغبة فى خلق عالم ذاتى يكون بمثابة ملجأ يجد فيه اللجوء وتخفيفا لمخاوفه وقسطا من الاطمئنان والامان .

فمواجهة الشخص لذاته بعد اضعاف صلته بالواقع الخارجى تؤدى الى تضخم الذات ، وإذا كانت الغاية من هذه المواجهة معرفة الشخص لذاته فان مثل هذه المعرفة مهددة بالانحراف والفرور نتيجة للغة التى يجنيها التأمل من تحليل ذاته ونتيجة لتأثير العمليات اللاشعورية التى يسميها علماء النفس بـ«الميكانيزمات الدفاعية» كالتعويض والاستقاط

يتنبه بسرعة الى نقائص الآخرين فيها جهم بالتهم والتكاث اللاذعة . وإذا اصطلمت نزواته بأية مقاومة فانه يضرب ويكون غضبه عنيفا مدبرا .

وفي هيدان العمليات العقلية يكون تفكير المهوس في حالة استثارة قوية والعامل الأساسي للاستثارة المدركات الخارجية من أشياء وأشخاص ومواقف ، ويؤثر العامل الوجداني بطبيعة الحال في تلوين النشاط الإدراكي والعكزي . ويلاحظ على المهوس عجزه عن تركيز الانتباه *Aporexia* فهو

مشتت بين التماسيل الدقيقة التي تجلب انتباهه التلقائي العابر . ونظرا لعجزه عن تركيز الانتباه وعن فقد مدركاته التي تظل سطحية يقع المهوس ضحية التخداغ الإدراكي وخطأ التصرف وكذلك تكون عملية تداعي المعاني واسترجاع الذكريات متسمة بالسطحية والتناقض . فجميع أليساته تكون منطلقة متحررة من قيود السقد والأختيار والتوجيه ، فيتأثر البناء تفكيره وكلامه بأوجه الشبه السطحية الجزئية أو بأوجه الشبه الصوتية دون ادخال للعلاقات القائمة بين المعاني . ويؤدي هذا السيل الجارف من التصورات والأفكار التي تخضع خاصة للجناس الصوتي الى ما يعرف « بهروب الأفكار » *(نظرية لعجز المهوس عن الاختيار والنقد وبسرعة تسرع تابع الارتباطات الفكرية وقصور لغة الكلام عن التعبير عن جميع هذه الارتباطات بقلب على كلام المهوس التناقض والتفكك والهرج .* فقد يواصل الحديث ساعة بأكملها دون توقف ، منتقلا من موضوع الى موضوع دون ميرر واضح ، مغيرا من نبرات صوته كأنه يمثل دورا على المسرح ، مسرعا في حركاته الجنسية وفي إيماءات عينيه وملامح وجهه المحتقن بالدم ، متكتا حيناً ومهددا بالفرب حيناً آخر ، ومعقبا على نكاته وتهديداته بضحكات عالية صاخبة ، متزها بعظمته وطموحه ومجده بعبارات ضخمة ، وحركات مسرحية .

وهذا الوصف لمشهد نموذجي من مشاهد المهوس يوضح لنا الجانب الثالث من أعراض الهوس وهو جانب النشاط الحركي المفرط الذي يتميز بالتقلب وعدم الاستقرار . وهذا الهياج الحركي هو النفس الوحيد للتعبير عن الاضطرابات الوجدانية التي يعايتها المهوس ، وخاصة في دائرة الميول الجنسية والميول العدوانية . وهو كأي مريض عقل ضحية العمليات الدفاعية اللاشعورية ولا يندران يعتقد المهوس انه مضطهد ومعرض لأخطار وهمية .

والتقصم والازاحة وغيرها من العمليات اللاشعورية وقد يغفل للمتاامل الذي يتصادى في تأمل نفسه وتحليلها أنه فياض الوجدان ومرهف الحساسية ، والواقع ان الوجدان الذي يضئ نفسه بنفسه ولايستمد قوته من الواقع الخارجي الحي اقرب الى المرض منه الى الصحة ، لأنه سرعان ما يصبح فارغا مزيفا فينتهي الى البلادة العاطفية . وذلك لأن وظيفة القوى الوجدانية ان تعبر عن نفسها خارج حدود التأمل الاجتراري وأن تصب شحناتها على العالم الواقعي لتشكيله والتأثير فيه (١) بحيث لا تنقد هذا الضابط الخارجي الذي يزيد من فاعلية هذه الشحنات بتوجيهها وتركيزها .

رائنا ماهو مصير التفكير عندما يصبح غاية لذاته بعد أن تضعف صلته بالواقع الخارجي وستتناول الآن مصير الفعل عندما يقتصر عمل نشاط لقوى وحركي تتعاقب مظاهره دون ربط وتوجيه ، ويظل خاضعا للتشيرات المختلفة الصادرة عن المحيط الخارجي ، كما هو الحال لدى المريض بالهوس . فاذا كان الفصل لا يرى الواقع بما فيه الكفاية فان المهوس على العكس منه يرى الواقع أكثر مما يجب . وكما ان الاتجساء الفصامي نحو التحليل الذاتي المتركز يؤدي الى انحراف معرفة الانسان لنفسه كذلك يؤدي الاتجساء الهوسي نحو النشاط غير الموجه والهباج الحركي الى الاحالة دون هذه المعرفة . وسنخلص هنا أهم أعراض الهوس مشيرين الى دلالتها السيكولوجية بالنسبة الى الموضوع الذي نحن بصدد .

مرض الهوس يسمى باللغات الأجنبية « مانيا *Mania* » و « مانيا » لفظ يوناني أطلقه أطباء اليونان على جنون الهياج المفرط . وللهوس مجموعة من الأعراض تلتخص سماتها الرئيسية في الإفراط والتقلب . وتوزع هذه الأعراض في ثلاثة ميادين هي الوجدان والنشاط الفكري والنشاط الحركي ، والتمييز بين هذه الميادين لا يعنى انفصالها فهناك تأثيرات متبادلة بينها .

فالمهوس صاحب مزاج منبسط يتناغم مع سهولة وبسرعة مع العالم الخارجي فيفرح مع الفرح ويحزن مع الحزين ولكن كثيرا ما يحدث الا تتناسب استجاباته العاطفية مع الموقف الخارجي فيقع في الأسراف والتقلب . ونظرا لهياج النفس فانه

(١) تشير هنا الى العملية التي يطلق عليها في اللغات الأجنبية لفظ Cathexis

المسيح التي فرصتها عليك نزعات اللاشعورية
يتبين مما سبق ان اللعبة الكبرى التي تحدث من
قيمة الاستبطان تنحصر في نهاية الامر في تأثير
العوامل اللاشعورية من دوافع ورغبات مكبوتة
واتجاهات عقلية وعاطفية تاصلت في النفس بحكم
العادة او بتأثير الابعاء والمحاكاة . والاستبطان
بطبيعة الحال لا يتناول سوى مضمون الشعور ولا
يمكنه النفوذ الى اللاشعور . واذا كانت المعرفة
الشعورية معرفة مباشرة وحسية ، فان الحقائق
الخاصة باللاشعور حقائق مستنتجة بالاستدلال
التجريبي بفضل ملاحظة سلوك الآخرين ، سواء
كان هذا السلوك سويا او مرضيا . واذا سلمنا
شعوريا ، فان الواقع بين لنا ان تحويل كل ما هو
لاشعوري الى شعوري امر متعذر ، وربما الاستحسن
تحقيقه خوفا من ان يشل التفكير الواضح الشامل
وهذا الدواعي . اما باستمرار مدفوعون الى اعتبار
التوازن الحالة المثل سواء للصحة الجسمية او
للصحة النفسية ، التوازن بين مختلف القوى المتقابلة
التي يدور في فلكها سلوك الانسان انه من الضروري
الجمع بين التقيضين والتأليف بينهما ، ويبدو لنا
ان مثل هذا التأليف هو سنة الوجود وسنة الحياة
والطريق الوحيدة المؤدى الى سعادة الانسان ، بل قد
يكون الجور الذي يبذله الانسان لتحقيق السعادة
هو السعادة بعينها .

وعندما نقرر ان المعرفة الشعورية معرفة مباشرة
وحسية لا تقرر بالضرورة انها يقينية لان العارف
يجعل هذا الجانب من دوافعه اللاشعورية التي توجه
ادراكه وتفسره لما يدرك . وكذلك عندما نقول ان
الحقائق الخاصة باللاشعورية مستنتجة بالاستدلال
التجريبي لا نعني انها يقينية بالضرورة ، لان عملية
الاستدلال ، حتى عندما تعتمد على معطيات تجريبية
لا تلمد ان تكون في نهاية الامر عملية شعورية
فتعرض للأخطار التي تقع فيها المعرفة الشعورية .
فكاننا وقنا في حلقة مفرغة شبيهة بتلك التي
ذكرناها في مستهل هذا المقال ، غير انها اقل اشكالا
منها . ويكفي ان تقرر هنا ان المعرفة الطوعية ، التي
تبغي الوصول اليها في ميدان الحياة النفسية
تظل تقريبية على الرغم من الاحتياطات التي تحتم
اتخاذها متابع البحث العلمي الدقيق وان العلم
يتقدم بزيادة الأخطاء أكثر منه بإضافة حقائق جديدة
الى مجموعة من حقائق سابقة ثابتة .

ان التقلب المزاجي وعدم الاستقرار والمجز عن
تركيز الانتباه وعن النقد والحكم السليم وانطلاق
الآلية في التفكير والنشاط الحركي ، كل ههنا
العوامل تحول دون تأمل الشخص نفسه لمحاولة
معرفة . وان التفكير الموجه المركز لا يمكن ان يتم
خلال فيض لايقطع من الكلام والنشاط الحركي ،
انه يقتضي كف الكلام والحركة لكي يتمكن المرء من
الاصغاء الى نفسه ومراجعة نفسه وهما شرطان
اساسيان لمعرفة الانسان نفسه .

والحياة العصرية في المدن الكبيرة تلقى اعباء
جسيمة على عاتق الانسان . هي تجذبه باستمرار
سحر الخارج وتخلق فيه ميلا قويا الى الفرار والهروب
وتجاهل شئون نفسه الخاصة . والفرار قد يكون
نحو داخل الذات كما في حالة الفصامي اوخارج
الذات نحو العالم الواقعي كما في حالة المهووس .
وعندما ينحرف السلوك الى حد الاجرام فتكون
ايضا بصدد ضرب من ضروب الفرار : نحو الدخيل
عن طريق الانتحار سواء كان جزئيا او كليا ، ونحو
الحارج عن طريق الاعتداء الجنائي على الآخرين .

يتضح لنا من تحليل سلوك الفصامي والمهووس
ان الشرط الاساسي لمعرفة الانسان لنفسه هو
تحقيق التوازن والتعاون بين عالم الذات وعالم
الآخر اى انه لا يمكن ان نفهم انفسنا الا اذا حاولنا
ايضا فهم الآخرين (١) ، اى اذا سعينا الى التوجه
الى التركيز حول الذات وحاولنا ان نضع انفسنا
موضع الآخرين وان نأخذ بوجه نظرهم لفهمها قبل
الحكم عليها .

وكذلك يمكن عكس القضية السابقة بان نقول :
'اذا اردت ان تفهم الآخرين فعليك ان تفهم نفسك ،
اى عليك ان تتحرر من الايهامات الصادرة من
محيطك الخارجى ، سواء كانت هذه الايهامات
بالمذبح او بالذم ، والا تتقبل تمحيصها أحكام
الآخرين عليك الا بعد تمحيصها ونقدتها والاعتناء
بها ، كما عليك ان تتحرر من الفرور ومن الافكار
السابقة المتبصرة وان تذكر دائما ان في اتناء
تحليلك لنفسك وتفسيرك لسلوكك كثيرا ما يكون
الاستدلال المنطقي ستارا للتبرير العاطفي فتكون
النتيجة التي تظن انك وصلت اليها بفضل تفكيرك
المنطقي قد سلمت بهام قبل دون ان تشعر وان كل
ما قمتم به من براهين وادلة ليس سوى تبرير لهذه

(١) سبق ان عالجت موضوع « معرفة الآخر » في عدد نوفمبر
١٩٦٢ من « المجلة » ص ١١ - ١٦

الفكر الفلسفي في عصر المعاصرة

بقلم : الدكتور زكي نجيب محمود

المستقل . الا ان يملقوا على النص بشروح ، ثم على التوضيح بشروح ، وعلم جرا ، وهي نفسها الحالة التي جاءت النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر لتجدها جائمة على عقول الدارسين ، فكان التخلص منها والخروج عليها ، هو نفسه معنى النهضة في لبها وصميمها .

وأما « التعقيل » فهو ان نجعل احتكامنا الى الفعل دون النزوة والهوى ، وإذا قلنا « العقل » فقد قلنا احد أمرين ، أو الأمرين معا ، فاما أن يستند الانسان في أحكامه الى شواهد الحس والتجربة ، وذلك اذا كان موضوع البحث ظاهرة خارجية من ظواهر الطبيعة أو المجتمع ، أو أن يستند الانسان في أحكامه الى سلامة الاستدلال في استخراج تلك الأحكام من مقدماتها ، وذلك حين يكون موضوع البحث فكرة نظرية ، وقد يجتمع الطريقتان معا في بحث واحد بعينه ، فنجمع شواهدنا من تجاربنا أولا ، ثم تكون فكرة نظرية نستدل منها ما يسعدنا استدلاله من نتائج - ذلك هو سبيل العقل ، واذن فليس من العقل أن تستند في أحكامنا الى ما هو شائع بين الناس بحكم التقليد الموزوت ، لاسيما اذا

كان «تهافت الفلاسفة» (١) الذي ألّفه الإمام الفارابي في ختام القرن الحادي عشر الميلادي بمثابة الزناج الذي أغلق باب الفكر الفلسفي في بلادنا ، فظل مغلقا ما يزيد على سبعة قرون ، ولم يفتح الا في منتصف القرن الماضي نتيجة لحركة شاملة استهدلت نهوض الحياة الفكرية العربية من كل أرجائها ، فنشأ علم ، ونشأ فن ، وتجسّد أدب وتجددت فلسفة .

وكان قوام الفكر الفلسفي - في هذه الحركة الشاملة - هو الدعوة الى الحرية وإلى التعقيل ؟ أما الحرية فلا تكون الا من قيد ، والقيد الذي كان قائما عندئذ ، بل القيد الذي أخذ يزاد صلابة على مر القرون التي سادها الحكم التركي بصيلة خاصة ، هو قيد الجهل والخرافة في فهم الناس للظواهر والأحداث ، وهو أيضا قيد النص المنقول ، الذي يفرض نفسه على الدارسين قرضا ، بحيث لا يكون أمام هؤلاء الدارسين من منافذ التفكير

(١) لا يدخل في نطاق هذا البحث علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد .

كان هؤلاء الناس قد صادفتهم من تطورات التاريخ
أطوار أغلقت دوتهم مسالك النظر .

على أن الفكرتين - فكرة الحرية وفكرة التقييد -
مكملتان أحدهما للأخرى لأنك إذا تحررت من قيود
الجهل والوهم والخرافة ، كنت بمثابة من قطع من
الطريق نصفه السلبى ، وبقي عليه أن يقطع النصف
الأخر بعمل إيجابى يؤديه ، كالسجين تخرجه من
محبسه ، فلا يكون هذا وحده كافيا لرسم الطريق
الذى يسلكه بعد ذلك ، وكذلك المتحرر من خرافة
قد يقع فى خرافة أخرى ، ولهذا كان لا بد لتكملة
الطريق على الوجه الصحيح ، أن تكون أمام المتحرر
بعد تحرره خطة مرسومة يهتدى بها ، وما تلك
الخطة الهادية إلا خطة « العقل » فى طريقة سيره ،
فاذا قلنا أن الفكر الفلسفى الحديث عندنا جاء
متميزا بالدعوة الى الحرية وإلى التقييد ، فقد قلنا
بذلك أنه كفل امامنا سواء السبيل بنصفيه :
السلبى واليجابى معا .

ولئن كانت العلوم المختلفة من طبيعة وكيمياء
وطب وهندسة وغيرها ، من شأنها كذلك أن تكمل
التحرر من الخرافة كما تكفل « تعميل » السير الى
هدف وكانت تلك العلوم قد بدأت تفعل فعلها فى
حياتنا الفكرية منذ القرن الماضى ~~الاضحى~~ الا أن
الفلسفة اعمل إيقاظا للعقل ، لسبب بسيط واضح
وهو أن العلوم تقرر ما قد ثبت عند العلماء صحة
فلا يكون أمام الدارس الا أن « يتعلم » ، وأما الفلسفة
فتضع دارسها دائما بإزاء المسائل التى تثيرها
موضع من يسأل قائلا : هل هذا صحيح ؟ وفى
سؤال كهذا بداية التفكير النقدى الحر . ولا بأس
فى أن يتعارض مفكران ، ما دام كل منهما يحاول
اقتناع زميله بطريقة الحجة العقلية بأحد معنييهما
السابقين أو بهما معا : بالشواهد الحسية ، أو
بالاستنباط السليم ، أو بكليهما جميعا ، فلا
أحسبني مخطئا إذا زعمت أن قيام الفكر الفلسفى
على صورته الصحيحة التى تثير عند الدارس قوة
التفكير النقدى الحر المعقول : الحر من قيود الآراء
المسبقة ، والمعقول فى خطة سيره نحو الهدف
المقصود ، هو من أوضح العلامات التى تشير الى قيام
نهضة فكرية ، حتى لاوشك أن أقول فى هذا
الصدد : دلت على نوع الفلسفة القائمة فى بلد أو
فى عصر ، أقل لك أى بلد هو وأى عصر ، وأنه ليبين
لى فى وضوح أن الفكر الفلسفى عندنا قد استقام على

عودة منذ أواخر القرن الماضى ، على أيدى «هواة»
يتناولون الأمور تناولا فلسفيا دون أن يتخذوا من
الفلسفة ذاتها موضوع دراسة متخصصة ، ثم أخذ
يزداد نماء ، فيزداد جنوحا نحو الدراسة المتخصصة ،
فى الجامعات ، بل وفى بعض صفوف المدارس
التأهوية ، وأن نظرة تحليلية الى ما نشرته وما تنشره
المطابع من مؤلفات فلسفية وإلى سعة انتشار تلك
المؤلفات بالنسبة الى سواها ، لتدل دلالة قاطعة على
مدى الفكر الفلسفى عندنا طولا وعرضا وعمقا ، فهو
فكر قد شمل الماضى بنشر تراثه ، والحاضر بعرض
مذاهبه ، والمستقبل بالتخطيط له ، وهو فكر قد
ترجم وألف فى كل ميدان من ميادين البحث الفلسفى ،
فصدت كتب ونشرت فصول يتصدر بعضها ،
تناولت الفلسفة الشرقية القديمة ، والإسلامية ،
والغربية من يونانية ورسيفة وحديثة ومعاصرة
تناولتها من حيث توارىخها وشخصياتها ومشكلاتها
ومذاهبها .

ولم تكن فى هذه الحركة الفلسفية الشاملة الا
مقتلبن خطي أسلافنا ومتبعين نهجهم فى فتح
الأبواب والنوافذ جميعا ليحيى الهواء من شرق أو من
غرب ، من قديم أو من جديد ، من مؤمن أو من
مسكك . حتى البت وجهات النظر المختلفة ،
ولنصهرها فى كائن لها ماجاز لنا أن نسميه بمنهجنا
الفلسفى الخاص ، لكن إذا كان هذا المذهب الفلسفى
الخاص عند المسلمين الاقدمين تلخصه عبارة واحدة
هى التوفيق بين النقل والعقل فأحسب أن المذهب
الفلسفى الخاص عندنا اليوم تلخصه عبارة واحدة
كذلك هى « الجمع بين الحرية والعقل » .

- ٢ -

ولقد حمل هذه الرسالة الفكرية فى تاريخنا
الحديث رجال من طرازين : هواة ومحترفون على أن
« الهواة » كانوا أسبق من « المحترفين » ظهورا فى
الترتيب الزمنى ، حتى ليجوز لنا القول بأنهم هم
الذين مهفوا الطريق أمام محترفى الفلسفة ووجهوا
انتباههم وأناروا اهتمامهم ، ومع ذلك فالفريقان
يختلفان بجوهرا ، اختلافا هو نفسه الاختلاف القائم
بين متبعين تفهم بهما الفلسفة ، ساد أولهما فى
« حكمة » الشرق ، وساد ثانيهما فى « تحليلات »
الغرب ، فالفلسفة بالمعنى الأول هى « فلسفة حياة »
والفلسفة بالمعنى الثانى هى « فلسفة تجسريد
نظرى » وبالمعنى الأول تكون الفلسفة فى صياغتها

اقرب الى الصياغة الأدبية ، وبالمعنى الثاني تكون الفلسفة اقرب في أسلوبها الى الصياغة العلمية . ومن هؤلاء « الهواة » الذين مهدوا الطريق قبل ظهور الدراسة الفلسفية المتخصصة : جمال الدين الأفغاني في رده على الدهريين ، ومحمد عبده في شرحه لمفاهيم العقيدة الإسلامية على أساس المنطق العقلي ، وأحمد لطفي السيد في قياداته لحركة التنوير (١) وطه حسين في ادخاله للمنهج العقلي في الدراسات الأدبية ، وعباس محمود العقاد في دعوته الى مسئولية الفرد أمام عقله في فكره وعقيدته ، على أن هؤلاء « الهواة » انفسهم ينقسمون فيما بينهم نوعين : أحدهما يجعل الدفاع عن الاسلام محور تفكيره ، والآخر يجعل هدفه الرئيسي الدعوة الى قيم ثقافية جديدة .

كانت نظرية النشوء والارتقاء من أهم ما أنتجه العلم الأوروبي في القرن التاسع عشر وهي نظرية لا تصادف قبولا - للوهلة الأولى - عند من تغلب عليهم الثقافة الدينية (٢) ، فطفت هؤلاء يتساءلون : أين يكون الاسلام من هذه الدعوة ؟ وكان أن أرسل كاتب من فارس خطابا الى جمال الدين الأفغاني (١٨٢٨-١٨٩٨) يطلب منه أن يوضح له هذا المذهب « الطبيعي » الذي أخذ يتردد عليه بين رجال العلم والفكر فأجابه الأفغاني بأن « الله ربنا » من « الرد على الدهريين » (والدهريون هم الماديون) لأن الأفغاني قد رأى في هذا المذهب خطرا على العقيدة الدينية ، وعلى الحضارة الإنسانية كلها ، مما يوجب على الفكر المسلم أن يتصدى له .

ألف الأفغاني هذه الرسالة باللغة الفارسية ، ونقلها الى العربية الشيخ محمد عبده مستعيناً بأدب أفغاني (هو عارف أبو تراب) ، وهي تنقسم قسمين : اختص أولهما ببيان حقيقة المذهب الطبيعي

(١) سيرد ذكره مرة أخرى مع الشخصين ، وذلك عند الحديث عن حركة الترجمة في الفلسفة ، والمقصود هنا هو مقالته الفلسفية وأمانته في التعليم الجامعي بصفة عامة . (٢) كان الدكتور شيبلي شميل (١٨٥٠-١٩١٧) أول من ألهذه النظرية الى اللغة العربية ، وكان ذلك في كتابه « فلسفة النشوء والارتقاء » (١٩١٠) غير أنه لم يكن في نقلها مقتصرأ على نقل الفكرة العلمية وكفى ، بل اتخذ منها أداة لاصلاح اجتماعي تروى شامل - من وجهة نظر - بالاصلاح في رايه مرحوم بالاعتقاد على المسلم وحده ، فلا الدين ورجاله ولا الفلسفة وأصحابها ولا الادب ولا الفن يسلمون نفع في اقامة مجتمع متحضر ، فليس في الطبيعة الا الطبيعة ضدها - منها ينشأ البات والجور والاضلال ، ومن الميت أن تنوجه بأصهارنا الى ماوراهما فنبعث منها ماضى آمنا .

وجاء بعد ذلك اسماعيل مطهر (١٨٩١-١٩٦٢) فترجم =

ونشأته التساريفية ، واختص ثانيهما ببيان أن الاسلام هو أفضل الأديان ، وليس يهمننا الآن مضمون الرسالة بقدر ما يهمننا منهاجها ، وذلك لأننا وإن كنا نراه قد عالج مسألة علمية - هي نظرية التطور - بغير العلم ، الا أنه كان يحتكم في كل خطوة الى ماظن أنه حجة عقلية ، مشال ذلك أن يحاول البرهنة على أن نظرية التطور تقيم بنائها على أساس الصدفة ، على حين أن في الكون نظاما مدبرا ، ولا يجوز عند العقل أن تلد المصادفات الصماء مثل هذا النظام المحكم ، ومثال ذلك أيضا أن يحاول البرهنة على أن نظرية التطور حين تجعل في النبات أو الحيوان جرثومة يكمن فيها نبات أو حيوان كامل التركيب ، وهذا بدوره يحتوى جرثومة وهلم جرا الى مالا نهاية له ، فهي بذلك تجعل اللامتناهي ينتج عن المتناهي ، وهو ما لا يجوز عند العقل ، ومثال ذلك أيضا قوله « اذا سئل دروين عن الأشجار القائمة في غابات الهند والنيبانت المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يعدها التاريخ الا طنا ، وأصولها تضرب في بقعة واحدة ، وفروعها تذهب في هواء واحد ، وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيتها وشكله وأوراقه وأصوله وقصوره » (١) فأي فاعل خارجي أثر فيها حتى رايثقتها . (٢) خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ، أظن أن لاسبيل الى الجواب سوى العجز عنه .

على هذا النحو « العقل » كان الأفغاني يبالغ الامور التي يراها مؤدية الى تقوية الايمان الديني والقومي عند المسلمين ، والى درء الخطر كلما رأى خطرا يهدد ذلك الايمان ، على أن الأفغاني كان أقوى تأثيرا بشخصيته ودروسه وأحاديثه منه بكتابه ، فكان في تاريخنا الفكري الحديث أشبه بسقراط في تاريخ الفكر الفلسفي عند اليونان ، كما كان تلميذه الشيخ محمد عبده أشبه بأفلاطون وقد استقر في « أكاديميته » ليكون ما أحدثته أستاذه في العقول من أثر ، فانظر - مثلا - الى الامام في مقالاته التي يثبت فيها دروسا سمعها من

= أصل الاتراح « لداوين » ، وألف كتب « ملقى السبيل » (١٩٢٤) لرد به على شمل شميل وعمل جمال الدين الأفغاني معا ، فالأول قد نقل أصول نظرية التطور من علماء ماديين مثل بيشتر وهيكيل ، فأنسب عليه ذلك تفسيره للنظرية تفسيراً صحيحاً ، والثاني قد نسب لداوين مالم يملكه ، وغلامه الرأى منه مظهر أن نظرية النشوء والارتقاء لا تتناول مع الدين والفلسفة والآداب والى ، ولاسماعيل مطهر أيضا « تاريخ الفكر العربي » (١٩٢٨)

عن فهمه ، وتقويض الأمر الى الله في علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع مآثيته العقل » (المصدر المذكور ص ٥٩) ، وعلى هذا النحو راح الإمام يعدد بنية أصول الاسلام ، ليتنصر دائما لحكم العقل كلما أشكل الأمر ، مما يجعله هو ومدرسته الفلسفية امتدادا صريحا للمعتزلة ، ولم يقتصر الأمر عنده على ذكر مبادئ عامة ، بل أخذ في مقالاته يطبق تلك المبادئ على موضوعات خاصة ، كالقضاء والقدر ، وتعدد الزوجات ، وإصلاح التعليم ، والتمسك ، الخ ، ونكتفي هنا بمثل واحد لطريقته في التفكير على هذا المنهج ، فنذكر مقاله عن « القضاء والقدر » - وهو جانب من العقيدة الاسلامية كثيرا ما اتخذ حجة على تأخر المسلمين - كما أنه كثيرا ما كان مقيدا لمن أساء فهمه من المسلمين - فيبين محمد عبده كيف أن هذا الاعتقاد هو نفسه الاعتقاد في الرابطة السببية بين الحوادث ، على أن الإنسان قد يستطيع أن يرى من الأسباب ما هو حاضر لديه ، لكن قد يقتنع عليه ادراك بنية التسلسل السببي في تتابع الحوادث ، وسواء أدركه أو لم يدركه ، فليس في القول بقيام الرابطة السببية ما يجوز أن يكون موضع اتهام ، بل تقوم العلم نفسه هو هذه الرابطة في وقوع الحوادث ، ولا ضير علينا في أن نتصور الإرادة الانسانية نفسها حلقة من حلقات السلسلة السببية ، إذ الإرادة متوقفة على ادراكنا لما يقع مما يؤثر في حواسنا ، أي أنها تبني على علم بما هو حادث مرتب مدبر .

إننا إذا ما خلاصنا الاعتقاد بالقضاء والقدر من شناعة الجبر ، وجدناه اعتقادا يحفز الإنسان على الجرة والاقدام ، ويخلق فيه الشجاعة والبسالة ، إذ هو اعتقاد يطبع النفس على الثبات ، واحتمال الكاره ويدعوها الى الجود والسخاء ، بل يجعلها على بذل الأرواح في سبيل الحق ، فانظر الى هذا الاعتقاد الواحد لو اقتناه على منطق العقل ، كيف يؤدي بنا الى حرية في مجال العمل ، على حين أنه إذا أسى فهمه أدى الى التواكل والخنوع .

هكذا تناول الإمام طائفة من المفاهيم الدينية بالتوضيح الذي يجعلها حوافز للنشاط والعمل ، فمن قبيل ذلك أيضا فكرة التعارض الظاهري بين إرادة الله الكاملة وعلمه الكامل من جهة ، وإرادة الإنسان من جهة أخرى ، إذ يتساءل المتساؤلون في

الافغاني ، فيستهل احدهما (وهي عن فلسفة التبرية » بقوله : « في ليلة الأحد الماضي (يشير الى أول يونيو سنة ١٨٧٩) اعتقد درس جمال الدين الافغاني ، وانتظم في سلكه جم غفير من تبهاء طلبة العلم وفضلائهم » ثم أخذ ييسط مضمون ما قاله الأستاذ وفي مقالة أخرى (عن فلسفة الصناعة) يبدأ الامام بقوله : « قد عاد حضرة الأستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل ، السيد جمال الدين الافغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة ، فأبتدأ حفظه الله يقرأ شرح اشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم اصولا جليلة ، غرست أصولها في بلاد الشرق من مدة تقرب من ألف سنة ، الا انها تثبت فروعا في المغرب ، واجتثت ثمارها لغير غارميهيها » الا ان هذا السيد الفاضل وبسط الفسريين ، يجمع الى تدقيق الشرقيين وبسط الفسريين ، يجمع الى الأصول فروعا ، وإلى المقدمات نتائجها ، وإلى المجملات تفاصيلها ، يأتي جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القديمة » وحسبنا من كل أقوال الافغاني قوله بأن الدين الاسلامي يطالب المؤمنين به « بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم الى العقل ، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وأعمال العقل وانطفاء نور البصيرة » .

وكان هذا نفسه هو الأساس الذي أقام عليه الامام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) فكره الفلسفي ، إذ كان أهم ما اهتم به هو أنه يوضح العقائد الأساسية في الاسلام توضيحا يبين استنادها الى منطق العقل ، فتراه في كتابه « الاسلام والنصيرية » يفصل القول في الأصول التي يقوم عليها الاسلام يجعل الأصل الأول لهذا الدين هو « النظر العقل » والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة ، وقاضاك الى العقل ، ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يحور أو يشور عليه ؟ (ط ٦ ، ص ٥٨) ، ثم يجعل الأصل الثاني للاسلام « تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض » وفي شرح ذلك يقول « ... إنه إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز

ويشيد به حين يكون المقصود به بعض العمليات الإدراكية كعملية انشاء التصورات الكلية وعملية ربط هذه التصورات الكلية في احكام ، وعملية استدلال النتائج من تلك الاحكام ، وكذلك يشيد القرآن بالعقل حين يكون معناه حكمة الحكيم ورشد الرشيد ، واذا يضي القرآن على العقل بمعانيه تلك جميعا : العقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم ، والعقل الرشيد ، تراه « لا يذكر العقل عرضا مقتضيا ، بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان » .

واما الدعوة الى الحرية فلم يترك العقاد بابا من أبواب الحياة والفكر الا دافع عن وجوب الحرية فيه ، ويكتفينا في هذا العرض السريع أن نذكر له رأيا تميز به ، وهو الرأي الذي جعل به الجمال والحرية شيئا واحدا ، فالشيء جميل بمقدار ما هو حر طليق من القيود التي تعوق حركة الحياة ، فالماه الجارى أجمل من الماء الأسن ، والوردة التي تجرى فيها الحياة أجمل من شبيهتها المصنوعة من ريق ، والصوت الجميل هو الصوت « السالك » والعضو الجميل هو الذي يجيء بالمقدار الذي يمكنه من أداء وظيفته الحيوية ، وهلم جرا ، والأمة التي تمشي الجمال هي الطبيعة وفي الفن لابد معقسه لنفسها الطريقة السياسية ، لأن الجمال والحرية وجهان لحقيقة واحدة ، ففي مقال للعقاد عن « الحرية والفنون الجميلة » (نشر سنة ١٩٢٣) يقول ان حب الامم للحرية يقاس بحبها للفنون الجميلة ، ولا يقاس بما ينشأ بين طهرانيها من صناعات وعلوم نفعية تخدم مطالب العيش ، ذلك لأن مطالب العيش محتومة على الانسان ، لا قبل له بردها ، واما حين يسكون الانسان غير مدفوع بقوانين الطبيعة حين يختار ما يختاره أو يدع ما يدعه ، فذلك هي الحرية بمعناها الصحيح ، وهي حالة تتحقق حين يتعلق الانسان بالفن الجميل .

وفي مقال له آخر عنوانه « في معرض الصور » (نشر سنة ١٩٢٤) يبين العقاد الصلة الضرورية بين الحرية وبين القيود التي لابد من قيامها ليتقلب عليها الانسان الحر ، والا فيغير قيد فلا حرية ، فانظر الى بيت الشعر وتصرف الشاعر فيه : انه مثل حق لما ينبغي أن تكون عليه الحياة بين قوانين الضرورة وحرية الجمال ، فهو قيود شتى من وزن وقافية واطراد وانسجام ، غير أن الشاعر يعرب عن

هذا الصدد : أتجوز للانسان حرية يفعل بها ما يريد ، حين يكون الله قد علم علما سابقا بكل ما سيقع على طول الزمان ؟ ويتصدى الامام لهذا السؤال في كتابه « رسالة التوحيد » ليزيل عن موضوعه ما يكتنفه من غموض ، حتى لا يكون سببا في تعطيل قدرات القادرين على العمل المنتج ، فيقول في فصل عنوانه « افعال العباد » : ان الله هو الذي قدر أن يجيء الانسان مقكرا مختارا في عمله على مقتضى فكره ، وكون علم الله محيطا بما يقع من الانسان بارادته لا ينل أن يكون الانسان حرا فيما يعمل وما يدع ، لأن العلم السابق بما سيقع هو كعلم صاحب القضاء في الدولة أن العمل العلاء اذا وقع حلت بفاعله القوة الغلانية ، وان ذلك يكون معلوما عند فرد من الناس ، ومع ذلك تراه يقدم على عمله ، فانكشاف الواقع للعالم لا يصح - في نظر العقل - ملزما ولا مانعا .

ومثل هذا الموقف الذي وقفه الامام محمد عبده تجاه المفاهيم الدينية من حيث تحليلها وتوضيحها لتظهر مساهمتها لاحكام العقل ، ولتصبح عوامل على حرية الانسان لا قيودا تكبله ، وقفه كذلك الاستاذ عباس محمود العقاد تجاه طائفة كبيرة من المفاهيم الادبية والسياسية والاجتماعية ، فصلا عن تجزئه لاصول العقيدة الاسلامية تناولا وسطا بل في نفس الطريق التي سلكها من قبله محمد عبده ، واعنى اقامة الحجج المنطقية على ما بين تلك العقيدة وحرية الانسان وكرامته من توافق تام ، وانه لمسا يميز العقاد في جدله قدرته على دقة التحليل وتبيين الفوارق اللطيفة بين الافكار المتقاربة ، واستخلاص النتائج من مقدماتها .

ولقد حاول في مؤلفات كثيرة أن يبين كيف ان الاسلام يشجع بصفة خاصة ، بل يفرض على الناس فرضا أن يحتكموا الى العقل في امورهم ، وان يكون الانسان حرا مختارا في حياته ، مستولا عن حريته تلك وعن اختياره امام نفسه وامام ربه ، ففي كتابه « التفكير فريضة اسلامية » يقول ان للقرآن مزية واضحة هي التنويه بالعقل والتحويل عليه في امر العقيدة وامر التبعة والتكليف ، ولئن كانت كلمة « العقل » مختلفة المعاني ، فقد ألم القرآن ، بهذه المعاني كلها ، حتى تكون الدعوة الى العقل شاملة له بكل معانيه فهو يشيد بالعقل حين يكون معناه الوازع الاخلاقي الذي يمنع عن المحظور والمنكر

للتعاطف اليونانية بكل ما فيها من فلسفة وعلم ، يقول : « فمن المحقق أن الثقافة اليونانية - على اختلاف فروعها والوانها قد لجأت الى مصر فوجدت فيها ملجأ آمناً وحصناً حصيناً ، وظفرت فيها من النمو والانتشار بما لم تقدر بمثله ، حين كانت مستقرة في أثينا أو في غيرها من المدن اليونانية الأوروبية أو الآسيوية » (ص ١٩) .

ولئن كانت مصر عقلية الطابع قبل الاسلام ، فهي كذلك عقلية الطابع بعد الاسلام ، لأن الاسلام يساير العقل ولا يضاده ، والا فكيف يكون قوام الحياة العقلية في أوروبا هو انصالتها بالشرق الاسلامي ، بحيث ينشأ في أوروبا عقل علمي خلق أوروبا الحديثة ، ثم تتصور مع ذلك أن الأصل الذي آمد أوروبا بثقافتها العقلية محروم من ذلك الطابع العقل نفسه ، فهل يعقل أن تنشأ ثقافة في شرقي البحر الأبيض المتوسط ، فلا تؤثر في عقول أصحابها شيئا ، فإذا أرسلوها الى غرب هذا البحر خلقت أهل هذا الغرب خلقا جديدا ؟ (ص ٢٥) - ومن المؤلفات الفلسفية للدكتور طه حسين « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » و « قادة الفكر » .

- ٣ -

نشأت الجامعات منشآت باقسام الفلسفة فيها وانشأت من قوع آخر غير مآد عرضناه عند سلسلة المعكرين ، فلم يعد الأمر هنا مقصورا على أن يصطبغ الفكر بصبغة فلسفية ، بل جاوز ذلك الى البحوث الاكاديمية التي تناولت نشر التراث الفلسفي نشرا محققا ، كما تناولت نقل المذاهب الفلسفية الغربية قديما وحديثا ، نقلا اکتفى بالترجمة حيناً وأضاف الى الترجمة تعليقا ونقدا حيناً آخر ، وأخيرا تناول التأليف في شتى الموضوعات الفلسفية ، تأليفا قد يقتصر على مجرد عرض الفكرة عرضا علميا ، وقد يزيد على ذلك بأن يجرى مبررا عن مذهب خاص يذهب اليه المؤلف .

ونبدأ بنشر التراث الفلسفي ، لأنه بمثابة وضع الأساس الذي سيقوم عليه البناء الجديد ، فما من نهضة ثقافية الا واقتترنت بإحياء التراث القديم ، كأنما يريد الابناء أن يستوتقوا من استقامة طريقهم اذ هم سائررون على سبيل موصوله من أسباب الحضارة ، يسلم فيها الآباء ذخيرتهم الى أبنائهم ، وان هذه العودة الى الماضي لها دائما دعوة الى الحرية الفكرية غير مباشرة ، حتى ليصفوها في الحركات

طلقة نفس لاحد لها ، حين يخطر بين كل هذه السدود خطرة اللعب ، ويظفر من فوقها طفرة النشاط ، ويطيح بالخيال في عالم لا قائمة فيه للعقبات والعراقيل - وأهم مؤلفات العقائد التي يشيع فيها فكره الفلسفي : « الله » ومطالعات في الكتب والحياة ، و « الفلسفة القرآنية » و « حقائق الاسلام » و « ابن رشد » و « ابن سينا »

كذلك كان الدكتور طه حسين فيسما كتب وما بحث ، داعيا الى الحرية الفكرية والى التزام المنهج العقلي الصرف ، حتى في البحوث التي قد تبتدو غير خاضعة لذلك المنهج ، فما هو ذا يقول في كتابه « في الأدب الجاهل » (ص ٦٧) : « أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعليه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما ، والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كان من أحصب المناهج وأقومها وأحسبها تراثا ، ولنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدًا ، واتخذ غير هذيل الأدب في أدهم ، والفنانين في فنونهم ، وآلة هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث ، فكان الدكتور طه حسين بهذا الذي صدر به بحثه في الأدب الجاهل ، كأنما يضع منهاجا لحياتنا الجامعية كلها ، مؤداه أن يكون الباحث موضوعي النظر ، مستقلا حرا غير مقيد بالأراء السابقة التي قبلت في موضوع بحثه ، لا يميل مع الهوى ، ملقيا بزمام بحثه الى المنهج العلمي وحده ، ولتكن النتائج بعد ذلك ما تكون ، فما كان اختلاف الرأي في العلم سببا من أسباب البغض ، إنما الأهواء والعواطف هي التي تنتهي بالناس الى مايفسد عليهم الحياة من البغض والعداء » (ص ٦٩) .

ولكى يؤيد الدكتور طه حسين دعوته الى التعقل ، أخذ في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » يبين كيف كانت مصر طوال تاريخها ذات مزاج عقلي خالص ، يدلل تأثيرها وتأثيرها باليونان الذين هم رمز للفكر المنطقي الهادي ، وحسبنا في ذلك أن نعلم أن الاسكندرية كانت ذات يوم هي لقر الرئيسي

الأدبية « بالرومانسية » لأنها في صميمها خروج على مقتضيات اللحظة الراحنة والضرورة القائمة ، ابتغاء الوصول الى ما هو أبقي على الزمن ، وذلك فضلا عن أنه لامندوحة لباحث عن مطالعة ما قد تركه السابقون في موضوع بحثه ، ونذكر فيما يلي طائفة من أهم ما نشر من التراث الفلسفي الإسلامي :

فمن الكندي « نشر الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده » رسائل الكندي الفلسفية « في جزوين » (١٩٥٠ - ١٩٥٣) وقد صدرهما ببحث مستفيض عن حياة الكندي وفلسفته - ثم قدم لكل رسالة مقدمة تحليلية لما تحتوي عليه الرسالة من مادة فلسفية ، ونشر الدكتور أحمد فؤاد الأهواني (١٩٤٨) كتاب الكندي الى المعتصم بالله ، كما نشر « رسالة العقل » (١٩٥٠) .

ومن « الفارابي » نشر الدكتور عثمان أمين « احصاء العلوم » (ط ٢ ، ١٩٤٩) وقدم له بمقدمة عن حياة الفارابي وفلسفته ، وعلق عليه بهوامش كثيرة . ومن « ابن سينا » ما تزال تنشر اجزاء من كتاب « الشفاء » ، تنشرها لجنة بإشراف الدكتور إبراهيم بيومي مذكور ، وقد نشر منه حتى الآن « المدخل » (١٩٥٢) و « المقولات » (١٩٥٨) وقالوا بالتحقيق في كليهما الأب قنوتاي ، والدكتور الأهواني « المرحوم الأستاذ محمود الضيفري » و « البرهان » وقد خففت وقدم له الدكتور أبو العلا عفيفي (١٩٥٦) وكذلك نشره الدكتور عبد الرحمن بدوي (١٩٥٤) ، وحقق الدكتور الأهواني كتاب « السفسطة » (١٩٥٨) ، وحقق الدكتور محمد سليم كتاب « الخطابة » (١٩٥٤) وحقق الدكتور عبد الرحمن بدوي « فن الشعر » (١٩٥٣) ، ونشر جزءان من « الالهيات » (١٩٦٠) حقق أولهما الأب قنوتاي والأستاذ سعيد زايد ، وحقق ثانيهما الأساتذة محمد يوسف موسى وسليمان دنيا ، وسعيد زايد .

ونشر الدكتور محمد ثابت ألفندي من مؤلفات ابن سينا « رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها » (١٩٣٤) وحقق الدكتور عبد الرحمن بدوي « عيون الحكمة » (١٩٥٤) ونشر الأستاذ عبد السلام هارون « الرسالة النبروية » (١٩٥٤) .

ومن « الغزالي » نشر الدكتور عبد الحليم محمود « المنقذ من الضلال » (١٩٥٥) وقدم له ، وحقق الأستاذ سليمان دنيا « تهافت الفلاسفة » (ط ٢ ، ١٩٥٥)

ومن « ابن رشد » نشر الدكتور عبد الرحمن بدوي « تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر » و « تلخيص الخطابة » (١٩٦٠) ، ونشر الدكتور أحمد فؤاد الأهواني « تلخيص كتاب النفس » (١٩٥٠) وحقق الدكتور عثمان أمين « تلخيص ما بعد النطبيعة » (١٩٤٧) ونشر الدكتور محمود قاسم « مناهج الأدلة في عقائد الملة » .

ومن ابن عربي حقق الدكتور أبو العلا عفيفي « فصوص الحكم » (١٩٤٦) وحقق المقدمة « لابن خلدون » الدكتور علي عبد الواحد وافي .

ومن « أبي حيان التوحيدي » حقق الدكتور عبد الرحمن بدوي « الاشارات الالهية » (١٩٥٠) .

ومن « الكرماني » نشر الدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور (المرحوم) محمد كامل حسين « راحة العقل » (١٩٤٨) .

ومن « مسكويه » حقق الدكتور عبد الرحمن بدوي « الحكمة الخالدة » (١٩٥٢) لبشر بن فاتك بن شاذي ، والدكتور عبد الرحمن بدوي « مختار الحكم ومحاسن الكلم » وقدم له بمقدمة طويلة (وقد نال هذا الكتاب جائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٢)

وبالاصحاح الى النصوص السالف ذكرها ، نشرت منبرجيات قديمة ، ومن ذلك « منطق أرسطو » وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوي كما نشر « فن الشعر » و « في النفس » لأرسطوطاليس و « كتاب النبات » المنسوب الى أرسطوطاليس ، ونشر الدكتور أبو العلا عفيفي « مقالة اللام من كتاب ما بعد الطبيعة » لأرسطو ، وأعاد نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وللدكتور بدوي أيضا مجموعات نشرها تحت عنوان « أفلوطين عند العرب » ، و « أرسطو عند العرب » ، كما نشر « ماذلة النفس » لهرمس ، و « الآراء الطبيعية » المنسوب الى فلوطرخس و « الخير المحض » لابرقلس ، و « مسائل في الأشياء الطبيعية » لابرقلس ، و « حجاج في قدم العالم » لابرقلس ، وكتاب « الروابع » لأفلاطون ، ونشر الدكتور أحمد فؤاد الأهواني « إيساغوجي » لفرغوريوس .

وما تزال حركة نشر التراث الفلسفي قائمة ، حتى ليرجي الا يمضي وقت طويل قبل أن تكون قد أخرجنا الى النور كنوز الأسلاف ، وعندئذ فقط يمكن للدراسة العلمية أن تقوم على أساس صحيح .

الفلسفة « ترجمة الدكتورين عطية هنا وعماد اسماعيل (١٩٤٧) و « فلسفتي كيف تطورت » ترجمة الأستاذ عبد الرشيد الصادق (١٩٥٩) . وترجم الدكتور عبد الحميد صبره « نظرية القياس الارسطية » تأليف لوكاسيفتش والدكتور مصطفى بدوي « الاحساس بالجمال » تأليف سانتيانا (١٩٥٩) .

ومن أعمال المستشرقين ترجم الدكتور أبو العلا عفيفي دراسات في التصوف الاسلامي تأليف نكلسون ، والدكتور عبد الرحمن بدوي « التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية » وهو دراسات لطائفة من المستشرقين .

الحق أن الحصر أو ما يشبه الحصر متعذر علينا في ميدان الترجمة الفلسفية وحسبنا هذه النماذج القليلة لتدل على سعة الحركة وشمولها ، وإن كنا مازال نتوقع لها أن تمتد لتشمل ما لم تشملها بعد من أمهات النصوص .

على أنه إذا كانت حركتنا نشر التراث والترجمة تدلّ على أن الفكر الفلسفي عندنا يريد أن يقيم بناءه على أسس علمية سليمة ، فإن حركة التأليف الفلسفي تضيف إلى ذلك دلالة جديدة ، لأنها تكشف عن نهضة الفكر العربي واتجاهاتهم ، كشفا صريحا أحيانا ، أو ضمنا في طريقة الاختصار والعرض أحيانا أخرى ، ولسنا نخفي إذا زعمنا أنه ما من مذهب رئيسي من المذاهب المعاصرة ، أو من المذاهب التقليدية إلا وقد وجد له من بين فلاسفتنا نصير ، مما يدل أوضح الدلالة على أننا نتميز بما تميز به الفلاسفة المسلمون قديما ، من الاستماع إلى جملة الأفكار ليتخذ كل ما يتشبع له بعقد أن يصوغه صياغة يعبر بها عن فكره المستقل ، لكننا على اختلافنا في وجهة النظر نلتقي جميعا عند الطابع العام ، وهو - كما أسلفنا - الجوع بين الدعوة إلى الحرية والاحتكام إلى العقل ، وسترى من بيننا من يبرز فكرة المذهب العقل أكثر مما يبرز حرية الإنسانية ، ومن يبرز فكرة الحرية الإنسانية أكثر مما يبرز فكرة المذهب العقل ، ستري منا من يناصر المثالية ومن يناصر التجريبية ، لكننا جميعا نعبّر عن جوانب مختلفة من موقف واحد ، ومع ذلك فلا بد من الاعتراف هنا بأن هذه العناصر الكثيرة ما زالت تحتاج إلى مزيد من صهر حتى تكون أفصح تعبيراً عن وجهة نظر عربية خالصة .

إلى جانب أحياء تراثنا القديم ، قامت حركة قوية في ميدان الترجمة ، فنقل إلى اللغة العربية من المؤلفات الفلسفية الغربية والشرقية ما يكاد يشمل جوانب الفلسفة جميعا ، ونقول « يكاد » لأن هنالك ما يزال جوانب وأعلاما لم تمسها حركة الترجمة بعد ، أو مستها مساه خفيفا ، على أهمية تلك الجوانب وهؤلاء الأعلام ، وحسبنا في هذا الصدد أن نقول أن « كانت » و « سبينوزا » و « ليبنتز » و « هيغل » لم يترجم منهم شيء ، وإن « أفلاطون » لم يترجم منه إلا قدر ضئيل .

وكان في طليعة المترجمين الأستاذ (المرحوم) أحمد لطفي السيد ، فقد ترجم من أرسطو « علم الأخلاق إلى نيقوماخوس » (١٩٢٤) و « السكون والفساد » (١٩٣٢) و « علم الطبيعة » (١٩٣٥) و « السياسة » (١٩٤٧) .

وترجم كاتب هذا المقال محاورات الدفاع وأوطيفرون ، وأقريطون ، وفيدون ، من محاورات أفلاطون ، وترجمت « المادة » مرتين ، أحدهما للأستاذ محمد لطفي جمعة ، والأخرى للأستاذ وليم الميري (١٩٥٤) .

وفي الفلسفة الاسلامية ترجم الدكتور أبو زينة عن دي بور « تاريخ الفلسفة في الإسلام » .

وفي الفلسفة الحديثة ترجم الدكتور أبو العلا عفيفي عن وولف « فلسفة المحدثين والمعاصرين » (١٩٣٦) وعن كوليه « المدخل في الفلسفة » (١٩٤٢) ، وترجم الدكتور عثمان أمين عن ديكرات « التاملات في الفلسفة الأولى » (١٩٥٩) وترجم الأستاذ محمود الخضميري « مقال في المنهج » لديكرات ، وترجم الدكتور الأهواني « البحث عن اليقين » لجون ديرى (١٩٦٠) كما ترجم لجون ديرى كاتب هذا المقال كتاب « المنطق - نظرية البحث » (١٩٦٠) وترجم له أيضا الأستاذ أمين مرسى قنديل « تجديد في الفلسفة » (١٩٥٨) ولوكيم جيمس ترجم الدكتور محمود حب الله « ارادة الاعتقاد » (١٩٤٦) والدكتور محمد فهمي الشنيطي « بعض مشكلات للفلسفة » (١٩٦٣) .

ولبرتراند رسل ترجمت كتب كثيرة من أهمها « تهيئة للفلسفة الرياضية » ترجمة الدكتور محمد مرسى أحمد (١٩٦٣) و « تاريخ الفلسفة الغربية » (١٩٥٤) ترجمة كاتب هذا المقال و « مشاكل

علاقات كهذه لا يكون بالحواس ، لأن الحواس تدرك الأطراف المتصلة بتلك العلاقات نفسها ، أضف إلى ذلك كله إدراك العقل - دون الحواس - للمبادئ العامة التي تنتهي عليها العلوم وإدراكه للموجودات غير المادية كالنفس والله .

هذه كلها ضروب من الإدراك العقلي ، تثبت وجود العقل متميزاً من الحواس وإدراكاتها ، لكن إثبات وجوده لا يكفي وحده دليلاً على قيمه ما يندرکه ، وإذن فلا بد للفيلسوف من خطوة أخرى يدحض بها مذهب الشك الذي يتشكك في صدق المدركات العقلية ، حتى إذا ما فرغ من إثبات الصدق لتلك المدركات ، خطا خطوة أخرى ليثبت بها أن ذلك الصدق ليس تصورياً بحتاً ، كما يقول أنصار المذهب التصوري الذين أن آمنوا بوجود العقل وبمدركانه العقلية ، فهم يقتضرون ذلك الوجود وتلك المدركات على داخل العقل ، وبذلك ينكرون على الإنسان حق الخروج من عالم التصورات الداخلية إلى الوجود الخارجي .

هكذا عارض يوسف كرم المذهب التجريبي الذي يحصر نفسه في الإدراكات الحسية وحدها ، كما عارض المذهب التصوري الذي يحصر نفسه في الإدراكات العقلية دون حق الخروج منها إلى ما يقابلها من موجودات خارجية ، ومن ثم فهو « عقل » يثبت وجود العقل ووجود مدركاته وصدق أحكامه ، وهو أيضاً « واقعي » يثبت وجود العالم الخارجي ولذلك جاز له في كتابه « الطبيعة وما بعد الطبيعة » أن يبحث في كائنات الطبيعة من جاد وحيوان وإنسان حتى إذا ما فرغ من ذلك انتقل إلى ما بعد الطبيعة ليتناول العلم به يشتمل على ثلاثة موضوعات كبرى أولها : مبادئ المعرفة ، وثانيها المبادئ العامة للوجود ، وثالثها موضوع الألوهية ، ثم يفصل القول في هذه الموضوعات تفصيلاً يعرض فيه لما قيل عند غيره من أقدمين ومحدثين ، وما يجب هو أن يطرحه من رأي جديد (١) .

كان يوسف كرم قد اعتزم اصصدار مؤلف في « الأخلاق » يكمل به معالم مذهبه « العقل المعتدل » الذي يجمع بين المثالية والواقعية ، بل يقال أنه كان قد فرغ من كتابة فصول من ذلك المؤلف ، لكن النية عاجلته دون إتمام ما قد بدأ فيه ، وكانها أراد

(١) يوسف كرم كتب ثلاثة في تاريخ الفلسفة : هي : « تاريخ الفلسفة اليونانية (١٩٣٦) وتاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط (١٩٤٦) و « تاريخ الفلسفة الحديثة » (١٩٤٩) .

ولعل يوسف كرم (١٨٨٦-١٩٥٩) أن يكون في مقدمة أنصار المذهب العقل من زمرة المحترفين ، وقد بسط وجهة نظره الفلسفية في كتابين هما « العقل والوجود » و « الطبيعة وما بعد الطبيعة » (١٩٥٩) غير أنه لم يكن متطرفاً في الأخذ بهذا المذهب ، ولقد وصف هو نفسه مذهبه بعقلي بأنه عقل معتدل ، وذلك لأنه لم يرد من العقل سوى أن يكون أداة صالحة للوصول إلى النتائج الصحيحة التي لا تتعارض مع مبادئ المنطق السليم ، والتي تؤدي في الوقت نفسه إلى الإيمان ، لأن الإنسان - في رأيه - حيوان عاقل متدين ، فلا هو بالكاثر الذي يتخير بالعقل وحده دون الإيمان ولا بالإيمان وحده دون العقل ، ولا تصلح حياته إلا إذا اجتمع عنده يقين العقل من جهة وطمأنينة القلب من جهة أخرى .

لقد أخطأ المذهب التجريبي - في رأي يوسف كرم - حين جعل الحواس مصدراً وحيداً للمعرفة ، وذلك لأن « للإنسان قوة دافعة متميزة من الحواس تدعي العقل شأنها أن تدرك معاني المحسوسات مجردة عن مادتها ، ومعاني أخر مجردة بذاتها ، وأن تؤلف هذه المعاني في قضايا وأقيسة واستقرارات » .

فتنفذ في إدراك الأشياء إلى ما وراء الحسوس : محاولة استكناه ماهيتها ، ولعين علاقاتها مع سائر الموجودات ولما كانت موضوعات العقل مجردة كانت أفعاله التي ذكرناها مجردة كذلك ، وبذلك يبطل المذهب الحسي الذي يقصر المعرفة الإنسانية على الحواس ، ويرى إلى أن يرد إليها ويفسر بها سائر المدركات « (من تصدير كتاب « الطبيعة وما بعد الطبيعة ») » .

وقد أخذ فيلسوفنا على نفسه خلال كتابه « العقل والوجود » أن يقتضي أنواع المدركات التي كان يستحيل على الإنسان تحصيلها إذا هو اعتمد على تحصيل الحواس وحدها ، فلو كان في مقدور الحواس أن تلم بظواهر الأشياء ، فالعقل وحده هو المدرك لماهياتها ، وإدراك الماهية إنما يكون بتجريد المعاني عن مادتها وذلك فضلاً عن المجرّدات الأخرى التي يدركها العقل عن طريق المسادة ، فكأننا عن الوجود والجوهر والعرض ، والعلية ، والخير والشر ، والحق والباطل ، كما يدرك العقل أيضاً نسباً وعلاقات كثيرة ، « كالعلاقة الكائنة بين أجزاء الشيء الواحد ، والعلاقات الكائنة بين الأشياء بعضها مع بعض ، وكالعصدد والترتيب ، فإدراك

الله لحركة التفكير الفلسفي في بلادنا أن تكتمل بناء ، بحيث يكمل واحد منا واحدا ، فأخرج لنا الدكتور توفيق الطويل كتابا في « الفلسفة الخلقية » :

نشأتها وتطورها (١٩٦٠) استعرض فيه مذهب الأخلاق على اختلافها منذ اليونان الأقدمين إلى يومنا الراهن ، لينتهي من هذا كله إلى اتجاها يختاره لنفسه ، هو أقرب مايسكون إلى الاتجاه « العقل المعتدل » الذي اتجه إليه يوسف كرم في الجوانب الفلسفية الأخرى ، ويطلق الدكتور الطويل على اتجاهه هذا في الأخلاق اسم « المثالية المعدلة » ، وفي تحديد مراده منها يقول (ص ٣٥٥ وما بعدها) :

« يشترك الإنسان النبات في النمو والحسوان في الحس وينفرد دون جميع الكائنات بالعقل ، ومن أجل هذا كانت مزاوله التأمل العقل أكمل حالات الوجود الانساني فيما قال أرسطو قديما . . . والإنسان هو الكائن الوحيد الذي لايقنع بالواقع ، ويتطلع إلى ما ينبغي أن يكون » يضيق بالسلوك الذي تسوق إليه الشهوات والعواطف ، ويكر السلوك الذي يجرى بمقتضى الواجب ، فاننا لا نقول للمحرج الهابط بفعل الجاذبية إلى أسفل : ينبغي أن تتدحرج صاعدا إلى أعلى ، ولا للوحش الذي يمزق فريسته . . . ينبغي أن تواف بها وترحم ضعفها ، من أجل هذا كان صعودنا سلم الانسانية ، أو متوقفا مذكرا الحيوانية ، إنما يكون بمقدار حقلنا من المثالية التي تعبر عندنا عما ينبغي أن تكونه .

« وتقوم المثالية المعدلة في تحقيق الذات بكل قواها الحيوانية ، وهذا التحقيق يتطلب الإلمام بحقيقة الطبيعة البشرية ومعرفة إمكاناتها ، ووضع مثل انساني رفيع يكفل وحدتها ويضمن تكاملها . وفي ظلّه يشبع الإنسان قواه جميعها - الحس منها والروحي بهداية العقل وإرشاده ، وتتآخى الانانية والغيرة ، فيزول العداء التقليدي بين توكيد الذات وتكرانها . . . »

من هذا نرى كيف وقف الدكتور الطويل موقفا يجمع فيه بين طرفين لم يكونا ليتلاقيا لولا قدرته على التوفيق بين الطرفين ، فقد كان المتطرفون من الحسنيين - من جهة - ينشدون أسس الأخلاق فيما يحقق للإنسان سعادته ، وكان المتطرفون من العقليين - من جهة أخرى - يلتمسون أداء الواجب الذي يأمرنا منطق العقل أو يأمرنا صوت الضمير بفعله ، سواء حقق هذا الأداء للواجب سعادة للفرد القائم

به ، أو لم يحقق ، لكن لماذا لا يكون أداء الواجب محققا للسعادة في آن معا ؟ لماذا نترض أن تحقيق القيم الروحية العليا يتعارض مع الرغبات البدنية ؟ ألا أن هذا الفصل بين ماهو روح وماهو بدن لمن شأنه أن يفكك الطبيعة البشرية التي هي روح وبدن ، وأن يحدث من الأمراض النفسية ما هو معروف ، ومن ثم وقف باحثنا موقفه الوسط في الأخلاق ، والتمس السعادة في الفضيلة والمتعة في الواجب ، فكان للحواس عنده دورها وللعقل دوره ، فتلك تشتهى وهذا ينظم لها طريقة الإشباع ، بحيث لا تطفئ سعادة الفرد على سعادة المجموع (١) .

لكن هذا الموقف « المعتدل » الذي لا يريد أن يضي مع الحسنيين إلى آخر شوطهم ولا مع العقليين إلى آخر شوطهم ، لا يبتغ من كان مزاجه البيت العاسم في الأمور ، فلئن كانت الرؤوس - كما قال وليم جيمس - صنفين : رؤوس لينه ورؤوس ناشفة ، الأولى تلاتين وتداول وتأخذ الأمور على حوادة وفي شيء من الاستسلام للعاطفة القلبية ، على حين أن الثانية تتصلب عند الحقائق - ولا يسهأ إلا أن يرضى العقل بشئ الرضا الذي يرضاه وهو يتناول مسائله العلمية المهيبة » أقول . لئن كانت الرؤوس تنقسم هذين الصنفين كان الأخلاقيون بالمذهب العقلي المعتدل هم من الصنف الأول ، وكان إلى جانبهم في حياتنا الفكرية نسل « من الصنف الثاني ، وبين من يمثلونه في تاريخنا الفلسفي المعاصر كاتب هذا المقال . فهو في كتابه « نحو فلسفة علمية » (وقد طبع بجائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٠) وفي كتاب له آخر « خرافة الميتافيزيقا » (١٩٥٣) (٢) يدعو دعوى صريحة إلى أن تشبه الفلسفة بالعلم ، لا بالمعنى الذي يجعل الفلاسفة يشاركون العلماء في موضوعاتهم فيبحثون في الفلك مع علماء الفلك ، وفي الطبيعة مع علماء الطبيعة ، وفي تطور الأحياء مع علماء البيولوجيا وهكذا ، بل أنه - على نقيض ذلك - يحرم على الفيلسوف - من حيث هو فيلسوف - أن يتصدى للحديث عن العالم حديثا اخباريا بأي

(١) لتوفيق الطويل المؤملات الآتية : « أسس الفلسفة » (ط ٢ ، ١٩٥٨) و « التنشئة » (٤٥) و « التنزيل باليقين عند مفكرى الإسلام » (١٩٥٠) « التصوف في مصر أبان العصر العثماني » (١٩٦٦) .

(٢) للمؤلف نفسه أيضا « المنطق الوشعي » (ط ٢ ، ١٩٦٦) و « بيرتراند راسل » (١٩٥٦) و « ديبعد هيرم » (١٩٥٨) و « جابر بن حيان » (١٩٦٢) و « حياة الفكر في العالم الجديد » (١٩٥٦) .

يستخدمها العلماء في صياغة علومهم - فيحللونها تحليلًا يخرج مضمرااتها من السكون إلى العلن الصريح ، وها هنا يظهر في وضوح أن كانت منظوية على تناقض أو على عناصر من شأنها أن تجعل العبارة بغير معنى علمي ، أم كانت سليمة البنية المنطقية فيكون العلم كله سائرا على هدى ، وبهذا تصبح الفلسفة هي التحليل المنطقي ، بدل أن يكون التحليل المنطقي جزءا من الفلسفة .

وإذن فهذه « التجربة العلمية » إنما هي دعوة إلى الأخذ بأحكام العقل الصارم في فهم المياريات التي يجريها الكتاتيون على أقلامهم ، حتى لا يخلطهم سحر الألفاظ فيستعملوها لأسباب أخرى غير قوتها الدلالية ، على أن اللفظة في هذه الدعوة الجديدة لا تكون لها قوة دلالية إلا إذا أشارت في نهاية التحليل إلى معطيات حسية أعطتها إياتا كانت فعلية في العالم الخارجي ، اللهم إلا أن تكون اللفظة مستخدمة بتعريف اشتراطى يعفيها من الوظيفة الإشارية لكن التفكير عندئذ يكون مفهوما على أنه منحصر في نسقه الداخلي ولا شأن له بديا الواقع .

والى جانب هذه الدعوة إلى تحكيم العقل وحده - توجد العاطفة - فيما يكون له صلة بالوقائع الخارجية - وتنتج بالقررات الموضوعية العلمية التي تقال عن تلك الوقائع ، تقوم في مجالنا الفلسفي دعوة إلى حرية الفرد ، يقيها صاحبها وهو الدكتور عبد الرحمن بدوي على أساس من الفلسفة الوجودية ، فلهذا كانت التجربة العلمية دعوة إلى « الفهم » المعلى الواضح ، فإن دعوة الدكتور بدوي هي إلى الإرادة الحرة التي لا تكتفى بمجرد الفهم العقلي ، بل تضيق كياه الفاعلية المنتجة النسيطة .

ففي كتابه « الزمان الوجودي » (١) يقسم الوجود نوعين : فزياني وذاتي : والثاني وجود الذات المفردة ، والأول كل ما عدا الذات ، سواء أكان ذاتا واعية أم كان أشياء ، أما الوجود الذاتي فوجود مستقل بنفسه في عزلة تامة من حيث الطبيعة عن كل وجود للغير ولا سبيل إلى التفاهم الحق بين ذات وذات ، إذ كل منهما عالم قائم وحده ، وأما وجود الغير فلا

وجه من الوجود لأنه لا يملك أدوات البحث التي تمكنه من ذلك ، فليس هو منوطا بالملاحظة وإجراء التجارب حتى ينتهي بها إلى أحكام أخبارية عن العالم ، ولقد كان من مزاق فلاسفة التأمل أن ووطوا أنفسهم فيما ليس من شأنهم ، إذ كانوا يظنون أن الفكر الخالص وحده في وسعه أن يصف الوجود الخارجي ، مع أن ذلك محال .

فغيم - إذن - يريد صاحب هذه الدعوة أن تشبه الفلسفة بالعلم ؟ أنه يريد لها ذلك بعدة معان أخر ، أولها التزام الدقة البالغة في استخدام الألفاظ والمياريات فإذا كان العالم يحدد على وجه الدقة مصطلحاته العلمية حين يتحدث عن « الجاذبية » و « الضوء » و « الصوت » الخ فكذلك ينبغي للفيلسوف أن يكون بهذه الدقة نفسها حين يتحدث مثلا - عن « النفس » و « العقل » و « الغير » الخ ، نعم إن الفلاسفة الذين يستخدمون الألفاظ كهذه ، يحدونها بتعريفات يشترطونها لها ، تفهم على ضوئها ثم يستنبطون من تلك التعريفات ما يجوز لهم بحكم مبادئ الاستنباط أن يستنبطوه ولا غبار على ذلك ، لو كانوا على وعي كامل بأن نتائجهم التي ينتهون إليها مستندة في صحتها إلى التعريفات التي اشترطوها بادئ ذي بدء ، أي أن النسق الفلسفي عندئذ أن كان صادقا ، فليس فيه رياضي بحث ، معناه أن أوله متسلسل مع آخره وأنه لاتناقض بين أجزائه لكن ليس من حقا أن نخرج من حدود هذا النسق لنقول أنه يصور العالم الخارجي كما يقول أصحاب الفلسفة التأملية عن بناءاتهم الميتافيزيقية ، فأما أن يجعل الباحث خطواته الأولى تلك الخطوة الأولى محققة على الواقع وعندئذ يكون من حقه أن يزعم لأي نتيجة تلزم بأنها مطابقة لما هو واقع ، وأما أن تكون تلك الخطوة الأولى تعريفا من عند المفكر لمفهومات يريد استخدامها ، أو أن تكون مسلمات أخرى يضعها المفكر بادئ ذي بدء ، فلا يصبح من حقه بعد ذلك أن يزعم لأي نتيجة تلزم عن تلك الخطوة الأولى بأنها تحمل عن العالم خبرا أو أنها تصوره بأي وجه من وجوه التصوير .

ولكن ماذا يكون موضوع البحث الفلسفي الذي يراد للفيلسوف أن يتناوله بهذه الدقة العلمية ؟

إنه - كما أسلفنا - لا يكون موضوعا مما تبحت فيه العلوم ، بل يكون هو التشكيلات الرمزية - من عبارات لغوية ورموز رياضية وغيرها - التي

(١) للدكتور بدوي : « شخصيات تلقى في الإسلام » (١٩٤٦) و « شطحات الصوفية » (١٩٤٩) و « شبيبة المشفق الأليم » « رابطة المودية » و « مؤلفات الغرالي » و « مؤلفات ابن خلدون » و « شريف الفكر اليوناني » (١٩٤٣) و « ربيع الفكر اليوناني » (١٩٤٦) و « نيتشه » (١٩٣٩) و « شوبنهاور » (١٩٤٢) و « شطبر » (١٩٤٣) .

مرجوة ، فالمهم أنه حيى الوجود على الأقل في هذه التجربة ، بدلا من التوقف العاجز الذي لا يجيب فيه المرء غير عجزه وفراغ ارادته ، بل وسلب حريته ، (ص ١٦٠) .

ولا شك أن الانسان اذا يخاطر حرا باختيار ما يختاره من فعل ، قائما بتصدى لمستولية تتناسب مع قدر الخطر وجسامة الفعل الذى أقدم عليه ، ولما كان الشعور بالمستولية مشروطا بحرية الاختيار ، فان الشعور بالحرية لا يتوافر في شيء قدر ما يتوافر في المخاطرة - هكذا جاءت فلسفة الدكتور بدوى حافزا لنا على العمل الجريء ، لتكون أحرارا بقدر ما يكون في أعمالنا من جرأة .

ولقد كانت حياتنا الفلسفية لينقصها شيء كثير لولم يتم فينا من يوجه دعوته الى الاهتمام بالروح الى جانب تلك الدعوات التي أصرت على تحكيم العقل بالمعنى المعروف لهذه الكلمة في دنيا العلم والمنطق ، ولقد حمل هذه الأمانة الدكتور عثمان أمين ، وأطلق على مذهبه اسم الجوانية ، (١) إشارة منه الى التفرقة بين ماهو ظاهر وماهو باطن ، فعنده أن الظاهر عرض والباطن جوهر ، او هي تفرقة « بين الكمي والكيفي » بين الآنى والأبدى ، بين المسمى والروحي ، وبإشارة أخسرى هي التفرقة بين موقف الاسلم حين ينظر الى الناس والموضوعات بعيون الجسم ، فيشاهدنا من الخارج ، وكأنه « يتفرج عليها » وبين موقفه حين ينظر اليها بعيون الروح فيشارك فيها ويمانيها من الداخل ، (من مقالته عن « الجوانية الأخلاقية عند الفزالي ») .

ويقابل صاحب مذهب الجوانية بين ماهو « جواني » وماهو « براني » ، والأول طريق الادراك فيه هو الحس ، والثاني طريق الادراك فيه هو الحواس ، فيقول موجها الحديث الى من يقفون عند الظواهر « البرانية » ولا يسمعون في بواطن نفوسهم : « يستطيع » الوضعيون أن يتشككوا في يقين الحدث كما يشاؤون ، ويستطيع « الواقعيون » أن ينكروا حقيقة الفيب جائزين قاطعين ، ولكننا نقول لهم مقالته من قبلنا اسلاطون والفارابي والغزالي وابن عربي وديكارت وكانط وهيجل ومحمد اقبال وباسميرز ، وهو أننا لانريد منكم الا أن تتدبروا الأمر

(١) لم يؤلف صاحب هذه الدعوة كتابا في مذهبه هذا ، ومن مؤلفاته : « الفلسفة الرواقية » (١٩٥٨) و « ديكارت » (١٩٥٢) و « شيطر » (١٩٥٨) و « رائد الفكر المصري الامام محمد عبده » (١٩٥٥) و « شخصيات ومذاهب فلسفية » (١٩٤٩) .

نسبة له الى الذات الا من حيث الفعل ، والفعل ضرورة للذات ، لأن العمل لتحقيق لامكانياتها ، فلكي تحقق نفسها لا بد لها إذن أن تفعل ، والفعل لا بد أن يتم في وجود الغير وبواسطته ، ولذا كان عليها أن تتصل بهذا الوجود المغاير .

يقول المؤلف (ص ١٣٦-١٣٧) : « ان المشعور بالوجود لا يكون قويا عن طريق الفكر المجرد ، لأن الفكر المجرد انتزاع للنفس من تيار الوجود الحي وانعزال في مملكة أخرى تذهب منها الحياة الفتورة الحادة ، ولا يسودها فعل وحركة .. » والمؤلف حريص قبل كل شيء على أن ينعم الانسان الفرد بوجوده الحي الأفعال ، وما دام هذا الوجود متعلقا بالحالة الوجدانية أكثر من تعلقه بالحالة العقلية ، فانه لا يتردد في ايثار الأولى على الثانية ، نعم ان لكل حالة عاطفية مقابلا فكريا ، هو ادراكنا لهذه الحالة ، لكن ما بعد الفرق بين هذا وتلك - ما أبعد الفرق بين التألم من حيث هو عاطفة وبينه من حيث هو موضوع للمعرفة .

على أنه ان كانت الذات تحقق وجودها في العاطفة أكثر مما تحققه في المعرفة ، فانها أكثر تحقيقا لوجودها في الإرادة منها في الملاحظة . ان الإرادة قوة للوجود الدائم ، وهذه القوة مصطنعة الحرية التي للذات في أن تعين نفسها بتحقيق إمكاناتها ، فتختار من بين الممكن أحد أوجهه وتعلق به ثم تحققه بواسطة القدرة « (ص ١٥٩) لكن أي الممكن تختار الذات المريدة لتحوله الى فعل ؟ ان الممكن لانهاية له ، وقد يبدو بعض الممكنات مساويا لبعضها الآخر ، ولو وقفت الذات حيرى بين المتساويات لما همت بفعل ، ولذا يتحتم عليها أن « تخاطر » باختيار ما تنفذه ، فالمخاطرة وحدها تحقق الذات وجودها ، وهذه الحال الأخيرة نشاعدها عند أصحاب حال التقابل الذي يتصف به كل وجود ، فلن ينتهي بها الا الى عدم الفعل ، وبالتالي عدم تحقق امكانيات وجودها ، وهذه الحال الأخيرة نشاعدها عند أصحاب المعرفة الذين يختلط عليهم حال الوجود للمشكل ، فاما أن يقول بالسوية وعدم الاكتسرات ، واما أن يتذبذب ويتمرد ، وفي هذا وذاك لا ينتهي الى تحقيق شيء ، أما المخاطر ، الذي يتعلق بوجه من أوجه الممكن تعلقا يصدر في الغالب عن فعل لامعقول ، فهو وحده الذي يستطيع أن يحقق امكانيات وجوده قدر المستطاع ، ولا عليه بعد وان أخطأ ولم يصب نتيجة

الإلهية ليست من المسادة في شيء ولا مبيد إلى إخضاعها لهذا المنهج التجريبي .. وليس أدل على ذلك مما نلصقه في المذاهب المادية من عجز وقصور عن الوصول من أمر الحقيقة الإلهية إلى حل يلائم طبيعتها وبين خصائصها في غير ماتشييه .. فنيوتن يفسر عالم المادة ودارون يفسر عالم الحياة ، ولكن تفسيرهما من شأنه أن يجعل هذا العالم أو ذاك خلوا من كل روحانية .. ، ويضئ المؤلف في القول بأن منهج العلوم القائم على المشاهدات الحسية والتجارب ، إن صلح لدراسة الجانب المادي ، فهو لا يصلح للبحث فيما يجاوز مظاهر الكون ، أي أنه لا يصلح للبحث في الذات الإلهية ، فإذا أريد البحث في هذه الذات الإلهية ، كانت وسيلتنا هي الذوق الروحي ، وما هنا يكون الفرق بين كل من العلم والفلسفة من جهة والتصوف من جهة أخرى ، فالعلم يؤسس القوانين المستندة إلى المشاهدات الخارجية والتجربة الحسية ، والتي يفسر بها أحداث الكون وظواهره دون أن يتجاوز هذه الأحداث والظواهر إلى ما وراءها والفلسفة تحاول أن تتعرف حقائق الوجود وحقيقة مبدعه ومفيضه عن طريق النظر العقلي .. أما التصوف فإن له غاية أخرى هي غاية العلم والفلسفة - أو هو يرمي إلى الاتصال المباشر بحقيقة الحقائق ويرمي إلى شيء آخر أبعد من هذا الاتصال ، وهو الشعور بالاتحاد مع هذه الحقيقة العليا »

وعلى هذا الأساس فإنه يتعين على الصوفي - وكأننا يعني المؤلف نفسه - « أن يكون أسعى ما يكون من عالم المحسوس بما فيه من أحداث متغيرة ، وظواهر متبدلة ، وأعراض زائلة وأن يترفع بقلبه وذوقه عن النظر إلى الأشياء بعين الكثرة التي لا يعرف الماديون عينا غيرها يصرون بها ، وأن يتخذ سبيله إلى كشف الحقيقة من الإشراف الذي ينبثق من أعماق الروح وقد صفت وتحررت من سجنها المادي » - وهكذا بلغ المؤلف في كتابه عن « ابن الفارض » غاية المدي في امتزاج السكاك بموضوعه في ميدان التأليف الفلسفي وأن هذه الحساسية نفسها بين الكاتب وموضوعه لتبدو في كتابه « الحياة الروحية في الإسلام » (١٩٤٥)

كان البحث في الفلسفة الإسلامية من أهم مقام به رجال الفلسفة عندنا ، ففي هذا الباب أصبح

بأسر قدر من الجهد : انظروا إلى أنفسكم حين تطلقون على الأشخاص والأفعال حكما أخلاقيا أو حكما تقويميا على العموم ، ما بالكتم تصفون الفعل بصفات تختلف باختلاف فاعليه ، مع أن الفعل في الظاهر واحد ؟ ولماذا يكون مسمى زيد اخلاصا رفيقا ، ومسمى عمرو رياء وضميما ؟ ليس مرجع الأمر في الحكم على الفعل بالحسن أو القبح إلى النية والباعث والقصد ؟ وليست كل هذه أمور مطوية غير مرئية ؟ ولكن أمام النظرة البراتية ، أعنى النظرة الواقفة عند ظواهر الأمور ، والتي تقيس الأشياء بتغايب الكرم والحاضر والمباشر ، الشكل واحد بلا تفرق ، مادامت حركات الجوارح واحدة ، ومادامت العاطف اللغة أو نغمات الصوت واحدة وما دامت الظروف الخارجية المصاحبة لتحقيق الفعل واحدة كذلك ، أفليس الفرق بين الأفعال كله في الداخل ؟ وليس الداخل كله غيبا غير مرئي ؟ (من المقالة المذكورة)

ويأخذ صاحب هذا المذهب الروحي على المشرقيين في الإعجاب بالعلم الحديث أنهم قد نسوا أن المعارف العلمية لا تكفي للحياة الإنسانية الصحيحة ، ولأنهم أن تنمية القوى الروحية غير الفرد أهم من تنمية قواه الذهنية ، إذ بغير الأولى لا يصلح الإنسان إلى النضج بمعناه الصحيح ، فلما نضج الإنسان لا ذلك التطور الروحي الذي تمارسه النفوس الصافية في حياتها ، فتشعر حينئذ بأنها متأزرة ، لا مع أهل الوطن الواحد فحسب ، بل مع جميع أفراد الإنسانية بصرف النظر عن اختلافهم في اللغات والأديان والأجناس والأوطان (مقدمة كتابه « محاولات فلسفية » ١٩٥٢)

على أن الاتجاه الروحي يظهر أقوى ما يظهر في « التصوف » حين لا يقتصر أصحابه على اتخاذه موضوعا للدراسة فحسب - بل يصبح عندهم وجهة نظر ينظرون منها إلى الحياة الفكرية كلها ، ومن هؤلاء الدكتور محمد مصطفى حلمي فهو يقول في كتابه « ابن الفارض والحب الإلهي » (١٩٤٥) (ص ٦٦ إلى ٦٨) : « أن الصوفية بذواتهم الروحية وأحوالهم النفسية ، ربما كانوا أقدر من العلماء والفلاسفة على إدراك الحقيقة الخفية ومعرفة الذات العليا لا سيما أن العلماء يصنعون منهجا تجريبيا قوامه المشاهدات الحسية والتجربة الخارجية ، والذات

ومصادره ، وانما أملتها صورة مشوشة لما كان متداولاً من المخطوطات اللاتينية » (ص ٤) ، ويقرر الدكتور مذكور في تأكيد صريح بأن « هناك فلسفة إسلامية امتازت بموضوعاتها وبحولها ، بمسائلها ومعضلاتها ، وبما قدمت لهذه وتلك من حلول ، فهي تعنى بمشكلة الواحد والمتعدد ، وتعالج الصلة بين الله ومخلوقاته ، .. وتحاول أن توفق بين الوحي والعقل ، بين العقيدة والحكمة ، بين الدين والفلسفة ، وأن تبين للناس أن الوحي لا ينقض العقل ، وأن العقيدة اذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفس وثبتت أمام الخصوم ، وأن الدين اذا تأخى مع الفلسفة أصبح فلسفياً كما تصبح الفلسفة دينية ، فالفلسفة الإسلامية وليدة البيئة التي نشأت فيها والظروف التي أحاطت بها ، وهي كما يبدو فلسفة دينية روحية » (ص ١٥) ، ويخصص المؤلف كتابه لبحث طائفة من النظريات الفلسفية التي يظنها إسلامية خالصة ، كنظرية السعادة والاتصال ، ونظرية النبوة .

وللدكتور أحمد فؤاد الأهواني دراسات إسلامية متنوعة - تهيئها مفرقة في كتبه . ففي كتابه « في عالم الفلسفة » (١) (١٩٤٨) فصل عنوانه « أمواج الفكر الإسلامي » يوضح فيه أولاً كيف اندست عناصر الثقافات الفارسية والوثنية والمسيحية واليهودية إلى الفكر الإسلامي واندمجت به ، وتكون مع الزمن لون أو ألوان من الثقافة الإسلامية ، هي مزيج من هذا الفكر الأجنبي والآراء الإسلامية ، وقد نجد لونا من الثقافة إسلامياً بحتاً ، وقد نجد لونا آخر تغلب عليه النزعة اليونانية ، وقد نجد لونا ثالثاً يظهر فيه الطابع الفارسي وهكذا » (ص ٥٤) .

على أن الجديد في تناول الدكتور الأهواني لموضوع الفلسفة الإسلامية في هذا البحث ، هو تصويره لتاريخ تلك الفلسفة على أنه فترات رئيسية تعاقبت واحدة في أثر واحدة ، جيلاً بعد جيل ، فقد تشغل الأذهان اليوم فكرة يدور حولها البحث والجدل ، ثم يجيء الغد بفكرة أخرى يدور حولها البحث والجدل ، وهلم جرا ، وهكذا جاء الفكر الفلسفي الإسلامي موجات متلاحقة ، على رأس كل

الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٨٨٥-١٩٤٧) كتابه « تهيئ لتاريخ الفلسفة الإسلامية » (١) (١٩٤٤) الذي وقف فيه وقفة أعالي المجاهد ، فهو يخفى وراءه نصوصه اختفاء من لا يريد أن يكون له ميل مرجح سوى ما توجبها النصوص ، قال الكتاب يشتمل على بيان لمنازع الغربيين والإسلاميين ومناهجهم في دراسة الفلسفة ، فالباحثون الغربيون في طريقة عرضهم للموضوع تراهم وكأنما يقصدون إلى القول بأن في الفلسفة الإسلامية عناصر أجنبية ، ثم يأخذون في رد تلك العناصر إلى مصادرها غير العربية وغير الإسلامية ، موضحين أثرها غير يرونه فعلاً في توجيه الفكر الإسلامي ، وأما الباحثون المسلمون فيغلب عليهم أن يزئوا الفلسفة بميزان الدين ، لكن مؤلف « التهيئ » يتخذ لنفسه منهجاً آخر في درسه لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، إذ « هو يتوخى الرجوع إلى النظر العقل الإسلامي في سذاجته الأولى وتبعب مدارجه في تباين المصنوع وأمراته تطوره (من المقدمة) لأنه يرى « أن البحث في تاريخ الفلسفة الإسلامية يكون أدنى إلى المسلك الطبيعي ، وأهدى إلى الغاية حين نبدا باستكشاف الجرائم الأولى للنظر العقل الإسلامي في سبلاتها وخلوصها ، ثم تسير خطاها في أدوارها المختلفة من قبل أن تدخل في نطاق البحث الكلي » ، ومن بعد أن صارت تفكيراً فلسفياً » (ص ١٦٩) ؟ والنتيجة العامة التي يستخلصها القارئ من هذا الكتاب هي أن للمسلمين فلسفة خاصة بهم ، مطبوعة بطابعهم لها بداياتها البسيطة وأدوار نموها وازدهارها .

ونتيجة كهذه أيضاً هي التي انتهى إليها الدكتور إبراهيم إيوبي مذكور في كتابه « في الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيق » ، فهو منذ مقدمة الكتاب يعيب على الباحثين في الفلسفة الإسلامية أنهم يبدون بفروض سابقة عن العقيدة السامية مثلاً ، أو عن العرب بصفة خاصة وطريقة تفكيرهم ، وبذلك ينتهون إلى نتائج قد تكون صادقة بالنسبة إلى تلك الفروض ، لكنها هي وفروضها مما ربما كانت بعيدة عن الحق والواقع ، ذلك لأن تلك الفروض في الغالب « لم توضع بعد موضع دراسة كاملة ، ولم تستمد من التفكير الإسلامي نفسه في أصوله

(١) وله كذلك : « الدين والوحي والإسلام » (١٩٤٥)
و « فجر الدين من الرأى » (١٩٢٨) و « فيلوف العرب والعلم الثاني » (١٩٤٥) .

(١) وله أيضاً : « فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط » (١٩٤٤) و « ملاطون » (١٩٥٦) - و « معاني الفلسفة » (١٩٤٧) و « ابن سينا » (١٩٥٨) .

وكذلك كان من الدارسين الذين خضعوا للتصوف الإسلامي بمؤلفاتهم ونشراهم الأستاذ سليمان دنيا وبخاصة عن الامام الغزالي ، وكذلك قل عن الدكتور المرحوم زكي مبارك ، والدكتور أبو الوفا التنقازاني عن ابن عطاء الله وابن سبعين *

ولو جاز لنا أن نلخص النتائج التي وصل اليها الباحثون في ميدان الفلسفة الإسلامية بكل فروعها، في عبارة موجزة ، لقلنا انهم جميعا ينتهون الى أن الفلسفة الإسلامية متميزة بطابع مستقل ، وليست هي مجرد اصداء شارحة لفلسفة اليونان أو غيرها .

- ٧ -

على أننا لم نذكر فيما ذكرناه من نشر للتراث ، ومن ترجمة للفلسفة الغربية ، ومن تأليف مذهبي وغير مذهبي ، لم نذكر في كل ذلك جهودا ضخمة قام بها رجال الفلسفة في مصر الحديثة ، بما نشروه من مؤلفات وفصول أكاديمية في موضوعات اختصاصهم ، فللدكتور عبد الحميد صبره جهود في فلسفة العلوم ، وللدكتور زكريا إبراهيم سلسلة مؤلفات ، كل منها يختص « مشكلة » بالبحث ، كمشكلة الحرية ، ومشكلة الفن ، ومشكلة الانسان ، ومشكلة الفلسفة نفسها ، وهو في تأليفه ينزع منزع الفلسفة الوجودية بصفة عامة ، وللدكتور يحيى هريدي مؤلفاته في الفلسفة الحديثة والمعاصرة وهو يحاول أن يخرج مما يكتب بوجهة نظر خاصة يريد لها أن تكون مصطبغة بصيغة « عربية » متميزة ، وللدكتور فؤاد زكريا بحثه عن نيتشه وسبينوزا وعن المعرفة والوجود وكذلك يكتب الدكتور محمد فتحي الشنيطي عن مختلف الاتجاهات الحديثة والمعاصرة من هيوم ووليم جيمس الى كارل ياسبرز .

وان القصة لتطول بنا لو أردنا احصاء كاملا أو شبه كامل ، وانني لعل يقين من أنني قد سهوت عن ذكر مؤلفات لها أعظم الأهمية في محيطنا الفلسفي ، وعن ذكر مؤلفين لا يقلون قدرا عن ذكرناهم ، لكنه فصل موجز نكتبه عن نشاطنا الفلسفي الحديث ، الذي ان اختلفت فيه الاتجاهات والمذاهب ، فهو منصرف كله الى تحقيق هدف واحد ، وهو أن يضمّن للانسان حريته ، وأن يحصل منطق العقل مدار حكمائه .

موجة فكرة أساسية ، أي أن الفلسفة الإسلامية - على هذا التصور - لم تتناول موضوعات بعضها منذ بداية نشاطها الى فتور ذلك النشاط ، مع اختلاف على مر الزمن في درجة النمو والنضج ، ويجعل بنا أن نذكر أن المؤلف حريص على أن يكون موضوع بحثه هو « الفكر الإسلامي » لا « الفلسفة الإسلامية » لأن « تفكير المسلمين انصب على المسائل العلمية » ، وبروس الأفكار التي شغلت الأذهان على التابع ، والتي منها تكونت « أمواج الفكر الإسلامي » هي : الكفر والايان ، التشبيه والتجسيم ، التشميع ، القدريّة ، والارجاه .

ومن الدراسات ذات الشأن في ميدان الفلسفة الإسلامية مؤلفات الدكتور محمد عبد الهادي أبوريده عن « الكندي وفلسفته » (١٩٥٠) ، « إبراهيم بن سيار النظام » (١٩٤٧) وكتايب للدكتور علي سامي النشار ، هما « نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام » و « مناهج البحث عند مفكرى الاسلام » وقد حاول فيها موقفا أن يبين أصالة المسلمين في التفكير منهاجيا وموضوعا ومن الدراسات المقارنة التي تستهدف الهدف نفسه كتاب الدكتور محمود قاسم - في النفس والعقل لفلاسفة الاشراف والاسلام - وكتاب الدكتور عبد الحليم محمود في الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية ، وكتاب الدكتور محمد البهي « الجوانب الالهية من التفكير الإسلامي » .

على أن المشتغلين بالدراسات الإسلامية قد انصرفوا بكثير من جهدهم الى التصوف الإسلامي بصفة خاصة ، ويدرسونه دراسة علمية ، وينشرون تصوره محققة ومشروحة ، واننا لنزداد تقديرا لجهود الباحثين في هذا المجال ، اذا علمنا ان العمل في هذا الميدان كما يقول الدكتور أبو العلا عفيفي

في مقدمة كتابه « في التصوف الإسلامي » - « لا يزال في أول شوط من أشواطه ، بالرغم من الجهود العظيمة القيمة التي بذلتها طائفة من فضلاء العلماء الغربيين منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم » ، وللدكتور أبو العلا دراسات كثيرة في التصوف ، لكن محيي الدين بن عربي كان أهم موضوع عنى ببحثه ونشره وشرحه ، حتى لقد أصبح فيه حجة بين المشتغلين بالتصوف في القسرب والشرق على السواء .

العلماء العرب... والدراسات العربية

ABCDEF
GHIJKL
MNOPQ
RSTUVW

أ ب ج د
ه و ز ح
ط ي ك ل م
ن س ع ف ص
ق ر ش ت ث

بقلم : الدكتور مراد كامل

وكانت تمر كل فريق منهم المعرفة الدقيقة من أحوال الفريق الآخر . لهذا التيه متوالي ، والخصم لا يريد أن يحق خصمه أو يصممه . ولذا تضامبت هذا الشعور منذ الحروب الصليبية الأولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩) . وعاش المسلم في حروب مع عالم لا يريد أن يعترف له بدين أو بسطان ، كما شجعت الكنيسة الكاثوليكية أمام انتصارات منافسيها المتوالية ، بتهديد كنيستها .

وبالتوهم من حركة التجارة التي كانت قائمة على أسفنها فقد اكتفوا بالترجمة لنقضاء أمورهم ، ولم تمر الطبقة المتفعة من الفريشين أي اللغات لحرلة معاملية الفريق الآخر .

ولكن الحروب الصليبية كانت في نفس الوقت سبباً في إيقاظ وهي الغرب لدعاسة اللغة العربية والآداب العربية ، فقد لمس العرب قيمة ما ورثه العالم الإسلامي من حضارات قديمة في الطب والحساب والفلك والفلسفة والعلوم الطبيعية ، وأحس بحاجة الوصول إلى معرفة ما عند العرب من هذه العلوم .

● الترجمة :

ظهر في أواخر القرن الحادي عشر القسطنطيني الإفريقي طور في أواخر القرن الحادي عشر القسطنطيني الإفريقي Constantinus Africanus وهرسيحي من تونس كان في خدمة الكونت النورماندي « جويستاردو » الذي اتزع صقلية من العرب . أخذ في نقل بعض الكتب العربية في الطب إلى اللاتينية . وقد ساعدت هذه الترجمات مدونة « سالرنو » جنوبي نابولي ، على النهوض بالعلوم الطبيعية .

وساهم الايطاليون مساهمة فعالة في مدرسة طليطلة بالإندلس . وكان من روادها الإيطالي « الجيراردو دا كريفوا » اللشوقي عام ١١٨٧ ، الذي اقبل ال طليطلة وترجم إل اللاتينية ما نقل من سيمين مؤلفا هربيا فذكر منها كتاب « الجسطن » ويحيا في علم الفلك لجابر بن الحلاج وآخر لابن الهيثم من الشلق وقانون الطب

ظهر الإسلام وبدأت الفتوحات وبدأ منها اتصال العرب بالصليب .

لم يكد ينشئ القرن السابع الميلادي حتى كابة العربية نه فصحوا العراق وفارس وأفغانستان وسوريا والديرجان وجزءا من أرمينية وجزءا من آسيا الصغرى في الشرق ، ولشعروا مصر وليبيا وتونس ومراكش في الغرب .

وفي القرن الثامن فتح العرب سرديقية وذلك سنة ٧٤٠ م وظفرو بها إلى سنة ١٠٥٠ وفي سنة ٨١٠ سقطت مالطة وكورسيكا وظل بها العرب حتى سنة ١٠٩٠ م .

وكان النصر العظيم للعرب في البحر الأبيض فتح صقلية سنة ٨٢٧ ولم يتركوها إلا في سنة ١٠٧١ ، واستولوا على كالابرية (من سنة ٨٢٧ إلى سنة ٨٨٠) وليرانزو (من سنة ٨٤٠ إلى سنة ٨٨١) وبالي (من ٨٤٠ - ٨٧١) وجوزيرة بونتينى لم يسكنها وكابريزيو وجزء من لومبارديه وبيمونتي .

وفتحوا الأندلس في أوائل القرن الثامن وظفروا به إلى أواخر القرن الخامس عشر . وقد بقي الجزء الشمالي الغربي من إسبانيا خارجا من منطقة النفوذ العربي ومنه كانت مناولاة العرب .

كان اتصال العرب بهذه الشعوب كلها اتصالا مهمته الحرب ، وفي هذا الجو من العلاقات المتوترة شجعت الفرصة ليعترف كل على الآخر من طريق المعرفة الصحيحة الموضوعية .

وهكذا عاش مسيحيي الغرب ومسلمو الشرق جنباً إلى جنب مدة قرون لم يشعر أحد منهم بحاجة ملحّة في دوس لغة الآخر ، بل لم يكن لديهم في أول الأمر متسع من الوقت للالتفات إلى دراسة اللغة .

العلماء العرب... والدراسات العربية

ABCDEF
GHIJKL
MNOPQ
RSTUVW

أ ب ج د
ه و ز ح
ط ي ك ل م
ن س ع ف ص
ق ر ش ت ث

بقلم : الدكتور مراد كامل

وكانت تمر كل فريق منهم المعرفة الدقيقة من أحوال الفريق الآخر . لهذا التيه متوالي ، والخصم لا يريد أن يحق خصمه أو يصمه . ولذا تضامنت هذا الشعور منذ الحروب الصليبية الأولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩) . وعاش المسلم في حروب مع عالم لا يريد أن يعترف له بدور أو بسططا ، كما شجعت الكنيسة الكاثوليكية أمام انتصارات منافسيها المتوالية ، بتهديد كنيستها .

وبالتوهم من حركة التجارة التي كانت قائمة على أسفنها فقد اكتفوا بالترجمة لنقضاء أمورهم ، ولم تمر الطبقة المتفعة من الفريسيين أي اللغات لحرلة معاملية الفريق الآخر .

ولكن الحروب الصليبية كانت في نفس الوقت سببا في إيقاظ وهي القروب لدعاسة اللغة العربية والآداب العربية ، فقد لمس العرب قيمة ما ورثه العالم الإسلامي من حضارات قديمة في الطب والحساب والفلك والفلسفة والعلوم الطبيعية ، وأحس بحاجة الوصول إلى معرفة ما عند العرب من هذه العلوم .

● الترجمة :

ظهر في أواخر القرن الحادي عشر لقسطنطين الإفريقي Constantinus Africanus وعرضه من تونس كان في خدمة الكونت النورماندي « جويستاردو » الذي اتزع صقلية من العرب . أخذ في نقل بعض الكتب العربية في الطب إلى اللاتينية . وقد ساعدت هذه الترجمات مدونة « سالرنو » جنوب نابولي ، على النهوض بالعلوم الطبيعية .

وساهم الايطاليون مساهمة فعالة في مدرسة طليطلة بالإندلس . وكان من روادها الإيطالي « جيراردو دا كريفانو » اللشوقي عام ١١٨٧ ، الذي انتقل إل طليطلة وترجم إل اللاتينية مالا يقل عن سبعين مؤلفا هربيا فلكر منها كتاب « الجسطن » ويحيا في علم الفلك لجابر بن الحلاج وآخر لابن الهيثم من الشلق وقانون الطب

ظهر الإسلام وبدأت الفتوحات وبدأ منها اتصال العرب بالصليب .

لم يكد ينشئ القرن السابع الميلادي حتى كابة العربية نه فصحوا العراق وفارس وأفغانستان وسوريا والديرجان وجزءا من أرمينية وجزءا من آسيا الصغرى في الشرق ، ولشعروا مصر وليبيا وتونس ومراكش في الغرب .

وفي القرن الثامن فتح العرب سرديقية وذلك سنة ٧٤٠ م وظفرو بها إلى سنة ١٠٥٠ وفي سنة ٨١٠ سقطت مالطة وكورسيكا وظل بها العرب حتى سنة ١٠٩٠ م .

وكان النصر العظيم للعرب في البحر الأبيض فتح صقلية سنة ٨٢٧ ولم يتركوها إلا في سنة ١٠٧١ ، واستولوا على كالابرية (من سنة ٨٢٧ إلى سنة ٨٨٠) وليرانزو (من سنة ٨٤٠ إلى سنة ٨٨١) وبالي (من ٨٤٠ - ٨٧١) وجوزيرة بونتينى لم يسكنها وكابريزيو وجزء من لومبارديه وبيمونتي .

وفتحوا الأندلس في أوائل القرن الثامن وظفروا به إلى أواخر القرن الخامس عشر . وقد بقي الجزء الشمالي الغربي من إسبانيا خارجا من منطقة النفوذ العربي ومنه كانت مناولاة العرب .

كان اتصال العرب بهذه الشعوب كلها اتصالا مهمته الحرب ، وفي هذا الجو من العلاقات المتوترة شجعت الفرصة ليعرف كل على الآخر من طريق المعرفة الصحيحة الموضوعية .

وهكذا عاش مسيحيي الغرب ومسلمو الشرق جنبا إلى جنب مدة قرون لم يشعر أحد منهم بحاجة ملحة في دوس لغة الآخر ، بل لم يكن لديهم في أول الأمر متسع من الوقت للالتفات إلى دراسة اللغة .

لاين سينا والوجز في الفلك للعرافى وتعليق النيريزي على الكتب
المثورة الاولى لافيدس وتعليق ابي بكر محمد بن عبد الباقي على
كتاب الفيلسوف العاشر وكتاب الانوار لربيع بن ريد وبحثا موجزا
في الجبر لا يعرف مؤلفه وكتاب الجبر للخوارزمي .

ولم تكن هذه الترجمات من العلوم المختلفة مفسلة الفلك
والنجيم والحساب والجبر والهندسة وغرب الرمل والفلسفة
والطب كالمية حتى تعطى صورة من الحضارة الاسلامية ولم يكن
لها كذلك اي اثر في دراسة اللغة العربية لذاتها . وكان الاعتماد
في الترجمة على مترجمين من المسيحيين الشرقيين او من بعض
المسلمين او من المستعربين Mosarabes ، وهم المسيحيون
الذين تأثروا بالحضارة الاسلامية تحت حكم المسلمين في اسبانيا
وكان هؤلاء جميعا لا يتقنون اللاتينية ، لكنوا ينقلون النص
العربي الى اللغة النادرة ، لم ينقلها من يتقن اللاتينية من
اللغة النادرة الى اللاتينية .

● ترجمة القرآن :

اخذت الكنيسة الكاثوليكية في ارسال البعثات التبشيرية الى
الشرق ، وكانت ترمي من وراء ذلك الى ان تضم الكنائس الشرقية
اليها ، وان تبشر العالم الاسلامي بالمسيحية .

واذركت هذه البعثات انه لابد ، حتى تصل الى غرضها ، من
ان تفتح لغة البلاد التي تريد التبشير فيها . وكان هذا هو
الباعث الاول على دراسة جديدة للغة العربية في أوروبا .

ووضعت الفكرة عند أهل أوروبا ، بان الانتصار بالصلاح
والاستيلاء على الاراضي المقدسة في فلسطين لا يساعد على دخول
المسلمين في المسيحية ، ووجدوا ان خير سبيل الى ذلك هو
الجدل في العقيدة . ولهذا عملوا جادين لحرقة حضارة العرب
وعاداتهم واخلاقهم وعلومهم ولغتهم .

وكان ملوك صقلية في طليعة من هنوا بهذه الدراسات . فربطوا
ديوانهم وتدهبر شؤون الحكومة على النوازل العربية ، وشهدوا
تصويرهم الى المسيحية ، وقد استألفوا بالعلماء العرب ،
لذلك منهم روجيرو الثاني (١١٠١ - ١١٥٤ م) الذي طلب
من الادريسي ان يؤلف له في الجغرافية ، ومنهم ايضا فردريك
الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) .

وقبل ان تسقط مدينة الرها في ايدي الصليبيين سنة ١١٤٤
كانت قد ظهرت ترجمة للقرآن باللاتينية وذلك سنة ١١٤٣ وقد
قام بها عالم ايطالي يسمى بطرس المجل Petrus Venerabilis
(١٠٩٢ - ١١٥٧) . وكان قد تولد في مهمة رسمية الى اسبانيا
سنة ١١٤١ لتعتقد احوال وحيان جماعته . ولذلك التواخى انه
يرسل في الصلح بين الفرس السابع ملك قشتالة والفرنسي اول
ملك اراجون . ولس في اسبانيا الصراع بين الاسلام والمسيحية ،
وشاهد المراك بين العرب والاسبان ، وعامر هجوم الموحدين
على اسبانيا . وتأثر بهذا الجح ، فانفتح بان الاسلام لا يمكن ان
ينفك بقوة السلاح ، بل بقوة الثقة ، وبفعل المنطق ، وبمقايمة
الحجة بالمحبة . ونوصل الى ان هذا لا يستقيم الا من تقب
بتقالة المسلمين ورسم لغتهم وحرف وجهة نظرهم وكنه تفكيرهم .
ولهذا شرع في ترجمة القرآن الى اللاتينية - وحملت الصدقة
بالانتفاء في اسبانيا بمائتين انجليزيين ، اتيا لدراسة الفلك
والحساب وعما الذويرتوس كيتنثيسيس و « هيرمانوس دالاس »
وامكنه ان يقتنهما بان يتوليا ترجمة القرآن الى اللاتينية .

وتولى « كيتنثيسيس » الترجمة ، ولم تخلص له ترجمة دقيقة
سليمة . وقام « دالاس » بترجمة رسائل عربية الى اللاتينية وهي
رسائل جديلة .

وبشرت ترجمة « كيتنثيسيس » في بلن بوسيرا سنة ١٥٤٣
اي بعد اربعة قرون من كتابتها ، مما يدل على احتفاظ هسده
الترجمة بقيمتها في أوروبا . وكان طبعها سببا في انتشارها . ومن
هذه الترجمات اخذ ايرلانيثي Arrivabene الايطالي سنة ١٥٤٧ اول
ترجمة للقرآن بالاطالية ، ومن الايطالية « مله » شليفيجر
ترجمته سنة ١٦١٦ الى الالمانية ، لم تقلت منها الى البولندية
سنة ١٦٤١ .

وعوالى سنة ١٦٥٠ تولى « دي سيليسيا » الايطالي ترجمة
القرآن الى اللاتينية ولكنها لم تطبع .

وقام مارانشي Ludovico Marracci (١٦١١ - ١٧٠٠) بترجمة
كاملة للقرآن الى اللاتينية سنة ١٦٩٨ وكان قد قدم لها بطروح
وتعليق في اربعة اجزاء نشرها سنة ١٦٩١ واعتمد فيها على مصادر
عربية للمفسرين والتفراح المسلمين ، ومنها ما لا يزال مطوبا .

وظهرت ترجمة مارانشي للقرآن باللاتينية والنص العربي .
واعتمد « سيل » على ترجمة مارانشي في ترجمته الانجليزية
للقرآن سنة ١٧٢٤ كما اعتمد على ترجمة « فيرير » في ترجمته
اللاتينية التي نشرت سنة ١٧٥٣ .

● المعاجم وكتب اللغة :

كان لملءاء ايطاليا في هذا المضمار شأن فاعادوا في دراسية
الالفاظ العربية واللغة ، ولعل اقدم ما نعرفه عنهم مخطوطة
محمولة الآن بمكتبة تورنا من القرن الثالث عشر ، وهي
مأخوذة بالعرية واللاتينية لا يعرف مؤلفه . ولهذا القاموس
اهمية خاصة ، فقد شكل الالفاظ العربية كما كانت تنطق
في القرن الثالث عشر ، وهو بذلك يعيد في دراسة اللهجات العربية
في ذلك القرن .

واصبحت اهتمام علماء ايطاليا بدراسة اللغة العربية والغالها
وكننت الفكرة القسالة لدى الكتيبة الكاثوليكية ، وهي لوحيه
الكنائس ، لا لاول لتحتل المكان الاول من اهتمام الكتيبة
والعلماء . ونشر « وايونوني » كتاب التصريف للنزى والعنه
ترجمة لاتينية حرفية وترجمة لاتينية اخرى وذلك في سنة
١٦١٠ .

ولم يكد القرن السابع عشر يبدأ حتى ظهر في ايطاليا اتجاه
جديد ، وتصل العلماء من فكرة الاهتمام باللغة العربية لخدمة
ايجاد الكنائس ، وشرعوا في دراسة العربية لذاتها .

لغى سنة ١٦٢٠ نشر « فرانسيسكو مارتيوتلي » Martellotti
كتابه القيم ، الذي عالج فيه لأول مرة الصرف العربي بالتفصيل
وهو يعطى صورة واضحة من النحو العربي

ومما يذكر ان الفيلسوف دوساسي « (١٧٥٨ - ١٨٢٨) اعتمد
عليه في كتابه من النحو العربي الذي نشره سنة ١٧٩٩ .

وفي سنة ١٦٤٢ نشر « فيليبو جواداتولي » Guadagnoli
كتابا في قواعد اللغة العربية أسماه « الموجز »

والف « دي سيليسيا » (١٥٨٨ - ١٦٧٠) كتابا في الصامية
العربية سنة ١٦٥٠ نشر « الطوبيو الاكويلى » كتابا في
قواعد اللغة الصامية وراى فيه مقابلة الفصح بالعالمية .

واظهر العالم الايطالي « اتونيو جيجاي » اهتماما يتزايد
بالمعاجم ، فنشر سنة ١٦٣٢ في ميلانو قاموسا باللغتين العربية
واللاتينية في اربعة مجلدات ضخمة ، واعتمد فيه على القاموس
لفيروزيادى اعتمادا كبيرا ، ولذلك كان له السبق في تعريب
القرآن بالمعاجم العربية .

لاين سينا والوجز في الفلك للفرغاني وتعليق النيريزي على الكتب
المثورة الاولى لافلديس وتعليق ابي بكر محمد بن عبد الباقي على
كتاب الفيلسوف العاشر وكتاب الانواء لربيع بن ريد وبحثا موجزا
في الجبر لا يعرف مؤلفه وكتاب الجبر للخوارزمي .

ولم تكن هذه الترجمات من العلوم المختلفة مفسلة الفلك
والنجيم والحساب والجبر والهندسة وغرب الرمل والفلسفة
والطب كالمية حتى تعطى صورة من الحضارة الاسلامية ولم يكن
لها كذلك اي اثر في دراسة اللغة العربية لذاتها . وكان الاعتماد
في الترجمة على مترجمين من المسيحيين الشرقيين او من بعض
المسلمين او من المستعربين Mosarabes ، وهم المسيحيون
الذين تأثروا بالحضارة الاسلامية تحت حكم المسلمين في اسبانيا
وكان هؤلاء جميعا لا يتقنون اللاتينية ، لكنوا ينقلون النص
العربي الى اللغة النادرة ، لم ينقلها من يتقن اللاتينية من
اللغة النادرة الى اللاتينية .

● ترجمة القرآن :

اخذت الكنيسة الكاثوليكية في ارسال البعثات التبشيرية الى
الشرق ، وكانت ترمي من وراء ذلك الى ان تضم الكنائس الشرقية
اليها ، وان تبشر العالم الاسلامي بالمسيحية .

واذركت هذه البعثات انه لابد ، حتى تصل الى غرضها ، من
ان تفتح لغة البلاد التي تريد التبشير فيها . وكان هذا هو
الباعث الاول على دراسة جديدة للغة العربية في أوروبا .

ووضعت الفكرة عند أهل أوروبا ، بان الانتصار بالصلاح
والاستيلاء على الاراضي المقدسة في فلسطين لا يساعد على دخول
المسلمين في المسيحية ، ووجدوا ان خير سبيل الى ذلك هو
الجدل في العقيدة . ولهذا عملوا جادين لحرقة حضارة العرب
وعاداتهم واخلاقهم وعلومهم ولغتهم .

وكان ملوك صقلية في طليعة من هنوا بهذه الدراسات . فربطوا
ديوانهم وتدهبر شئون الحكومة على النوازل العربية ، وشهدوا
تصويرهم الى المسيحية ، وقد استألفوا بالعلماء العرب ،
لذلك منهم روجيرو الثاني (١١٠١ - ١١٥٤ م) الذي طلب
من الادريسي ان يؤلف له في الجغرافية ، ومنهم ايضا فردريك
الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) .

وقبل ان تسقط مدينة الرها في ايدي الصليبيين سنة ١١٤٤
كانت قد ظهرت ترجمة للقرآن باللاتينية وذلك سنة ١١٤٣ وقد
قام بها عالم ايطالي يسمى بطرس المجلد Petrus Venerabilis
(١٠٩٢ - ١١٥٧) . وكان قد تولد في مهمة رسمية الى اسبانيا
سنة ١١٤١ لتعتقد احوال وحيان جماعته . ولذلك التواخى انه
يرسب في الصلح بين الفرس السابع ملك قشتالة والفرنسي الاول
ملك اراجون . ولما في اسبانيا الصراع بين الاسلام والمسيحية ،
وشاهد المراكب بين العرب والاسبان ، وعامر هجوم الموحدين
على اسبانيا . وتأثر بهذا الجح ، فانفتح بان الاسلام لا يمكن ان
ينقلب بقوة السلاح ، بل بقوة الثقافة ، وبفضل المنطق ، وبمقايمة
الحجة بالمحجة . ونوصل الى ان هذا لا يستقيم الا من تنقب
بتقافة المسلمين وسمعتهم وهدف وجهة نظرهم وكنه تفكيرهم .
ولهذا شرع في ترجمة القرآن الى اللاتينية - وحملت الصدقة
بالانتفاء في اسبانيا بمائتين انجليزيين ، اتيا لدراسة الفلك
والحساب وعما الذويرتوس كيتيتيسيس و « هيرمانوس دالاس »
وامكنه ان يقتنهما بان يتوليا ترجمة القرآن الى اللاتينية .

وتولى « كيتيتيسيس » الترجمة ، ولم تخلص له ترجمة دقيقة
سليمة . وقام « دالاس » بترجمة رسائل عربية الى اللاتينية وهي
رسائل جديلة .

وبشرت ترجمة « كيتيتيسيس » في بلن بوسيرا سنة ١٥٤٣
اي بعد اربعة قرون من كتابتها ، مما يدل على احتفاظ هسده
الترجمة بقيمتها في أوروبا . وكان طبعها سببا في انتشارها . ومن
هذه الترجمات اخذ ايرلندي Arrivabene الايطالي سنة ١٥٤٧ اول
ترجمة للقرآن بالاطالية ، ومن الايطالية « دالي » شليفيجر
ترجمته سنة ١٦١٦ الى الالمانية ، لم تقلت منها الى الهولندية
سنة ١٦٤١ .

وعوالى سنة ١٦٥٠ تولى « دي سيليسيا » الايطالي ترجمة
القرآن الى اللاتينية ولكنها لم تطبع .

وقام مارانشي Ludovico Marracci (١٦١١ - ١٧٠٠) بترجمة
كاملة للقرآن الى اللاتينية سنة ١٦٩٨ وكان قد قدم لها بطروح
وتعليق في اربعة اجزاء نشرها سنة ١٦٩١ واعتمد فيها على مصادر
عربية للمفسرين والتفراح المسلمين ، ومنها ما لا يزال مطبوعا .

وظهرت ترجمة مارانشي للقرآن باللاتينية والنص العربي .
واعتمد « سيل » على ترجمة مارانشي في ترجمته الانجليزية
للقرآن سنة ١٧٢٤ كما اعتمد على ترجمة « فيرير » في ترجمته
اللاتينية التي نشرت سنة ١٧٥٣ .

● المعاجم وكتب اللغة :

كان لملءاء ايطاليا في هذا المضمار شأن فاعادوا في دراسية
الالفاظ العربية واللغة ، ولعل اقدم ما نعرفه عنهم مخطوطة
محمولة الآن بمكتبة تورينو من القرن الثالث عشر ، وهي
مأخوذة بالنعربية واللاتينية لا يعرف مؤلفه . ولهذا القاموس
اهمية خاصة ، فقد شكل الالفاظ العربية كما كانت تنطق
في القرن الثالث عشر ، وهو بذلك يعيد في دراسة اللهجات العربية
في ذلك القرن .

واصبحت اهتمام علماء ايطاليا بدراسة اللغة العربية والغالها
وكننت الفكرة القسالة لدى الكتيبة الكاثوليكية ، وهي لوحيد
الكتابي ، لا لاول لتحتل المكان الاول من اهتمام الكتيبة
والعلماء . ونشر « وايونوني » كتاب التصريف للنزى والعنه
ترجمة لاتينية حرفية و ترجمة لاتينية اخرى وذلك في سنة
١٦١٠ .

ولم يكد القرن السابع عشر يبدأ حتى ظهر في ايطاليا اتجاه
جديد ، وتصل العلماء من فكرة الاهتمام باللغة العربية لخدمة
ايجاد الكتاني ، وشرعوا في دراسة العربية لذاتها .

لفى سنة ١٦٢٠ نشر « فرنسيسكو مارتيوتلي » Martellotti
كتابه القيم ، الذي عالج فيه لأول مرة الصرف العربي بالتفصيل
وهو يعطى صورة واضحة من النحو العربي

ومما يذكر ان الفيلسوف دوساسي « (١٧٥٨ - ١٨٢٨) اعتمد
عليه في كتابه من النحو العربي الذي نشره سنة ١٧٩٩ .

وفي سنة ١٦٤٢ نشر « فيليبو جواداتولي » Guadagnoli
كتابا في قواعد اللغة العربية أسماه « الموجز »

والف « دي سيليسيا » (١٥٨٨ - ١٦٧٠) كتابا في الصامية
العربية سنة ١٦٥٠ نشر « الطوبيو الاكويلى » كتابا في
قواعد اللغة الصامية وراى فيه مقابلة الفصح بالعامة .

واظهر العالم الايطالي « اتونيو جيجاي » اهتماما يتزايد
بالمعاجم ، فنشر سنة ١٦٣٢ في ميلانو قاموسا باللغتين العربية
واللاتينية في اربعة مجلدات ضخمة ، واعتمد فيه على القاموس
لفيروزيبادى اعتمادا كبيرا ، ولذلك كان له السبق في تعريب
القريب بالمعاجم العربية .

● المطبعة العربية :

كانت إيطاليا سابقة في هذا الميدان ، ولأول مرة تأسست في إيطاليا المطابع الهجزة بالأحرف العربية . وكانت مطبعة « فانو » Anno قد طبعت تلك المطابع ، حيث طبع فيها سنة ١٥١٤ بالعربية كتاب « صلاة السواحي » أي الصلوات السبع بأمر البابا يوليوس الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٢) ، وذلك لاتحاد مصر وفي سنة ١٥٢٠ طبع القرآن في البندقية .

وكانت روما في أوائل القرن السادس عشر ، ملتقى الترفيع من مسيحيين ومسلمين بالرفيعين ، كما كانت مركزاً للدراسات العربية والشرفية ، وذلك بعد أن ظهر الاهتمام باللغات القديمة وآدابها لهم الدراسات الإنسانية . والمطابع منذ أن نشأت سنة ١٤٤٠ لم تسف هذا السبل من الدراسات العربية لظهورها من الحروف العربية ، ولم تبدأ في طبع الكتب العربية إلا في القرن السادس عشر . وكان على نادر النص العربي أن يستعين بمترجم على الحساب لا يعرف العربية ولا يتجده إلى خطاط عربي . ولهذا خرجت حروف المطبعة العربية في شكل غير سليم ولم يستقم لهم الخط .

وفي سنة ١٥٨٤ أسست مطبعة بغضل الكردينال « فرديناندو دي مديني » عرفت بمطبعة « مدينيكا » Medicea طبع فيها الكثير من المؤلفات العربية نذكر منها : كتاب البستان في عجائب الأرض والبلدان لسلامة بن كندقي الصالح سنة ١٥٨٥ .

وأشرف على المطبعة الايطال لشاب ريموند G. B. Raimond وكان قد أسس مدة في الشرق وأثري العربية ، لعمل على طبع حروف عربية جديدة للمطبعة ، ملتبسة بغير متوفرة كما كانت في قبل ، وطبع بالحروف الجديدة قانون أين سينا سنة ١٥٨٦ والأناجيل سنة ١٥٩١ والثانية لابن المصاحب والأجروبة لابن أجروم سنة ١٥٩٢ وكتاب نزهة المشتاق في ذكر الأوصاف والأقطار والبلدان والجبر والديان والألقا للأدريسي - ١٥٩٢ وكتاب النجاة لابن سينا سنة ١٥٩٣ .

وكان السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) قد سمح منذ سنة ١٥٨٨ ببيع مطبوعات هذه المطبعة في أنحاء الدولة العثمانية ، وكان أولها كتب تحرير أصول أوليفس لناصر الدين الطوسي (طبع سنة ١٥٩٤) ، وفي سنة ١٦١٠ طبع كتاب S. Paulinus تلميذ « ريموندي » من إرشاد مطبعة عربية أخرى في روما . وبذل جهده في تحسين شكل الحروف وقام بشرع مطبعة كتب منها كتاب صلوات للكردينال « بوليفس » بالعربية والألبانية من الأصل الايطالي وكتاب التوازي بالعربية والألبانية .

وكان « سالفاري » سفير فرنسا في روما أكثر المشجعين للبدير « بوليفس » ولما عاد إلى باريس سنة ١٦١٥ استصحب معه بوليفس ومعه الحروف العربية ، وأنشأ في باريس أول مطبعة عربية . وكانت بطبع الكتب العربية تحت إشراف الوزارة .

وكانت المطبعة العربية في إيطاليا حافواً للبولندي « رافيلينيوس » (١٥٣٩ - ١٥٩٧) في إنشاء مطبعة في هولندا ، ولكنها لم تصل في شكل حروفها إلى المستوى الراقي الذي وصلت إليه المطبعة الإيطالية .

وكانت المطبعة الإيطالية أساساً لتفسير الطبيب اللاتيني « كيرستن » (١٥٧٥ - ١٦٤٠) في إنشاء مطبعة في ألمانيا . ولم تصل حروفها إلى مستوى جمال الحروف العربية ولكنها كانت أكثر وضوحاً . ولم يجد كيرستن من يشجعه من حكام ألمانيا على الاستمرار في مطبعته فعملها معه إلى السويدي حيث توفي سنة ١٦٤٠ .

ومرت على الطباعة العربية مدة قنصور في أوائل القرن السابع عشر . فالتكتب العربية المطبوعة لم تجد رواجاً في الشرق ، إذ كان مظهر الكتاب الطويح يخالف ما اعتاد عليه الناس من شكل الخط العربي المسوخ . وكانت المصانير تنقص الكتب ، كما كان بها أخطاء مطبعية ونحوية كثيرة - أضف إلى هذا أن القاري العربي أخذ يشك في ثبوت الحرف من طبع هذه الكتب .

واضطرت المطابع العربية في أوروبا إلى الانصراف عن طبع كتب الأدب والدين والجهت إلى طبع العاجم وقواعد اللغة .

دراسة التاريخ

أخلت الصلات الاقتصادية والسياسية بين الدول المسيحية في العرب والدول الإسلامية في الشرق منذ القرن السابع عشر مظهراً جديداً ، كما أخلت الدراسات العربية طريقاً نوفاً ظهر أثره بعد الثورة الفرنسية وتقدمت هذه الدراسات تقدمها محسوساً في القرن التاسع عشر ، وتوسع العلماء في الدراسات التاريخية والآداب العربية ..

وظهر في طليعة القرن التاسع عشر « أماري Michele Amari » (١٨٠٦ - ١٨٨٩) ، فوجّه اهتمامه إلى تدوين تاريخ موطع صقلية .

وكان أول ما نشره سنة ١٨٥٤ كتابه الذي احتفظ بأبعيته العلمية حتى اليوم « تاريخ مسلي صقلية » لم أجد في جميع النصوص العربية التي نفس تاريخ صقلية وجغرافيتها وكرمها وآدابها وعلومها من العرب ونشرها سنة ١٨٥٧ باسم « المكتبة العربية ونشر سنة (١٨٧٥ - ١٨٧٩ - ١٨٨٥) كتابه من « التلويح العربية في صقلية » في ثلاثة مجلدات . وفي سنة ١٨٩٢ نشر كتابه « الرأى المصرية المعروفة في سجلات قورلوس » وتبليد على « أماري » العام « شلشتينوسكاريلي » C. Schiaparelli (١٨٤١ - ١٩١٩) ، نذكر من كتبه « الإشارات العربية » الذي كان « أماري » قد نشر عليه في تاريخها « بليكريلي » بنشره والتعليق عليه سنة ١٨٧١ وللهذا الكتاب أهمية كبرى في دراسة تاريخ العرب بالأندلس في القرون الوسطى ، كما اشترك مع « أماري » في نشر ما كتبه الإدريسي بذلك « روجيرو » من إيطاليا في سنة ١٨٧٨ . ونشر في سنة ١٨٩٧ ديوان « ابن حديس » وفي سنة ١٩٠٦ أنصف المكتبة الإيطالية بترجمة رحلة ابن جبير .

وظهر عالمان أعتبا بدراسة تاريخ صقلية : أولهما « سلفاتوري كوزا » S. Cusa (١٨٢٢ - ١٨٩٢) وكان ماصراً لأماري ، واستأذا العربية في بالرم وقد نشر بعضاً مختلفاً في تاريخ صقلية ، نفس بالذكر منها : مؤلفه الفخيم في جزئين من الوثائق البونانية والعربية من صقلية نشرها (١٨٦٨ و ١٨٨٢) ولم يتم هذا المشروع العلمي القيم فسد ما جلته إليه قبل أن ينشر ترجمة النصوص ويعلق عليها . وثانيهما هو « برونلوبو لاجومينا » B. Lagumina (١٨٥٠ - ١٩٢١) الذي وجه دراسته وإبعاله ناحية التاريخ العربية والتعريب في صقلية ولعل دراسة التاريخ الإسلامي مدينة لعالم إيطالي وقف حياته على دراسة التاريخ الإسلامي ونما بها وجهة المنهج العلمي التري وهو « ليوالي كاستاني » E. Caetani (١٨٦٩ - ١٩٢٥)

ظهر « كاستاني » في أوائل القرن العشرين ، وفراً ما كتبه « مورتويس » في « تاريخ إيطاليا » ، لنسج على نثره في كتابة التاريخ الإسلامي . فقد أخذ في جمع مصادر التواريخ الإسلامية منذ نشأته حتى الفتح التركي لمر ، ونقل كل ذلك إلى الإيطالية .

ثم عرض لدراسة النصوص وحللها وتقدمها ، وذلك حتى يستخلص منها تاريخاً يسير به المنهج العلمي السليم ، وفي ذلك كتابه « تاريخ الإسلام » في أحد عشر مجلداً نشرها في سنة ١٩٠٥ - ١٩٢٧ .

● المطبعة العربية :

كانت إيطاليا سابقة في هذا الميدان ، ولأول مرة تأسست في إيطاليا المطابع الهجزة بالأحرف العربية . وكانت مطبعة « فانو » Anno قد طبعت تلك المطابع ، حيث طبع فيها سنة ١٥١٤ بالعربية كتاب « صلاة السواحي » أي الصلوات السبع بأمر البابا يوليوس الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٢) ، وذلك لاتحاد مصر وفي سنة ١٥٢٠ طبع القرآن في البندقية .

وكانت روما في أوائل القرن السادس عشر ، ملتقى الترفيع من مسيحيين ومسلمين بالرفيعين ، كما كانت مركزاً للدراسات العربية والشرفية ، وذلك بعد أن ظهر الاهتمام باللغات القديمة وآدابها لهم الدراسات الإنسانية . والمطابع منذ أن نشأت سنة ١٤٤٠ لم تسف هذا السبل من الدراسات العربية لظهورها من الحروف العربية ، ولم تبدأ في طبع الكتب العربية إلا في القرن السادس عشر . وكان على نادر النص العربي أن يستعين بمترجم على الحساب لا يعرف العربية ولا يتجده إلى خطاط عربي . ولهذا خرجت حروف المطبعة العربية في شكل غير سليم ولم يستقم لهم الخط .

وفي سنة ١٥٨٤ أسست مطبعة بغضل الكردينال « فرديناندو دي مديني » عرفت بمطبعة « مدينيكا » Medicea طبع فيها الكثير من المؤلفات العربية نذكر منها : كتاب البستان في عجائب الأرض والبلدان لسلامة بن كندة الصالح ميسنة ١٥٨٥ .

وأشرف على المطبعة الايطال لشاب ريموند G. B. Raimond وكان قد أسس مدة في الشرق وأثري العربية ، لعمل على طبع حروف عربية جديدة للمطبعة ، ملتبسة بغير متوفرة كما كانت في قبل ، وطبع بالحروف الجديدة قانون أين سينا سنة ١٥٨٦ والأناجيل سنة ١٥٩١ والثانية لابن المصاحب والأجروبة لابن أجروم سنة ١٥٩٢ وكتاب نزهة المشتاق في ذكر الأوصاف والأشجار والبلدان والجبر والديان والألقا للأدريسي - ١٥٩٢ وكتاب النجاة لابن سينا سنة ١٥٩٣ .

وكان السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) قد سمح منذ سنة ١٥٨٨ ببيع مطبوعات هذه المطبعة في أنحاء الدولة العثمانية ، وكان أولها كتب تحرير أصول أوليفس لناصر الدين الطوسي (طبع سنة ١٥٩٤) ، وفي سنة ١٦١٠ طبع كتاب S. Paulinus تلميذ « ريموندي » من إرشاد مطبعة عربية أخرى في روما . وبذل جهده في تحسين شكل الحروف وقام بشرع مطبعة كتب منها كتاب صلوات للكردينال « بوليفس » بالعربية والألبانية من الأصل الايطالي وكتاب التوازي بالعربية والألبانية .

وكان « سالفاري » سفير فرنسا في روما أكثر المشجعين للبدير « بوليفس » ولما عاد إلى باريس سنة ١٦١٥ استعجب معه بوليفس ومعه الحروف العربية ، وأنشأ في باريس أول مطبعة عربية . وكانت تطبع الكتب العربية تحت إشراف الوزارة .

وكانت المطبعة العربية في إيطاليا حافواً للبولندي « رافيلينجوس » (١٥٣٩ - ١٥٩٧) في إنشاء مطبعة في هولندا ، ولكنها لم تصل في شكل حروفها إلى المستوى الراقي الذي وصلت إليه المطبعة الإيطالية .

وكانت المطبعة الإيطالية أساساً لتفسير الطبيب اللاتيني « كيرستن » (١٥٧٥ - ١٦٤٠) في إنشاء مطبعة في ألمانيا . ولم تصل حروفها إلى مستوى جمال الحروف العربية ولكنها كانت أكثر وضوحاً . ولم يجد كيرستن من يشجعه من حكام ألمانيا على الاستمرار في مطبعته فعملها معه إلى السويدي حيث توفي سنة ١٦٤٠ .

ومرت على الطباعة العربية مدة قنصور في أوائل القرن السابع عشر . فالتكتب العربية المطبوعة لم تجد رواجاً في الشرق ، إذ كان مظهر الكتاب الطويخ يخالف ما اعتاد عليه الناس من شكل الخط العربي المسوخ . وكانت المصانير تنقص الكتب ، كما كان بها أخطاء مطبعية ونحوية كثيرة - أضف إلى هذا أن القاري العربي أخذ يشك في ثبوت الحرف من طبع هذه الكتب .

واضطرت المطابع العربية في أوروبا إلى الانصراف عن طبع كتب الأدب والدين والجهت إلى طبع العجائب وقواعد اللغة .

دراسة التاريخ

أخلت الصلات الاقتصادية والسياسية بين الدول المسيحية في العرب والدول الإسلامية في الشرق منذ القرن السابع عشر مظهراً جديداً ، كما أخلت الدراسات العربية طريقاً نوفاً ظهر أثره بعد الثورة الفرنسية وتقدمت هذه الدراسات تقدمها ملحوظاً في القرن التاسع عشر ، وتوسع العلماء في الدراسات التاريخية والآداب العربية ..

وظهر في طليعة القرن التاسع عشر « أماري Michele Amari » (١٨٠٦ - ١٨٨٩) ، فوجّه اهتمامه إلى تدوين تاريخ موطع صقلية .

وكان أول ما نشره سنة ١٨٥٤ كتابه الذي احتفظ بأبعثه الطليعة حتى اليوم من « تاريخ مسلي صقلية » لم أجد في جميع النصوص العربية التي تعنى تاريخ صقلية وجغرافيتها وكرمها وآدابها وعلومها من العرب ونشرها سنة ١٨٥٧ باسم « المكتبة العربية ونشر سنة (١٨٧٥ - ١٨٧٩ - ١٨٨٥) كتابه من « التلويح العربية في صقلية » في ثلاثة مجلدات . وفي سنة ١٨٩٢ نشر كتابه « الرأى المصرية المعروفة في سجلات قورلوس » وتتلبد على « أماري » العام « شلشتينوسكاري » C. Schiaparelli (١٨٤١ - ١٩١٩) ، نذكر من كتبه « الإشارات العربية » الذي كان « أماري » قد نشر عليه في تاريخها « بليكرالي » بنشره والتعليق عليه سنة ١٨٧١ وللهذا الكتاب أهمية كبرى في دراسة تاريخ العرب بالأندلس في القرون الوسطى ، كما اشترك مع « أماري » في نشر ما كتبه الإدريسي بذلك « روجيرو » من إيطاليا في سنة ١٨٧٨ . ونشر في سنة ١٨٩٧ ديوان « ابن حديس » وفي سنة ١٩٠٦ أنصف المكتبة الإيطالية بترجمة رحلة ابن جبير .

وظهر عالمان أعتبا بدراسة تاريخ صقلية : أولهما « سلفاتوري كوزا » S. Cusa (١٨٢٢ - ١٨٩٢) وكان ماصراً لأماري ، واستأذا العربية في بالرم وقد نشر بعضاً مختلفاً في تاريخ صقلية ، نضع بالذكر منها : مؤلفه الفهم في جزئين من الوثائق البونانية والعربية من صقلية نشرهما (١٨٦٨ و ١٨٨٢) ولم يتم هذا المشروع العلمي القيم قلند ما جلته إليه قبل أن ينشر ترجمة النصوص ويعلق عليها . وثانيهما هو « برونلوبو لاجومينا » B. Lagumina (١٨٥٠ - ١٩٢١) الذي وجه دراسته وإبعاله ناحية التاريخ العربية والتعريب في صقلية ولعل دراسة التاريخ الإسلامي مدينة لتمام إيطالي وقف حياته على دراسة التاريخ الإسلامي ونما بها وجهة المنهج العلمي التري وهو « ليوالي كاستاني » E. Caetani (١٨٦٩ - ١٩٢٥)

ظهر « كاستاني » في أوائل القرن العشرين ، وفراً ما كتبه « مورتويس » في « تاريخ إيطاليا » ، لنسج على نثره في كتابة التاريخ الإسلامي . فقد أخذ في جمع مصادر التواريخ الإسلامية منذ نشأته حتى الفتح التركي لمر ، ونقل كل ذلك إلى الإيطالية .

ثم عرض لدراسة النصوص وحللها وتقدمها ، وذلك حتى يستخلص منها تاريخاً يسير به المنهج العلمي السليم ، وفي ذلك كتابه « تاريخ الإسلام » في أحد عشر مجلداً نشرها في سنة ١٩٠٥ - ١٩٢٧ .

وقدم لدراسته بمقدمة طويلة ، ثم عالج مسائل مختلفة ، وأورد لبعض هذه المسائل دراسة خاصة في كتابه « دراسات التاريخ الشرقي » وذلك في مجلدين خصص الأول لدراسات في الإسلام والمسيحية وفي الجزيرة العربية في العصر الجاهلي وحصل الثاني في دراسة حياة الرسول : قبل الدعوة ، وفي هذا الكتاب دراسة للهجرة العربية ، وآثر الجفاف الذي طرأ على شبه الجزيرة في هذه الهجرة ، وفيه أيضا دراسة للعوامل الاقتصادية والسياسية في الجزيرة عند قيام الإسلام .

وبدا منذ سنة ١٩١٢ في نشر كتابه Chronographia Islamica ويشتمل على تدوين أهم الأحداث التاريخية الإسلامية إلى سنة ١٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) .

وفي سنة ١٩٢٢ أخذ في نشر موسوعة من التاريخ المسلم لعرض البحر الأبيض والشرق الإسلامي من سنة ٦١٢ م إلى سنة ١٥١٧ ولم يظهر منها إلا الجزء الأول للأحداث .

وأعد « كياتاني » بالاشتراك مع « جويدي جبريلي » مؤلفا من الإعلام ، وظهر منه جردان سنة ١٩١٥ . وكان هذا المؤلف قد أعد لبشكل جميع شخصيات أعلام الإسلام من الناحية التاريخية ، يترجم لهم ويذكر مؤلفاتهم والصادر التي أتت على ذكرهم .

وقد كان ليدري « كياتاني » خبر هذا من المشروعات العلمية ، ولكنه كان يعلم أن كل هذه المشروعات التي تتطلب دقة وسعة اطلاع ، لا تنسج لها حياة رجل واحد ، ولهذا وقد سنة ١٩٢٢ ولغة سفيلا لدى الأكاديمية الإيطالية ، ووجه له مكتبته ومخطوطاته وأورفاه العلمية ، وبذلك أنشأ مركزا للدراسات الإسلامية في روما . وقد واصل العلماء بنقل هذه الوثائق متتابعة جهودهم حتى انجزوا إلى الآن حوالي مائتي ألف جزاء مدة للطبع .

الدراسات اللغوية :

« اليانيس جويدي » I. Guidi ١٨٤٤ - ١٩٢٢ شسبيلته مؤلفاته نواحى كثيرة في الدراسات الشرقية ونسب في لغات اللغويات الشرقية وأدائها . كانت له مشاركة منذ سنة ١٩٠٤ في « موسوعة الكتابات المسيحية الشرقية » . وكان له فضل كبير على تقدم الدراسات الآلويية والفيلطية والرياقية .

أما العربية فقد أولاه اهتماما خاصا : ترجم الميادات إلى الإيطالية من مستشرق الخليل ونشر شرح ابن هشام على قصيدة بانت سعاد . وله دراسة حول النص العربي لكتاب كليلية ودمتة . ونشر الاستعراة على مسيوبيه للزبيدي وكتاب الأعمال لابن قتيبة . كما قام بشر جزء من تاريخ الطبري من سنة ٦٥ هـ - ٩٩ وملاق عليه . وله كتاب في قواعد اللغة العربية الجنوبية باللاتينية ، وقد قدته لنشر إلى العربية وطبعته الجامعة المصرية سنة ١٩٢٠ .

وصا يدين له الباحثون بالعقل وصمعه مهرس الشراء الواردين في خزانة الأدب ولغوس كتاب الإلهالي .

هذا وقد قام جويدي بتدريس تاريخ الأدب العربي في الجزيرة المصرية القديمة .

وكان جويدي قد اعتمد القيام بوضع معجم للألفاظ العربية يجمع بين الملاحظات اللغوية والدراسات في المفردات الواردة في النصوص ، والتي يجدها مبعثرة في مواضع كثيرة ، ولكن وإافته المنية قبل أن يتم هذا العمل المفيد .

« داليد سنثيلا » D. Santhi ١٨٥٥ - ١٩٣١ ولد حرقته الجامعة المصرية القديمة استادا لتاريخ الفلسفة الإسلامية .

وضع مؤلفا شخصيا في الفقه الإسلامي من الباحثين الحديثة والتجارية ونشر ترجمة وتعليقا من المختصر في الفقه الإسلامي للخليل . كما وضع كتابا في الفقه الإسلامي على مدعب المالكية .

« أوجينيو جريفي » E. Griffini ١٨٧٨ - ١٩٢٥ عرفته مصر مديرا لدار الكتب من سنة ١٩٢٠ - ١٩٢٥ قام بنشر الموسوعة القانونية لزيد بن علي ، ووضع فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بكتبة « الأميرواتيا » ببيزانو ولا يزال هذا الفهرس ناقسا .

« كارلو كوتسي دوسي » C. C. Rossini ١٨٧٢ - ١٩٢٩ عمدة في الدراسات الآلويية وفي دراسة بلاد العرب الجنوبية القديمة . قد عني بتاريخها ولغتها ودينها ولغتها ونقودها .

« ميخائيل جويدي » M. Guidi ١٨٨٦ - ١٩٢٦ ابن ايانيسو جويدي ، حرقته كلية الآداب بجامعة القاهرة استادا لفقه اللغة من ١٩٢٧ - ١٩٣٠ ، كان واسع الاطلاع ، وقد حياته على دراسة الآداب العربي والدين الإسلامي . وله مؤلفات كثيرة بلغر منها : كلياته « تاريخ الدين الإسلامي » وله أبحاث من أصل البزيدية نشرها سنة ١٩٢٢ ، وأعد جويدي مؤلفا من تاريخ العرب وحضارتهم وقد عاجلته المنية وقد أتى الجزء الأول منه والذي ظهر سنة ١٩٥١ بعد موته .

« كارلو الفونسو نالينو » C. A. Nallino ١٨٧٢ - ١٩٢٨ علم من أعلام الدراسات العربية والعلوم الإسلامية في القرن العشرين . حرقه كلية الجامعة المصرية القديمة (١٩٠٩ - ١٩١٢) وجامعة القاهرة (١٩٢٧ - ١٩٣١) استادا وصديقا وصالحا وديعا ، فخير وأحبه ، وقد زاد تعلقهم به على قدر رعايته لهم وتقديرهم .

عرف الأستاذ نالينو في تلاميذه المصريين الذكاء وسرعة الحاضر وحة الاطلاع وقوة الذاكرة ، ثم كشف عن نقص فهم ، لاحظ ما يحققون إليه في تنظيم معلوماتهم ، وحصرها بضعفها ، حتى ينهياهم التلخيص بعد البحث ، فتمتد في درسه الدقة العلمية في غير حواة ، ووقف على كل مسألة يوليها فدهرا من الفحص ، ليصلح ما انصرف ، وليجعل من هذا الفيات اللطف والافانص المراكبة شعرا يانسا يانسا مشعرا . ووصل إلى فائته دون أن يهرق تلاميذه أو يكلفهم شططا ، وهم يشفرون له بالفلسل والآثار ، على اختلاف مناحيهم .

بحث نالينو في فروع متشعبة من العلوم العربية والإسلامية ، فكتشف لنا من حقائق علمية جديدة في كل ناحية من نواحها . وكان على علم يقين ، ومعرفة لاينة بسائر لغات الشرق الأدنى وأدائها . وقد عرف كيف يستفهم عند الحاجة إليها في دراسات العلوم العربية والإسلامية ، وأثنى « نالينو » دراسة علوم أخرى ، فدرس علم الفلك ، والرياضيات ، والفلسفة ، والفقه ، وتاريخ الآداب دراسة منطق . وقد استخدمها في أبحاثه المختلفة .

قال من نفسه مرة « إذا صادفتني مسألة علمية ، فلا بد لي أن أتعلم في بحثها ، فإنا لا أتلى بمعرفة نصف الشيء » وقد يبدأ أحيانا بفحاسة نقطة يظن أنها ثانية ، فيصل منها إلى مسائل مهمة يستحقها على أهم وجه .

وفي معرض الكلام من هذا النوع من الدراسة في رسالة كبيرة له عنوانها « فلسفة مشرقية أم مشرقية منذ ابن سينا » قال : أن المسألة التي أصد حلها تظهر تالفة ولغوية فحسب ، ولكن حلها في الواقع على غاية من الأهمية . فهو يعين يان فكر ابن سينا ومركزه العقلي في تاريخ الفلسفة منذ مسكن الشرق ، فاعلى أن يكون على حق في الإسهاب في هذا المثال والتفريق في بحثه » .

وضع مؤلفا شخصيا في الفقه الاسلامي من الباحثين المدية والتجارة وتتر ترجمة وتعليقا من المختص في الفقه الاسلامي للخليل . كما وضع كتابا في الفقه الاسلامي على مذهب المالكية .

« **أوجينيو جريفي** » E. Griffini 1878 - 1940
عرفته مصر مديراً لدار الكتب من سنة 1920 - 1925 قام بنشر الموسوعة القانونية لزيد بن علي ، ووضع فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بكتبة « الأميرواتيا » ببيزانو ولا يزال هذا الفهرس ناقصا .

« **كارلو كوتسي دوسي** » C. C. Rossini 1871 - 1949
عمدة في الدراسات الايوبية وفي دراسة بلاد العرب الجنوبية القديمة . قدم على بتاريخها ولفنها ودينها ولفنها ونقدها .

« **ميخائيل جويدي** » M. Guld 1886 - 1946 ابن ايباسو جويدي ، عرفته كلية الاداب بجامعة القاهرة استنادا لفقه اللغة من 1927 - 1930 ، كان واسع الاطلاع ، وقد حياته على دراسة الادب العربي والدين الاسلامي ، وله مؤلفات كثيرة بذكر منها : كافيته ، تاريخ الدين الاسلامي ، وله ابحاث من اصل اليزيدية نشرها سنة 1922 ، وأمد جويدي مؤلفا من تاريخ العرب وحضارتهم وقد عاينته له وقد أتى الجرح الاول منه والذى ظهر سنة 1951 بعد موته .

« **كارلو الفونسو نالينو** » C. A. Nallino 1872 - 1928
علم من أعلام الدراسات العربية والعلوم الاسلامية في القرن العشرين . مره طلبة الجامعة المصرية القديمة (1909 - 1912) وجامعة القاهرة (1917 - 1921) آمثدا وصديقا وصالحا وديما ، فخير ، واحبهم ، وقد زاد تعلقهم به على قدر رعايته لهم وتفتيحهم .

عرف الأستاذ نالينو في تلاميذه المصريين الذكاء وسرعة الحاضر وحة الاطلاع وقوة الذاكرة ، ثم كشف عن نقص فهم ، لاحظ ما يحققون إليه في تنظيم معلوماتهم ، وحصرها بضعفها ، حتى ينهياهم التلخيص بعد البحث ، فتمتد في درسه الدقة العلمية في غير حواطة ، ووقف على كل مسألة يوفيهما فدهما من الفحص ، ليصلح ما انصرف ، وليجعل من هذا الفيات اللطف والافانص المراتبة شعرا يانعا يانعا مشعرا . ووصل الى غايته دون أن يرهق لتلاميذه أو يكلفهم شططا ، وهم يشفرون له بالفلسل والآراء ، على اختلاف مناجيهم .

بحث **نالينو** في فروع متشعبة من العلوم العربية والاسلامية ، فكتشف لنا من حقائق علمية جديدة في كل ناحية من نواحيها ، وكان على علم يقين ، ومعرفة لايتة بسائر لغات الشرق الاواني وادابها . وقد عرف كيف يستفهم عند الحاجة اليها في دراسات العلوم العربية والاسلامية ، واتقن « **نالينو** » دراسة علوم أخرى كفوس علم الفلك ، والرياضيات ، والفلسفة ، والفقه ، وتاريخ الادبان دراسة منطق ، وقد استخدمها في ابحاثه المختلفة .

قال من نفسه مرة « **إذا صادفتني مسألة علمية ، فلا بد لي ان اتعمق في بحثها ، فلانا لا أتقن بمعرفة نصف الشيء** » وقد يبدأ أحيانا بفحاسة نقطة يظن انها ثائية ، فيصل منها الى مسائل مهمة يستحقها على اتم وجه .

وفي معرض الكلام من هذا النوع من الدراسة في رسالة كبيرة له عنوانها « **فلسفة مشرقة أم مشرقة منذ ابن سينا** » قال : ان المسألة التي اقصدها حلها تظهر تالفة ولغوية فحسب ، ولكن حلها في الواقع على غاية من الاعمية . فهو يعين يان فكر ابن سينا ومركزه العقلي في تاريخ الفلسفة منذ مسكن الشرق ، فاعلى ان يكون على حق في الاسباب في هذا المثال والتفريق في بحثه » .

وقدم لدراسته بمقدمة طويلة ، ثم عالج مسائل مختلفة ، وأورد لبعض هذه المسائل دراسة خاصة في كتابه « **دراسات لتاريخ الشرقي** » وذلك في مجلدين خصص الاول لدراسات في الاسلام والمسيحية وفي الجزيرة العربية في العصر الجاهلي وحصل الثاني في دراسة حياة الرسول : قبل الدعوة ، وفي هذا الكتاب دراسة للهجرة العربية ، وآثر الجفاف الذي طرا على شبه الجزيرة في هذه الهجرة ، وفيه أيضا دراسة للعوامل الاقتصادية والسياسية في الجزيرة عند قيام الاسلام .

وبدا منذ سنة 1912 في نشر كتابه Chronographia Islamica ويشتمل على تدوين أهم الاحداث التاريخية الاسلامية الى سنة 922 هـ (1517 م) .

وفي سنة 1922 أخذ في نشر موسوعة من التاريخ المسلم لعرض البحر الابيض والشرق الاسلامي من سنة 612 م الى سنة 1517 ولم يظهر منها الا الجزء الاول للاحداث .

وأمد « **كاياني** » بالاستعانة مع « **جويدي جريفي** » مؤلفا من الاعلام ، وظهر منه جردان سنة 1915 . وكان هذا المؤلف قد أمد لبشمل جميع شخصيات أعلام الاسلام من الناحية الشرقية ، بترجمه بذكر مؤلفاتهم والصادر التي أتت على ذكرهم .

وقد كان ليدى « **كاياني** » خبر هذا من المشروعات العلمية ، ولكنه كان يعلم ان كل هذه المشروعات التي تتطلب دقة وسعة اطلاع ، لا تنسج لها حياة رجل واحد ، ولهذا وقد سنة 1922 ولغة سفيحة لدى الاكاديمية الإيطالية ، ووجه له مكتبته ومخطوطاته وأوراده العلمية ، وبذلك أنشأ مركزا للدراسات الاسلامية في روما . وقد وأصل العلماء ينقل هذه الوثائق متابة جهودهم حتى انجزوا الى الآن حوالي مائتي الف جزاءه مدة للطيع .

الدراسات الفقهية :

« **ايباسو جويدي** » I. Guidi 1886 - 1942 شينينة مؤلفاته نواحي كثيرة في الدراسات الشرقية ونسج في لغات اللغوية الشرقية وادابها . كانت له مشاركة منذ سنة 1904 في « **موسوعة الكتابات المسيحية الشرقية** » . وكان له فضل كبير على تقدم الدراسات الايوبية والفقهية والرياقية .

اما العربية فقد اولاه اهتماما خاصا : ترجم المبادئ التي الايطالية من مستشرق الخليل ونشر شرح ابن هشام على فسيحة بآلت سعاد ، وله دراسة حول النص العربي لكتاب كليله ودمتة ونشر الاستعانة على مسيوبي لليزيدي وكتاب الاعمال لابن قتيبة . كما قام بشر جزء من تاريخ الطبري من سنة 6 هـ - 99 وملاق عليه . وله كتاب في قواعد اللغة العربية الجنوبية باللاتينية ، وقد قدته لتسير الى العربية وطبعته الجامعة المصرية سنة 1920 .

وصا يدين له الباحثون بالعقل وصمعه مهرس الشراء الواردين في خزانة الادب وفهرس كتاب الافاني .

هذا وقد قام جويدي بتدريس تاريخ الادب العربي في الجزيرة المصرية القديمة .

وكان **جويدي** قد اعتمد القيام بوضع معجم للألفاظ العربية يجمع بين الملاحظات اللغوية والدراسات في المفردات الواردة في النصوص ، والتي يجدها مبشرة في مواضع كثيرة ، ولكن وانته المنة قبل أن يتم هذا العمل الفريد .

« **دايد سنيتلانا** » D. Santilana 1855 - 1931
ولد عرفته الجامعة المصرية القديمة استنادا لتاريخ الفلسفة الاسلامية .

كان نلليو يملك زمام العربية كابيا ونافذا ، وكان يلقى صافراته على طلبة الجامعة العربية بالثقة العربية ، كما نشر بعض أبحاثه بها ، منها : تاريخ علم الفلك عند العرب نشره سنة ١٩١٢ ، وتاريخ الآداب العربية ، من الجاهلية حتى عصر بن أمية ، ونشره دار المعارف سنة ١٩٤٤ .

وكانت إقامته في مصر سنة ١٨٩٣ طالبا في كلية دار العلوم حازوا له على إقنان العلوم العربية ودراستها بالطريقة التقليدية إلى جانب تبحره لهجة المصرية التي نشر في نشرها وصرفها وتصويبها ومفرداتها ، الكتاب الأول من نوعه سنة ١٩٠٠ .

في اللغة : أما أول كتبه في اللغة وتاريخ اللغة فهو مقتطعات تركابية نشره سنة ١٨٩٣ والحق بها مجمعا على غاية من الدقة ، وذكر فيه اشتقاق الألفاظ ومساها كما فهمت في عصر الرسول - ثم نشر بعض صواهد القبور العربية من جنوب إيطاليا - وله مقال بالعربية في مجلة الهلال ، كيف نشأت اللغة العربية ؟ وآخر في مجلة الهلال ، العروبة العربية هل تصلح للتسمية العربية ؟ ، وتصحيحات غريبة في مصيحات اللغة نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . وله مقالات كثيرة في مصاليف الآداب العربية .

المنشأ الأصلي لكلمة « نيليتو » واستحدثها عند الفلاسفة وعلماء الفلك ، وكلمة « يباسي » بمعنى « قار » التي وردت في نص معاهدات في مصر وأرجان في القرن الثالث عشر الميلادي ، وكلمة « ها هنا » التي استخدمها ابن رشد بمعنى « يوجد » وهي مثل الصاندة في « .

الآداب العربية : تعددت البحوث التي نشرها « نلليو » في الموضوعات الأدبية منها « حقاير الحكم وكتاب طربيا » و « تاريخ آداب اللغة العربية » و « نقص في تاريخ آداب اللغة والعلوم التاريخية عند العرب » و « بيت النابية الأدبيات من الإلهود » و « آثار كتب يونانية وصلت العرب من طريق اللغة المجهولة » و « م من متولي محمود تهمود ، ترجمه ونظم له لم يلق عليه » و « ملاحظات من ابن المقفع وابنه » .

التاريخ الإسلامي : فرغ « نلليو » في إعادة نشر كتاب « أمادي » من تاريخ مسلمي صقلية ، ونشر عدة بحوث تاريخية منها « من تشرع القبائل العربية قبل الإسلام » و « الهندية وسفاسي في القرن الثامن عشر كما وصفها المؤرخ المصري مقدسي » و « تاريخ اليمن قبل الإسلام » و « رواد اليمن من الأدويين » و « هل كانت مصر تتصلل رأسا مع جنوب جزيرة العرب قبل عصر البطانة ؟ » و « علاقة العالم الإسلامي بأوروبا » و « من العرب والبربر في بلاد برقة » و « محفوظات حريان من تاريخ بلاد اليمن محفوظان في مجموعة كابتاني » .

الجغرافية : وله في الجغرافية العربية بحوث منها : « القياس التري لدرجة دائرة نصف النهار عند جفرا الصوب » و « الفوازمي وتجهيزه لجغرافية بيلكوس » و « كيفية كتابة الاسماء الجغرافية باللغة العربية والفارسية والتركية » و « الاسماء الجغرافية في العالم الإسلامي في بعض مؤلفات عربية حديثة » و « كيف كتب الاسماء الجغرافية في طرابلس الغرب وبنقة باللغة الإيطالية واللغة العربية » و « الجداول الجغرافية للنباتي مع الترجمة والتعليق » و « خريطة عربية من القرن السادس عشر لليوناني لمي من أميد من مدينةسافلي » و « رحلة سائح في ليبيا من القرن الثامن عشر » .

هذا وقد عهد جميع اللغة العربية للاستاذ نلليو ، الذي كان عضوا عملا فيه بتحقيق الاسماء الجغرافية في المسالك الإسلامية .

علم الفلك : أما علم الفلك عند العرب للاستاذ نلليو من الصعدة فيه ، نشر كتاب البتاني الفلكي بالعربية في محفوظه

بالاسكوريال مع الترجمة اللاتينية وعلق عليها ، والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات بدأ بنشرها سنة ١٩٠٣ . أما كتابه تاريخ علم الفلك عند العرب الذي نشره سنة ١٩١٢ ، فقد جمع فيه ما عرف في العربية في علم الفلك ، وقد تولاها نلليو بالعرض والتقد ، وعدد ملاحظة ذلك بعلم الفلك عند اليونان والفرس والهند ، وأظهر المعلومات الفلكية عند العرب قبل الإسلام . وله رسالة في علم الفلك عند جفميشي ، و « هل يقال زرق أم ررق في علم الفلك الدارج عند العرب ؟ » و « كلمة طلع في علم الفلك عند العرب » و « الشمس والقمر والكواكب عند المسلمين » .

الفقه الإسلامي : درس نلليو تاريخ الفقه الإسلامي وكذلك فقه الشرق القديم والشرق المسيحي ، ولد الفقه رسالة من « كتاب البيان لابن رشد الفقيه » وهو جد ابن رشد الفيلسوف ونشرها سنة ١٩٠٤ وله رسالة في « الفقه الإسلامي في القوانين الرسالية المسيحية لابن المعيرى » و « لكفالة في الفقه الحنلي » و « تحرير الإحالة في الفقه الروماني التيمري وما يماثله عند العرب » وله مقالات من « الفقه الإسلامي » و « بيت المال » و « القاضي » .

الفكر الإسلامي : كان الاستاذ نلليو على علم لا يبارى بعلمو الدين الإسلامي والفكر الإسلامي والفرق الإسلامية . كتب رسالة عن « الإسلام في العصر الحاضر » في مجلة مقاصد الإسلام المصرية ، ونشر اسم فرفتن إسلاميتين مستندا على اللغة والتاريخ ، فبين أن المعتزلة مناهة « الحاديون » لا كما ذهب العلماء بأن مناهة « المفسلون » وبين أن « القدوية » الذين لم يقبلوا القدر بل رفضوه مسوا بذلك لأنهم اشتغلوا بالقدس لم وصف الصلة بين كلام المعتزلة وكلام الإباضية ، وشرح ما بين الفرقتين .

ونشر مقالا من رأى ينسب إلى الجاحظ « بأن القرآن جسد يتقلب تارة أنسانا وتارة حيوانا » ولم يفهم العلماء هذا الرأي وأدركوا من أوجه كثيرة . فشرحه الاستاذ نلليو بأنه إذا زعم أن القرآن مخلوق فلهذا الرأي لا يقصد بدلا بديها وحقيقيا بل نظريا محضلا نظريا تفسره الله ، لأن الله بقدر أن يفهم ما خلق .

وظهرت له عدة بحوث عن « الإجماع » و « الحادي » و « مصدر الغرضي لليرة النبوية لم ينشر » و « الخلافة » .

كما نشر في الصفوف « القصيدة الصوفية العربية لابن الفارسي » و « ملاحظات على ابن الفارسي وعلى التصوف الإسلامي » .

ولتكن نلليو من الآداب الصوفية الشرقي والغربي ، أمكنه أن يشرح الفرق بين تصور الشارم وبين الذهب الفلسفي ، لم يكن كيف يكون المسلم العربي لابت المقيدة ، مبينا لفظة ابن الفارسي : « بعد معانيه » ونشر لفته .

من نلليو سنة ١٩٢١ مديرا للمعهد الشرقي بروما ، وأخرج مجلة الشرق المعصرى Oriente Moderno والتي لا تزال تصدر وتشرط عليها ابنته « ماريه نلليو » . وهي مجلة فريدة في نوعها ، وجهها نلليو لتندون كل ما يخص الشرق الحاضر ، وذلك في دقة بالغة وإمانة علمية .



ترك العلماء الراحلون زمام الدراسات العربية في (إيطاليا) بإيدي أساتذة الفاضل ، يقومون بها على الوجه الأملى الأكمل ، نخص بالذكر منهم « دلافيا » Delia Vida « فرانسكو جريبيلي » Gobriali « لورا فتشا فاليري » Veccia Vaglieri « وألبرتو ريسيتانو » Cerulli « ماريه نلليو » Moreno « أوجيرو ريتشيتو » Rizzitano « ماريه نلليو » Nallino « وصاماتيئو موسكالي » Moscati « كليليا سارنيلي » Sarneili

كان نلليو يملك زمام العربية كابيا ونافذاً ، وكان يلقى صافحاته على طلبة الجامعة العربية بالثقة العربية ، كما نشر بعض أبحاثه بها ، منها : تاريخ علم الفلك عند العرب نشره سنة ١٩١٢ ، وتاريخ الآداب العربية ، من الجاهلية حتى عصر بن أمية ، ونشره دار المعارف سنة ١٩٤٤ .

وكانت إقامته في مصر سنة ١٨٩٣ طالباً في كلية دار العلوم حازوا له على إقنان العلوم العربية ودراستها بالطريقة التقليدية إلى جانب إتقانه لهجة المصرية التي نشر في نشرها وصرفها وتصويبها ومفرداتها ، الكتاب الأول من نوعه سنة ١٩٠٠ .

في اللغة : أما أول كتبه في اللغة وتاريخ اللغة فهو مقتطعات تركابية نشره سنة ١٨٩٣ والحقق بها مجعاً على غاية من الدقة ، وذكر فيه اشتقاق الألفاظ ومماها كما فهمت في عصر الرسول - ثم نشر بعض صواهد القبور العربية من جنوب إيطاليا - وله مقال بالعربية في مجلة الهلال ، كيف نشأت اللغة العربية ؟ وآخر في مجلة الهلال ، العروء العربية هل تصلح للتكتابة العربية ؟ ، وتصحيحات غريبة في مصيحات اللغة نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . وله مقالات كثيرة في مصاليف الآداب العربية .

المنشأ الأصلي لكلمة « نيليتو » واستحدثها عند الفلاسفة وعلماء الفلك ، وكلمة « يباسي » بمعنى « قار » التي وردت في نص معاهدات في مصر وأرجان في القرن الثالث عشر الميلادي ، وكلمة « ها هنا » التي استخدمها ابن رشد بمعنى « يوجد » وهي مثل الصاندة « فيه » .

الآداب العربية : تعددت البحوث التي نشرها « نلليو » في الموضوعات الأدبية منها « حقاير الحكم وكتاب طربيا » و « تاريخ آداب اللغة العربية » و « نقص في تاريخ آداب اللغة والعلوم التاريخية عند العرب » و « بيت النابية الأدبيات من الإلهود » و « آثار كتب يونانية وصلت العرب من طريق اللغة المجهولة » و « م من متولي محمود تيمور ، ترجمه ونظم له لم يلق عليه » و « ملاحظات من ابن المقفع وابنه » .

التاريخ الإسلامي : فرغ « نلليو » في إعادة نشر كتاب « أمادي » من تاريخ مسلمي صقلية ، ونشر عدة بحوث تاريخية منها « من تشرع القبائل العربية قبل الإسلام » و « الهندية وسفاسي في القرن الثامن عشر كما وصفها المؤرخ المصري مقدسي » و « تاريخ اليمن قبل الإسلام » و « رواد اليمن من الأدوبيين » و « هل كانت مصر تتصلل رأساً مع جنوب جزيرة العرب قبل عصر البطالنة ؟ » و « علاقة العالم الإسلامي بأوروبا » و « من العرب والبربر في بلاد برقة » و « محفوظات حريان من تاريخ بلاد اليمن محفوظان في مجموعة كابتاني » .

الجغرافية : وله في الجغرافية العربية بحوث منها : « القياس التري لدرجة دائرة نصف النهار عند جفرا الصوب » و « الفوارزمي وتجهيزه لجغرافية بلكليس » و « كيفية كتابة الاسماء الجغرافية باللغة العربية والفارسية والتركية » و « الاسماء الجغرافية في العالم الإسلامي في بعض مؤلفات عربية حديثة » و « كيف كتب الاسماء الجغرافية في طرابلس الغرب وبنقة باللغة الإيطالية واللغة العربية ؟ » و « الجداول الجغرافية للنباتي مع الترجمة والتعليق » و « خريطة عربية من القرن السادس عشر لليوناني لميل من أميد من مدينةسافلي » و « رحلة سائح في ليبيا من القرن الثامن عشر » .

هذا وقد عهد جميع اللغة العربية للاستاذ نلليو ، الذي كان عضواً عمالاً فيه بتحقيق الاسماء الجغرافية في المسالك الإسلامية .

علم الفلك : أما علم الفلك عند العرب للاستاذ نلليو من الصعدة فيه ، نشر كتاب البتاني الفلكي بالعربية في محفوظه

بالاسكوريال مع الترجمة اللاتينية وعلق عليها ، والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات بدأ بنشرها سنة ١٩٠٣ . أما كتابه تاريخ علم الفلك عند العرب الذي نشره سنة ١٩١٢ ، فقد جمع فيه ما عرف في العربية في علم الفلك ، وقد تولاها نلليو بالعرض والتقد ، وعدد ملاحظة ذلك بعلم الفلك عند اليونان والفرس والهند ، وأظهر المعلومات الفلكية عند العرب قبل الإسلام - وله رسالة في علم الفلك عند جفميشي « و « هل يقال زرق أم ررق في علم الفلك الدارج عند العرب ؟ » و « كلمة طلع في علم الفلك عند العرب » و « الشمس والقمر والكواكب عند المسلمين » .

الفقه الإسلامي : درس نلليو تاريخ الفقه الإسلامي وكذلك فقه الشرق القديم والشرق المسيحي ، ولد الفقه رسالة من « كتاب البيان لابن رشد الفقيه » وهو جد ابن رشد الفيلسوف ونشرها سنة ١٩٠٤ وله رسالة في « الفقه الإسلامي في القوانين الرسالية المسيحية لابن المعيري » و « لكفالة في الفقه الحنلي » و « تحرير الإحالة في الفقه الروماني التيمري وما يماثله عند العرب » وله مقالات من « الفقه الإسلامي » و « بيت المال » و « القاضي » .

الفكر الإسلامي : كان الاستاذ نلليو على علم لا يبارى بعلم الدين الإسلامي والفكر الإسلامي والفرق الإسلامية - كتب رسالة عن « الإسلام في العصر الحاضر » في مجلة مقاصد الإسلام المصرية ، ونشر اسم فرفنتين إسلاميتين مستمدتا على اللغة والتاريخ ، فبين أن المعتزلة مناهة « الحاديون » لا كما ذهب العلماء بأن مناهة « المنصرون » وبين أن « القدوية » الذين لم يقبلوا القدر بل رفضوه مسوا بذلك لأنهم اشتغلوا بالقدس لم وصف الصلة بين كلام المعتزلة وكلام الإباضية ، وشرح ما بين الفرقتين .

ونشر مقالاً من رأى ينسب إلى الجاحظ « بأن القرآن جسد يتقلب تارة أنساناً وتارة حيواناً » ولم يفهم العلماء هذا الرأي وأدركوا من أوجه كثيرة - فشرحه الاستاذ نلليو بأنه إذا زعم أن القرآن مخلوق « فهذا الرأي لا يقصد بهديلاً بديهيًا وحقيقيًا بل نظريًا محضًا نظريًا تفسيرة الله ، لأن الله بقدر أن يفهم ما خلق .

وظهرت له عدة بحوث عن « الإجماع » و « الحادي » و « مصدر الغرضي » لليسرة النبوية لم ينشر « و « الخلافة » .

كما نشر في الصفوف « القصيدة الصوفية العربية لابن الفارسي » و « ملاحظات على ابن الفارسي وعلى التصوف الإسلامي » .

ولتكن نلليو من الآداب الصوفية الشرقي والغربي ، أمكنه أن يشرح الفرق بين تصور الشام وبين الذهب الفلسفي ، لم يكن كيف يكون المسلم العربي لابت المقيدة ، مبينا لفظة ابن الفارسي : « بعدد معانيه » ونشر لفته .

من نلليو سنة ١٩٢١ مديراً للمعهد الشرقي بروما ، وأخرج مجلة الشرق المعصرى Oriente Moderno والتي لا تزال تصدر وتشرط عليها ابنته « ماريه نلليو » ، وهي مجلة فريدة في نوعها ، وجهها نلليو لتندون كل ما يخص الشرق الحاضر ، وذلك في دقة بالغة وإمانة علمية .



ترك العلماء الراحلون زمام الدراسات العربية في (إيطاليا) بإيدي أساتذة الفاضل ، يقومون بها على الوجه الأملى الأكمل ، نخص بالذكر منهم « دلافينا » Delia Vida « فرانسيسكو جريبيلي » Gobriali « لورا فتشا فاليري » Vecola Vaglieri « وألبرتو ريسيتانو » Cerulli « ماريه نلليو » Moreno « أوجورنو ريتشيتانو » Ristichano « ماريه نلليو » Nallino « وصاماتيئو موسكالي » Moscati « كليليا سارنيلي » Sarneili

الأسباب التاريخية

و بنيت على أساس : علم

القيم الإنسانية

الذي لم يستطع أن يقول إن تاريخ الإنسانية في جوهري هو تاريخ الأبطال أو الأفراد البارزين الممتازين .

فهل من الميسور التوفيق بين هذين المذهبين المتعارضين ، المذهب الذي يرى أن أعمال الأفراد ليست سوى نتائج للمؤثرات العامة والنزعات الغالبة ، والمذهب الذي يرى فيهم القوة المحركة والدافع الأصلي في الحركة التاريخية ؟ وإذا لم يكن ذلك ميسورا فأيهما أقرب إلى الحق وأجدر بالقبول ؟ ويخيل لي أن هذا هو لب الخلاف بين القائلين بأن التاريخ علم وبين الذين يرون غير ذلك .

والمسألة بهذا الوضع شديدة الاتصال بمشكلة الأسباب التاريخية ، وهي مشكلة جد شائكة ، ولكن لا مفر من التمرس فيها لمن يريد جلاء غوامض هذا الموضوع ، فهناك جماعة من الفلاسفة يرون التفريق بين مجال الأعمال الإنسانية والأحداث الطبيعية ، وحجتهم في ذلك أن للإنسان إرادة حرة تؤهله للسيطرة على أعماله ولا تجعله خاضعا لشيء

من المسائل التي ما يفك يدور حولها الخلاف ويشور النقاش بين الفلاسفة والمؤرخين مسألة : هل التاريخ علم ، وفريق من المؤرخين يؤكد أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل ، وفريق آخر لا يقل عن الفريق الأول وزنا وأهمية يذهب إلى أن التاريخ أقرب إلى الفن منه إلى العلم ، وقد طال الخلاف بين الفريقين وهو لا يفتأ يتحدد من حين إلى حين ، ولا يبدو في الأفق الفكرية أنه قد آذن بالانتهاء ، وليس من همي ترجيح أحد الرأيين على الآخر لأنني أريد أن أنظر إلى المسألة من زاوية أخرى .

ويمكن أن نلاحظ منذ بدء ظهور الكتب التاريخية المأثورة أن المؤرخين على اختلاف مذاهبهم وتباین أساليبهم في كتابة التاريخ ينقسمون إلى قسمين ، فريق يعني بالاتجاهات العامة والنزعات الغالبة ولا يهتم كثيرا بالأفراد ويأهمهم محمولين على إثبات الحوادث خاضعين لسنن الطبيعة كسائر المخلوقات والأشياء ، وفريق آخر يوجه عنايته إلى الأفراد البارزين ، ويرى فيهم عاملا من أهم العوامل المؤثرة في سير التاريخ وأحداث حركاته ودفع تياراته ، وفي طليعة أمثال هؤلاء المؤرخين : توماس كارلايل

آخر خارج ارادته ، وأعمال الإنسان بموجب هذا
الرأى تم على حقيقته وتكشف عن شخصيته ، ومن
ثم فإن هناك رابطة لا انفصام لها بين الإنسان وبين
ما يصدر عنه من الأعمال ، وهذا هو عين ما تفعله فى
اصدار الأحكام على الشخصيات التاريخية وعلى من
نعرفهم ونخالطهم من الناس بوجه عام .

وقد يساورنا الشك فى امتلاك الإنسان لهذا
المقدر من الحرية ، ولكننا إذا رفضنا فكرة حرية
الارادة وجدنا أنفسنا كذلك مضطرين إلى الشك فى
فكرة خضوع أعمال الإنسان لقوانين الطبيعة وأنه
مخير فى كل ما يأتى من الأعمال ، وقد سيطرت
فكرة الجبر على المفكرين الماديين فى القرن التاسع
عشر وفى طليعتهم المؤرخ الشهير « بكل » مؤلف
كتاب « تاريخ الحضارة فى إنجلترا » فقد أطال
فى كتابه الحديث عن القوانين العامة المسيطرة على
الأحداث وعند « بكل » أن الحركات التاريخية
محتومة مثل سائر الحركات الطبيعية ، وإنها خاضعة
لمقدمات لا خلاص لها من التأثير بها ، وقد حسا
« بكل » أن يدرس تاريخ الحضارة دراسة موضوعية
دون أن يتغفل إلى ذكريات الإنسان الفرد ومشاعره

وخيالاته ومثله العليا ، ورأى الاكتفاء بالنظر إلى
أعمال الجماعات الكبيرة وعلاقتها بالطبيعة ، فليس
لا يلقى باله إلى الصراع الذى كان يثور بين الأفراد
وتصادم اراداتهم وتناقض أهوائهم واتجاهاتهم ،
والخصائص الفردية عنده لا قيمة لها فى سير
الحوادث وأنه يمكن التعميل على الإحصائيات الدقيقة
فى التنبؤ بالأحداث ، مثل توقع حدوث المد والجزر
والمعرفة السابقة لتحركات الكواكب ، وذلك لأن
الطبيعة الإنسانية حتى فى أعمالها الإرادية خاضعة
للسببية نفسها المطرة فى العالم المادى ، والجبر
والثبوت ومظهر الطبيعة هى العوامل الرئيسية فى
تطور الحضارة وتقدم الإنسان ، وذلك لأن الكائنات
البشرية تمسك بموجب تأثير الدوافع الطبيعية
وطروف البيئة على أحوالهم الجسدية والعقلية ، وكل
إنسان يعمل بمقتضى دافع ، وسلوكه يحتمه أقوى
دافع يسيطر عليه وهو من ثم لا يملك حرية
الاختيار ، وقد يبدو أن الإنسان يختار ما يراه
صالحا ، ولكن عند « بكل » أن تقدير ذلك متوقف
على أحوال بيئته والظروف التى شكلت كيانه وكونت
مزاجه ، وتاريخ البشر فى رأى « بكل » ليس تاريخ
الرجال العظماء كما رأى « كارلايل » ، لأن الرجال

العظماء خاضعون لنفس الضرورات التى يخضع لها
سائر الناس برغم ما قد يظهرون من التسود من
المألوف .

ويستعرض « بكل » نظرا إلى تأثير العامل
الجغرافى ، فأمم الشمال مثلا أهل جد ونشاط
لأن الطبيعة القاسية فى بلادهم تفرض عليهم بذل
الجهد ومجافاة الكسل والتقاعد فى حين أن سكان
الجنوب ليسوا فى حاجة إلى الاكثار من الغذاء
ويمكنهم الاكتفاء بأقليل من الملابس ، ونتيجة لذلك
نرى مثلهم إلى الراحة واللدخ ، وواضح أن أعمال
هذه الآراء لا يمكن قبولها على علانها فإن إيطاليا
مثلا وهى إحدى المناطق الجنوبية كانت مستقر
الرومان الذين لا يشك أحد فى أنهم كانوا من أقوى
الناس عزيمة وأوفرهم نشاطا ، وحينما يرمى « بكل »
الاسبانيين بالبل إلى الاعتقاد بالخسائر ، ويعمل
ذلك بكثرة حدوث الزلازل فى بلادهم ويمكن أن يرد
عليه بما لاحظته المؤرخ فروود (١) وهو أن بلاد اليابان
من أكثر بلاد العالم تعرضا للزلازل والبراكين ، ومع
ذلك فإن اليابانيين من أشد الناس انكارا لكل ما هو
دوق الطبيعة .

وشطورة هذا اللون من ألوان التفكير انه لو صح
أن الإنسان الخبيث لهم مع قوانين الطبيعة وأحكام
الضرورات لا يفتقر المسئولية الأدبية وأصبح من الظلم
الذين معاقبة الناس على ما يتورطون فيه من
الخطايا (٢) وما يجترحون من الآثام جلت أو
هانت .

والواقع الملحوظ فى حياتنا اليومية وأعمالنا
العادية أننا نتمتع بقسط لا بأس به من حرية
الاختيار ، ولست أشك فى أن فكرة الجبر تنطوى
على جانب من الحق ، ولكن أنصار هذه الفكرة
لا يقفون عند الحدود المعقولة ويصل بهم التطرف إلى
النظر إلى الإنسان باعتباره آلة مسيرة لا يملك لنفسه
نفعا ولا ضرا وأنه الخوبة فى يد الضرورات .

ولا نزاع فى أن للبيئة تأثيرا ملحوظا فى تكوين
الإنسان الفكرى والجسدى ، ومما يمثينا على فهم
عظمه التاريخ وحسن تقديرهم دراسة ثقافتهم
والوسط الذى تقلبوا فيه ، وتاريخ المشكلات التى
تناولوها وطبيعتها .

ولكن هل الظروف هى كل شئ ؟ وهل الإنسان

(١) مقالة فروود عن علم التاريخ
(٢) سبق أن تناولت هذا الموضوع بشئ من الإسهاب فى
مجل من « الجريمة والمجنون » فى « لماذا يقتل الإنسان »

والتعلق بالأحلام المثالية ، وقد يوافينا مثل هذا المشاهد لأحوال الإنسانية بمعلومات دقيقة وآراء مستوعبة صحيحة ولكن عجزه عن التفسير الذاتي سيزرى بالمعلومات التي يمدنا بها ويقدم في قيمتها، وهذه هي العقبة القائمة في سبيل جعل التاريخ علما تطرد فيه القوانين وتنسق الأحكام، لأن خاصة تميز كل فرد وتأثير فرديته تظهر لنا الفرق الكبير الأسيل بين مجتمع الإنسان ومجتمع الحيوانات والحشرات .

ويمكن أن نستخلص من ذلك أن هنالك مجالين لقانون السببية ، مجال يطرد فيه في نظام دون أن يعوقه عائق ، ومجال آخر يتوقف فيه قانون السببية على وعينا البشري وادراكنا الانساني ، وفي تجاربنا الإنسانية ينطبق قانون السببية في حياة الإنسان بوصفه حيوانا ، ولكن في حياة الإنسان بوصفه انسانا يبدو أثر المجالين ، وذلك لتدخل الإرادة البشرية والاختيار الانساني ، وبناء على ذلك فأننا إذا أنكرنا وجود القوانين المسيطرة على حياة الإنسان أصبح التاريخ فوضى لا نهاية لها ، ولكننا إذا طبقنا القوانين الطبيعية على مجال الأعمال الإنسانية أنكرنا وجود الأعمال التي تصدر منا عن قصد وتوجه الى غاية مطروحة .

وواضح من ذلك أن السبب المعين هو الإرادة الفردية الإنسانية ، ونحن حينما نعرض لتاريخ عصر من العصور أو أمة من الأمم نجد أن الأحوال الطبيعية والجوية ، والعوامل الاقتصادية والاجتماعية ، وأعمال الرجال العظيمة الفردية لها تأثيرها وأنها جميعا تعد الأسباب المؤثرة ، ونلاحظ هنا أن الفرد يعد سببا من أسباب الحوادث ، وفي الوقت نفسه يعد نتيجة من نتائج ظروف البيئة التي نشأ بها ، ومعنى ذلك أننا نفرق في الأحوال الإنسانية بين عوامل ثلاثة وهي الأحوال الطبيعية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، والأهداف الفردية ، وهذا الخليط من العوامل الثلاثة يؤثر في حياة الأفراد كما يؤثر في حياة الأمم .

وتأثير الأحوال الجوية والأمراض وما الى ذلك في حياة الأفراد مما لا يمكن إنكاره ، ولكن يمكن أن نلاحظ أن تأثيرها في جوهره سلبي محدود المدى أي أن الأحوال السيئة قد تعوق التقدم ولكن الأحوال الجوية المواتية لا تضيف شيئا إيجابيا الى

مسلوب الإرادة قاصر المسعى ، مغلوب على أمره أمام للآثرات الخارجية والسنن الطبيعية ؟ هذه هي المسألة بحذافيرها ، فلو صح أن الإنسان مسوق بالقوانين الطبيعية وخاضع لها خضوعا تاما مثل النبات والحيوان لكان التاريخ علما مقردا لأحكام يمكن التنبؤ فيه بما سيقع من الأحداث وما تنمض عنه الأيام .

ولكن النظرة الى طبيعة القوانين العلمية في العصر الحاضر تختلف عن النظرة إليها في الوقت الذي عاش فيه « بكل » والمفكرون المباديون في القرن التاسع عشر ، فالقوانين العلمية ينظر إليها الآن على أنها قوانين وضعية ، فالخاص ليس متوقفا على العام ، وإنما نحن نستخلص العام من الخاص ، فالسائر في الطريق إذا عثرت قمعه وسقط على الأرض فليس قانون الجاذبية الذي كشف عنه « نيوتن » هو سبب سقوطه ، والأمر على النقيض فإن سقوط السائر في الطريق هو الذي يثبت وجود قانون الجاذبية ، وإنما السبب المباشر في السقوط هو أن السائر عثر بشيء في الطريق ، والذي يموت في إحدى الحوادث ليس سبب موته أن الموت ضم في رقاب الناس وإنما سبب موته الحادث المعين الذي أصيب فيه .

والواقع أن التفريق بين السبب الخاص والسبب العام من الأمور الواضحة ، ولكنه مع ذلك كثيرا ما نفعل من شأنه ، من أمثال ذلك أننا يمكن مثلا أن نربط بين إحصاء عدد الجرائم التي تقع في إحدى المحافظات والظروف الاجتماعية والاقتصادية السائدة بها ، ونستخرج من ذلك قانونا ، ولكن هذا القانون بطبيعة الحال غير كاف في تحليل أسباب كل جريمة تقع في هذه المحافظة .

وموضوع التاريخ هو أعمال الناس وسلوكها وموقفها إزاء شتى أمور الحياة ، وفرق كبير بين مراقبة سلوك قطع من الحيوان أو مجموعة من الحشرات ، وبين مراقبة المجتمعات البشرية ، فالذي يراقب المجتمعات البشرية قد يستطيع أن يلاحظ تأثيرها بالبيئة الجغرافية والأحوال الاقتصادية ولكنه سيكون جاهلا بهذه المجتمعات تمام الجهل إذا كان لا يدري بواعث الحب والكراهية وما يستهوي أفئدة بعض الأفراد من النزوع الى الطموح والرغبة في التفوق أو الحرص على الاستعلاء فوق الضرورات

ومخترعو الأجهزة التي تؤثر في حياتنا الحاضرة مثل المذياع والتليفزيون وما إلى ذلك من مظاهر هذا العصر الآلى هم من قبيل مؤلفي السكتب وموجدى التقاليد والنظم ، والآلة مثل الكتاب ليست سوى وسيلة ينتقل بها تأثير عقل على عقل آخر .

والعوامل الاقتصادية مثل الآلات والمخترعات هي ميراث مكون من جهود السياسيين وعلماء الاقتصاد والتجار ومائر من ساعدوا على جعل حاضرنأ فى الصورة التي نراه بها ، أى أن وراء هذه المؤثرات جميعها إرادة الإنسان ، ونحن فى العصر الحاضر ورة الأجيال السالفة جميعها ، ونحن من غير شك متأثرون بهذا الميراث الضخم ، ولكن مع شعورنا بذلك فاننا نشعر كذلك بأننا أوتينا القدرة على بناء الحاضر وعلى أن نصيف شيئاً الى ميراث الأجيال السالفة ، أى أننا لسنا مجرد آلة فى يد الصوامل الاقتصادية أو القوانين الأبدية .

وعظمة الأفراد التاريخية تقاس بمدى قدرتهم فى السيطرة على الحوادث لا بمدى سيطرة الحوادث عليهم ، وهذا هو المقياس الذى تقيس به عظمة الأنبياء والمصلحين وكبار القادة والفلاسفة والمفكرين . . . ولكن كل إنسان فى مدى قدرته المحدودة له مجال تأثيره ونصيبه المقدر من الأصالة والطرافة، والحاضر يضيف باستمرار الى الماضى بطريق الإرادات البشرية الجديدة ولولا ذلك لكانت الناس فى العصر الحاضر عبيداً للماضى لا ورة له .

وقد ذهب بعض المفكرين الى أن مجال الرجل المبقرى فى العصر الحاضر أضيق حدوداً وأقل سعة من مجاله فى العصور السالفة ، وفى الوقت الذى كان فيه رجل مثل نابليون يهدم العروش ويبنيها لم يكن من المقبول ظهور مذهب فى كتابة التاريخ يجرده من العامل الإنسانى ، والأحوال السياسية الحاضرة كما يرى هؤلاء المفكرون قد أصبحت من التعمد والاتساع وترامى الحدود بحيث لا يستطيع عقل الإنسان الفرد الإحاطة بها من جميع أطرافها ، وقد لا يخلو هذا الرأى من جانب من الحق ولكن

الأمم ، والإنسان كالتبات يحتاج إلى التربة الصالحة والهواء العلق والغذاء المناسب وضوء الشمس لينمو وتنتج ملكاته ومواهبه ، ولكن أحصب تربة لاحتيل الشوك وردا ولا تخلق من الإنسان المتخلف عبقريا ، وبعض المؤلفات التي تتناول تاريخ بلاد اليونان تشير الى تأثير موقعها الجغرافى فى تقدمها التاريخى ولا سبيل للاعتراض على ذلك مادامنا نتناول العناصر التي تكونت منها الحضارة اليونانية، ولو أننا عزونا الى الموقع الجغرافى كل فضل فى تكوين النقشافة اليونانية لكانت كل أمة تقيم فى بلاد اليونان تخرج مثل فلسفتهم وتأتى بعلوم كملوهم ، والبسفرة الثقافية كانت كامنة فى نفوس اليونانيين والنفسل الأكبر لبلادهم هو أنها لم تمترض نمو هذه البسفرة وإنما مهدت لها السبيل وساعدت على نضجها .

ونقد عزا بعض المفكرين سقوط الدولة الرومانية الى تأثير مرض الملاريا ، وقد تكون الملاريا ممسا ساعد على هذا السقوط ولكنها ليست العلة الأصلية والسبب الرئيسى ، والأمم كالأنبياء قد تشقى بالأمراض ولكن ليس للمرض ولا للظروف تأثير فى العمل الإيجابى الذى يستطيع أن يقوم به الإنسان .

ولا نزاع فى أن أخلاق الإنسان تتأثر بأخلاق والديه وأسرته وأساتذته وأصدقائه ومعاشره وحتى بأخلاق أعدائه وخصومه ، والتفاعل مستمر بين إرادة الإنسان الخاصة وإرادات من يحتك بهم من الناس ، وقد تتأثر بالموتى والأجيال السالفة عن طريق الكتب والتقاليد والأديان والفلسفات ، وعظماء التاريخ يؤثرون فى حياتنا عبر القرون المتوالية ، وذلك كله ظاهر واضح ، ولكن الشيء الذى لا نقدره التقدير الكافى هو أن البيشة الاجتماعية والاقتصادية نتيجة لعامل الشخصية الإنسانية .

وكثيراً ما نتحدث فى عصرنا الحاضر عن الآلة وتأثيرها ، ولكن الآلة فى ذاتها لم تخرج عن كونها عملا من أعمال الإنسان وثمره من ثمرات تفكيره ،

نصير المسلايين من البشر في شتى أنحاء الكرة الأرضية يتوقف في العصر الحاضر على حكمة القادة والزعماء وحسن سياساتهم في تصريف الأمور وتوجيه الأحداث والإنسان الأعلى لا يزال له مكانه في عالمنا الحديث برغم تعدد أحواله وتكاثر مشكلاته التي تتحدى العقول والارادات .

وتأثير الحاضر في المستقبل مما يجعل التبعة الملقاة على كاهل عظماء هذا العصر جسيمة ، وقد ألقى المؤرخون على نابليون تبعة الكثير من الحوادث التي وقعت بعد وفاته ، وقد يقال أننا لا يمكن أن نحمل الموتى تبعة الأحداث التي وقعت بعد وفاتهم ، ولكن التبعة هنا ممتناها تقدير مدى تأثير الأعمال الإنسانية ، وقد لا يدرك الإنسان مدى التأثير البعيد لأعماله ، وتتبع الحوادث إلى أصولها الشخصية قد لا يخلو من خطورة ، وقد يكون من وراء طاعتنا ولكنه مع ذلك لا مفر منه في تفسير الأحداث التاريخية ، والتفسير العلمي للحوادث التاريخية على أهميته ليس كافيًا لأن التفسير الوافي للتاريخ يستلزم فهم العامل الإنساني والقيم الإنسانية ، فالتاريخ ان لم يكن علما فهو ليس دون مرتبة العلم بل هو في صميمه علم وشئ آخر أكثر من العلم .

وعند كارل ماركس ان بناء المجتمع الاقتصادي يقوم على علاقات الإنتاج ، وان هذه العلاقات هي الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه بناء الطبقات القانونية والسياسية ، وأن طريقة الإنتاج في الحياة المادية هي التي تحتم الصفة العامة لاتساق الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية، فليس وعى الناس هو الذي يحتم وجودهم ولكن الأمر على نقيض ذلك فان كيانهم الاجتماعي هو الذي يحتم وعيهم والرغبة في التملك هي التي توجد صور المجتمع والدولة وهي الدافع المحرك للجهود البشرية والصراع على امتلاك خيرات الأرض وطيبتها هو هدف شتى الاتجاهات السياسية وهو الذي يفسر معنى مختلف النظم والقضايا القانونية ، ولا نزاع في أن الحاجات الإنسانية هي أقوى البواعث في حياة الإنسان ،

ولكن ماركس يتصور هذه الحاجات في حدود ضيقة ، فليس يكفي الإنسان أن يرتوي طموه ويشبع جوعه ويرتدى الثياب ، وللإنسان حاجات روحية وعقلية وهي في العادة أقوى أثرًا من حاجاته المادية، وقد أشار نقاد رأى ماركس في التساريخ إلى أن الكثير من الأحداث الجسام لا يمكن أن تزورها إلى الأسباب الاقتصادية إلا إذا اعتدنا على الحقائق ، ففتوحات الاسكندر مثلاً ، وغزو العرب لاسبانيا ، وحرب المائة سنة بين فرنسا وإنجلترا وغزوات نابليون ، وذهاب جماعة المتطهرين إلى أمريكا الشمالية لم يكن سببها جميعا الدوافع المادية .

وقد ذهب بعض المفكرين إلى أن التفسير العلمي الصحيح للتاريخ يقوم على أن أعمال الإنسان جميعها دافعا المصلحة الذاتية ، وقد تكون هذه المصلحة مستتيرة مقنولة ولكن مضمون هذه النظرية ان طلب المنفعة وتحري المصلحة هما مفتاح أعمال الإنسان وأعدائه ، فليس سلوك الإنسان خاضعا لإرادته وإنما هو خاضع لمصلحته ، ولكن الواقع ان ما يمتاز به الإنسان النبيل والبطل العظيم ليس هو طلب المصلحة وتحري المنفعة ، وإنما هو تكرار الذات والتسامي على الضرورات ، فالوطني الذي يتعرض للإذء والإضطهاد في سبيل الدفاع عن حرية بلاده، والشهيد الذي يستهدف للموت في سبيل التعلق بعقيدته لا يمكن أن يقال عنهما انهما خضعا لدوافع المنفعة وطلب المنفعة، وتاريخ البشرية حافل بأمثالهما وهما موضع حب الناس وتقديرهم على اختلاف العصور والبيئات وتغير التقاليد والعادات .

وموجز القول ان الشخصية الإنسانية هي العامل الأصيل في الحركة التاريخية ، وان الإرادة البشرية هي صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في التقسيم الإنساني ، وإنما هي التي تضع القيم وتقرضها وبموجب هذه القيم الإنسانية يستطيع الإنسان أن يصمد للشدائد ويتحدى الضرورات ويصنع حاضره ويتقدم إلى المستقبل واتقا بنفسه مقدرا لتبعاته .



الجغرافيا والسياسة

بقلم : الدكتور محمد السيد غلاب

سنة الماسية ، تمهد كل جيل من أجياله الثلاثة ،
حربين كبيرتين على الأقل ، انتهت كل منهما عن
بروع قوى جديد ، وأقول أخرى ، وعن تفتت
امبراطوريات ، وميلاد دول جديدة .

نشأة الدول ونموها وتطورها ، وتغير الحدود
السياسية واتساعها وانكماشها أي الظواهر المكانية
للدولة هي موضوع اهتمام أحد فروع الجغرافية
البشرية ، وأسبقها استقلالاً عنها ، وهو الجغرافية
السياسية ، التي ظهر أول كتاب عنها عام ١٨٩٧
بقلم أحد آباء علم الجغرافيا الحديث : راتزل .

وكما أن العلوم السياسية بمعناها الشامل تشمل
علوم السياسة والاقتصاد فإن الجغرافيا السياسية
طلت تتضمن أيضاً الجغرافيا الاقتصادية حتى وقت
قريب ، ولا يزال أحد الكتب الرئيسية في الجغرافية
السياسية لبرونو هوتلي الذي يحمل عنوان
« الأرض والدولة » يفرّد باباً كاملاً لتوزيع
الحاصلات الاقتصادية الهامة التي تؤثر في الوضع
السياسي للدولة ، ولهذا ما يبرره ، فالسياسة في
الوقت الحاضر - أكثر من أي وقت مضى - تخضع

نحن في منتصف القرن العشرين / نعيش في
عالم متغير باستمرار ، ففي كل يوم ثورة جديدة في
مكان ما من العالم ، وتغير يشمل أحد وجوه الحياة
الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومن حين إلى
حين نشهد ميلاد دولة جديدة ، وارتفاع أعلام لم
يكن لها وجود من قبل . وإذا تصفحنا خريطة افريقية
أو آسيا بعد الحرب العالمية الثانية لاستدعى
انتباهنا تقلص ظل امبراطوريات عديدة من أطراف
القارة الاسيوية حتى لتوشك أن تكون جميعها
مستقلة ، وظهور دول جديدة في قارة افريقية لم
يكن لها وجود من قبل ، وأصبحنا نسلم عن كمبوديا
وانونيسيا وفيتنام ، ونوشك أن نسلم عن ميلاد
(اتحاد الملايو) ، وعن غانا وغينيا والكميرون
بدهشة وتطلع لا تختلف عن دهشة الجيل الماضي
عندما سمع عن ميلاد بولندة وتشيكوسلوفاكيا
ويوغوسلافيا ، وعود نفسه نسيان العرب واليويسنة
والجبل الأسود ، وإن أمثلة تغير الخريطة السياسية
للعالم في أجيال متقاربة لا تعوز أي دارس للجغرافية
السياسية . ويكفي أن نسمير أنه في خلال المائة

لتأثير الاقتصاد - كما أن بعض المذاهب الاقتصادية الكبرى ذات مدلول سياسي ، وأكثر من هذا فالمذاهب الاقتصادية تخضع لها أشكال المجتمع ، فالمجتمع الاشتراكي له مدلول معين ، وسياسة اقتصادية معينة ، والمجتمع الرأسمالي له مفهوم خاص ، وسياسة اقتصادية خاصة ، ونحن نتحدث عن العسكرية الاشتراكي ، والعسكرية الرأسمالي في السياسة الدولية ، كما تجرى على أقلام الكتاب تغييرات مثل اجتماعي اقتصادي ، حتى أصبح من المتصور في الوقت الحاضر الفصل بين النظام السياسي والنظام الاقتصادي الاجتماعي للدولة .

وتهتم الجغرافية السياسية بالوحدات السياسية من حيث النشأة والنمو والحدود والصلات الدولية ، وتعرف الوحدة السياسية بمساحة من الأرض تسكنها جماعة من الناس منظمة تنظيمًا سياسيًا ، سواء كانت هذه الوحدة إمبراطورية ، أو ولايات متحدة ، أو دولة اتحادية ، أو دولة موحدة ، أو مستعمرة ، أو محمية ، أو إقليم تحت الوصاية ، ما دام لها كيان أرضي خاص ، أي تحدها حدود معينة تفردا بذاتها وتفصلها عن غيرها .

وإننا ننظر إلى خريطة العالم السياسية في الوقت الحاضر ، فلا تكاد نجد رقعة واحدة ليس عليها علم مرفوع ، وقد انقضى ذلك الزمن الذي كانت تهرع فيه جماعات المغامرين والرواد لاكتشاف أراض جديدة لم تكتشف من قبل ، والاسراع برفع أعلام دولها عليها ، وانقضى زمن التسابق إلى سواحل « العالم الجديد » ، أو التكاثر على نهش جسم أفرقية أو إنزاحم على تقسيم مناطق النفوذ في قارة آسيا ، بل انقضى ذلك الزمن الذي كانت توزع فيه الأسلاب وتورث أشلاء إمبراطوريات سقطت على أخرى لم تزل في صفوانها - فحتى القارة القطبية الجنوبية ، قد تم تقسيمها على حسب خطوط الطول ودوائر العرض قبل أن يتم مسحها مساحة كشفية كاملة .

ولكل وحدة سياسية عناصر رئيسية ثلاثة هي : الأرض التي تقوم عليها ، والسكان الذين يقطنونها ، والنظام الذي تخضع له . وكل من هذه العناصر قابل للتحليل والوصف والتوزيع على خرائط ، كما أن كلا منها عوامل نشيطة متغيرة باستمرار ، ومن ثم كانت الجغرافية السياسية ديناميكية متغيرة بحكم

طبيعتها ، فهي إذ تهتم بالعلاقات بين السكان والبيئة ، أو الأرض التي تحتلها الجماعة البشرية وتكون منها وحدة سياسية ، فإنها أيضا تهتم بدراسة العلاقة بين كل وحدة سياسية وأخرى ، أي أن موضوعها تحليل العلاقات الداخلية والخارجية للوحدة السياسية .

ومن نافلة القول أن نذكر أنه لا توجد دولة في فراغ ، بل لا بد لها من أرض ، كما أنه لا توجد دولة دون سكان . وإن جاز أن يوجد ناس بلا دولة - كما أنه لا توجد دولة تستطيع أن تعيش في معزل تام عن بقية دول العالم ، ومن ثم كان نشاط الدولة الداخلي والخارجي أمرين متداخلين ، فكيان الدولة الداخلي يؤثر في كيانها الخارجي ، والدولة التي تعيش في أمن واتسجام داخلي ، أي التي تتكون من عناصر سكانية تنتمي أغلبيتها الكبرى لمعصر واحد أو قومية واحدة ، والتي لا ينقص حياتها مشاكل أقليات في الداخل ، وبمعنى آخر التي اكتسقت نموها القومي ، هذه الدولة تستطيع أن تتبنى طريقها في المجال الدولي بسهولة . أما الدولة المضطربة داخليا ، فهي كالجسم المريض ، تستنزف جهودها في اقرار الأمن والسلام والوحدة الداخلية ، ولا تستطيع بطول ذلك أن تجد من الطاقة والجهد ما يمكنها من الوقوف على قدميها في المجال الدولي ، كما أن استقلال الدولة ، وكفالة أمنها الخارجي يؤثر في رخاء سكانها وتقدمهم الاقتصادي وفي أمنها الداخلي . إذ أن الدولة التي تعيش في خوف أو التي يحيط بها الأعداء تستهلك قدرا كبيرا من ميزانيتها في الدفاع مما يهدد اقتصادها القومي باستمرار ويعرقل تقدمها ورفاهة شعبها ، وهذا قد يدفعها إلى سلوك عدواني معين يؤدي إلى تعريض أمن الدولة الخارجي للخطر .

إن الجغرافيا لا تهتم بالأهداف السياسية في حد ذاتها ، فهدد قد تكون أعراسا لمؤثرات تنبثق من البيئة نفسها ، أو أعراسات لأحداث أخرى أوسع مدى وأشمل مجالا ، ولكنها تربط تلك الأحداث بالاصول البيئية والتاريخية والسياسية للدولة ، أي بحقائق البيئة الطبيعية للدولة ، مثل الموقع الجغرافي والمساحة والحدود السياسية وقيمة تلك الحدود الدفاعية ، وبحقائق البيئة البشرية للدولة ، مثل عدد سكانها ، وعناصر هؤلاء السكان أو

تحدث « بتي Petty » في كتابه عن مناطق النفوذ الدول أو شكل الدولة الجغرافي ، والمساحة المثالية للدولة وكثافة السكان ، وتوزيع المدن الكبرى .

وقد اكتشف هذا إرلاند أهم صفتين جغرافيتين للدولة ، وهما الموقع والامتداد ، ورأى أن الموقع الجغرافي أهم للدولة من مدى امتداد رقعتها ، إلا أنه خرج من الملاحظة إلى وضع القوانين ، فقال إن الدولة يجب أن تشغل مساحة لا تزيد على قدر معين ويجب ألا تسرف في الامتداد حتى لتسهيل سيطرة حكومتها على جميع أجزائها ، وأن أكثر الدول أمنا ما كانت متحصنة وراء حدود طبيعية كالجبال أو المستنقعات ، أو المساحات المائية ، وحيدا لو كانت منزلة عن العالم ، سهلة الاتصال به في الوقت نفسه ، أي ذات صفة جزرية ، وربما كان « بتي » في هذا متائرا بموقع بلاده الجغرافي في هذه الملاحظة . أما عن أفضل مساحة الدولة وممتلكاتها فهي ما يمكن أن يستغله سكانها أحسن استغلال ، بحيث يصلون فيه إلى درجة كثافة مقبولة ، فقيسة السكان الاقتصادية لا تتوقف فقط على مقدار عددهم الفعل ، بل على مقدار كثافتهم وتركزهم في نقاط مهيمنة ، والسكان المنتشرون قليلو الكثافة ، مثل الأقلام المنتشرة في الامتداد المترامي الأطراف كلاهما موطن ضائع لا موطن قوة .

أما راتزل الألماني ، الذي يمثل مدرسة فكرية معينة ، فقد نشر كتابا عن الجغرافيا السياسية عام ١٨٩٧ ، أي بعد قرنين كاملين ، ويميل راتزل ، تلميذ الفيلسوف الألماني كانت ، إلى التجريد والتعميم ، ورغم أنه كان أول من درس عناصر الدولة الجغرافية دراسة علمية منهجية ، إلا أنه كان وطنيا متطرفا يتحدث - عند التطبيق - عن وطنه ألمانيا الكبرى باستمرار ، فهو عندما يتحدث عن عناصر الدولة الرئيسية ، وهي الموقع والمساحة وعندما يتحدث عن السكان والمجال الحيوي ، يفكر باستمرار في وطنه الألماني الكبير الممزق حينذاك .

يبدأ راتزل بدراسة مكان الدولة على الخريطة وموقعها الجغرافي ، ذلك الموقع الذي يربطها برباط طبيعي مع جيرانها ، والذي تتغير أهميته من فترة إلى أخرى في التاريخ ، طبقا لتغير مراكز القوى في العالم ، أي مراكز الثقل السياسية والحضارية ،

قومياتهم ، وعلاقاتهم بالسكان عبر الحدود ، وبحقائق البيئة الاقتصادية ، مثل درجة تقدم السكان العلمي والتكنولوجي ، ومقدار تضرهم واستغلالهم لموارد بلادهم الاقتصادية ، وقيمة تلك الموارد . وعلى ضوء هذه الحقائق يجب أن نفهم الأحداث السياسية من حولنا .

واننا لنذكر أن الدول كائنات من صنع الإنسان ، رغباته وآماله ، أطباعه وأخلاقه ، قوته وضعفه ، وذلك فهي عرضة للتغير ، وليس شكلها أو إطارها الطبيعي ضرورة أزلية لا بد منها ، إلا بقدر انسجام أهلها وقوتهم ووحدةهم وتضامير العناصر الطبيعية في حفظ هذا الشكل . ولقد شهد العالم تغيرات سياسية عديدة ، ولا حاجة لنا للدلالة على هذا إلى التوغل كثيرا في التاريخ ، وأماننا حدود أوروبا تتغير منذ نصف قرن فقط عدة مرات ، وأماننا حدود تقام في المشرق العربي لتخلق كيانات سياسية لم يكن لها وجود من قبل ، أو ونحن نمر في إحدى مراحل التاريخ الحاسمة بالنسبة للاستعمار ومناطق النفوذ ، فإن سرعة التغير في هذا القرن قد فاقته سرعته في أي عصر مضى .

لا نريد أن نرجع في تاريخ الجغرافيا السياسية إلى أرسطو ، رغم إشاراته العديدة إلى الأساس الأرضي للدولة ، في كتاب السياسة (٢٨٤ - ٢٢٢ ق م) ، كما لا نريد أن نشير إلى كتابات « بودان » في القرن السادس عشر الميلادي أو ما ورد في روح القوانين لمونتسكيه ، فهذه جميعا لا تقوم على أساس صحيح من دراسة البيئة الجغرافية دراسة علمية ، وهي من قبيل الملاحظات الخطائية فحسب .

ولعل أميق الكتابات الجغرافية العلمية ترجع إلى القرن السابع عشر ، عندما انتهى طبيب وجراح بريطاني من إنشاء خريطة لجزيرة إيرلنده ، ظلت مرجعا أساسيا لهذه البلاد حتى حلت خرائط المساحة الحديثة محلها ، وذلك بعد مجهود أربع سنوات . هذا الجراح هو السير وليم بتي ، الذي نشر كتاب التشريع السياسي لايرلنده عام ١٦٧٢ ، ثم نشر كتابا عن إيرلنده . والغريب أن هذين الكتابين لم يحتل المركز كالأقربيهما إلا في القرن التاسع عشر ، عندما تقدم الفكر الجغرافي في أوروبا بحسبة ، وقد

وإذا كان فضل دراسة عناصر الدولة الجغرافية يرجع إلى راتزل ، فإن دراسة عناصر القوة والاستراتيجية العالمية يرجع إلى عالم الجليزي اسمه هارولد ماكندر كان يمتاز بمعرفة واسعة للتاريخ ، ونظرة عالمية كلية للحقائق الجغرافية ، وقد وضع أساس نظريته في مقال نشره سنة ١٩٠٤ بعنوان الأساس الجغرافي للتاريخ ، ثم نشر هذا المقال مطبوعاً في كتاب سنة ١٩١٩ ، ليهمس به في أذن أعضاء مؤتمر السلم المنعقد في جنيف ، وليذكرهم بالحقائق الجغرافية الكبرى التي تهيم من حيث لا يشعرون على سير التاريخ ، وعلى سياسة الدول .

كان ماكندر يرى في حركة التاريخ الانساني صراعاً مستمراً بين الدول انقيارية وبين الدول البحرية ، فالدول القارية ترنو دائماً إلى شواطئ البحار ، لتطل منها على العالم الخارجي ، بينما كانت الدول البحرية تحاول النفوذ من السواحل نحو معابر الغارات الداخلية ، وعلى أساس هذه النظرية قسم العالم من حيث إمكانيات القوة السياسية إلى مناطق ثلاث

المحطقة القارية ، والمنطقة البحرية أو المحيطية ، والمنطقة الوسطى .

وقد استحوذت بفكره نظرية قلب العالم Heart land تلك القلعة التي تتوسط قارة آسيا ، وتشمل نطاق الحشائش من التوركستان حتى جنوب شرق آسيا ، هذه المساحة الهائلة التي توجع بالرعاة ، والتي كانت بمثابة الخزان البشري الكبير ، الذي ما فتئ يدفع الموجة تلو الموجة من الهجرات والغزوات البشرية من أقدم العصور حتى وقت قريب ، فخرجت منه القبائل الآرية من الكلت والجرمان والإنجلو سكسون والسلاط ، واندفعت منه قبائل الهون والتتار والتورك ، والتي تكونت فيها امبراطوريات هولوكو وتيمورلنك والخان الأعظم . ولقد تماثل ماكندر لماذا لا تنعكس الآية وتفترق القوى البحرية هذه القلعة الداخلية وتتوغل فيها من الساحل نحو الداخل ؟

إن مركز القوة التي تتحكم في قلب العالم هي روسيا ، ويتحصر هذا القلب بين نهر الفولجا غرباً حتى حدود الصين ومنشوريا شرقاً ، وأنه لحبيس المنطقة المتجمدة شمالاً ، ومضارب وسط آسيا جنوباً

وتطور سبيل المواصلات العالمية ، ويلمق راتزل أهمية كبرى على مساحة الدولة Raum ، أي المجال الذي يتحرك فيه السكان داخل دولتهم ، والمدى الذي يحدد هذا المجال ، فهو يفرق إذن بين مساحة الدولة الفعلية ، والمدى الذي ينبغي أن يصل إليه سكانها ، أو مجالهم الحيوي Lebensraum ، وما قاله راتزل أن المساحة الصغيرة تعني دولة صغيرة ، والدولة الصغيرة ضعيفة بطبيعتها ، وكان يرمي من هذا إلى ضرورة اختفاء الديولت الألمانية الصغيرة ليحل محلها الرايخ الألماني الكبير .

والدولة في رأى راتزل ليست إلا اتحاداً وثيقاً بين السكان وبين الوطن الذي يقطنونه ، وهي بهذا الشكل كائن إقليمي حتى Spatial organism تنمو من نواة صغيرة ، وتتسع وتضم أطرافاً جديدة لها ، فمثلاً فرنسا نمت من دوقية باريس الصغيرة وظلت تضم دوقيات متعددة حتى استكملت نموها في القرن السابع عشر ، ونمت بريطانيا من حوض نهر التيمس حتى شملت الجزر البريطانية كلها ، ونمت دولة روسيا من مركزين هما كيف وموسكوف ، كما كانت للولايات المتحدة الأمريكية نواتها في الولايات الثلاثة عشر على الساحل الأطلسي وهكذا . . ولعله كان يريد أن يقول أيضاً إن الرايخ الألماني ينمو من نواة هي بروسيا .

هذا الكائن الإقليمي الحي قد ينكمش ويوسع أطرافه إذا تدهور الوحي المكاني لسكانه ، فليست الحدود - طبقاً لنظرية راتزل - إلا مناطق احتكاك تلقي عندها حدود الكائنات الإقليمية الحية المتسعة وقد يؤدي هذا الاحتكاك إلى اندلاع نيران الحروب ، فيؤد هذه الحدود تنهار أمام ضغط الدول النامية النشيطة التي تبغى التوسع ، فتمتص سكان الحدود وتصبغهم بصبغتها القومية ، وتتبع بذلك مجال قومية على حساب قومية أخرى ، ولعل راتزل بذلك كان يعبر تعبيراً صادقاً عما يجول بمسودور الألمان ، عن مجالهم الحيوي الكبير ، شرقاً تجاه بولنده ، وشمالاً تجاه الدنمارك ، وجنوباً تجاه بوهيميا ، ولا بأس لديهم من امتصاص إقلييات سلافية أو دنماركية أو فرنسية أو تشيكية ، مادام في ذلك توسيع لرقعة الرايخ الألماني والمجال الحيوي الذي يجد فيه الألمان متنفساً لعددهم الكبير وطاقتهم الزائدة .

ويحيط بهذا القلب هلال داخلي يتكون من ألمانيا ودول وسط أوروبا غربا ، ثم جنوب غرب آسيا جنوبا ثم التبت فالصين شرقا .

أما دول غرب أوروبا وملحقاتها - حينذاك - في إفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا ، ثم الجزر اليابانية في معازل القوى البحرية التي تملك الأساطيل القوية .

وأذا اعتبرنا العالم القديم هو مركز التقليل من حيث المساحة وعدد السكان ، فهو بلا شك جزيرة العالم Wundtland ، أما الأمريكتان وأستراليا فهي قارات هامشية في رأي ماكندر .

قلب العالم في نظر ماكندر قاري ، وأطرافه جزرية ، وبينهما منطقة انتقال وسطى ، وهذه المنطقة الوسطى هي التي يمكن أن ترجع احسدى اكتفتين على الأخرى ، وهي موضوع الصراع بين الكتلتين الكبيرتين ، على السيطرة على هذه المنطقة الوسطى ، فإذا تم لأحدهما تلك السيطرة ، خلصت لها السيطرة على العالم .

وقد عبر ماكندر عن هذه النتيجة المنطقية تعبيراً مختصراً في الأحكام الآتية :

من يحكم أوروبا يتحكم في قلب العالم .

من يحكم قلب العالم يتحكم في جزيرة العالم .

من يحكم جزيرة العالم يحكم العالم .

وقد امتد الأجل بهذا التنبيه ليميد نبوءته مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية فقال : « إن كل الدلائل لتشير إلى أن روسيا إذا خرجت منتصرة على ألمانيا في هذه الحرب ، فإنها ستتبنى مقعدها كأكبر دولة في العالم ، وفوق ذلك فإنها ستكون أقوى الدول العظمى ، من ناحية مركزها الدفاعي والاستراتيجي ، فقلب العالم هو أعظم قوة طبيعية في العالم ، ولأول مرة في التاريخ تتوفر له القوة الطبيعية والبشرية ، ويستطيع أن يحدد من الطاقة البرية الحربية ما هو كاف عدداً وعدداً .

وقد طلت هذه النظرية محل دراسة مستفيضة في أمريكا وألمانيا فيما بين الحربين ، ولا تزال حتى الآن محل دراسة للمستغلين بالاستراتيجية العالمية ، وتسير السياسة الخاصة بالأحلاف على خطوطها الكبرى .

ويبدو أن المدرسة الأمريكية لم تعط هذه النظرية حقها من التقدير ، إذ قلل سيبكيان استاذ العلاقات الدولية بجامعة ييل Yale من قيمة قلب العالم ، كما

حده هالغورد ماكندر ، فهو في رأيه يحتل اقليسا جغرافيا لا يتمتع بأى صفات تؤهله لهذه القيادة أو المركز الخطير ، إذ هو قلب ميت لا ينبض بالحياة ، يظل من الشمال على مياه متجمدة ، وينحصر بين الغابات الصنوبرية الباردة في الشمال والصحاري الجرداء في الشرق والجنوب ، ولسم تمنحه الطبيعة ثروات معدنية تجعل منه مصنعا ثقيلا ، اللهم إلا ما تنائر في اقليم التركستان الروسى وجبال الأورال ، وقد ظل سيبكيان يعتقد أن قوة الاتحاد السوفييتي ستظل متحصرة في قسمه الأوروبي غربى جبال الأورال .

وفي رأى سيبكيان إن اقليم الحافة التي تحيط بالقلب ، أو المنطقة الانتقالية في نظرية ماكندر ، أعظم أهمية من القلب نفسه ، وهذه الحافة تشمل أوروبا فيما عدا روسيا ، كما تشمل آسيا الصغرى والعالم العربى وإيران وأفغانستان وجنوب شرق آسيا والصين وكوريا وشرق سيبيريا ، هذه المنطقة هي منطقة التقاء أو تصادم بين القوى القسارية الكاسفة في روسيا وكتلتها البرية ، أي الاتحاد السوفييتي ، وبين القوى البحرية ، وانتهى من مراجعته ماكندر إلى النتيجة الاستراتيجية الآتية :

يل يتحكم في إقليم الحافة يتحكم في أوراسيا .

ومن يتحكم في أوراسيا يسيطر على العالم .

أما في ألمانيا ، عقد وضعت نظرية ماكندر موضع الدراسة والتفكير معا ، ونشأ بعد الحرب العالمية الأولى ما يسمى بالجيو بوليطيقا Geopolitics

وهو كما يدل عليه اسمه ، علم مشتق من الجغرافيا والسياسة ، إلا أنها على يد كارل هاوسهوفر ومدرسة ميونخ في الجغرافيا السياسية ، قد اكتسب معنى خاصا ، جعل الكثيرين ينفرون منه ، ومن اسمه ، فلقد كان هدف مدرسة ميونخ هو تسخير الجغرافيا لغرض واحد ، هو خدمة الاشتراكية الوطنية الألمانية أو النازية ، فأوقف كارل هاوسهوفر جهوده وعلمه الواسع بالتاريخ والجغرافيا واللغات في سبيل شيء واحد ، هو عبادة اله جديد ألا وهو الرايخ الألماني ، الذي تقدم على مذبحه الدويلات الصغرى كي يتسع وينمو ، ويشمل كل ما تأثر بالثقافة الألمانية من أوكرانيا شرقا حتى ألواين غربا ومن شلزوج شمالا حتى النمسا جنوبا ، وما على الجغرافيا إلا تبرير ذلك علميا .

ملتقى البرين ومفرق البحرين واستخدمت هذا المركز الجغرافي الهام لمصلحتها ومصحة مطقتها ، في هذه الأوقات استطاعت مصر أن تصبح قوة عالمية يحسب لها حساب ، وما أشبه الليلة بالبارحة .

وقد شهد التاريخ الحديث قيام اسبانيا ثم البرتغال وهولنده كقوى استعمارية في مطلع العصر الحديث ، ولكن هذه الدول كان يتقصها العدد الكافي من السكان الذي توصل به انتصاراتها البحرية ، وفتحاتها عبر البحار ، ولذلك ما لبثت أن تركت مركزها لفرنسا في البر ولبريطانيا في البحر .

وقد شهدنا - بعد الحرب العالمية الثانية - اختفاء قوى وسط أوروبا الدولية - ألمانيا وإيطاليا - وقوة اليابان في الشرق الأقصى ، وأقول نجم فرنسا ، وتدهور هيبة بريطانيا ، كما نشهد ظهور قوتين عظيمتين ، تتحلان في اتحاد جمهوريات السوفيت الأشتراكية ، والولايات المتحدة الأمريكية ، ونستطيع أيضا أن نلح بزوغ قوى جديدة تصل للسلم ، هي قوى الدول الآسيوية الأفريقية .

ويبدو أن العصر الذي نعيش فيه لا يسمح بالوحدات السياسية الصغرى ، ولكنه عصر التكتلات الكبرى عصر لا يسمح بألمانيا أو بإيطاليا كي تشكل مركزاً للقوة والمبادرة ، ولكنه يدعج لاتحاد جمهوريات ، أو ولايات متحدة .

أن المستقبل كما يبدو لنا لاتحادات دول ، ومثل هذه الاتحادات فقط هي التي تستطيع في المستقبل أن تجابه القوى الكبرى التي تمثلت في الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة الأمريكية ، وتستطيع أن ترجع كفة على أخرى ، أو على حد تعبير السياسيين التقليديين - أن تحافظ على توازن القوى وبذلك قد يتغير مجرى التاريخ مرة أخرى

مراجع

- (١) محمد السيد غلاب ، دولت صادق ، جمال الدماصري لعراقنا والسياسة - الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٦٢
- East W. G. & Spate. O.H.K The Changing Map of Asia. Methven London. 1956
- Goblet Y.M. Political Geography & The World Map. London 1965
- Bowman. I. Geography v. Geopolitics. Geog. Rev XXXII Oct. 1942
- Célorier. P. Géographie et Géopolitique, Que sais-je? 1965.
- Hartshorne R. Recent Development in Political Geography. Amer. Political Sc. Rev. 1942.
- Moodie. A.E. Geography Behind Politics. London 1966.
- Mac Inder. H. Democratic Ideals & Realities. Pelican ed 1942.
- Mac Inder. H. "The Round World & The Winning of Peace". Foreign Affairs XXI. July 1945.
- Whitthesey. P. The Earth & the State. 1939-1949.
- Spymann American Strategy in World Politics. New-York 1947.

كانت مهمة الجيوبوليتيقا هي وصف ما يجب أن تكون عليه الدولة ، ثم شرح السبل التي تحقق ذلك المثل كما رسمته أمواه السياسية . وقد استخلص كارل هاوسهوفر من كتابات من سبقه في الجيوبوليتيقا ، فلسفة جغرافية سياسية المسانية خالصة ، علمها للشباب الألماني ، وأداعوها بين الأوساط التي يعينها الأمر .

وكان كارل هاوسهوفر هو الذي نصح بالتحالف المؤقت مع الاتحاد السوفيتي حتى تتم السيطرة على وسط أوروبا ، ثم بقية القارة الأوروبية كلها ، فالاتحاد السوفيتي كتلة كبيرة تشمل سدس مساحة العالم تقريبا ، تستطيع جيوشه أن تتقهر حتى تكسب الزمن ، ثم تعود فتتقش على عدوها بعد أن يجد نفسه داخل هذا الأخطبوط الهائل ، ولم يغب عن هاوسهوفر لحظة واحدة الدرس الذي تلقاه نابليون في روسيا ، ولذلك كان يجهد نفسه لبحث لألمانيا عن مفر ، وهي تقع بين شقي الوحى، قراصنة البحر من الغرب ، وخانات البر من الشرق .

لقد تحدث الكتاب عن القوى الكبرى ، وتحسن نسادل ما هي القوة الكبرى ؟ وما مقياس القوة في العرف الدولي . . أن العبرة في الحقيقة في مدى تأثير الدولة في المجال السياسي العالمي من ناحية ، وفي منطقتها الخاصة من ناحية أخرى . ونستطيع أن نقول أن الدولة تصبح قوة عالمية إذا كانت من الأهمية أو القوة بحيث تؤثر في السياسة العالمية ويكون لها صوت مسموع في المجال الدولي .

ولا تستطيع دولة أن ترنو إلى مثل هذا المركز المرموق إلا إذا ملكت الإمكانيات التي تؤهلها لذلك واستغلتها أحسن استغلال . وأهم هذه الإمكانيات: ١ - المساحة الكبيرة ، وحصانة الموقع الجغرافي وأهميته .

- ٢ - غنى الموارد الطبيعية وتوازنها وتنوعها .
- ٣ - عدد السكان المناسب لاستغلال المساور الطبيعية ، والذي يسمح بإنشاء قوة عسكرية دائمة، أو قوة مدنية يمكن دعوها في وقت قصير حين الخطر ونستطيع أن نستقرئ من التاريخ القديم والحديث كيف تنشأ قوة دولية كبرى ، وكيف تنهار أخرى ، وكيفي أن تشير هتبا إلى أنه في الإوقات التي تخلصت فيها مصر من السيطرة الأجنبية ، وحقت وحدتها التاريخية الداخلية ، وملكتم زمام موقعها بيدها ، وأدركت قيمة موقعها الجغرافي عند



بقلم : الدكتور صادق سمعان



الموقف الاقتصادي ليكون ديوك



لتدبرنا وحديثاً (١٩٨٩) والذي كتبه في بدء الأزمة الاقتصادية التي حلت بالجميع الراسمالي ، تبحث دوى عن الفرد المفقود ، أو المفقود ، ولقد بين وضع الفرد في النظام القديم السابق للتصنيع ووضعه الجديد . فالفرد لم يكن آنذاك مفقوداً على الإطلاق بل كان يعرف الظروف التي يعيش فيها والقوى التي تؤثر فيه ، كان يعرف انه في تفاعل متواصل مع الطبيعة وكان يستهدف السيطرة عليها وإخضاعها لاحتياجاته . كان يعسرف الأسلوب الذي تعمل به سائر المؤسسات والمنظمات الاجتماعية ويعرف المستويين عن تنفيذ النظم والقوانين والأحكام ، وكان يتشارك بشكل مباشر في تحديد سياسة مجتمعه وفي رسم وتنفيذ وتقييم الخطط والمشاريع ، وبإختصار كانت شخصيته مستقرة لاستقرار الملامات التي يدخل فيها . حلت ان الحياة في العصر السابق لم تكن خلوا من المفارقات والقلق لأن الصراع مع الطبيعة كان ذاتياً وخطيراً ، وبعبارة أخرى كانت أحداث الطبيعة هي مصدر هذا القلق والقلق . أما فيما بعد ففقد الزاد الفرد قلقاً على الرغم من الازدياد سيطرته على الطبيعة وتحكمه فيها . ومصدر هذا القلق الجديد التزايد هو تلك التنظيمات الاجتماعية المعقدة والأوضاع الاقتصادية المتصلة التي لاسلطان للفرد عليها ولا دور له في ضبطها وتوجيهها . ويؤيد دوى شياع فردية الفرد الى سبيين . أولهما الى الأوضاع الاقتصادية التي تحصل منه فريسة للقلق وللخوف من شبح البطالة الامر الذي يجعل الفرد يشعر بأنه لايتنى الى هذا المجتمع . والسبب الثاني لشعور الفرد بالضياع انه يعيش في ثقافة متسببة على ذاتها ، ثقافة تتحكمها فكراً وعاطفاً فلسفة فردية وراثتها من النظام الاجتماعي السابق لعصر التصنيع . هذا في الوقت الذي تؤكد فيه الصناعة أهمية التعاون والاعتماد المتبادل (٣) . ويؤكد دوى أن البطورة الصناعية فريسة أيضاً لهذا الصراع بين الحاجة الى التعاون وبين التنافس الذي يدفع كل واحد منهم الى تعظيم الآخر حتى يخلو

إذا كان موقف دوى في الفلسفة والنظر والأخلاق والسياسة الاقتصادية - السياسي موضع تساؤل وعجوب عند جلوسه من أقصى اليمن وأقصى اليسار . بل ان الكثيرين من زملائه وتلاميذه لايسريحون كثيراً لبعض جوانب هذا الموقف في الوقت الذي يوافقون فيه على سائر جوانب الفلسفة .

لاراسماليون الأمريكيون يرون في جون دوى عدواً من أعداء الديمقراطية - كما يتصورونها - وخطراً لابد من حنقلته . ولم يتردد بعض رجال المال في أمريكا في التعبير صراحة عن عدائهم للسافر وشعورهم الرعب إزاء دوى ومدرسته وفي الإشارة اليهم بـ "كزمنة البرابطة الحمراء" (١)

دوى والرأسمالية

ودولف الراسماليين من دوى موقف لاغربة فيه ، فلقد كان يشكل دائماً خطراً على مصالحهم الاقتصادية والسياسية . فبعد أواخر القرن الماضي حتى معاته (١٩٥٢) لم يكف عن مهاجمة النظرية الفردية الاقتصادية والنظام الاتحادي للاقتصاد الأمريكي . ففي كتاب المدرسة والمجتمع (١٨٩٩) يحلل دوى مظاهر التحول الاقتصادي في المجتمع الأمريكي ، فالمجتمع قبل التصنيع كان لايعرف البطالة ولايوجد مشكلة في التوزيع أو مشكلة فائض الإنتاج ، كان ينتج حاجات أفرادهم ويحقق لهم المساواة نظراً لوجود أراضي زراعية ان يريد . وكان كل فرد فيه يستطيع أن يعمل وينجح بقدر نشاطه ومثابرته ومهارته في تبادل إنتاجه مع غيره وقدرته على الإدخار . لقد تحول هسلداً للمجتمع الى مجتمع صناعي ، الى مجتمع المدينة الصناعية الكبيرة ، والأسواق الهائلة ، والاتصالات السريعة ، ونتيجة لهذه الثورة السريعة المظلمة تغير أسلوب الناس في الحياة ، ولكن على الرغم من هذا التحول بقيت النظرية الفردية سيطرة على عقول الانسداد والبريين وعلى اساليب التدريس ومادة الدراسة (٢) . وفي كتاب المدرسة

له الأيدان دون اعتبار لرجال النمو الاجتماعي . ويتحدث ديوي في هذا الكتاب عن أساليب الرأسمالية للحصول على مسؤلية من الإرباح ومن طرق الاحتكار وتصفيد الانتاج والتلاعب في الأسواق ...

ولم يكن هجوم ديوي على المصالح الخاصة مؤلفاً بالذمة الاقتصادية ، فلقد هاجمها قبل الذمة واستمر يهاجمها حتى مماته . ففي كتاب الجيمور ومشكلاته (١٩٢٧) الذي كتبه في أوج ازدهار الاقتصاد الأمريكي بين ديوي كيف أن النظام الاقتصادي القائم يحدد مكان القوة والسلطان وكيف أنه من الصفات والتنظيم بحيث يجعل الناس على التفكير في إطار جديد يحدد نفعه المصالح الخاصة لطبقة إهدافها ، وكيف أن الجماعات الاقتصادية تسمى إلى السيطرة على أجهزة الحكومة وأنها بالفعل تسيطر على أجهزة التشريع والأداة (٤) . وفي كتاب (١٩٠٨ ، ١٩٢٢) يعبر ديوي تغييراً واضحاً صريحاً عن موقفه من الرأسمالية والرأسماليين ، فيستألف الأسس الاقتصادية والفكرية التي تقوم عليها الرأسمالية : الملكية الخاصة وحرية النشاط الاقتصادي ، كما يناقش أسلوب الرأسمالية في تحقيق أهدافها - أسلوب التنافس وما يستتبعه من ضبابية وشرسة وفساد وسيطرة وتحكم وتعليم للحريرات وما يترتب على هذا من عدم استقرار والأزمات .. (٥) نقرأ في هذا الكتاب على سبيل المثال :

« وما كانت المسائل السياسية الآن ذات طبيعة اقتصادية - نظراً لأن الإجراءات الحكومية تؤثر تأثيراً بالغاً في أمور الصناعة والتجارة والبنوك والسكان المعيشية - فإن لأصحاب المصالح المالية الكبيرة ، الذين يجمعهم نجاح مشروعاتهم الخاصة ، دوافع مصلحية للسيطرة على الأجهزة الحكومية .. وما كانت الحكومات المركزية هي التي تتحكم في الترفيع وفي التجارة بين الولايات وفي تحديد حرية الدخل ، أصبح من المهم لبعض المصالح الخاصة أن تؤثر في عملية انتخاب القضاة التشريعيين والادبيين وفي السيطرة على المعاهدات .. ووسائلهم في هذا متعددة ، فهناك اساء هؤلاء الموظفين وتوجيه معركة الانتخابيات بأموالهم ، ودفع انصارهم إلى المراكز الرئيسية .. وبذلك يدخل عنصر الانحياز في الحكومة الديمقراطية ، الأمر الذي لم يضرب ببسالة وإنما أسس النظام الديمقراطي .. أما كانت الوسائل المباشرة والرشوة والنفقة في الوسائل التي يلجأ إليها بعض أصحاب الأموال فإن من صالحهم أيضاً أن يقيموا نظاماً حكومياً فاسداً يقوم على الرشوة .. ومن هنا يسهل علينا إيجاد بعض التفسير لذلك التعالي بين بعض الموظفين ولثة الجرمين ورجال الصفات في بعض مدنا الكبرى . ومن أسباب نجاح هذه المصالح الاقتصادية في السيطرة سيطرة بالغة في الولايات وفي الأمة عامة أنها متغلبة تعليمياً دينياً يجمعها على استعداد دائم لتحمل كل فواحش في أي مكان وبسرعة فائقة ، ومن الناحية الأخرى نجد أن الجماهير التي تنافس من الأساليب الإجرامية لهذه الفئة يعوزها التنظيم ويعجز بها بشدة . الفردية » في الوقت الذي تجابه فيه منظمات متحدة عالية .. (٦)

ويوضح ديوي مدى تحكم الرأسماليين في الصحافة والفضاء والتعليم ونشئ وسائل الإعلام يقول :

« إن أحد مصادر الهجوم على الحرية يأتي من يتمتعون بالقوة والسيطرة السياسية والاقتصادية الذين يشعرون أن تؤدي حرية الصحافة والكتابة والجمعيات إلى نفس عليها المستورد إلى اضطراب النظام القائم . ومن ثم فهم يعتبرون كل رأي ينتقد النظام قائماً ويقترح تعديلاً اجتماعياً أساسياً رأياً راديكالياً خطيراً وهداماً للقانون والنظام . فهم يؤمنون بحرية الفكر والاتصال طاقاً أن هذه الحرية تثير عن وجهات نظرهم .. وبذلك يصبح المواطن المتطوع هو ذلك الذي يتكلم الإضراب كما هي

ويعتدها ، بينما يصبح الذين يسعون إلى الطلاق على الحقوق التي كفلها الدستور أعداء خرين للأمة والدستور .. » (٧)

ويعلق ديوي في نفس الكتاب على توزيع الثروة في المجتمع الأمريكي حيث يملك ٢٪ من السكان ٦٠٪ من الثروة ، بينما يملك ٦٥٪ من السكان ٥٪ من الثروة :

« إن عاصمتنا من يقول هذا الوضع الخاص بتوزيع الثروة هو أن العالم الجديد وبخاصة شب الولايات المتحدة يأخذ بمبادئ اجتماعية يصعب قبول هذا التوزيع ، فلابد الأول يرى أن الناس متساوون على الأقل في بعض التسواحي ، ففي الأمور السياسية يكون لكل رجل أو امرأة صوت واحد - وكسكننا كم نحاول مطلقاً أن نطبق هذا المبدأ على الثروة في نطاق واسع - ومع ذلك يصعب علينا أن نقول أن هذا التفاوت - بين مليون في كفة وفرد واحد في كفة أخرى - يمثل العدالة في مجتمع ديمقراطي . والمبدأ الثاني يرى أن الكفاءة يجب أن تتناسب إلى حد ما مع الخدمة التي يؤديها الفرد للثروة العامة . ولأننا في بعض الثروات الشككة جاءت نتيجة لخدمات جليلة قدمها أصحابها ، ولكن البعض الآخر من الثروات جاء نتيجة لهدا أصابعها الذي أهدم لتحويل الثروة العامة إلى ثروة خاصة بدلا من كسبها عن طريق المساعدة الاجتماعية لهذه الثروة العامة . ومعنى هذا أن القول بالثروة - شيء في مقابل لشيء - قول ينطبق على أولئك الذين يجمعوا ثروات ضخمة بالكر والتلاعب بالامتلاك والإسهام والمضاربة في الأسواق .. » (٨)

« إن المصدر الرئيسي لشعور بعدم العدالة هو أن الذين يعملون ويكدحون - مثل عمال الزراعة والصناعة ، والذين يسعون أجل الخدمات لطبقة مشحون الفقيرين والمعلماء - لا يأتون أجراً معزواً ، بينما نجد كثيراً ممن لا يعملون عملاً نافعاً على الإطلاق يتمتعون بثروات ضخمة جاءتهم بالوراثة أو بالتحلل أو بالتبلاص والمقارعة في الأسواق أو بالامتيازات الاحتكارية .. » (٩)

هذا باختصار هو موقف ديوي من الرأسمالية ، وهو في تفويده لها يبرز دائماً آثارها التربوية الهدية في حياة الأفراد - للرأسمالية كما يراها تمثل نمو الأفراد نمو تربوياً سليماً وتلف أمام تنمية طاقاتهم وامكانياتهم وتحريمهم من التمتع بالامكانيات التكيفية التي يوفرها العلم والفن ، ومن التمتع بحريات الأساسية التي كفلها لهم القانون ، ومن المساعدة الفعالة في الحياة العامة .. (١٠)

وبعبارة أخرى كان ديوي يرى أن النظام الرأسمال لا يخدم طبيعة الديمقراطية الاجتماعية والسياسية .

ديوي والماركسية :

إذا كان الرأسماليون يتمتعون ديوي بأنه رجل - أحر - وهدام ، فإن الماركسيين يتهمونه بأنه فيلسوف الرأسمالية والرجعية والاستعمار . ومن المألوف أن نقرأ أن لفلسفة ديوي فلسفة بورجوازية وأنها لا يمكن إلا أن تكون هكذا لأنها نبئت في المجتمع الأمريكي الرأسمالي . والقول بأن كل نتائج نقاشي أمريكي لابد أن يكون رأسمالياً استعمارياً إنما هو تعميم مسرف فيه تجاهل لكيفية الصراع - بين المصالح الرأسمالية العالية والقوى التقدمية - التي تولد اتجاهات فلسفية متناقضة تعكس هذا التناقض . ومهما يكن من أمر هذا النقد فإن الذي يهمنا هو أن بعض الماركسيين يوجهون لديوي اتهامات كثيرة لا تنتم بعضها بالوضعية والدقة العلمية .

فيقول لتفجير مثلاً :

« إن الفلسفة العقلية لهذه الفلسفة (فلسفة ديوي) هي أها رجعية ومثالية ، وأنها مثل سائر المدارس والمذاهب في

الفلسفة اليورجوازية بعد فريباخ تدور حول مشكلة واحدة لا سواها ألا وهي مشكلة الدفاع عن التجمع اليورجوازي والنظام الأمعالي ضد الاستراكية .. لهذا تنعكس الروح الغريبة لليورجوازية الأمريكية ، ومن ثم فهي تنعكس الاتجاه التجاذبي بين الرأسمالية في فلسفة التجاذب بكل معنى الكلمة * (١٢)

ويقول ويست في مقاله « البراجماتية : منطق الراسخية » :
 « ان ذوي لايهتيا منهاج او منطقا للتفكير في مشكلاتنا كما
 نعلم ، ولكنه يعكس سيكولوجية طبقية معينة ، فالنظر
 البراجماتي ، مثل الفلسفة البراجماتية كلها ، حليف الطبقة
 المسيطرة حاليا ، انه منطق يعنى مصالح الراسخين » (١٣)

إذا كان هذا هو موقف الفلاسفة من ديوى فما هو موقفه منهم ؟ ولماذا ؟ من هذا السؤال ربما كان من المفيد أن نلتفت إلى موقف ديوى من الاتحاد السوفيتي وموقفه من كابل ماركس - فلغتنا قامت الثورة في روسيا (١٩١٧) امتلأها ديوى مع سائري الليبراليين الأمريكيين وراى أن الاتحاد السوفيتي رغم بنجرته اجتماعية عظيمة جديرة بالدراسة والكتابة - وفي عام ١٩١٨ زار ديوى الاتحاد السوفيتي حيث عني بوجه خاص بزيارة المدارس ومقابلة الزعماء وقرأ الشعب - وكانت الإطلاعات التي نشرها في روسيا السوفيتية والعالم الغربي (١٩٢٢) تدل على إعجاب عميق بالتغيير الجذري الذي طرأ على المجتمع الروسي وبالخصاصة المتدفقة في الاتحاد الاشتراكي ونشاط الفريين وثقافتهم وذكاهم، ثم انه قال انه لم يجد في أي مكان آخر في العالم إطلاقا في ذلك، وسعادة ونشاط الأطفال الروس - وأثنى ديوى على الروح التعاونية وعلى الجهود المبذولة للحد من الفقر - فلما عاد إلى روسيا في عام ١٩٢٢ بدأ يترجم الفلسفة الاشتراكية إلى فكر وسلوب (١٩٢٣) فلان هذا موقفه الذي

يتمد فيه بالروح اللوردية التنافسية التي تسود المجتمع الأمريكي والساليب التربوية فيه () ويعول الزمرة الاقتصادية في أمريكا (١٩٦٤) لزداة دوي ومعسكر الليبراليين معاضداً مع الاتحاد السوفيتي ، بل ان كثيرا من هؤلاء الاحزاب تحول خلال هذه الزمرة الى المعسكر الاشتراكي . وبدأت في هذه الفترة حملة عنيفة من النقد على النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي يسير وفق قواعد التضاميه والذي يطغى بالتالي للزعامات الفئويه ، وبدأت الفكرات بين الزمراء الباقية في أمريكا واختلافها في روسيا ، بين الطوف والياس والبؤس التي حصل بها بين الأمريكيين وبين المعاملة والامل والجهد عند الشعب الروسى . ومما ساعد أيضا على اهتمام كثير من الليبراليين بالاحزاب السوفيتي تدعيم البطلة القاذية التي راي فيها الثقورون تعبيرا صارخا عن ندمها باقره المستعمر . فتشكلت السياسة والقيمة النظر التي تطعم مصالحهم

وفي هذا الاطار وفي هذه المرحلة (ويقاسم بين ١٩٢٨-١٩٢٩) تظهر موضوعات اجتماعات ديوى الاستراكية في كتاباته وفي نشاطه الاجتماعى كما سترى . ولكن ديوى لم يستمر فى هذا الاتجاه اذ ان الاتحاد السوفيتى انقلب بهاجما للادواف هناك تحت حكام ستالين . ولولته اليقظة :

اما موقف ديوي من كارل ماركس فهو في الحقيقة موقف
مثير . فهناك تشابه كبير بين ديوي وماركس في نقاط كثيرة
إلى أن ديوي ساند على تطبيق بعض أفكار ماركس الاسمية ،
باستخدام ديوي مثلا التفسير الاقتصادي لتفسير جره كثير من تاريخ
الفلسفة . ويصل التشابه أحيانا في تفسير كل من ماركس وديوي
للتاريخ إلى درجة يصعب معها التمييز بينهما . وبالإضافة إلى
هذا - قام - تحت تأثير ديوي - كثير من زملائه وظلابه بتفسير
تاريخ الولايات المتحدة وتطاهيا التبريري والقصاني من الزاوية
الاقتصادية - من أمثال هؤلاء شارلس بيرد ياتر ، وبواندو
وكارودزو . . .) هذا إلى أن ديوي لا يختلف مع ماركس في
موقفه من النظام الرأسمالي ولا في قيمة المجتمع الاشتراكي كما
يبنى . ولا في تقته للعمال ولا في تأكيده لكرامة الإنسان .

لمشكلة الرأسمالية ، وفيما إلى زمان يؤمن هذا الموقف .
 لابد للبرالية أن تجمع شتات نفسها وتصوغ أهدافها التي
 كرسَتْ لها نفسها في ضوء وسائل جديدة تتناسب الوقت
 الزمان - أن التمس الوحيد للتنظيم الاجتماعي السليم الذي
 يمكن أن يقوم الآن هو ذلك النمط الذي تصبغ فيه قوى الإنتاج
 الجديدة شيئا تعارفا والتي تستغل فيه هذه القوى من أجل
 تحقيق الحرية الجديدة ومن أجل التطور الثقافي لأفراد المجتمع .
 إن مثل هذا النظام يستلزم قيامه على أساس التشاؤم الفردي
 غير المطلق حيث يصح كل شيء من أجل مصلحة الجماعة - هذا في
 الواقع هو ممكن النمط المبيت في المذهب الليبرالي السابق
 والقول بأنه لا يمكن للبرالية أن تختلف بأهدافها متى غيرت
 مظهرها من الوسائل التي تحقق بها هذه الأهداف قول غلط .
 فإذن أن هذه الأهداف لا يمكن ألا يتأخذ وسائل
 مختلفة اختلافا جوهريا عن تلك التي كانت تدبر بها الليبرالية
 السابقة .

لا يعتمد على الليبرالية أن توجه الآن اتجاه « راديكالي »
 وأبعد لهذا أنه لابد لها أن ترى الضرورة الملحة للتغيير
 التام ، لتكثير المؤسسات الاجتماعية وتوجيه العمل الاجتماعي
 لتنطبق هذه التغيرات الضرورية . أن التوجه الوحيد الآن للعمل
 الاجتماعي الذي يمكن الليبرالية من تحقيق أهدافها هو
 سبغ التشاؤم الاجتماعي للنظام الذي يستهدف خلق نظام
 اجتماعي تكون فيه الصناعة وثالث موجهين توجيها اجتماعيا لصالح
 المؤسسات التي توفر الأساس للملكية للتحرك الثقافي للأفراد وتكامل
 لهم النمو . إن قضية الليبرالية سوف تنتهي مالم يمكن
 الليبراليون أن يستمدوا لأن يعطوا كل الآراء ويمثلوا اشتراكيا
 لرى الإنتاج حتى تتأصل حرية الأفراد في تركيب الانقسام
 الاقتصادي . أن الاقتصاد الاشتراكي هو الرأسمالية الوحيدة لتنطبق
 هذه تحرير الفرد (٢٠) (٢١)

وتبحث دوى في عمله الفترة بالذات من « الديمقراطية
 الاقتصادية » وكيف أن الإنتاج الصناعي القديم كان نتيجة لظهور
 لعصر البخار والكهرباء وكيف أن الرأسمالية كانت نتيجة
 حاجة للتصنيع ، ولكنه يفرق بين حاجة لير موجهة لتكملة
 سوى للصالح المادية الشخصية وبين حاجة لتطورة منظمة على
 أساس اجتماعية اشتراكية . (٢٢)

والحق أن اهتمام دوى بضرورة التنظيم الاجتماعي يرجع إلى عام ١٩١٨
 حيث كتب مقالة العناصر للتنظيم الاجتماعي الجديد (٢٣) الذي
 أكد فيه ضرورة الضغط الاقتصادي حتى تعالج مسائل العمالة
 والعلاقات الصناعية والإنتاج بصورة اقتصادية وعلمية وبطريقة
 إلى المستقبل . كما أكد في هذا المقال أن هذه العملية لا يمكن
 تركها لنشاط الأفراد الطغوى الذي لاتمكنه شروط اجتماعية -
 والحق أيضا أن دوى كان في كثير من كتاباته التالية لا يكتفي
 بالاعتدال إلى ضرورة التنظيم ، ولكنه كان مقدرا كل التقدير أن
 المشكلة ليست في الطبيعة مشكلة اختيار بين تنظيم والتنظيم
 أو بين التنظيم والتنسيق من جانب وبين المنافسة الحرة من
 جانب آخر ، وكانت المشكلة الأساسية كما يراها هي أن الذي
 يخطط ولن وفي اتجاه واتجاه أي أهداف ؟

ولكن على الرغم من تأكيد التواصل لأهمية التنظيم والضرورة
 تنظيم الإنتاج تنظيمًا تعاقبيا ، لم يزعم دوى في يوم من الأيام
 أن لديه صورة كاملة لما يجب أن يكون عليه النظام الاقتصادي
 الاجتماعي في المستقبل ، بل اعتمد الأيرسبرونج على مبدأ أن يتم
 وسائل متعددة لتنظيم الإنتاج تنظيمًا تعاقبيا ، ولتحقيق
 اشتراكية قوى الإنتاج ، على حد تصوره - صحيح أنه اقترح في
 عام ١٩٢٩ فكرة جهاز مركزي يقوم برسم السياسة الاقتصادية
 العليا للدولة والترح أن يضم هذا المجلس الاقتصادي القومي

ممثلين للهيئات المالية المختلفة (الصناعية والزراعية) ولخلف
 الأمن والمستهلكين والحكومة وأرجال الأعمال ، كما اقترح أن
 تكون لهذا المجلس سلطة عامة أي لا يكون استثنائيا
 فحسب ، ولكنه لم يتعرض أخلاقا لطابع هذا المجلس أو لوظيفته
 ولا لوظيفته في العمل . (٢٤) والسبب في هذا أن دوى كان
 يقصر مهمته على تعيين مصدر مشكلة المجتمع الصناعي وتحديد
 الاتجاه العام الذي يجب أن يسير فيه التطور الاقتصادي
 والاجتماعي ، وهو - كبريسلوف تجريبي - كان يعتقد أن وسائل
 تحقيق هذا الاتجاه الفلسفي العام يجب أن تنمو تجريبيا ، أي
 بتطبيق تحديد إجراءات وطرق معينة ثم اختبارها وتعديلها
 في ضوء نتائجها . ولهذا لنجد يفرق في أكثر من محال بين
 « المجتمع المخطط » Planning « والمجتمع المخطط » Planned
 (٢٥) وعندنا أن المجتمع الديمقراطي مجتمع لا تنتهي فيه عملية
 التخطيط وفيه تنمو المخطط والنظم والشواهد الحكومية نفسها
 تجريبيا خلال مواجهة المشكلات الأساسية - وبعبارة أخرى ، أن
 المجتمع الديمقراطي مجتمع مخطط على الدوام وأن الديمقراطية
 ذاتها ليست مفعوما ثابتا وإنما مفهوم متعدد ليد دائما اكتشافا
 وصياغته . فالديمقراطية اتجاه عام وأساليب في الحياة يقوم على
 التخطيط والتجريب . أما المجتمع المخطط فهو ذلك الذي يتمدد
 على قواعد ثابتة معددة سببا وفق حقائق محددة مسبوقة من
 قبل . وهذا المجتمع يأخذ بصفات ثابتة يحدد لها شكلها مستقبلا
 ويقول دوى إن أسوأ ما في هذا الاتجاه أنه يوجهه الاتجاه
 خطيرا يجعل الغاية تيرد أي وسيلة ما جاءت تؤدي إليها ويرى
 كذلك أن هذا المصلح بين الوسيلة والغاية وعدم رؤية العلاقة
 العضوية بينهما هو الحد الفاصل بين الديكتاتورية والديمقراطية
 مفقود هذا كله أن دوى لم يقل أن يرسم برنامجا - ولو
 مبدئيا - يتوجه من اتجاهه العام أو أن يحدد خطة واضحة
 للعمل السياسي ، لأنه كان يظن أن يتقلب هذا إلى برنامج
 علمي عقائدي جامد يلقح حجر عثرة أمام الأفكار العلمية التطور
 « ولاكتفي بتحديد الاتجاه العام المرغوب الذي يجب أن يسير فيه
 التطور القليل براكا الباب مفتوحا للتفكير العلمي لكي يحدد
 مفاسل هذا الاتجاه ويرسم أساليب العمل لتطبيقه . واكتفي
 دوى بأن يؤكد أن الاتجاه يجمع بين المخطوط الثلاثة
 التالية : (٢٦) .

- ١ - الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية
- ٢ - العلاقة العضوية بين الوسائل والغايات -
- ٣ - الحاجة إلى اتجاه علمي تجريبي لتناول المشكلات
 الاقتصادية والاجتماعية .

ولم يقل دوى عامل المساواة والعنف كوسيلة للتغيير
 الاجتماعي . وكان يرى أنه لا يعتمد أن يأخذ الصراع الاجتماعي
 طابع العنف وأنه الما كانت بعض التغيرات الاجتماعية الكبيرة في
 الماضي قد جاءت عن طريق القوة والعنف لأن هذا في حد ذاته
 يجب ألا يستبعد إمكانية نجاح التطور الاجتماعي السلمي في
 الوقت الحاضر . ومنهج العنف يتعارض عنده مع منهج الأفكار
 التجريبية الذي نادى به بقية حياته ، وهو هذا المنهج الذي يضع
 الصراع الاجتماعي تحت الشواهد التفكير الوشوقي البشري
 وباختصار كان دوى يؤمن بأن التغيير الاجتماعي لابد أن يأتي
 عن الطريق الديمقراطي السلمي ، وكان يذكر نقاده الماركسيين
 بأن ماركس وانجلز كانا يعتقدان أن الاشتراكية يمكن أن تتحقق
 في إنجلترا وأمريكا عن طريق النظام الديمقراطي العرفي . ولكن
 هذا لم يكن يعني لدوى أن عملية التغيير الاجتماعي الجسدية
 يمكن أن تتم دون وجه واثم وسائلها وتربية وتنظيم للمسؤول
 السمية والعالية وحشد على الصالح الخاصة وكثير القوى
 التقدمية ضد القوى التسليطية في المجتمع - - حتى تتكون الغلبة
 مغلقة بالبرامج الاشتراكية . ولهذا لم يفرق دوى جهدا بين
 حياته في توعية الشعب الأمريكي بمصالحه وعلى حد تنظيم
 صلوه وعلى خلق فادته لإثارة أجهزة وتنظيمات ولتربية

جديده تعمل من اجل تطبيق الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ونزل ديوى باطلل الى ميدان النشاط السياسي الاجتماعي ، بل انه لم يترك عن هذا النشاط حتى بعد بلوغه سن التسعين - فكان عضوا مؤسسا او عمالا او رئيسا لكثير من النقابات العمالية والهيئات التعليمية والهيئات الاعلى . وكان من مؤسسي « رابطة الديمقراطية الصناعية » التي كانت تجمع يوما ما الطلاب الفكر الاشتراكي في أمريكا انتشارا نوعان : توماس وبران وكيدار وهارتمان وماكس ايستمان . ومن هذه الرابطة خرج عدد كبير من الطبقات الاشتراكية العريضة التي تآدى بعضها بالتعليم ودافع بعضها عن حق العمال في الاضراب والانتفاع من تقديم خدماتهم للرأسمالية المختلفة . وفهض بعضها اساليب الرأسمالية الأمريكية في توجيه الانتاج والسياسة الداخلية والخارجية للحكومة . . . وكان لديوى ايضا دور كبير في توعية الربين وفي حزمهم على تنظيم صفوفهم وتعدد صفوفهم الاجتماعي والوطني وفي زينة الهدف الذي يجب ان يجمع بينهم وبين سائر القوى والنقابات التقدمية في أمريكا وبخاصة النقابات العمالية . فلهذه مثلا في عام ١٩٣٥ يقابلان المربين قائلا :

« لا بد لنا ان نعرف ان هناك - بشكل عام - اتجاهين اجتماعيين لالآت لهما باهتمام على المربين الاعتبار بينهما ، وأول هذين الاتجاهين ينظر الى الدور ، وثانيهما ينظر الى الامم . وينظر الاتجاه الأول بحكم مقصديت الظروف - الى مصالح طبقة قليلة ذات نفوذ اقتصادي واجتماعي وذات مركز معزول تعتكز به على حساب الاجتماعي . اما الاتجاه الثاني فينظر الى الامم فهو يسير في اتجاه القوى العلمية والتكنولوجية والصناعية المتقدمة ، واهم من هذا فهو يطمح لفسية الحرية والامن والنمو النفسي للمجابهين . لا بد للمربين - جماعة وفردا - ان يفتخروا من بين هذين البديلين وبين نتائجهما العملية . » (٢٧)

ولقد ذهب ديوى الى معارضة بعض زملائه في حركة التريفة الحديثة الذين كانوا يميلون الى الاعتقاد بأن يفسم برنامج تربوي على أساس مفهوم « الاقتصاد النوجه توجيهاً تقنياً للخدمة كالتسبب لا الصالح الخاصة » يتناقض مع الديمقراطية حيث انه يلغى آراء ، نهائية جامدة وبالتالي لا يمكن اصدار برنامجا جديدا . وفي مقال بعنوان « التربية الديمقراطية والاقتصاد الاشتراكي » بحث ديوى المربين على رؤية العلاقة الوثيقة بين تحقيق الديمقراطية وبين التنظيم الاجتماعي الشامل للمؤسسات والعلاقات الاقتصادية والسياسية ويجب بهم ان يكونوا أداة المجتمع في تبصير المواطنين بهذه العلاقة من طريق التحليل الاجتماعي العملي والبحث والمناقشة الفعالة . لا يرى ديوى في مثل هذا المجهود خروجاً على الديمقراطية او تنكراً لى من مبادئ بل يرى فيه تعبيراً عن الإيمان العميق بها . (٢٨) .

هذا هو باختصار موقف ديوى . ولقد ترتب على رفضه لتعديده صورة واضحة المعالم للمفاهيم الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الذي يسعى الى تعليمه ورسم برنامج عملي وخطوات محددة لتحقيق « اشتراكية قوى الانتاج » ولتنظيم الانتاج وتنظيمه تنظيمياً

(٢٩) دخل نورمان توماس عدة مرات انتخابات الرئاسة في أمريكا مثلاً للحزب الاشتراكي الذي كان يترعزه ، وكان ديوى من مؤيديه في الحركة الاجتماعية . وجدير بالذكر ان ديوى طلق بعثانيا في أواخر العشرينات اعتقاده السياسي بان الانحسار السياسية الكبرى في أمريكا يمكن ان تنخلص من والاشعاع للرأسمالية ، كما طلق في الثلاثينيات امكانية نجاح « الحقن الاقتصادي القومي » الذي يضم كبار ممثل الصناعة ولادة العمال - في تحقيق عدالة ، وأن بان سبيل العمل الصناعي للحد من تكتيل العمال واللاحين واصحاب المهن العلمية المختلفة -

تعاوننا . كما يقول ، ترتب على هذا انه ترك اسئلة جوهرية عديدة دون إقرار لها . فهو لا يبدلنا مثلاً في أي من كتاباته عما يصفه بالاقتصاد الاشتراكي ولا تعرف موقفه من التاميم الكامل ومن الاقتصاد المشترك ومن دور الدولة في عملية التحول من الرأسمالية الى الاشتراكية . . . كما انه لا يبعد للقول التقدمية للعالم الانسانية الاستراتيجية للعمل السياسي الذي يقوم على : الافكار ، الجمعي ، ويلزم بالاسلوب الديمقراطي السلمي . . . ولهذا لم يكن في وسع الكثيرين من اتباع ديوى الا ان يفتخروا بينه وبين ماركس من هذه الزاوية ، فبينما راوا عند ماركس وضوحاً بالغاً في تعديده معالم وخطوات العمل السياسي لتحقيق الاشتراكية لم يجدوا عند ديوى سوى تعميمات وأهداف عامة . ولهذا طالبه بعض طلابه وزملائه اكثر من مرة بأن يترجم هذه التعميمات الراملة الى برنامج محدد « للهندسة الاجتماعية او للعمل السياسي الشامل اذاً : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والراشدة » . (٢٩) .

ولكن ديوى - ولم اعترفه بوجاهة هذا النقد - لم يستجيب عمداً لهذا النقد . ومن هنا تار جدل كبير في معسكر ديوى حينما حاول بعضهم تعديده اسلوب العمل السياسي لتطبيق الافكار الاشتراكية التي نادى بها استلامه . فاكفى بعضهم بتبريد كلام ديوى في أن الاسلوب الديمقراطي في النقد والناقشة والعمل الجمعي القائم على أسس علمية وأداة موضوعية هو الاسلوب الأمثل لتكوين الفلية تدفع التبرعات العديدة في الاتجاه الاشتراكي . وذهب ثار قليل في التالينات الى حد القول بأنه لا سبيل لامتثال لتحقيق الاشتراكية الا بالاخذ بالتوجه الماركسي في العمل السياسي والاجتماعي بالقدر الذي يناسب طبيعة المجتمع الأمريكي . (٣٠) .

ولم يذهب الفريق الثالث الى هذا الحد بل عارضة شديداً . ولقد عاية باية ابحاث استخدام القوة والنفذ مع العناصر الوجهية التي تلف في طريق التأثير . فلهذا تيسيلدز Childs - وقال من اخفى تلاميذ ديوى بأخذ مؤلفا مغالفا لاستاذة فيقول :

« ونحن وان كنا لانفعل بحال من الأحوال من أهمية المناقشة الاجتماعية ومن قوة الادلة الموضوعية ، الا ان الطبيعة التي لاأمر ، فيها ان كثيرا من الأمور لا تصحح ، معقولة . . . وقابلة للنقاش ، الا متى كانت هناك قوة كافية تدعمها . . . ان التسبب قد ادرك خلال خبراته المتتالية دور القوة لاني التلزمات الصناعية لحسب وانما في سائر مجالات الخبرة . . . من المناقشة البندة تشر في تلك الوظائف التي تكون فيها القوة قد اوجدت استعمالها لدى الاطراف المتنازعة لأن ترى جدوى النقاش والبحث التعاوني في تحديد مايمكن ان يتخذ من إجراءات . »

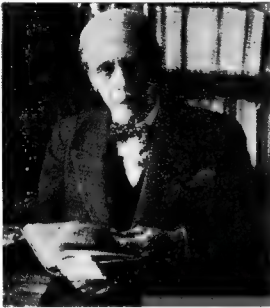
لقد اقتضت خبراتي في ميادين الحركة العمالية والسياسة والثورة بأن اسلوب المناقشة والسماوة لا يصلح في حد ذاته وبذاته لحل بعض صراعاتها الجوهرية العارضة . وفي ضوء خبراتنا الطويلة وغير المتعددة مع القوى المسيطرة هل يحق لنا ان نتسكك بنجوى طريقة المناقشة والتفكير الجمعي السلمي لحل مشكلاتنا ؟ . . . لا يجدر بنا ان نتنقز من التفكير في اطار المناقشة والسماوة الى العمل السياسي والتشريع العازم ؟ ان الخبرة قد برهنت على ان الجهات العالمة التي لازيد ان تتنازل عن أي من حقوقها يمكن ان توافق فيما بعد مع قانون يخدم مصالح الاقلية » (٣١)

موفقنا من ديوى : لكي تقوم موقف ديوى لا بد ان نراه في اطار المجتمع الذي عاش فيه حيث القوى الرأسمالية شارية كافي ما تكون الفراوة وتعلمان

حدثنا صورة المستقبل الذي نتطلع اليه ونسعى الى تحقيقه ، ومع ذلك لم تر تناقضا بين هذا وبين ضرورة مواصلة التجريب وتعديل خططنا وتصوراتنا في ضوء مايسفر عنه التجريب ، انما تتركز دويي على اصراره في الا تكلف الاشتراكية الديمقراطية عن ان تكون تجريبيه في اتجاهها .

1. R.B. Raup, *Education and Organized Interests in America*, N.Y., Putnam, 1936, pp. 49-50.
2. John Dewey, *The School and Society*, Chicago, Univ. of Chicago Press, 1898, pp. 21-30.
3. John Dewey, *Individualism Old and New*, N.Y., Minton, Balch & Co., 1930, pp. 52-3, 74.
4. John Dewey, *The Public and its Problems*, N.Y., Henry Holt, 1927, p. 107.
5. Dewey and James Tufts, *Ethics*, N.Y., Holt, (rev. ed.), 1932, Part III, esp. Chs. 17, 18.
6. — 10. *Ibid.*, pp. 397-8, 400-1, 456, 458, 468.
7. M. Dynaalk, "John Dewey, Imperialist Philosopher," *Modern Review*, Nov. 1947, also Harry K. Weiss, *Pragmatism: The Philosophy of Imperialism*, N.Y., International Publs. Co., 1954.
8. August Tschelmer, *Introduction to Dialectical Materialism*, N.Y., Soviet Frieds, 1936, pp. 241, 354.
9. C.P. West, "Pragmatism: The Logic of Capitalism," *New Essays*, Vol. 8, No. 4, Winter, 1942.
10. Sidney Hook (Ed.), *John Dewey: Philosopher of Science and Freedom*, N.Y., Dial Press, 1939, article by James T. Farrell, pp. 553-55.
11. Jim Cork, "John Dewey and Karl Marx," in Sidney Hook (Ed.), *John Dewey: Philosopher of Science and Freedom*, op. cit., pp. 338-41.
12. See Sidney Hook, "Experimental Naturalism," in H.M. Kallen and S. Hook (Eds.), *American Philosophy Today and Tomorrow*, N.Y., Putnam, 1935, p. 224, see also his, *John Dewey: An Intellectual Portrait*, N.Y., John Day Co., 1933, p. 171.
13. Jim Cork, op. cit., p. 341.

١٩٤٦ - ١٩٤٧ - ١٩٤٨ - ١٩٤٩ - ١٩٥٠ - ١٩٥١ - ١٩٥٢ - ١٩٥٣ - ١٩٥٤ - ١٩٥٥ - ١٩٥٦ - ١٩٥٧ - ١٩٥٨ - ١٩٥٩ - ١٩٦٠ - ١٩٦١ - ١٩٦٢ - ١٩٦٣ - ١٩٦٤ - ١٩٦٥ - ١٩٦٦ - ١٩٦٧ - ١٩٦٨ - ١٩٦٩ - ١٩٧٠ - ١٩٧١ - ١٩٧٢ - ١٩٧٣ - ١٩٧٤ - ١٩٧٥ - ١٩٧٦ - ١٩٧٧ - ١٩٧٨ - ١٩٧٩ - ١٩٨٠ - ١٩٨١ - ١٩٨٢ - ١٩٨٣ - ١٩٨٤ - ١٩٨٥ - ١٩٨٦ - ١٩٨٧ - ١٩٨٨ - ١٩٨٩ - ١٩٩٠ - ١٩٩١ - ١٩٩٢ - ١٩٩٣ - ١٩٩٤ - ١٩٩٥ - ١٩٩٦ - ١٩٩٧ - ١٩٩٨ - ١٩٩٩ - ٢٠٠٠ - ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ - ٢٠١٠ - ٢٠١١ - ٢٠١٢ - ٢٠١٣ - ٢٠١٤ - ٢٠١٥ - ٢٠١٦ - ٢٠١٧ - ٢٠١٨ - ٢٠١٩ - ٢٠٢٠ - ٢٠٢١ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٣ - ٢٠٢٤ - ٢٠٢٥ - ٢٠٢٦ - ٢٠٢٧ - ٢٠٢٨ - ٢٠٢٩ - ٢٠٣٠ - ٢٠٣١ - ٢٠٣٢ - ٢٠٣٣ - ٢٠٣٤ - ٢٠٣٥ - ٢٠٣٦ - ٢٠٣٧ - ٢٠٣٨ - ٢٠٣٩ - ٢٠٤٠ - ٢٠٤١ - ٢٠٤٢ - ٢٠٤٣ - ٢٠٤٤ - ٢٠٤٥ - ٢٠٤٦ - ٢٠٤٧ - ٢٠٤٨ - ٢٠٤٩ - ٢٠٥٠ - ٢٠٥١ - ٢٠٥٢ - ٢٠٥٣ - ٢٠٥٤ - ٢٠٥٥ - ٢٠٥٦ - ٢٠٥٧ - ٢٠٥٨ - ٢٠٥٩ - ٢٠٦٠ - ٢٠٦١ - ٢٠٦٢ - ٢٠٦٣ - ٢٠٦٤ - ٢٠٦٥ - ٢٠٦٦ - ٢٠٦٧ - ٢٠٦٨ - ٢٠٦٩ - ٢٠٧٠ - ٢٠٧١ - ٢٠٧٢ - ٢٠٧٣ - ٢٠٧٤ - ٢٠٧٥ - ٢٠٧٦ - ٢٠٧٧ - ٢٠٧٨ - ٢٠٧٩ - ٢٠٨٠ - ٢٠٨١ - ٢٠٨٢ - ٢٠٨٣ - ٢٠٨٤ - ٢٠٨٥ - ٢٠٨٦ - ٢٠٨٧ - ٢٠٨٨ - ٢٠٨٩ - ٢٠٩٠ - ٢٠٩١ - ٢٠٩٢ - ٢٠٩٣ - ٢٠٩٤ - ٢٠٩٥ - ٢٠٩٦ - ٢٠٩٧ - ٢٠٩٨ - ٢٠٩٩ - ٢١٠٠ - ٢١٠١ - ٢١٠٢ - ٢١٠٣ - ٢١٠٤ - ٢١٠٥ - ٢١٠٦ - ٢١٠٧ - ٢١٠٨ - ٢١٠٩ - ٢١١٠ - ٢١١١ - ٢١١٢ - ٢١١٣ - ٢١١٤ - ٢١١٥ - ٢١١٦ - ٢١١٧ - ٢١١٨ - ٢١١٩ - ٢١٢٠ - ٢١٢١ - ٢١٢٢ - ٢١٢٣ - ٢١٢٤ - ٢١٢٥ - ٢١٢٦ - ٢١٢٧ - ٢١٢٨ - ٢١٢٩ - ٢١٣٠ - ٢١٣١ - ٢١٣٢ - ٢١٣٣ - ٢١٣٤ - ٢١٣٥ - ٢١٣٦ - ٢١٣٧ - ٢١٣٨ - ٢١٣٩ - ٢١٤٠ - ٢١٤١ - ٢١٤٢ - ٢١٤٣ - ٢١٤٤ - ٢١٤٥ - ٢١٤٦ - ٢١٤٧ - ٢١٤٨ - ٢١٤٩ - ٢١٥٠ - ٢١٥١ - ٢١٥٢ - ٢١٥٣ - ٢١٥٤ - ٢١٥٥ - ٢١٥٦ - ٢١٥٧ - ٢١٥٨ - ٢١٥٩ - ٢١٦٠ - ٢١٦١ - ٢١٦٢ - ٢١٦٣ - ٢١٦٤ - ٢١٦٥ - ٢١٦٦ - ٢١٦٧ - ٢١٦٨ - ٢١٦٩ - ٢١٧٠ - ٢١٧١ - ٢١٧٢ - ٢١٧٣ - ٢١٧٤ - ٢١٧٥ - ٢١٧٦ - ٢١٧٧ - ٢١٧٨ - ٢١٧٩ - ٢١٨٠ - ٢١٨١ - ٢١٨٢ - ٢١٨٣ - ٢١٨٤ - ٢١٨٥ - ٢١٨٦ - ٢١٨٧ - ٢١٨٨ - ٢١٨٩ - ٢١٩٠ - ٢١٩١ - ٢١٩٢ - ٢١٩٣ - ٢١٩٤ - ٢١٩٥ - ٢١٩٦ - ٢١٩٧ - ٢١٩٨ - ٢١٩٩ - ٢٢٠٠ - ٢٢٠١ - ٢٢٠٢ - ٢٢٠٣ - ٢٢٠٤ - ٢٢٠٥ - ٢٢٠٦ - ٢٢٠٧ - ٢٢٠٨ - ٢٢٠٩ - ٢٢١٠ - ٢٢١١ - ٢٢١٢ - ٢٢١٣ - ٢٢١٤ - ٢٢١٥ - ٢٢١٦ - ٢٢١٧ - ٢٢١٨ - ٢٢١٩ - ٢٢٢٠ - ٢٢٢١ - ٢٢٢٢ - ٢٢٢٣ - ٢٢٢٤ - ٢٢٢٥ - ٢٢٢٦ - ٢٢٢٧ - ٢٢٢٨ - ٢٢٢٩ - ٢٢٣٠ - ٢٢٣١ - ٢٢٣٢ - ٢٢٣٣ - ٢٢٣٤ - ٢٢٣٥ - ٢٢٣٦ - ٢٢٣٧ - ٢٢٣٨ - ٢٢٣٩ - ٢٢٤٠ - ٢٢٤١ - ٢٢٤٢ - ٢٢٤٣ - ٢٢٤٤ - ٢٢٤٥ - ٢٢٤٦ - ٢٢٤٧ - ٢٢٤٨ - ٢٢٤٩ - ٢٢٥٠ - ٢٢٥١ - ٢٢٥٢ - ٢٢٥٣ - ٢٢٥٤ - ٢٢٥٥ - ٢٢٥٦ - ٢٢٥٧ - ٢٢٥٨ - ٢٢٥٩ - ٢٢٦٠ - ٢٢٦١ - ٢٢٦٢ - ٢٢٦٣ - ٢٢٦٤ - ٢٢٦٥ - ٢٢٦٦ - ٢٢٦٧ - ٢٢٦٨ - ٢٢٦٩ - ٢٢٧٠ - ٢٢٧١ - ٢٢٧٢ - ٢٢٧٣ - ٢٢٧٤ - ٢٢٧٥ - ٢٢٧٦ - ٢٢٧٧ - ٢٢٧٨ - ٢٢٧٩ - ٢٢٨٠ - ٢٢٨١ - ٢٢٨٢ - ٢٢٨٣ - ٢٢٨٤ - ٢٢٨٥ - ٢٢٨٦ - ٢٢٨٧ - ٢٢٨٨ - ٢٢٨٩ - ٢٢٩٠ - ٢٢٩١ - ٢٢٩٢ - ٢٢٩٣ - ٢٢٩٤ - ٢٢٩٥ - ٢٢٩٦ - ٢٢٩٧ - ٢٢٩٨ - ٢٢٩٩ - ٢٣٠٠ - ٢٣٠١ - ٢٣٠٢ - ٢٣٠٣ - ٢٣٠٤ - ٢٣٠٥ - ٢٣٠٦ - ٢٣٠٧ - ٢٣٠٨ - ٢٣٠٩ - ٢٣١٠ - ٢٣١١ - ٢٣١٢ - ٢٣١٣ - ٢٣١٤ - ٢٣١٥ - ٢٣١٦ - ٢٣١٧ - ٢٣١٨ - ٢٣١٩ - ٢٣٢٠ - ٢٣٢١ - ٢٣٢٢ - ٢٣٢٣ - ٢٣٢٤ - ٢٣٢٥ - ٢٣٢٦ - ٢٣٢٧ - ٢٣٢٨ - ٢٣٢٩ - ٢٣٣٠ - ٢٣٣١ - ٢٣٣٢ - ٢٣٣٣ - ٢٣٣٤ - ٢٣٣٥ - ٢٣٣٦ - ٢٣٣٧ - ٢٣٣٨ - ٢٣٣٩ - ٢٣٤٠ - ٢٣٤١ - ٢٣٤٢ - ٢٣٤٣ - ٢٣٤٤ - ٢٣٤٥ - ٢٣٤٦ - ٢٣٤٧ - ٢٣٤٨ - ٢٣٤٩ - ٢٣٥٠ - ٢٣٥١ - ٢٣٥٢ - ٢٣٥٣ - ٢٣٥٤ - ٢٣٥٥ - ٢٣٥٦ - ٢٣٥٧ - ٢٣٥٨ - ٢٣٥٩ - ٢٣٦٠ - ٢٣٦١ - ٢٣٦٢ - ٢٣٦٣ - ٢٣٦٤ - ٢٣٦٥ - ٢٣٦٦ - ٢٣٦٧ - ٢٣٦٨ - ٢٣٦٩ - ٢٣٧٠ - ٢٣٧١ - ٢٣٧٢ - ٢٣٧٣ - ٢٣٧٤ - ٢٣٧٥ - ٢٣٧٦ - ٢٣٧٧ - ٢٣٧٨ - ٢٣٧٩ - ٢٣٨٠ - ٢٣٨١ - ٢٣٨٢ - ٢٣٨٣ - ٢٣٨٤ - ٢٣٨٥ - ٢٣٨٦ - ٢٣٨٧ - ٢٣٨٨ - ٢٣٨٩ - ٢٣٩٠ - ٢٣٩١ - ٢٣٩٢ - ٢٣٩٣ - ٢٣٩٤ - ٢٣٩٥ - ٢٣٩٦ - ٢٣٩٧ - ٢٣٩٨ - ٢٣٩٩ - ٢٤٠٠ - ٢٤٠١ - ٢٤٠٢ - ٢٤٠٣ - ٢٤٠٤ - ٢٤٠٥ - ٢٤٠٦ - ٢٤٠٧ - ٢٤٠٨ - ٢٤٠٩ - ٢٤١٠ - ٢٤١١ - ٢٤١٢ - ٢٤١٣ - ٢٤١٤ - ٢٤١٥ - ٢٤١٦ - ٢٤١٧ - ٢٤١٨ - ٢٤١٩ - ٢٤٢٠ - ٢٤٢١ - ٢٤٢٢ - ٢٤٢٣ - ٢٤٢٤ - ٢٤٢٥ - ٢٤٢٦ - ٢٤٢٧ - ٢٤٢٨ - ٢٤٢٩ - ٢٤٣٠ - ٢٤٣١ - ٢٤٣٢ - ٢٤٣٣ - ٢٤٣٤ - ٢٤٣٥ - ٢٤٣٦ - ٢٤٣٧ - ٢٤٣٨ - ٢٤٣٩ - ٢٤٤٠ - ٢٤٤١ - ٢٤٤٢ - ٢٤٤٣ - ٢٤٤٤ - ٢٤٤٥ - ٢٤٤٦ - ٢٤٤٧ - ٢٤٤٨ - ٢٤٤٩ - ٢٤٥٠ - ٢٤٥١ - ٢٤٥٢ - ٢٤٥٣ - ٢٤٥٤ - ٢٤٥٥ - ٢٤٥٦ - ٢٤٥٧ - ٢٤٥٨ - ٢٤٥٩ - ٢٤٦٠ - ٢٤٦١ - ٢٤٦٢ - ٢٤٦٣ - ٢٤٦٤ - ٢٤٦٥ - ٢٤٦٦ - ٢٤٦٧ - ٢٤٦٨ - ٢٤٦٩ - ٢٤٧٠ - ٢٤٧١ - ٢٤٧٢ - ٢٤٧٣ - ٢٤٧٤ - ٢٤٧٥ - ٢٤٧٦ - ٢٤٧٧ - ٢٤٧٨ - ٢٤٧٩ - ٢٤٨٠ - ٢٤٨١ - ٢٤٨٢ - ٢٤٨٣ - ٢٤٨٤ - ٢٤٨٥ - ٢٤٨٦ - ٢٤٨٧ - ٢٤٨٨ - ٢٤٨٩ - ٢٤٩٠ - ٢٤٩١ - ٢٤٩٢ - ٢٤٩٣ - ٢٤٩٤ - ٢٤٩٥ - ٢٤٩٦ - ٢٤٩٧ - ٢٤٩٨ - ٢٤٩٩ - ٢٥٠٠ - ٢٥٠١ - ٢٥٠٢ - ٢٥٠٣ - ٢٥٠٤ - ٢٥٠٥ - ٢٥٠٦ - ٢٥٠٧ - ٢٥٠٨ - ٢٥٠٩ - ٢٥١٠ - ٢٥١١ - ٢٥١٢ - ٢٥١٣ - ٢٥١٤ - ٢٥١٥ - ٢٥١٦ - ٢٥١٧ - ٢٥١٨ - ٢٥١٩ - ٢٥٢٠ - ٢٥٢١ - ٢٥٢٢ - ٢٥٢٣ - ٢٥٢٤ - ٢٥٢٥ - ٢٥٢٦ - ٢٥٢٧ - ٢٥٢٨ - ٢٥٢٩ - ٢٥٣٠ - ٢٥٣١ - ٢٥٣٢ - ٢٥٣٣ - ٢٥٣٤ - ٢٥٣٥ - ٢٥٣٦ - ٢٥٣٧ - ٢٥٣٨ - ٢٥٣٩ - ٢٥٤٠ - ٢٥٤١ - ٢٥٤٢ - ٢٥٤٣ - ٢٥٤٤ - ٢٥٤٥ - ٢٥٤٦ - ٢٥٤٧ - ٢٥٤٨ - ٢٥٤٩ - ٢٥٥٠ - ٢٥٥١ - ٢٥٥٢ - ٢٥٥٣ - ٢٥٥٤ - ٢٥٥٥ - ٢٥٥٦ - ٢٥٥٧ - ٢٥٥٨ - ٢٥٥٩ - ٢٥٦٠ - ٢٥٦١ - ٢٥٦٢ - ٢٥٦٣ - ٢٥٦٤ - ٢٥٦٥ - ٢٥٦٦ - ٢٥٦٧ - ٢٥٦٨ - ٢٥٦٩ - ٢٥٧٠ - ٢٥٧١ - ٢٥٧٢ - ٢٥٧٣ - ٢٥٧٤ - ٢٥٧٥ - ٢٥٧٦ - ٢٥٧٧ - ٢٥٧٨ - ٢٥٧٩ - ٢٥٨٠ - ٢٥٨١ - ٢٥٨٢ - ٢٥٨٣ - ٢٥٨٤ - ٢٥٨٥ - ٢٥٨٦ - ٢٥٨٧ - ٢٥٨٨ - ٢٥٨٩ - ٢٥٩٠ - ٢٥٩١ - ٢٥٩٢ - ٢٥٩٣ - ٢٥٩٤ - ٢٥٩٥ - ٢٥٩٦ - ٢٥٩٧ - ٢٥٩٨ - ٢٥٩٩ - ٢٦٠٠ - ٢٦٠١ - ٢٦٠٢ - ٢٦٠٣ - ٢٦٠٤ - ٢٦٠٥ - ٢٦٠٦ - ٢٦٠٧ - ٢٦٠٨ - ٢٦٠٩ - ٢٦١٠ - ٢٦١١ - ٢٦١٢ - ٢٦١٣ - ٢٦١٤ - ٢٦١٥ - ٢٦١٦ - ٢٦١٧ - ٢٦١٨ - ٢٦١٩ - ٢٦٢٠ - ٢٦٢١ - ٢٦٢٢ - ٢٦٢٣ - ٢٦٢٤ - ٢٦٢٥ - ٢٦٢٦ - ٢٦٢٧ - ٢٦٢٨ - ٢٦٢٩ - ٢٦٣٠ - ٢٦٣١ - ٢٦٣٢ - ٢٦٣٣ - ٢٦٣٤ - ٢٦٣٥ - ٢٦٣٦ - ٢٦٣٧ - ٢٦٣٨ - ٢٦٣٩ - ٢٦٤٠ - ٢٦٤١ - ٢٦٤٢ - ٢٦٤٣ - ٢٦٤٤ - ٢٦٤٥ - ٢٦٤٦ - ٢٦٤٧ - ٢٦٤٨ - ٢٦٤٩ - ٢٦٥٠ - ٢٦٥١ - ٢٦٥٢ - ٢٦٥٣ - ٢٦٥٤ - ٢٦٥٥ - ٢٦٥٦ - ٢٦٥٧ - ٢٦٥٨ - ٢٦٥٩ - ٢٦٦٠ - ٢٦٦١ - ٢٦٦٢ - ٢٦٦٣ - ٢٦٦٤ - ٢٦٦٥ - ٢٦٦٦ - ٢٦٦٧ - ٢٦٦٨ - ٢٦٦٩ - ٢٦٧٠ - ٢٦٧١ - ٢٦٧٢ - ٢٦٧٣ - ٢٦٧٤ - ٢٦٧٥ - ٢٦٧٦ - ٢٦٧٧ - ٢٦٧٨ - ٢٦٧٩ - ٢٦٨٠ - ٢٦٨١ - ٢٦٨٢ - ٢٦٨٣ - ٢٦٨٤ - ٢٦٨٥ - ٢٦٨٦ - ٢٦٨٧ - ٢٦٨٨ - ٢٦٨٩ - ٢٦٩٠ - ٢٦٩١ - ٢٦٩٢ - ٢٦٩٣ - ٢٦٩٤ - ٢٦٩٥ - ٢٦٩٦ - ٢٦٩٧ - ٢٦٩٨ - ٢٦٩٩ - ٢٧٠٠ - ٢٧٠١ - ٢٧٠٢ - ٢٧٠٣ - ٢٧٠٤ - ٢٧٠٥ - ٢٧٠٦ - ٢٧٠٧ - ٢٧٠٨ - ٢٧٠٩ - ٢٧١٠ - ٢٧١١ - ٢٧١٢ - ٢٧١٣ - ٢٧١٤ - ٢٧١٥ - ٢٧١٦ - ٢٧١٧ - ٢٧١٨ - ٢٧١٩ - ٢٧٢٠ - ٢٧٢١ - ٢٧٢٢ - ٢٧٢٣ - ٢٧٢٤ - ٢٧٢٥ - ٢٧٢٦ - ٢٧٢٧ - ٢٧٢٨ - ٢٧٢٩ - ٢٧٣٠ - ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ - ٢٧٣٣ - ٢٧٣٤ - ٢٧٣٥ - ٢٧٣٦ - ٢٧٣٧ - ٢٧٣٨ - ٢٧٣٩ - ٢٧٤٠ - ٢٧٤١ - ٢٧٤٢ - ٢٧٤٣ - ٢٧٤٤ - ٢٧٤٥ - ٢٧٤٦ - ٢٧٤٧ - ٢٧٤٨ - ٢٧٤٩ - ٢٧٥٠ - ٢٧٥١ - ٢٧٥٢ - ٢٧٥٣ - ٢٧٥٤ - ٢٧٥٥ - ٢٧٥٦ - ٢٧٥٧ - ٢٧٥٨ - ٢٧٥٩ - ٢٧٦٠ - ٢٧٦١ - ٢٧٦٢ - ٢٧٦٣ - ٢٧٦٤ - ٢٧٦٥ - ٢٧٦٦ - ٢٧٦٧ - ٢٧٦٨ - ٢٧٦٩ - ٢٧٧٠ - ٢٧٧١ - ٢٧٧٢ - ٢٧٧٣ - ٢٧٧٤ - ٢٧٧٥ - ٢٧٧٦ - ٢٧٧٧ - ٢٧٧٨ - ٢٧٧٩ - ٢٧٨٠ - ٢٧٨١ - ٢٧٨٢ - ٢٧٨٣ - ٢٧٨٤ - ٢٧٨٥ - ٢٧٨٦ - ٢٧٨٧ - ٢٧٨٨ - ٢٧٨٩ - ٢٧٩٠ - ٢٧٩١ - ٢٧٩٢ - ٢٧٩٣ - ٢٧٩٤ - ٢٧٩٥ - ٢٧٩٦ - ٢٧٩٧ - ٢٧٩٨ - ٢٧٩٩ - ٢٨٠٠ - ٢٨٠١ - ٢٨٠٢ - ٢٨٠٣ - ٢٨٠٤ - ٢٨٠٥ - ٢٨٠٦ - ٢٨٠٧ - ٢٨٠٨ - ٢٨٠٩ - ٢٨١٠ - ٢٨١١ - ٢٨١٢ - ٢٨١٣ - ٢٨١٤ - ٢٨١٥ - ٢٨١٦ - ٢٨١٧ - ٢٨١٨ - ٢٨١٩ - ٢٨٢٠ - ٢٨٢١ - ٢٨٢٢ - ٢٨٢٣ - ٢٨٢٤ - ٢٨٢٥ - ٢٨٢٦ - ٢٨٢٧ - ٢٨٢٨ - ٢٨٢٩ - ٢٨٣٠ - ٢٨٣١ - ٢٨٣٢ - ٢٨٣٣ - ٢٨٣٤ - ٢٨٣٥ - ٢٨٣٦ - ٢٨٣٧ - ٢٨٣٨ - ٢٨٣٩ - ٢٨٤٠ - ٢٨٤١ - ٢٨٤٢ - ٢٨٤٣ - ٢٨٤٤ - ٢٨٤٥ - ٢٨٤٦ - ٢٨٤٧ - ٢٨٤٨ - ٢٨٤٩ - ٢٨٥٠ - ٢٨٥١ - ٢٨٥٢ - ٢٨٥٣ - ٢٨٥٤ - ٢٨٥٥ - ٢٨٥٦ - ٢٨٥٧ - ٢٨٥٨ - ٢٨٥٩ - ٢٨٦٠ - ٢٨٦١ - ٢٨٦٢ - ٢٨٦٣ - ٢٨٦٤ - ٢٨٦٥ - ٢٨٦٦ - ٢٨٦٧ - ٢٨٦٨ - ٢٨٦٩ - ٢٨٧٠ - ٢٨٧١ - ٢٨٧٢ - ٢٨٧٣ - ٢٨٧٤ - ٢٨٧٥ - ٢٨٧٦ - ٢٨٧٧ - ٢٨٧٨ - ٢٨٧٩ - ٢٨٨٠ - ٢٨٨١ - ٢٨٨٢ - ٢٨٨٣ - ٢٨٨٤ - ٢٨٨٥ - ٢٨٨٦ - ٢٨٨٧ - ٢٨٨٨ - ٢٨٨٩ - ٢٨٩٠ - ٢٨٩١ - ٢٨٩٢ - ٢٨٩٣ - ٢٨٩٤ - ٢٨٩٥ - ٢٨٩٦ - ٢٨٩٧ - ٢٨٩٨ - ٢٨٩٩ - ٢٩٠٠ - ٢٩٠١ - ٢٩٠٢ - ٢٩٠٣ - ٢٩٠٤ - ٢٩٠٥ - ٢٩٠٦ - ٢٩٠٧ - ٢٩٠٨ - ٢٩٠٩ - ٢٩١٠ - ٢٩١١ - ٢٩١٢ - ٢٩١٣ - ٢٩١٤ - ٢٩١٥ - ٢٩١٦ - ٢٩١٧ - ٢٩١٨ - ٢٩١٩ - ٢٩٢٠ - ٢٩٢١ - ٢٩٢٢ - ٢٩٢٣ - ٢٩٢٤ - ٢٩٢٥ - ٢٩٢٦ - ٢٩٢٧ - ٢٩٢٨ - ٢٩٢٩ - ٢٩٣٠ - ٢٩٣١ - ٢٩٣٢ - ٢٩٣٣ - ٢٩٣٤ - ٢٩٣٥ - ٢٩٣٦ - ٢٩٣٧ - ٢٩٣٨ - ٢٩٣٩ - ٢٩٤٠ - ٢٩٤١ - ٢٩٤٢ - ٢٩٤٣ - ٢٩٤٤ - ٢٩٤٥ - ٢٩٤٦ - ٢٩٤٧ - ٢٩٤٨ - ٢٩٤٩ - ٢٩٥٠ - ٢٩٥١ - ٢٩٥٢ - ٢٩٥٣ - ٢٩٥٤ - ٢٩٥٥ - ٢٩٥٦ - ٢٩٥٧ - ٢٩٥٨ - ٢٩٥٩ - ٢٩٦٠ - ٢٩٦١ - ٢٩٦٢ - ٢٩٦٣ - ٢٩٦٤ - ٢٩٦٥ - ٢٩٦٦ - ٢٩٦٧ - ٢٩٦٨ - ٢٩٦٩ - ٢٩٧٠ - ٢٩٧١ - ٢٩٧٢ - ٢٩٧٣ - ٢٩٧٤ - ٢٩٧٥ - ٢٩٧٦ - ٢٩٧٧ - ٢٩٧٨ - ٢٩٧٩ - ٢٩٨٠ - ٢٩٨١ - ٢٩٨٢ - ٢٩٨٣ - ٢٩٨٤ - ٢٩٨٥ - ٢٩٨٦ - ٢٩٨٧ - ٢٩٨٨ - ٢٩٨٩ - ٢٩٩٠ - ٢٩٩١ - ٢٩٩٢ - ٢٩٩٣ - ٢٩٩٤ - ٢٩٩٥ - ٢٩٩٦ - ٢٩٩٧ - ٢٩٩٨ - ٢٩٩٩ - ٣٠٠٠ - ٣٠٠١ - ٣٠٠٢ - ٣٠٠٣ - ٣٠٠٤ - ٣٠٠٥ - ٣٠٠٦ - ٣٠٠٧ - ٣٠٠٨ - ٣٠٠٩ - ٣٠١٠ - ٣٠١١ - ٣٠١٢ - ٣٠١٣ - ٣٠١٤ - ٣٠١٥ - ٣٠١٦ - ٣٠١٧ - ٣٠١٨ - ٣٠١٩ - ٣٠٢٠ - ٣٠٢١ - ٣٠٢٢ - ٣٠٢٣ - ٣٠٢٤ - ٣٠٢٥ - ٣٠٢٦ - ٣٠٢٧ - ٣٠٢٨ - ٣٠٢٩ - ٣٠٣٠ - ٣٠٣١ - ٣٠٣٢ - ٣٠٣٣ - ٣٠٣٤ - ٣٠٣٥ - ٣٠٣٦ - ٣٠٣٧ - ٣٠٣٨ - ٣٠٣٩ - ٣٠٤٠ - ٣٠٤١ - ٣٠٤٢ - ٣٠٤٣ - ٣٠٤٤ - ٣٠٤٥ - ٣٠٤٦ - ٣٠٤٧ - ٣٠٤٨ - ٣٠٤٩ - ٣٠٥٠ - ٣٠٥١ - ٣٠٥٢ - ٣٠٥٣ - ٣٠٥٤ - ٣٠٥٥ - ٣٠٥٦ - ٣٠٥٧ - ٣٠٥٨ - ٣٠٥٩ - ٣٠٦٠ - ٣٠٦١ - ٣٠٦٢ - ٣٠٦٣ - ٣٠٦٤ - ٣٠٦٥ - ٣٠٦٦ - ٣٠٦٧ - ٣٠٦٨ - ٣٠٦٩ - ٣٠٧٠ - ٣٠٧١ - ٣٠٧٢ - ٣٠٧٣ - ٣٠٧٤ - ٣٠٧٥ - ٣٠٧٦ - ٣٠٧٧ - ٣٠٧٨ - ٣٠٧٩ - ٣٠٨٠ - ٣٠٨١ - ٣٠٨٢ - ٣٠٨٣ - ٣٠٨٤ - ٣٠٨٥ - ٣٠٨٦ - ٣٠٨٧ - ٣٠٨٨ - ٣٠٨٩ - ٣٠٩٠ - ٣٠٩١ - ٣٠٩٢ - ٣٠٩٣ - ٣٠٩٤ - ٣٠٩٥ - ٣٠٩٦



محاضرة الشعر

لشاعر الفرنسي : **بول فاليري**
تقدم ويترجم : **الدكتور أنور لوقا**

ويسمى « بول فاليري » بأنه شاعر مفكر ، أو فيلسوف شاعر ، نظم قصائده الرعوية الدقيقة في أبيات محكمة السبك والأيقاع ، ويظهر عبقريته في شئ مترق أتيق . أخضع الشعر لذلك الطغيان وصاغ الشعر في أساليب الشعر . وتجلت برأيه في المتابعة باللفظ ثنائه بالعلمي ، وجهمه الموفق بين هذين التفسيرين في عرف سواء من انصار اللفظ أو انصار المعنى . وصدر في ذلك من دراسة مستتابة لعمليات التعبير والخلق الفني كما وقف عليها في أعمال الفنانين ومناهجهم ، وكما أنشأ في حركات وجدانه وذهنه . وأكمل من هذه الحياة الفكرية التي ترأب نفسها موضوعه الأثير ، يأتيه من كل جانب .

لهذا أسمت قصائد « فاليري » بتماثل البناء الخارجي من ناحية ، وسرى وراء كلماتها التفتاة من ناحية أخرى خيل عقلي مرهف يريد أن يتنكر في الصورة والرمز والجرس تنكرا تاما . وما طالا ألبا القراء والنقاد أن يتغلبوه ! قصة المومس « فاليري » وأغرابه قصة معروفة ، أنه لمومس يفسد إلى معظم شعره لغة نادرة ، ويبري كل قارئ بتأويل النص كما يشاء . وكثيرا ما اختلف الأدباء ، بل أساطنة الآداب ، في شرح هذه القصيدة أو تلك ، حتى إذا دفعوا إلى الشاعر نزاعهم ليفصل فيه ، ويعلم من أصاب الفهم ومن أخطأ ، موضحا ما قصده إليه بالفعل ، أبى أن يتدخل في الحركة دأى تعليق يعد من قدرة شعره الترى على بث العالي العديدة المتباينة في شئ الانعاش .

ولقد ذهب « فاليري » مذهبه هذا العقلي الواسع ، الذي يميز الشعر تنديرا ، في الوقت الذي ظهرت فيه المدرسة « السيميائية » ومعنى أياها « حول الشاعر » تنديرة برونون André Breton — بتخلون من سلطة ذلك العقل الواسع

لا صير في أن نبدا من النهاية ، ونحن نخلص مدخلا إلى أدب مستغلق كادب « بول فاليري » . ولكن (محمداوية الشجرة) — التي كتبها هذا الشاعر المدهس سنة ١٩٢٣ في قبل مولده بعامين — هي أول لقاء لنا معه .

لقد تلاها في الجلسة السنوية « الأكاديمية الفرنسية » التي انعقدت في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣ — وهو إذ ذاك في أوج مجده ، ولما في مراحل نضجه وحكمته . ولعلنا أحر ما الله . وقد أودع في سطورها الموجزة الطويلة خلاصة تجاربه السابقة . تلك أراؤه التي انتهى إليها من الخلق الفني ، يقدمها في سياق طريف ، يشهد لدينا بعمق الصانع الماهر .



ما مكان « فاليري » منا ؟ لقد تولى عقب الحرب العالمية الثانية — في ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٥ — من أربعة وسبعين عاما ، بعد أن أثار إعجاب النصف الأول من القرن العشرين بمسا أمدح في الشعر والنثر من أعمال رعبينة بعيدة الإقوار ، وقف منها موقف الناقد الصارم ، بل موقف العالم المستنكف . وكان يكره أن ينشر شعره ، ويرى في أدبه مجرد محاولات وتطبيقات . وقد أدى زعمه في الشهرة ، وعكوله الطويل على التأمل والبحث في صمت ، إلى ذبوع صيته على العكس ، وإلى ازدياد شفق الخاصة بجدة كتاباته . وهكذا تبوأ في ختام حياته — بجدارة — كرسي « الأكاديمية الفرنسية » ، وكرسي الأستاذية في « الكوليج دي فرانس » . وما زالت مسيرته نوحى بالثبات والأجلال ، وما زالت آثاره الطليسية ودفائره المخطوطة تجتذب الدارسين التخصصيين . انه الآن — مهما يكن من تحول التيارات المعاصرة — في عداد الأدباء « الكلاسيكيين » الذين تمتاز بترائهم الأجلال .

هو عنصر مادي سماه الذرة ، تلك التي تشكل منها الانسان والحيوان والنبات والجماد على السواء . و « لوكريس » اما ببساطة في ابواب قصيدته الكبرى - وقد نشرها بعدد مائة « شيتيرون » - نظرية الفيلسوف اليوناني « ابيقور » . غير ان الشاعر الروماني يبحث في التشاهد التي يصورها حكمة انفعاله الخاص ، ودعوة بلاغته ، حتى ليقال انه نظم اجزاء عمله هذا في فترات الرشد التي كانت تتخلل هذيانه على اثر تجرعه شرابا مسكورا دسته في كاسه عاشقة حافلة لم يستجيب لعجزها ! (1)

ومعها يكن من تاريخ هذين الشعارين ، فقد كان « بول فاليري » يعمل مزاجه الى لوكريس ويتعرف من فرجيل . والحق ان بين فاليري ولوكريس اوجه شبه صادقة : فكلهما يهتم بالملحة والتمحيص ، ويبحث عن العلة وراء المفسول ، ويوسل التحقن الى المعرفة ، ويعني بجمال الصياغة اللفظية . ومقابل هذا الجهد العزيم ، كان فاليري يستغف بختانية فرجيل السهلة المضحكة ، ويعيب عليه طريقته « المصطنعة » في التاكيف . وما زال يقسو في حكمه على ذلك الشاعر الرقيق ، حتى كلفه احد الناشرين سنة ١٩٤٢ بترجمة ديوانه المكسور الى الفرنسية (٢) ، فعاد الى قراءة الديوان كاره ، ولم يلبث ان اكتشف في تلك النصوص أمعافا كان يجهلها .

وفي مقدمة شائقة اعدها لترجمته ، اعترف « فاليري » بأنه قد جاز على « فرجيل » في أول الامر لاختلاف بينهما : فهو حصري محدث لا يفهم جمال الريف او يتلوه ، ولا يستطيع ان يشاطر الرعاة واللحجين ما فطروا عليه ، بل ولا يحس في تكرار الفصول سوى فقر الطبيعة واملاها . وعذره انه وقد وشأ في ميثاء « سيت » الصغير بجنوبي فرنسا ،

Mario Meunier: De Lucrece à Mollire, (1)

Les Nouvelles Lettres, 17, Sept. 1953 p. 1

A. Roudineco: Les derniers vers de Virgile, (2)

Les Bucoliques de Virgile, La Nouvelle Revue Française, 1er août 1955, p. 183-189

المستبد ، ويظفون العنان للكتوات العقل الباطن، ملوى الفرائز، دون أدنى تقييد بأوضاع الشعر التقليدية . وإذا كانت « الميرناية » قد طرحت عمرا بطابع التحرر في التعبير ، وخلقت في أواخر الفن العالي الأخيرة آثارا ما زلنا نلحسها ، فان جفرية « فاليري » لم تنجب مدرسة من بعده ، وانما بنى ائمه الاصيل فريدا ، شامخا وحده في مكانه .



و « محاوراة الشجرة » Dialogue de l'Arbre من اجمل الصفحات التي انشأها « بول فاليري » نثرا . وهي ثالثة معارضاته (1) التي كتبها على نمط محاورات افلاطون ، وان لم يستمر فيها من الفيلسوف اليوناني الكبير سوى اطار المعادلة الجدلية ، واسماء بعض الشخصيات القديمة . اى ان الافكار التي يتضمنها النقاش هي افكار « فاليري » نفسه . ولكل محاوراة موضوع مستقل ، بيد ان المحاورات الثلاث في مجموعها نغرى علينا بامات المؤلف في علم الجمال ، ومنهجيه في تناول الفن .

والحوار هنا بين رجلين ، غلد اسميهما الادب اللاتيني . اما الاول فهو شخصية غير تاريخية . انه « تيتير » Tityre ذلك الراعي العائق الذي تغلبه الشاعر « فرجيل » Virgile واجرى على لسانه مقطوعات بدعية ، وجعل منه بطل ديوانه الريفي Les Bucoliques . واما الثاني فهو الشاعر الروماني « لوكريس » Lucrece الذي عاش كما عاش « فرجيل » في القرن الاول قبل الميلاد ، ولكن التاريخ لم يحفظ لنا من سميته الا انه الف « من طبيعة الاشياء » قصيدة من الطولات De Naturae rerum ، تنتمي الى العلم والفلسفة بقدر ما تنتمي الى الشعر : فيها نظرية شاملة تفسر الكون وتخلله ، وتورد دورة الحياة والثناء الفصلة الى مبدأ واحد ،

(1) كتب « فاليري » ثيل ذلك محاورات : « L'Amour et la Danse » و « L'Amour et la Danse » و « L'Amour et la Danse » و « L'Amour et la Danse »



الجمعية إلا بعد غناء الحصى والتعطيف ، أى من خلال تكلم شاق - والكشف عنه الطبيعة فاعلمه بجديها عنه إلى الأبد .
 وفى نظر لوكريس ، ليست الإرادة الذاتية - فردية وجمعية - هي مصدر القوة ، وإنما القدرة فطرة الفكر المدرك .
 وعلى هذا الأساس يشبه لوكريس نشاطه نشاطات الشجرة ، وهو يعنى هذا الكائن الذى يتعمق نفسه في نظام ، وهذه الشجرة التى تنمو أى تنزع أعضائها وترتب أوراقها بدقة واحكامها طبيعيا تعتمد على التناسل ، والقوانين المساحة والإرقام المحسوسة . وهكذا يطل عليات الخلق إلى جزئيات يرصدها ، ولكنه لا يبرصد حركات الشجر عندما تعزى النفس ، تتعلم إليه تلك الحركات ويستلج المظاهر بطلاقة جمالية ، وينشد كلامه أنشادا كما يطل الرأى المتمرد دائما .

ولقد أطوار تجربة الشعر عند « بول فاليري » ، فقد كانت تتنازع - كما هم بالنظم - قوة المعرفة وفننة الجمال (1) والجمال والمعرفة مؤلفان في هذه المصاورة ، التى يرفي نثرها الرقيق إلى أجواء الشعر ، لا من حيث الصور والأشكال البيانية فصعب ، بل من حيث إيقاع العبارات أيضا وتقسيم الألفاظ . فالأذن سقط في هذه المسور المثقلة بموسيقى أبيات كاملة أو مجزوة من البحر الإسكندري . Alexander ، وهو أجزل بحور الشعر الفرنسى . وإذا استقصى على التفسير نقى تلك القيم الصوتية إلى اللغة العربية ، فهو يفتح بأن ينفذ عبر المائى نعمة الفكر بالتطلع إلى الطبيعة مع شاعر فيلسوف ، ينظر للوجود من وجهتين متقابلتين ، لعلهما تستفرغان موافق البشر في محاولات الاحاطة بطراف الكون .

محاورة الشجرة

لوكريس : ماذا تفعل هنا ، « تيتير » ، يا عاشق النمل ، مستروحا تحت شجرة الزان هذه ،
 أنفرت نظيرانك في ذهب الهواء المنسوج من نورتي ؟
 ليمر « ألي » ، وأنظروا زمزاري متناهين بين أصابعى ، وأنا أنشبه بهذه الساعة الرالعة .
 أنى أريد أن أكون آلة لنعمة الأشياء الشاملة .
 ادع للارض ثقل جسمى كله ، وقبها عيناى هناك غالبا ، فى كتلة النور الخافقة . انظر ، كم تبدو الشجرة من فوقنا مستمتعة بالوهج البديع الذى تقينى آياه : أن كيانها المتسوله - ولابد أنه من جوهر أنثوى - يسألنى أن أنشد له اسمه وأن أهبالنسيم الذى يجوسه ويعبده فى رفق شكلا موسيقيا . أننى أنتظر نفسى . وللانتظار فضل جم يا « لوكريس »
 سوف أحس باقبال الفعل الخالص عسلى شفتى ، وكل الذى ما زلت أجهله عن نفسى المتبعة بشجرة الزان لن يلبث حتى يختلج .
 أى « لوكريس » ، أو ليست هذه معجزة أن يستطيع راع ، رجل قد نسي قطيعا ، أن

وهناك لا تمتد في الأفق حصرة العقول ، بل توتد رمال الشاطئ ومياه البحر وما ترسبه على الأرض من ملح كالح الياس .
 وأين من أسراب الماشية الطليقة في مراتعها تلك المغانم المكتسبة المذمومة التى ألف منظر شحتها القاتم في سفينته أو قطار ؟ (1)
 وأحد فاليري يهضم عبارات فرجيل كى يرتجعها ، فغاش من جديد تجربة ذلك الشاعر اللاتينى الشاب فيصارت الألفاظ والمعانى والأوزان . وعلته تلك اللحظات إلى شيابه ، أيام بدأ يخالج الشعر وهو في العشرين من عمره ، متخلف السكيات مضيقا للوئام البيانية ، يثنى لتقصيده سبيلا بين إمكانيات اللغة المشابكة . وتذكر ما كان يستهو به في ذلك العهد من استكشاف الخلق الغنى كيف يتم داخل القصيدة ، كيف تستج البادرة الموسيقية ، كيف تصدح النفس ، وكيف يتسرون القصود بالشكل ونمو بين بديه التهودة وليدة . أنه يجد الآن تنويع القديمة في سيادة العقل على وقليقة العقل ، يجد لذة الخلف الخبير الذى يعرف ويبنى كل حاجته من حاجات صنعه ، ولذة التأفد الذى يسيطر على عناصر أكاده الأدبية . وما هو ذا « الشاعر المترجم » ينتقل إلى مايرى في ذهنه من بحث ، ويسجل هذا البحث في صورة حوار .
 لقد التفتي بخلاد - طرفا نسألوه (2) - فى ظل شجرة عظيمة . وكثيرا ما تأمل شاعرنا الشجر واستوحاه (3) والشجرة هنا بكل بساطة رمز الحياة ، ليس الإنسان جزءا من الطبيعة الطيبة ؟ ليس النمو شريعة الكائنات جميعا ؟ ألوم يصاحب النبات الإنسان منذ بدء الخليقة ، منذ أن جبل آدم وحواء بين أشجار الفردوس ؟



وحول الشجرة - وهى المحور الرئيسى الذى يسمون وحده المحاور - تنزع موضوعات فلسفية ونفسية وجوانب فانتلفان بحالات ولوح تبادر المعرفة والحب واللحن . ولكن ما الطريق إلى اكتشاف الأسرار ؟ لكل منهما مسلكه : فالراعى « تيتير » يمثل الغالبية ، والعالم « لوكريس » يمثل السكينة .
 « تيتير » يثق بالطبيعة ، ويروح فى رحابها بلا حرج . فصل بها أنشالا ناعا مباشرا ، يلقى فى صورها ، ويظهره حشوها ، ويستسلم لاهلها فيفتن زمزارة بالانغماس كما اهتزت نفسه الرقيقة . أنه يتبع سجيته ، فيحتضن الواقع ، ويتلذذ بالخلع الراحة والشكل الشارد . وإذا استرسل في الإحلام ، فلاته يؤمن - لا بقيمة الحلم الجمالية فصعب - بل بما يجلوه له العلم أيضا من معرفة يقينية . لذا تدور معلوماته الرأى السامع فى تلك الأساطير والمعتقدات الشعبية ، دون أن يهفل بما قد يشوبها من أباويل وإطفاه . هى في ذاكرة الزاخرة صدى أمين لا ألم بالناسى البشرية في ماضيها المصعب الذى يتكشف حاضرها وينير بمسجلها . وهكذا يروى صاحبها حكايته لتطور واتسداد الحياة : أنها قصة الجرمية ، والبدرة ، والنبتة ، والشجرة . قصة الجبل فالساق فالأفصاح فالأزهار فالثمار .. قصة النوى الذى يصبح أرادة ، والإرادة التى تصبح قدرة ثم نلوا .

ويعارفه لوكريس ، رجل العلم الذى يسمى إلى المرافقة المجردة والحكمة الثابتة . أنه يهبط لموسيقى ، يزع سائر شعوره وانطباعاته حتى يرى في الشجرة الحستان صادة جافة صلبة هى القشب ، ويتبين عروقها ، وصارب الفساد الذى تقرنها جلورها فى الأرض . فير أنه بأعمال فكره لن يعرف

P Valéry : Variations sur les Bucoliques, tnd, p. 195- (1) 212.
 (2) Francis Scarle : The Axi of Paul Valéry, A Study in dramatic Monologue Glasgow University Publications, the Reichenmann, London, 1964.
 (3) E. de La Roche-foucauld : Paul Valéry, Paris, Éditions Universitaires, 1964, p. 50, 113, 114.

Jean Hytier : La Poétique de Valéry, Paris, A. Colin, (1) 1953.
 V Comptes-rendu critique par Maurice Bémol, Rev d'Hist Littéraire de la France, avril-juin, 1955 p.
 PP: 249 - 253

يسكب في السموات الشكل الشارد وما يشبه
المثال المارى للشجرة والحظرة ؟

لوكريس : ما من معجزة ، يا « تيتير » ، وما من
اعجوبة الا استطاع الفكر ، اذا شاء ، أن
يحصرها في لفزه الخاص البديهي ... انى
أدرك شجرتك ، وأمتلكها بطريقتي .

تيتير : انما أنت تعتقد أنك تفهم الأشياء : فانت تعلم
بشجرة الزان هذه حلما يخيل اليك أنك تعلم
من أمرها أكثر مما تستطيع هي أن تعلم ، لو
رئيت فكرا يزين لها أن تحسب أنها
بارك نفسها .. اما أنا ، فلا أريد أن أعرف
سوى لحظاتي الهائلة . نفس اليوم تستحيل
شجرة . وأمس أحسستها نبعا ، وغدا ...
أترانى أصمد مع دخان مذبح ، أم أتوخي
السمو فوق السهول ، يشعور القدرة الذى
يجده العقاب على أجنحته البطيئة ؟

لوكريس : أنك لست أذن سوى تحولات ،
يا « تيتير » ..

تيتير : لك أنتان تقول ذلك . انى أدع لك التمتع .
ولكن ما دامت هذه الكتلة من الظل تحتضيك
وكانها جزيرة من برد وسط نار هذا النهار ،
توقف واقتطف اللحظة . انضبط هذا
الخير ، ولتبادل فيما بيننا عليك ...
الشجرة نظير ما هي تلهتى من الحب
والثناء ...

انى أحبك ايها الشجرة الرحبة ، انى
مفتون بأغصانك . ما من زهرة ، ما من امرأة ،
ايها الكائن المتعدد الأذرع ، أشد منك تأثيرا
في نفسى وأقوى على بعث الوجد في قلبى ..
أنك لتعلمين ، يا شجرتى ، اننى منذ الفجر
أتى لأبتلك ، فالتهم بشفتي لحامك المر الأملس ،
وأشعر اننى ولد أرضنا الواحدة . وعلى ادنى
أغصانك ، أعلق حزامى وكيسى . واذا بطائر
كبير من غلالك الوارفة ينطلق في جليسة .
ويتولى من بين أوراقك ، مرتاعا وهو
يردنى . ولكن الاستجاب غير وجل يهبط
ويسرع نحوى : لقد أقبل بتمرغنى . وفي رقة
يولد الفجر ، ويفصح كل شيء عن نفسه ،
كل شيء يذكر اسمه ، لأن نار النهار الجديد
توقظه بدوره . والريح الوليدة تتجاوب في
ذوائبك العالية . تضع فيها نبعا ، فانصت
الى الهواد الدافق . ولكنى اياك أسمع . يا ايها

اللفة المبهمة ، اللفة التى تهزك ، انى أريد
أن أذيب كل أصواتك مائة ألف ورقة متحركة
تنشئ ما يهمس به العالم لسادة الأحلام .
لبيك ، يا شجرتى ، انى أحذرك ، وأسر اليك
بأفكارى الخافية . كل شيء عن حقيقتي ، كل
شيء عن آمياني الرقيقة ، انما أنت تعرفين
كل شيء عني ، ألوان العذاب الفطرية التى
تعانيتها أبسط حياة ، وأقربها اليك . انا
أستطلع فيما حولى هل نحن حقاً وحيدين
ثم ابك ما انا عليه . تارة ، أعترف بأنى أكره
« جالاتيه » Galatée (1) ، وتارة أخرى
تدفعنى الذكرى الى الهديان ، فاطنك كيائها ،
وأصبح انطلقا يريد بجئون أن يختلق وأن
يواقي وأن ينال وأن يقضم شيئا غير العلم ،
شيئا حيا .. ولكن ، فى أحيان أخرى ، أجعل
منك الها . وصنما ، يا شجرة الزان ، أصلى
لك . ولم لا ؟ فما أكثر الآلهة فى أريافنا ،
ومنهم الذئب والخسيس . واما أنت ، حينما
تعلمن من الريح ، ويفغر جلال الشمس بالسكون
والسطوع كل شيء فى البسيطة ، فانك تعلمين
على أغصانك التقاطرة ، وعلى أوراقك التى لا
تجسم ، نيل ما يضطرم به سر الظهيرة ،
والبحر يرقد وقد رقد فيك رقادا - لا يستمر
الا بالآزور المثير المنبع من شعب الحشرات
... حذرك تتجلى لي كأنك هيكل ، وما لي
من شجن أو فرح الا أهديته بساطنك
السامية .

لوكريس : يا للبراعة ! أنك تختلج اختلاجا واثما .
انى أصفى اليك وأعجب بك ..
تيتير : كلا . هيهات أن تفعل . انما أنت تبسم
ساخرا من شجرتى ، وتفكر فى شجرتك .
وليس مزمارى فى نظرك الا لعبة للنسيم ،
عندما يقتبس النسيم من شفتي انسان :
فهو يموج اللحظة الحاضرة ، ويلهى السمع .
وما المزمار للنفس القوية العميقة ؟ انه لا يكاد
يعود أربعا ههنا . أن صوتي لا يتبع الا
طيفا من الفكر . ولكن ، بالنسبة لك ، يا

(1) « جالاتيه » : تروى الاساطير اليونانية انها فتاة من جزيرة
كريب ، اقربها الراعى « لامبروس » Lampros « فلما حبلت
ألفرها بأنه يريد أن تنجب له ابنا ذكرا ، ومضى يرمى طعيمه فوق
الجبل . ولكنها ولدت أثناء غيابها طفلة : فالبيتها ملابس البنية ،
وظلت تنفى الحقيقة من روحها حتى اكملت أمانة الصبية ،
فحولتها « لبتو » Léto - ولما مالم الخافعة - انى
فى أشهر باسم « ايبس » Iphis

الأغصان المنتصبة : فقد صنعت الحياة هذه
المادة المثالية ، صنعت ما ينهض بحمل وطأة
الريح النافعة ، وحيث لهطول الشايب . إن
ماء الأرض المكتنزة الروم ، وقد منح على
مدى عميق خلال سنين ، ينتج في النور هذه
المادة الجامدة ..

تيتير : الجامدة كالبحر ، والتي تنحت مثله .
لوكريس : التي تنتهي بالأغصان ، وتنتهي الأغصان
بالأوراق ، وأخيرا هذه الثمار تفسر من كل
ناحية فتتشر الحياة ..

تيتير : أرى ماذا تعلى .
لوكريس : فأبصر الآن في هذا الكائن العظيم شيئا
أشبه بنهر .

تيتير : نهر ؟
لوكريس : نهر دافق ، نفوس ينابيعه ، وتجسد في
كتلة الأرض المظلمة مسالك ظلمها الخفى .
إنه حية الماء ، يا «تيتير» ، تصارع الصخرة ،
وتنمو وتنقسم لكي تحتضنها ، وترداد دقة
على دقة ، يستميلها الندى فتتهبدل لكي
تشرب أدنى مسارب الماء التي تبلل الليل
المطيق ، حيث يدوب كل شيء حى . ليس بين
دهاجم البحر البشة ما هو أشد نهما وتعددا
من حبة الجذور هذه ، وهي وثيقة ولوق
الأمى من التقدم نحو بطن الأرض وأفرانها
ولكن هذا التقدم يسعى ، غلابة ، ببطء يفسى
عليه صرامة الزمان . أن عمسل الشجرة
ينشب في دولة الأموات ، والقوارض والديدان ،
قوى إرادة دفينه غريبة .

تيتير : يا للعاجيب التي تقصها ، يا «لوكريس» !
أو أقول لك ما الذى يدور بخلدى وأنا أصفى
اليك ؟ إن شجرتك المختلة التي في الظلام
تتسلل بماداتها الحية فى ألف خيط ، وتمتد
رحيق الأرض النائمة ، تذكرنى بـ ..

لوكريس : قل .
تيتير : تذكرنى بالحب .

لوكريس : ولم لا ؟ في فهمك ، نحو نفس الرامى
منك ، ينفذ ما أقوله ويجد صده . لقد
بلغ قولى الآن يا «تيتير» هذه النقطة ، هذه
العقدة الفائرة في الكائن ، التي فيها تكمن
الوحدة ، ومنها ينتشر في نفوسنا - فيض
الكون بفكرة واحدة - كنز تشابهاته المكنون
بأكمله ..

لوكريس العظيم ، ولظلمتك المتغلغل ، ماقيمة
الكلمة ، منذ أن تصدح ؟ أنها بذلك تفقد
القدرة على تعقب الحقيقة .. أجل ، أتى
أعرف قدر ما تعلمنى الشجرة . فهى تقول
لى ما تريد أن أستشعره . أتى أحول ما أحبه
الى لذات ثانية ، وأدع للهواء ما يأتى من
السماوات . لا أكثر ولا أقل .. وحسبى ، فإنا
لا أمل أن تستنفد متعتى شيئا آخر سوى ،
بسيطا كما أنا . وأما أنت ، وقد تراكمت على
جبهتك الظلال التي تشكلها ، بأمل يرق يتزع
الآلهة ، فانك تجعل من نفسك محض فكر ،
وتلمس عينك - المفضتات عن النور -
فى نفسك كيان ما هو كائن . إن ما يظهر
وفى وضوح النهار ليس شيئا فى حساب عقلك .
وما تتمتع للريح الخفيف شجرتنا ، رقيق
الخفيف من هامتها إذا مست ، وتردد أفصانها
جمعاء ترددا عريضا ، وكل شعبها المجنح
وهو يفرد بلا هم ، ما شأن هذا عندك ؟ إنما
أنت تريد طبيعة الأشياء ..

لوكريس : وليست هذه الشجرة الكبيرة ، بالنسبة
إليك ، إلا خيالك . ذلك فتد أنك تحبها ،
يا «تيتير» ، ولا تفعل غير أن تتوسم فيها
زروتك الساحرة التي تكسوها أنت إفرانها .
أنت لا تحب إلا تريبتك ، وأنتك لتحببى
هكذا . أنت من شجرة الزان المهيبه تأخذ ما
يكفى للفتاة ، تمسوجات شكلها وأطيافها
الصائتة ، وظلها الذى يرحب بك في قلب
النهار القاطظ . وتؤثرك ربات الشجيرات
فاذا أنت تنغنى على قصبك الرهيفة بمغان
العلاقات .

تيتير : حسنا ، فأنشد أنت وأمل على الطبيعة ،
على الأرض ، على الثيران ، على الصخور ،
على البحر . صغ شرائع الموج للشكلا
للزهور . فكر بدل الكون ، بهذا الوحش
المحروم من رأسه ، الذى يلمس لنفسه فى
الإنسان حلما بالعقل ، ولكن لا ترد البسيط
الذى يصفى اليك . افتح له ما انطوت عليه
غياهب الحقيقة من كنوز . ما الذى تعرفه
عن شجرة الزان هذه ، أكثر مما نعرفه
نحن ؟

لوكريس : آمن النظر أولا الى هذه القوى الخام ،
الى الخشب الشديد الذى انخلت منه هذه

تيتير : لست أدري .. كلامك غامض ، عندى يا « لوكريس » .

لوكريس : اننى افهم نفسى . وهذا يكفى ، فتكلم كما يروق لك ، وتكلم عن الحب اذا شئت . بل غثنى بالأحرى هذا التحول .. كيف تلقى فى خاطرك نبذة نامية فكرة الحب ، هذه الحاجة الى اللذة ؟

تيتير : اللذة ؟ ليس معدن الحب بهذه البساطة .
لوكريس : وماذا تريده ان يكون خيرا من غريزة عامة ؟ ما هو الاحمة صافها القدر .

تيتير : حمة تلدغ !! وتقول ان نفسى نفسى راعى غثم ؟ .. حمة تلدغ ؟ .. انك لا تجعل منه سوى سهم راعى البقر .. ان الحب الذى تتصوره ليس الا حب التيسوس ودواب القابات . هذه البهائم ، تنتابها نوبات ، اذ تنتشى ببذارها ، فتلتصق فى بشاعة ، اثناء موسمي الحار ، ان تخلص اجسادها من هذا السم الحى . انها تعشق بلا حب ، حسبما تجمعها المصادفات . انى لاعلم هذا حق العلم ، انا الراعى الذى يتدخل فى الامر احيانا ، ويؤلف كما يشاء بين ذكر وانثى ، حين يود ان يحصل على جذوة متبقاة .

لوكريس : وما هو ذا القدر يخترقه ؟ **تيتير** : انك تدس يدك فى الظلام الذى يتلمس فيه المصير طريقه .. انك تمس ..

تيتير : اليس ذلك شاز البشر ، وكل ما لديهم من فكر انما ينأوى الطبيعة ، ويعرقل حياتهم ، ويريد ان يخدع الموت ؟

لوكريس : احذر من ان تضل تحت عرش المجردة ، دع لى حكم القول وحجج العقل . انى فى انتظار الشجرة والحب الذى عن لك ان تضيفه . انشدنى ، ان شئت ، اشياء من قريبتك . لئن كانت اذن تقبل على اغانيك ، فانى اخشى الاندوق من فلسفتك شيئا .

تيتير : فاسمع اذن ، اليك ما يوائىنى :
الحب لا شيء ان لم يتم الى اقضاء :
فالنمو شريعته ، انه يموت من البقاء كما هو ويموت فى نفسى ليس يموت فيها حب .

واذ يحيا بعطش دائم لا رى له
شجرة فى النفس جذورها من جسد
فانه يحيا بكل شيء ، بالحلو وبالمر
وما يقسو عليه خير لحياته مما يلين

يا شجرة الحب الكبيرة ، يا من لا تكفين عن
ان تشرى فى ضعفى عنفوانا عجيبا ،
ان الف لحظة يدخرها القلب لنفسه
هى أوراق لك وأسهم من نور !
ولكن بينما تفتتح فرتحك
تحت شمس السعادة ، فى ذهب النهار
يتغافل عطشك ذاته
فيقترب فى الظلام ، من ينبوع الدموع ..
لوكريس : ليس هذا شعرا ، هذا ضرب من
الافاز .

تيتير : كنت ارتجل . ما هذا الا مرحلة اولى من
قصيدة مقبلة . ان الذى قلته انت منذ وهلة
عن صفة الشجرة قد خيل الى الحب .
فالشجرة والحب ، معا ، قد يلتصقان فى
خواطرنا فكرة واحدة ، كلاهما شيء يولد من
جروتومة لا يغلن اليها الادراك ، ثم يكبر
ويشتد ، وينبسط ويتفرع ، ولكنه بقدر
ما يرتفع نحو السماء (او نحو السعادة)
عليه بغض القدر ان يفوس فى المادة المظلمة
التي هى جيلتنا دون ان ندري .
لوكريس : عارضا ؟ ..

تيتير : .. هناك ، فى صميم قلب الفياهب
التي يدوب فيها ويختلط ما هو من نوعنا
وما هو من مادتنا الحية ، وما هو من ذكرياتنا ،
ومن قوانا وصفاتنا الخفية ، واخيرا ما هو
من شعورنا المشوش بأننا لم نوجد على
الدوام وبان علينا ان ننتزع من الوجود ،
هناك ما سميته « ينبوع الدموع » : وهو
« ما لا يعبر منه » . لان دموعنا ، فيما ارى ،
هى التعبير عن عجزنا عن التعبير ، اى عن
ان نتخلص بالقول من وطأة ما نحن اياه ..
لوكريس : انك تقول الى ابعد مما يذهب رعاة
الغنم . فهل تراك تبكى دائما ؟

تيتير : استطيع دائما ان ابكى . ولو انى راعى غثم ،
فقد لاحظت انه ما من فكرة تعقبها حتى
ادنى مدى من النفس الا قادتنا الى الضغاف
الخاصة للالفاظ ، هذه الضغاف الخرساء
التي لا يواصل الحياة عليها سوى الرحمة ،
والحنان ، ولون الحسرة الذى يوحى بهالينا
هذا الخليط من الأبد والعرض الزائل - الا
وهو مصيرنا .

لوكريس : ذاك اذن ما تتامله ، عندما تقضى ليالى الصيف ساهرا على قطيعك الذى ينام ، بينما تبدو ماشية عديدة من الكواكب ، يمشيها من هنا وهناك فوق الافق البرق الصامت ، او يخترقها طيران الشهب المباشت ، وكأنها تسوم الزمن ، وكما يقضم القطيع طريقه خطوة خطوة خطأ ، تقضم المستقبل بلا هوراة ؟

تيتير : وماذا افعل ؟ فى تلك المساعة من الليل ، يلوح على الشجرة انها تفكر ، انها كائن من الظل ، تتركه الطيور الناعسة وحده حيا . انه يختلج فى نفسه ، وكأنه يخاطب نفسه . ويسكنه الخوف كما يسكننا ، عندما نبيت وحدنا ، فى الليل ، مع انفسنا ، ونحن رهن حقيقتنا .

لوكريس : حقا ، ليس علينا ان نخشى سوى انفسنا فالأرياب والأقدار لا تستطيع ان تتالسا الا بخيانة انسجتنا الحساسة . انهم على النفس السفلى يسيطرون غفرا ، وليس سلطانهم قط هو فعل الحكمة ، وانما يجد الأريابنى اجسام ضميعة - بمثابة الحجة العليا - تعذيب الحكيم .

تيتير : ولكن النار ، اليست هي يال الشجرة ؟ حينما يصبح كيانها كتلة من الالم الفطيع ، انها تلتوى ، بيد انها تستحيل نورا ورمادا نثيا بدلا من ان تتمعلن ، وأن ينخرها الماء الاسن ، وتقرضها الديدان .

لوكريس : «تيتير» ، بين الالباب ، تخير ، اذا استطعت الاحتيار ! يستحسن الا تفكر فيها مطلقا ، واى شيء اقل من هذا التفكير جدوى ؟ لان من شأنها ، اذا كانت ، ان تكون بذاتها كافية الوضوح . ولكنى لو كنت لك رفيق اللبالي وطوانا الظلام كلينا عند قدم الشجرة ، وانتمصر وجودنا على صوتيننا ، وانتمصر وجودنا على كائن واحد تسحقه على نحو واحد وطاة هاتيك الكواكب ، قلقت لك ، لانتشدتك ما ينشدنى ، ما يقوله ، ومايفرضه على نفسى تأملى الباطنى لمثال النبات .

تيتير : ولاصفيت اليك خاشعا فى الليل ، وللفقدت الشعور بجوهل . انى لن انهم كل ما عساك ان تقول ، ولكنى ساجبه ، وستعظم رقيبتي فى ان يكون « هذا » هو الحقيقة ، ويششد

بنفسى الطرب حتى لا استطيع ان اتصور سعادة أوثق ، لحظات اقصى منساي عن الفساد ...

لوكريس : ان الكائن الذى يسحره العجب ، لجميل كالزهرة .

تيتير : اعدلى ، فانا لم استطع ان امسك من مقاطعتك بينما كنت تتكلم عن «مثال النبات» هذا ..

لوكريس : الا ترى ان كل نبات عمل ، والا تعلم انه لا يوجد قط عمل بدون مثال ؟

تيتير : لكنى لا ارى صانعا ..

لوكريس : الصانع ليس الا شيئا ثانويا ، يكاد ان يكون بلا فائدة .

تيتير : انك تبلىنى .. انك تحسب ان « تيتير » لعبة ! .. انما انا حيوان عاقل ، واعلم مثلك ان كل شيء يتطلب ما انت تسميه «علة» . كل ما هو موجود ، قد صنع ، كل شيء يفترض شخصا ، انسانا او الها ، علة ، رغبة ، قدرة فاعلة ..

لوكريس : هل انت متأكد من ان شيئا لا يمكن ان يكون بذاته ، بلا علة ولا سبب ، ولا غاية لسبق ؟

تيتير : بيب ..

لوكريس : هل نعلم احيانا ؟

تيتير : قبل كل فجر .

لوكريس : كما يؤثر فى جرائيت التمثال العظيم الفجر الطالع فيدفعه الى الرنين ، هكذا يرتجل « ممنون تيتير » فى نفسه وحده ، ولنفسه وحده ، حكايات عجيبة .. ولكن احلامك يا «تيتير» ، هل لها من قيمة ؟ هل تساوى عند الصحو عناء الحلم بها ؟

تيتير : منها ما هو رائع الجمال .. ومنها ما هو صادق الحقيقة .. منها البديع ، ومنها المصبوغ بالشؤم .. قد يبلغ من غرابتها احيانا ما يحملنى على ان اظنها شكلت للنالم سواى ، وكأنها هي ، فى الليل ، تخطيء الوقوع على غائب ، والتصدى لنفس هزلاء ، ومنها ما هو قاس لانه تمادى فى اللذة ، فرب سعادة تتمزق فى اللحظة التى فيها تفرمنى ، وتخلينى للنهار على شاطئ الحقيقة .. فلا يزال جسدى مختلجا بالحب ، ولكن النفس تتمنع ، وفى برود تتامل الخفق المحتضر فى

جسمها .. وإذا شطرت الحية الزاحفة ،
تلوى شطراها ..

لوكريس : على هذا النحو ، أنت لم تكن مسوى
ممتزج مكره على تلقى مشهد . هلا قلت لى
اذن من عساه أن يكون مؤلف تلك الرواية ؟
تيتير : المؤلف . لست أعرف مؤلفا لا أجد احدا .
لوكريس : أنت ؟

تيتير : قطعا لست أنا ، لأن الاعيب النوم هذه
لا يمكنها أن تتألف الا وقد نحيث عن تربيتها :
وبغير ذلك لا تستثار رهبة أودهشة أوفتنة .
لوكريس : اذن لا يوجد مؤلف . ها أنت ذا ترى ،
يا « تيتير » ، أن عملا بلا مؤلف ليس اذن
شيئا محالا . لم ينظم لك اى شاعر هذه
الخيالات ، وأنت نفسك ما كنت لتستخرج
ابدا من نفسك هذه اللذات وهذه الهوى
التي تتمثل في أحلامك .. لا يوجد مؤلف ..
هناك اذن أشياء تتشكل بنفسها ، بلا علة ،
وتصنع مصيرها .. ولهذا أنا ارد الى الحاجات
الصبيانية التي تخافس نفوس البشر مألوفات
من منطق بارع يريد أن يجد في كل شيء وفنانا
وغايتة ، متميزين في وضوح عن العمل . أن
الإنسان ساذج أمام كل شيء / برا ، على
الأرض أو في السموات ، من كواكب وحيوان
وفصول ومظاهر قوائين ، وشبهات تقدير
سعيد أو اساق ، يسأل : « من صنع
هذا ؟ من أوداه ؟ » وهو يعتقد أن عليه أن
يشبه كل شيء بهذه الأشياء القليلة التي
تخرج من أيدنا : باواتينا ، أو أدواتنا ، أو
دورنا ، أو أسلحتنا ، بكل ما تنتجه حاجتنا
من تلك المركبات من مادة وفكر ..

تيتير : أو تظن أنت أنك تدرك خيرا منا طبيعة
الأشياء ؟

لوكريس : أنا أحاول أن أحاكى الوضع الذي لا يقبل
الانقسام .. أى « تيتير » ، أتى أعتقد أن فى
جوهرنا توجد - على عمق قليل - نفس
القدرة التي تنتج بالمثل كل حياة . وكل ما
يولد فى النفس هو الطبيعة ذاتها ..

تيتير : ماذا ؟ يكون كل ما يلم بنا جوهرنا ؟

لوكريس : ليس كل ما يلم بنا ، وإنما هذا الألام
نفسه - أتى لأقولها لك يا « تيتير » : بين كل
من يحيا ، يوجد رباط مشترك ، متشابه ، يجب
القبض كما ينبج الحب . أن الشبيه يداعب

أو يلتهم شبيها . سواء أكل الذئب الحمل ،
أم افترس الذئبة ، فهو لن يستطيع أن
يصنع الا ذئبا أو أن يعيد صنع جزء من الذئب .
تيتير : وأنت ، هل لك أن تصنع شجرة ، أو أن
تعيد صنع جزء من الشجرة ؟
لوكريس : لقد قلت لك أتى أحس فى نفسى مولد
ونمو قوة نبات ، وأعرف أن اختلط بالعطش
الى الوجود ، السارى فى الجرثومة التي تجهد
وتسمى نحو عدد لانهاى من الجراثيم الأخرى
خلال حياة نبات بأكملها ..

تيتير : اسمح لى بأن أقاطعك ، فقد خطر لى سؤال .
لوكريس : أن الذى أوشكت أن أقوله لك (وربما
أنشدتك آياه) كان خليقا ، فيما اظن ، بأن
ينضب معين الكلام الذى أتيتق فجأة من قاع
نفسك ، ولكن تكلم .. فلو أتى سألته أن
تنتظر ، لرحلت تنصت داخلها الى نفسك ،
فى تلذذ ، بدلا من أن تصفى لى ..

تيتير : نعم ، ألا ترى ، وأنت هذا الحكيم ، أن معرفتنا
بأى شيء من الأشياء معرفة ناقصة إذا
اقتصرت على المفهوم الدقيق لهذا الشيء ،
وحدت بالحقبة ، وإذا تمكنت من تغيير المنظر
لأجمل إلى فكرة واضحة والى نتيجة
خالصة للفحص والتجارب والتقدير بجميع
أنشكيات أتى تقضى الخطأ أو التوهم ،
واستمسكت بذلك الكمال ؟

لوكريس : وماذا تتطلب أكثر ممسا هو كائن ؟
والحقيقة ، اليس هو الحد الطبيعي للذكاء ؟
تيتير : أتى أعتقد ، شخصيا ، أن الواقع - وهو
دائما أتى من الحقيقة تراء لا حصر له -
يتضمن عن كل موضوع وفى كل مادة ، كمية
من الأخطاء والأساطير والحكايات والمعتقدات
الصبيانية التي تنتجها بالضرورة نفوس الناس .

لوكريس : أما تريد اذن أن يحرق الحكماء هذا
العشب الخبيث ، فيصعد عطرا يطيب لـ
« منيرا » ؟ (١)

تيتير : ألك إذا أعدت غرسه وأنبته بعيدا على
حدة ، لم يصعب عشا خبيثا ، ويمكن أن
تجد له استخداما ما . ولكن اليك كلامى أنا
السيط الجاهل . منذ أن يملك المرء ناصية
الحقيقة ، وهو لا يخشى بعد ذلك أن يضل
فى أباطيل النزق ، على الحكمة أن تعود

(١) سيرا : ربة الحكمة

لوكريس : وما تلك الشجرة اللانهائية ؟
تيتير : لقد وجدت في الأزمنة الأولى ، أيام كانت

الأرض عذراء ، ولم يكن بعد للإنسان أن يولد ،
وجميع الحيوان . كان النبات هو السيد
وكان يكسو وجه الأرض كله . وكان في
استطاعته أن يظل شكل الحياة الأوحـد
الساكن ، وهو يتحف عيون الآلهة بأبهة
منوعة من ألوان الفصول . لقد كان
نابتا بطبيعة كل فرد من أفسرده ،
فراح ينتقل بوصفه أنواعا ، يكتسب الاتساع
من مكان إلى مكان . إنه يعدد جرائيمه (التي
مضى يديرها بجنسـون على الريح) سرى
وامتدد كما يفعل الحريق الذي يلتهم كل ما
يستطيع التهامه ، وهذا هو ما من شأنها أن
تأتيه أيضا - لولا الإنسان وأعماله - الأعشاب
والشجيرات . ولكن الذي نراه لا يحسب
شيئا إلى جوار تلك القوة الفاتحة بونيات من
اليدار المجنحة ، في ذلك العهد البطولي من
فتوة المنتصر النهائي . إلا فاسمع هذا
يا لوكريس : لقد حدث أن إحدى تلك
الجرائيم ، سواء بسبب جودة الأرض التي
سقطت عليها ، أو بفضل الشمس عليها ، أو
لأي أغواف آخر ، نمت كما لم يتم سواها ،
ومن غريب أصبحت شجرة ، وهذه الشجرة
يا للعجب ! أجل ! كأننا نشأ فيها نوع من
الفكر والأرادة . ولقد كانت أعظم وأجمل
كائن تحت السماء عندما راودها الاحساس
- فيما يبدو - بأن حياتها حياة الشجرة
متوقفة على نموها وبأنها لا تعيش ما لم تكبر ،
فانتابها نوع من جنـون الاستفحال
والاستشجار .

لوكريس : وبهذا كانت تلك الشجرة نوعا من النفس .
فان أرقى ماني النفس لا يحيا إلا بالنمو .

تيتير : كرياضي متفرج السابقين يجاهد الأعداء التي
وقف بينها ويدفعها بعزم مماثل من ذراعيه
المفتولتين بالأرادة ، أصبحت هذه الشجرة
مركزاً أقدر دفعا وصورة أشد قوة أنتجتها
الحياة ، قوة ضخمة ولكنها غير محسوسة
في كل لحظة ، تستطيع أن ترفع شيئاً فشيئاً
سخره في حجم التل أو أن تغلب جداراً
حصن . ويقال إنها في ختام ألف قرن ، كانت
تكسو بظلالها جميع أرجاء آسيا الشامخة ..

أدراجها ، وأن تسترجع وتطلق - بوصفها
أشياء انسانية - كل ما خلق وصيغ وكان
حليماً أو اعتقاداً ، كل هذه المنتجات المجيبة
التي تجود بها أنفسنا ، هذه الحكايات
السكرية والروعة التي تلدها فطرتنا ..

لوكريس : من المؤكد (ومن القريب في الواقع) أن
الحقيقة لا يمكن أن نعرفها إلا بوساطة كثير
من التكلف . ولا يوجد أبعد من هذا عن
الطبيعة !

تيتير : لقد لاحظت أنه ما من شيء في الدنيا إلا
زين بالأحلام ، واتخذ دلالة ، وفسر بمعجزة
ما ، لا سيما والحرص على معرفة الأصول
والظروف الأولى أوقع في اليديهة . ولذا
- بلا شك - نطق بهذه الحكمة فيلسوف
لم أعد أذكر اسمه ، قال : (في البدء كانت
الأفاصيص) .

لوكريس : الست أنا الذي قلتها ؟ أنني لكثرة ما
القيت من الأقوال أصبحت هذه القولة من
كلامي بقدر ما هي من غير كلامي ..

تيتير : ما أتركك ! . ولكني أعود إلى حديثي ، ومنه
إلى شجرتنا .. هل تعرف القصة العجيبة
للشجرة اللانهائية ؟

لوكريس : لا ..

تيتير : وعن شجرة الأرض المشجونة بالحب ، إلا
تعرف شيئاً ؟ في جزيرة « كزيفوس » .

لوكريس : أجمل كل شيء عن الأرض ، ولا أعرف
شيئاً من الجزيرة ..

تيتير : وأعجب قصة !

لوكريس : وأجمل أيضاً أعجب قصة .

تيتير : ان أعجب قصص الشجر هي قصة أشجار
التفاح العملاقة ، تلك التي كان ثمر أحداها
يحبو من يقضم لبها السحري حياة أبدية ،
بينما كان ثمر الأخرى ينتج - بمجرد
تذوقه - نورا غريباً في نفس الأكل ، فيحس
بشعور من الخجل يحتاجه فيما يتعلق بأمور
الحب . لقد كانت حمرة مباغتة تصبغ كيانه
كله ، وكان يحس بعريه أحساسه بالجريمة
لوكريس : يا للتأليف الغريبة التي تمرح في ذاكرتك ،
يا « تيتير » !

تيتير : اني أحب ما يعث في العجب ، ولا أستبق
إلا ما من شأنه ألا يثير - في ذهن الحكيم -
غير النسيان .

لوكريس : لا تقلق لهذا نباتا .. ان نقص كلمة واحدة يمت في الجملة مزيدا من الحياة . فهي تفتح رحيبة وتدعو الفكر ان يرداد فكرا لكى يسد الثغرة .

تيتير : انا لست ضليعا الى هذا الحد .. لست اعرف كيف اصور نباتا يتأمل .

لوكريس : ايها الراعى ، ان الذى تراه من شجيرة او شجرة ، ما هو الا الظاهر واللحظة كما يعرضان للعين غير المبالية التى لا تفعل سوى ان تسرع على سطح الدنيا . ولكن النبات يقدم بعيون الدهن لا مجرد موضوع حياة متواضعة وسلبية ، بل أمنية عجيبة ، أمنية لحمة جامعة .

تيتير : انا لست سوى راع ، يا لوكريس ، فرفقا به !

لوكريس : التأمل ، او ليس هو تعميق النفس في نظام ؟ انظر الى الشجرة العمياء ذات الأضغان المتباينة كيف تنمو حول نفسها طبقا الهندسة المتناظر . ان الحياة فيها تحسب ، تستجيب لقضاء بناء معين ، وتفرق رقما اغصاناتها فرع الى اغصان اذق ، وعلى كل فصن دقيق ورقه ، في نفس الموضع المحددة على الوليد الجبل .

تيتير : را أسفى ، كيف اتابعك ؟
لوكريس : لا تخف ، بل انصت : عندما يلم بنفسك طيف اغنية ، وتمتلج بشهوة الخلق ، الا تشعر بصوتك يعلو نحو الصوت الخالص ؟ الا تشعر بحياته وبأمانيتك تنصهران ، نحو الصوت المشوذة الذى تحملك موجته ؟ آه ! (تيتير) ، ان النبات غناء بسيط يبقاه شكلا اكيدا ، ويعرض سرا من أسرار الزمان . انه كل يوم ينصب الى مدى أعلى عيب عروقه المتوتية ، ويسلم أوراقه للشمس الفا الفا ، وكل منها تهذى في موضعها خلال الهواء ، حسب ما يواتيه من نسيم وما تظن في نفحه من الهام فريد والهوى ..

تيتير : ولكن ها انت ذا تصبح شجرة من الكلام ..
لوكريس : نعم .. ان التأمل المتشعب ينشئنى .. وأشعر بكل الالفاظ في نفسى تختلج .

تيتير : انى اتركك في هذه الحال الرائعة . يجب على الآن ان أجمع قطيضى . احترس من برد المساء الذى سرعان ما ياتى .

لوكريس : يا للسلطان العانى الذى نشره هذا الظل !
تيتير : نعم ، كانت الشجرة المهمة تصنع الليل من تحتها . ما كانت شعاعة واحدة من الشمس تخترق أوراقها التى تظل خلالها الرياح ، وكانت جبهتها تذب العواصف المعادية كما تذب التياران الضخمة الهوام الضئيلة . وانعدمت الأنهار ، من شسدة ما راحت الشجرة تمتاح الرحيق من السماء والأرض مباشرة . واذا نصبت في اللازورد الجفاف عزلتها الرقيقة ، كانت الشجرة الاله ..

لوكريس : انها مفامرة عجيبة ، يا « تيتير » .
تيتير : عفوك . لقد قاطعت في براءة بهذه القصة كلاما اعماق واحكم هممت انت بان تلقيه على فيما نحن بصدد .

لوكريس : لعل خير ما استطيع ان اقله هو أسطورة .. لقد اردت ان احدثك عن الشعور الذى يخامرني ، احيانا ، باننى نبات ، نبات يفكر ، ولكنه لا يعز شتى قدراته ، لا يعز هيئته من قواه ، وقامته من مكانته . ان اقوى ، والأشكال ، والارتفاع ، والحجم ، والاستمرار ، ليست الا نهر وجود واحد ، هذا ينتهى سائله الى مادة جامدة بسيطة جدا بينما تنمو ارادة النمو المنفصلة ، لا تنفصل . وتريد ان تصبح مرة اخرى ارادة طلى نوع البلور الخفيفة التى لا تحصى . واذا برأشمر اننى اميش تجربة (نموذج النبات) الرائعة ، وهو يحتاج الفضاء ، ويرتجل حلم التفرع ، ويضرب في قلب الطين منتشيا بأصلاح الأرض ، بينما في الهواء الطلق يفتح تدريجيا لهبات السماء الافا خضراء من الشفاء .. وكلمنا آمن فى القور ، آمن فى الارتفاع : انه يفل غير ذى الصورة ويهاجم الفراغ ، انه يناضل كي يحول كل الأشياء الى نفسه ، وذلك هو مثله .. اى (تيتير) ، يبدو لى اننى اشترك بكل كيانى في هذا التأمل القادر ، الفعال ، الحديث السعى نحو غرضه ، هذا التأمل الذى يمهذ لى النبات ..

تيتير : اتقول ان النبات يتأمل ؟

لوكريس : اقول ان كان في الدنيا احد يتأمل ، فهو النبات .

تيتير (يتأمل) : .. ربما تد عنى معنى هذه الكلمة .

الرد على حملة الكردينال لافيجرى الذى عاجم موقف الاسلام من الرقيسق ، وهكذا استهل عمله فى الصحافة ..

وقد اعان مسعود على النجاح فى الصحافة ، انه كان واحدا من عدد قليل جدا ممن يجيدون اللغة الفرنسية القادرين على الترجمة منها ، فقد تلقى تعليمه فى مدارس الفرير ، وعمل فى مطالع حياته مدرسا للغة الفرنسية فى مدرسة رأس التين بالاسكندرية .

واتصل مسعود بالصحافة الافرنجية أولا ، وكتب فيها فصولا عديدة عن الأحوال العامة فى مصر .

وقد ظل مسعود يعمل فى ميدان الصحافة حتى عام ١٩١٠ عندما اختير محررا فنيا بقلم المطبوعات ، ثم عمل فى وزارات الداخلية ، والتجارة والصناعة ، ورئاسة مجلس الوزراء ، وتولى منصب مدير ادارة المطبوعات حتى احيل اليه المعاش فى فبراير سنة ١٩٣٣ .

وفى خلال هذه الفترة التى قضاهامسعود فى مختلف الوظائف الحكومية لم يتوقف عن التحرير والكتابة والترجمة ، وام ينقطع عن الاتصال بالصحافة .. وقد اجمع معاصروه على أنه كان : كاتباً وصحفياً متنوع القدرات ، بل دائرة معارف حيسة يكتب التطبيق السياسى والبحث الاجتماعى ، والنقد الأدبى ، مع عفة النقد والترفع عن الهوى ، وظل مرحلة طويلة من حياته يصدر ، التقويم السنوى ، الذى عرف بتقويم المؤيد .

ويمكن القول بأن مسعود كان رائدا فى ميادين ثلاثة : الصحافة والترجمة والتحقيق المفهوى والتاريخى .

فى الصحافة

عمل مسعود فى الصحافة منذ مطالع شبابه حتى عام ١٩١٠ ، وكان قد تطلع الى مجلة الآداب التى كان يصدرها الشيخ على يوسف منذ «نوفمبر سنة ١٨٨٧» فبدأ يكتب فيها فى عام ١٨٨٩ مراسلا

من الاسكندرية فتشتر له مترجمات متعددة عن موضوعات مختلفة منها الظواهر الهوائية والصفات المصومية للكائنات الحية . والاسترقاق عند النمل . وتاريخ الأديان . وتاريخ المنطاد « مجلد ١٨٨٩ » وكان من زملائه فى التحرير بها : ابراهيم رمزى وحفى ناصف .

وفى ٩ نوفمبر سنة ١٨٨٩ أعلن على يوسف فى مجلة الآداب عن اصدار جريدته اليومية « المؤيد » التى صدرت فى أول ديسمبر ١٨٨٩ وكان محمد مسعود فى مقدمة الكاتبين بها ، ثم ترك عمله وتفرغ للصحافة عام ١٨٩١ وقد اخصص بترجمة التلغرافات الخارجية . وكان رفيقه فى هذه المرحلة احمد حانظ عوض ، وقد امتلت صحبتهما فترة من الزمن فأصدرا معا جريدة المنبر (يوليو عام ١٩٠٦) (١) وعددا واحدا من مجلة فكاهية (ها ها ها) ١٩٠٧ .

كما أصدر مسعود جريدة منفيس عام (١٨٩٥ - ١٨٩٩ نصف اسبوعية) وجريدة النظام ١٩٠٩ ومجلة الآداب التى أصدرها بعد أن شغل عنها الشيخ على يوسف بتحرير المؤيد .

واشترك مع خليل مطران فى اصدار (المجلة المصرية) ١٩٠٠ - ١٩١٠ ، كما اشترك فى تحرير (اللواء) الفرنسية . كما عهد اليه عام ١٩٣٣ بتحرير مجلة الرابطة الشرقية .

وقد امضى فى تحرير المؤيد عشرين عاما (١٨٨٩ - ١٩٠٦) يحور بها جميع مواد القسم السياسى الخارجى ، يقول توفيق حبيب « انك اذا رجعت الى الخمسة عشر مجلدا الاولى للمؤيد فتأكد أن كل ما فيها من تلغرافات وفصول سياسية اجنبية من صنع الاستاذ مسعود تتجلى فيها الرقة والدقة والأمانة فى النقل » .

وقد كانت سياسة مجلته (منفيس) التى أصدرها فى ٥ نوفمبر سنة ١٨٩٥ (سياسية

(١) ترخيص جريدة المنبر باسم حانظ عوض ، ولا يوجد منها فى دار الكتب نسخة واحدة ولكن توجد بصفة اعداد فى مجموعة احمد زكى (الغزاة الزكية) .

أدبية) تسير على نسق المؤيد في الهجوم على المقطم
وتأييد سياسة الخلافة العثمانية ومهاجمة أبو الهيثم
الصيادى وأعوانه .

وفي جريدة منفيس نشر خطب صديقه (مصطفى
افندى كامل) نزيل باريس . كما هاجم السيد
توفيق البكرى ، وتعرض للصيغة المغلوطة التي
نظمها في مهاجمة الخديوي (قدوم ولكن لا أقول سعيد)
وقال انه منشئها وان البكرى هو المغري بنظمها
وطبعها ، وان المطبع ويبيتون في وسطها من نظم
البكرى نفسه ، كما هاجم الشيخ أحمد مفتاح العالم
الأزهري الذي كان يكتب في المقطم مقالات ضد
البلاد .

وقد كانت مجلة (منفيس) تصدر في أربع
صفحات باللغة العربية ما عدا (الصفحة الأخيرة)
التي تصدر بالفرنسية يحورها : ج - لا فريير ومن
المجيب انه كان يؤرخ القسم العربي بالتاريخ
الهجرى ، ويحرر القسم الفرنسى بالتاريخ
الأفرنجى .

ثم حذف القسم الفرنسى بعد تهمة اللجنة الأولى
معتبرا عن ذلك بان « حذفه لم يكن الا اضطرابا لما
قلة عمال جمع الحروف الافرنكية في فصل الشتاء
وكان عنوان مجلة منفيس (شوارع حوش الشرفاوى
بمصر) .

واشترك في تحرير العدد الأول من مجلة
(ها ها ها) مع صديقه أحمد حافظ عوض ، وقد
صدرت في عدد واحد في (٨ مارس سنة ١٩٠٧)
(صحيفة هزلية تصويرية اسبوعية) وكتب
تحتها :

وكم ذا بمصر من المضحكا

ت ولكنه ضحك كالبيكا

وقال في تقديمها انها كانتها - المنبر - وطنية ،
اي لخدمة الوطن المصرى ومبادئها (مصر للمصريين)
ولذلك نحن نعلن المصور (الأجنى) مقسدا
ولا يؤاخذنا في ذلك أننا متى وجدنا مصورا وطنيا
نستغنى عنه .

وقال ان الغرض من هذه الجريدة :
« ان تصور الحوادث والاشخاص في المسائل السياسية
تصور يبنى تأثيرها في النفوس ، وان الصور تؤثر في الجموع ،
ونثبت في العقل او على شبكة العين ، بخلاف المقالات فانها
تصنع الواحدة الاخرى ، وتسى بعد قراءتها ، وبلاستمرار
ان صاحب الجريدة يريد ان يوجد شيئا جديدا في الصحافة
العربية هو الرسم الهزلي السياسى .
والغرض من « الكاريكاتور » على ما عرفه التنك من تصوير
الناس على حقيقتهم وراء ستار الضحك والاستهزاء والهزل
وقد سار في أوروبا لنا معا بل هو اليوم من الفنون الصعبة
التي لا يجيد لها الا النوابغ ونوابغ النوابغ الذين لا يوجد
لهم في مصر مثيل الخ .. »

والواضح من مراجعة العمل الصحفى لمسعود
خلال هذه الاعوام العشرين (حتى عام ١٩١٠) يظهر
ان اجزأ أعماله هو الميدان السياسى الخارجى
سائرا في النهج الوطنى المقاوم للاستعمار المرتبط
بالقوى الوطنية ، وهو عندما اختلف مع أحمد
حافظ عوض سنة ١٩٠٩ انما كان هذا الخلاف
بشأن التحرر من سلطان القصر على اثر تحوله بعد
اعلان سياسة الوفاق ، وآخر أن يكون عمله الوطنى
خالصا غير مقيّد . وقد ذكر الأستاذ يحيى محمد
مسعود ابن المترجم له في مراجعة لي مصممه : ان
الخلاف بين حافظ عوض ووالده ، انما كان بسبب
بعض البوقيات التي يرسلها حافظ من بريطانيا
لنشرها في المنبر ، وانما لمسعود لها محافظة على
اتجاه الجريدة ، وقد أدى الخلاف الى خسارة مسعود
للجريدة والمطبعة ، فقد أثر ان يترك الجريدة لحافظ
عوض . وانما جريدة النظام عام ١٩٠٩ ، وقد أحب
مصطفى كامل وأيده وعمل معه في اللواء الفرنسى .
وكان مصطفى كامل يرأسه من أوروبا ويفضى اليه
بذات نفسه .

وقد وصفه انطون الجليل بأنه كان في خلال
حياته الصحفية كلها
« الكاتب السياسى النزيه في وطنه المخلص لمستهبرته
وفروسته الصادق الظرف في التعلق على الحوادث ، السيد
الرأى في تقدير الناس وأعمالهم ، على عفة في النقد وترفع
من الهوى » .

الترجمة

عن محمد مسعود بالترجمة فكانت أكبر قطاع
في حياته الفكرية سواء في مرحلة الصحافة (١٨٨٩ -
١٩١٠) أم في الفترة الباقية من حياته ، بل ان
أغلب انتاجه يمكن أن يوصف بأنه ترجمه . ففي
خلال اصداره لتقويم المؤيد فتقويم مسعود منذ عام
١٨٩٨ حتى سنة ١٩١٧ أصدر ١٧ تقويما خلال

مثلتها في دار الاوبرا فرقة عبد الرحمن رشدي في نفس العام .

ومن ترجمات مسعود الهامة التي لسم طبع كتاب : « حضارة العرب » لجوستاف لوبون . وقد آتمه قبل عام ١٩١٤ واستمد لطبعه وأعلن عن اشتراكات له ، وتوقف عن اتمامه بعد أن طبع ملزمة أو ملزمتين .

ويقول يحيى مسعود ان ميزته في هذه الترجمة ما الحقه بها من حواش مطولة وتعليقات هامة على آراء الكاتب الفرنسي تبلغ مثل حجم الكتاب ولا تزال أصول الكتاب محفوظة لديه وتقع فيما يزيد على الألفي صفحة .

وقصة (وده) التي تقع في ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير في جزئين من أهم أعمال الترجمة ، وقد كتبها العالم الأثري الألماني : ايبرس الذي زار مصر عام ١٨٧٣ وقضى بضعة أسابيع في مقابر طيبة ، وهي تصور حياة مصر في عهد رمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة ، وقد جعل محورها حياة الأسرة الفرعونية « وده » وترجمها مسعود عن ترجمة فرنسية لها عن الألمانية ونشرها في الميزد خلال فترة عمله به .

وقد كان مسعود « فذا في الترجمة من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية » وكان ذا عزيمة كريمة يشيد بمصر ويشدو بأمالها ويتفنى بمجمد العرب وتاريخهم وعظمتهم ويفيض طبعه بدقة الحس والفكر ورقة العاطفة والشعور « على حد تعبير محمد علي علوبة » .

أجاد اللغة الفرنسية منذ مطالع شبابه فقد تخرج من مدارس الفريز ، وعكف على قراءة بعض الكتاب الفرنسيين وبدأ ينشر مترجماته في مجلة الآداب للشيخ علي يوسف منذ عام ١٨٨٩ ، وكان بارع التعبير في اللغة العربية الى حد مكنه ان يتقنل أفكار الكتاب الفريين وآراءهم في سهولة ويسر وعمق .

وقد روى عنه توفيق حبيب أنه اشترى من مصروفه الخاص وهو طالب الانسكلويديا بالفرنسية وبدأ

تسعة عشر عاما كانت أغلب مادة هذه التقاويم من مترجماته عن المؤلفات الأوروبية في أبواب الفلك والتاريخ والجغرافيا والاعلام الأوروبيين ودراسات الحرب والممالك . هذا بالإضافة عن ترجماته للبرقيات في الصحف التي عمل بها أو حررها ، والمقالات السياسية التي تتصل بمصر ، غير أن هناك أعمالا أدبية كاملة قام بها مسعود تسلكه بجدارة في عداد أقطاب الترجمة .

وفي دار الكتب من مترجماته المطبوعة :
الطبيب رفيا من اتفه - مطبعة مجلة الآداب - ١٢١١ هـ
الجاهل النطيب - لولبير - المطبعة الإبراهيمية - ١٨٨٩ م
مصر في القرن التاسع عشر : تأليف كلوت بك - القاهرة ١٩٢١ م

لمحة عامة في مصر - تأليف ادوار جوان
الاقتصاد السياسي - تأليف جيفونس - ١٩٢٥ م
الاقتصاد السياسي لشارل جيد بتكليف من وزارة المعارف
البيكريل - لولبير - دار الطباعة الاحلية - ١٩٢٢ م
معارج النلاح - تأليف : سيليغال روديس - ١٩٢٧ م
قصة وودة : في جزئين - الدكتور جورج ايبرس الألفي - ١٩٢٧ م

وله مترجمات اشار اليها في مذكراته منها : السرفي خطأ
الفضاء : تأليف جيلرميه .
رواية امرأة الشاي « من بلاد الصين »
رواية غادة الاحرام : من مونة الاحرام بين نابليون والمالك

وهما مسرحيتا « دبلانشت » و « المظلوبون » للكاتب الفرنسي أوجين يريو عضو الاكاديمية الفرنسية لوقفا مثلتهما فرقتا جورج أبيض وعزيز عيد ، وهذا الكاتب كان من طلائع المسرح الفرنسي الواقعي ومن اعلام دهاة (الرياليزم) في مستهل هذا القرن .
وقد زار مصر في سنة ١٩٠٦ وتعرف الى محمد مسعود الذي رافقه في بعض جولاته وراسلته فترة طويلة من الزمن ، وقد أعدها الكاتب معظم مسرحياته وعند مسعود ان هذه المسرحيات وترجماتها قد أحدثت انقلابا في الكتابة المسرحية ، ومن بين ما كتبه بعد زيارته لمصر وتأثره بما شاهده من آثارها الفرعونية مسرحية « الايمان » La Foi التي ترجمها المحرم صالح جودت (القاضي) وطبعت ونشرت ومثلتها في دار الاوبرا فرقة جورج أبيض بديكورات فخمة أعدت لها خاصة . وقد كتب ايضا مسرحية « الرداء الأحمر » La robe rouge التي شجع محمد مسعود ابنه يحيى على ترجمتها في سنة ١٩١٧ وهو طالب بالحقوق لاتصالها بنقد موضوعي في ناحية من نواحي الاجراءات الجنائية وأثرها الاجتماعي وقد

يقراها ويترجم منها وكان ذلك مما اعانه على قدرته
على الترجمة .

كما اقتصى الموسوعة الفلكية الشهيرة للعالم
الملكي كاميل فلاماريون .

ابحاثه وتأليفه

قدم محمد مسعود انتاجا ضخما في ميدان
البحث والتأليف والمقالة . وابرز أعماله تقسيم
المزبد وتقويم مسعود الذي أصدره تسعة عشر عاما
وكان له مكانته في العالم العربي والإسلامي وله
بعد مؤلفاته الموجودة في دار الكتب .

آداب البثانة - مطبعة التقدم - ١٩١٢ (عدله باسم
الادب اللائق ١٩٢١)
المرأة في أدوارها الثلاثة - فتاة وزوجة وأما - القاهرة -
١٩٢٥

لباب الآداب - ١٩٢٤ هـ - القاهرة
مصر والاحتلال - مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو
١٨٩٥ - مايو ١٨٩٦ هـ
وسائل النجاح - مطبعة ابو النور - ١٩٢١
التمعة المصرية في تخطيط مدينة الاسكندرية ١٣٠٨ هـ
الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض - النيل
الأبيض - ١٩٢٢ هـ
الرحلة السلطانية في الوجه القبلي ١٩١٧ م المطبعة الاميرية

ومما ذكره في مذكراته أنه ألّف كتابا بعنوان
المرأة في العين والقلب ، وقصة - الهرق - يسأل في
ألف نادرة ونادرة ، وفهرس لكتاب الأغاني في ٢
مجلدات .

تقويم مسعود

أصدر مسعود تقويمه منذ عام ١٨٩٨ باسم
(تقويم المزبد) واستمر يصدره حتى عام ١٩١٧
(١٩ عاما) وقد بدأه في ١٩٠٠ صفحة ثم ظل
يدخل عليه من الزيادة والتحسينات حتى بلغ (عام
١٩٠٥) ٤٠٠ صفحة وحروفه من البسط الصغير
(بنط ١٢) وهو في حجم الجيب ، ومما يذكر أنه
كان يصدره بالتاريخ الهجري .

وقال في مقدمة العدد الأول منه : أن فائدة
التقاويم لمعرفة الأيام ومواقفة التواريخ كفضيلة
الساعة لمعرفة مقدار ما مضى وما بقي من اليوم . .
وقد تتضاعف هذه الفائدة إذا قورنت بالمعلومات
التي يحتاج الى معرفتها الإنسان في أطوار معيشتة

(١) يرى محمد علي علوبة في بحثه من مسعود أنه أصدره
٢٥ عاما أي الى عام ١٩٢٣ في كتاب مرآت مسعود - ٢٠ -
أبريل ١٩٢١ .

وقال : كنت أتمنى أن تتيح لي الفرصة إبراز تقويم
باللغة العربية جامع لأغلب ما يحتاج الإنسان الى
معرفته والبحث عنه .

وعاد الى الحديث عنه في مقدمة جزء عام ١٩٠٨
فقال « أن التقويم بث منذ صدور بين طبقات الأمة
على اختلاف مذاهبها في الصناعات وتباين مشاربها
في الميول والنزعات كثيرا من الحقائق العلمية
المرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالحها الحيوية حتى لقد
طلبا استشهد به كبار المحامين في مرافعاتهم ، ورجع
اليه العلماء الباحثون في تحقيقاتهم » .

وقد حوى التقويم لفضولا متعددة جامعة أصمها :

(١) التوقيعات (مطابقة السنوات الهجرية للشمسية
والقبطية ومداخل التواريخ ومبادئ الفصول
والمواسم والأعياد) . (٢) علم الفلك . (٣) العلوم
والفنون . (٤) الاكتشافات والاختراعات .
(٥) غرائب الطبيعة والصناعة . (٦) الإحصائيات .
(٧) تقويم البلدان . (٨) الملوك والأمراء والوزراء .
(٩) التراجم . (١٠) التاريخ . (١١) أصول
مصر في عام . (١٢) القضاء والإدارة . (١٣)
الزراعة . (١٤) التدبير المنزلي . (١٥) باب علم
الادب (١٦) المعاهدات الدولية . (١٧) المنتخبات
الادبية (١٨) العادات والاعتقادات .
(١٩) المعاهدات والمسائل السياسية . (٢٠) تخطيط
الوجه القبلي والبحري .

وقد وجه مسعود عنايته في هذه التقاويم الى
عملين كبيرين :

(١) اللغة العربية واشتقاقاتها والاصطلاحات
اغنية فيها .
(٢) الفلك ، وكل ما يتعلق بالكواكب والأبراج
والسيارات .

كما قدم قاموسا للغة العربية (مجلد ١٩٠١)
يتضمن تفسير كلمات ما يتعدى وضوحه على اهتمام
بعض العامة عند تلاوة الكتب والجرائد ، كما قدم
في نفس المجلد مرشدا للكلمات باللغات العربية
والإيطالية والإنجليزية والفرنسية .

وجمع الأمثال العامية والحكم ووزعها على عوامش
صفحات هذه المجلدات .

ومن الأمثال العامية التي تواجها في مجلد سنة
١٩١٤ قوله : اللي مش وأخذ على البخور يتحرق ،

والبجيلة فتقويم المؤيد ومسعود : دائرة معارف
 نسخة ، حوت دراسات واسعة في التساويح
 والسياسة والاجتماع والترجم والفضاء والزراعة
 والقانون والعلوم والاكتشافات والفلك .

وقد أصدره باسم تقويم المؤيد حتى عام ١٩١٢
 ثم أصدره باسم تقويم مسعود . وقد شهد بمسقة
 هذا العمل حيث قال :

« لا ريب ان المتصدى لهذا العمل المتضارب الذي انتقل
 فيه بالفكر من فلك الى تنجيم الى طبعية او كيمياء الى طب
 وتبديل منزل الى حساب او هندسة او اختراع او اكتشاف
 ان المراكب المقتنة والطالب المودة التي لا يعلم بغيرها
 سوى الذين ملأوا المساق في تدليل صماها .. »

وقد حدثني يحيى مسعود عن عمل والده في
 التقويم فقال : انه كان ينفق من اجله وقتا وجهدا
 كبيرا ، بل ان غلاله المذهب كان يضع في تريسنا
 بالنمسا . وقال :

حفره والذين له من المشرق والهند وقرات وسال من
 هينج كرونج والهند الصينية وسفافورة من قراء التقويم ،
 وكلفت ثرا له هديا من هذه المناطق فقد ارسل له بعض
 القراء خرائط مطروقة من سومطرة وبنجيبيل وشاي من فارس
 وكان كثير من رواد القاهرة من اعلام المغرب والمشرق يزورونه
 من اجل التقويم .

وذكر جميعه في مذكراته انه تفرغ لاصداره
 فاقبل مجلة «مشتيس» وانه نسج فيه على منوال تقويم
 « عاشيت » الفرنسي من حيث ايراده تنفا وطرفا من
 العلوم والفنون ولم يقل المطبوع منه عن ١٠ آلاف
 نسخة ستويا كانت تنفذ في اقل من اسبوعين .

ولا تقف آثار مسعود عند التقويم وحده ، فهناك
 ثروة مدفونة في بطون الصحف : هي مجموعة مقالاته
 التي كتبها في الصحف منذ مطلع حياته ولم تجمع ،
 وخاصة أبحاثه في الاهرام منذ سنة ١٩٢٦ - ١٩٤٠
 وهي أبحاث تاريخية ولغوية تتصل بمراجعات لما
 تنشره الصحف من أسماء البلدان أو المواقع الجغرافية
 المختلفة وخاصة في بلاد الأندلس ، وأسماء السيارات
 والكواكب . وبعض الأسماء العربية . وفيها معازكة
 مع شيخ العروبة احمد زكي باشا والاب استتاس
 الكرمل ، وعلى وجه خاص مع الدكتور محمد شرف
 الذي جرت بينهما خلافات وصلت الى المحاكم وبصل
 فيها القضاء وكانت كلها تتعلق بترجمة بعض
 الكتب والوثائق التاريخية وخاصة فيما يتعلق
 بالاستصلاحات المترجمة من اللغات الفرنجية في
 الطب .

الرجل تدب مطرح ما تحب ، يا ويل من داق الغنى
 بعد جوعه ، يموت وفي قلبه من الهم داحس ، من
 دقته واقتل له جبل ، ضيف المسا ما له عسسا .
 الخ ..

وفي مجلدات أخرى وزع على هوامشه حكما
 وأمثالا كقوله في مجلد سنة ١٩١٥ :

« ان الحديد بالحديد يفتح ، من سل سيف البنى
 قتل به ، قبل الرماية تملأ الكنانة ، وب بعيد اقرب
 من قريب ، اذا عز أخوك فهن » الخ .

وفي سنوات أخرى يورد في الهوامش شعرا من
 شعر الحكم وهكذا ..



وأورد في هذه التقاويم أسماء الكتب التي
 صدرت في أعوامها . والصحف (وما يذكر ان
 الصحف عام ١٩٠٨ بلغت ٢٥ صحيفة ومجلة) كما
 أورد أسماء المحامين الوكلاء أمام المحاكم المختلطة .
 كما أورد عددا من تراجم المشاهير في مناسبات
 وفياهم ومقتطفات من نثر حمزة فتح الله وعبد الله
 فكري وحفي ناصف وعلي الليثي وإبراهيم اليازجي
 ومحمد عبده وشعر البارودي وأسماء من مصري
 وشوقي وحافظ إبراهيم .

وأورد دراسات عن الحيشة واليابان وتركيا
 ومختلف دول أوروبا ونظامها السياسي ومسائل
 لكبار الأدباء العرب وشذرات ومخططات من التراث
 العربي . وعنى بمصر ونظامها السياسي والمالي
 فأورد تقارير شاملة عن تجارتها ولوائدها وصافراتها
 وإيرادات السكك الحديدية ، وشؤونها الزراعية ،
 والقطن والقمح والشعير والقصب . ومقدار الخبز
 بالقدان وشئون الري وعدد المدارس والكتاتيب
 وتعلم النيا والأمن العام ومجالس المديرية
 والسجون وأحوال الصحة والمستشفيات والمحاكم
 الأهلية والجنائية والمختلطة والقضاء والأحكام
 المقررة للمبادئ ، والزواج والأحوال الشخصية
 والمهور وجهاز العرس وعشرات من هذه الموضوعات
 الاجتماعية الهامة .

وقد عني في مجلد (١٩١٤) بإيراد دراسة هامة
 عن المرأة الحديثة في أكثر من ٤٣ صفحة عن أدور
 نهضتها وأحوال المرأة الشرقية والمصرية ودعوة قاسم
 امين الى تحرير المرأة وقضايا السفر والتعليق
 والزواج والطلاق .

مراجعات اللغة والتاريخ

هذا ميدان من أعظم ميادين العمل عند مسعود ، فقد أخذ نفسه منذ مطلع شبابه بدراسات التحقيق اللغوي والتاريخي غير أنه قد وجد فرصة واسعة خلال الحرب العالمية الأولى ليقوم بمراجعات عميقة في هذا الصدد :

يقول :

إن الحرب في سنيها الأربع ١٩١٤ - ١٩١٨ ألزمت سواد الناس ملازمة بيوتهم وحرمتهم امتاع النفس بما اعتادوا أن يرفهوها به خارجها في الروع الأول من الليل ، وكانت تليف بخاطري دائما في تلك الأيام ، وأنا في مرثى ذكرى المحاولات المستعجلة التي حاول بعضهم بها منذ ١٨٩٣ أن يتغلبوا من اللغة العربية دار انصرافها من اللغات مصحى يؤدي معاني اللغات العامية والدجيلة التي تسربت وقتها استعمالها في اللغتين الكتابي والكلاسي . وكنت أعتقد أن مد هذه اللغات إلى يتاني من تصيد اللغات الطويلة من هنا ولم كما كان يفعل ذلك البعض صابرة للصلوات والناسيت بل من مطالعة المراجع استتراء واستقصاء لقيده ما يكون صالحا لسد تلك الثغمة الفائرة التي علا نبي النابيين لها في الغابر والحاضر فطورت على هذا العمل زمنا مديدا حتى أجمع لي منه بضعة آلاف كلمة حيث برد ما يتصل بها بمختلف العلوم إلى ما هداني البحث والتنقيب إليه من مقابلها في اللغتين الفرنسية واللاتينية . وهذه الكلمات وتلك مرصدة عندي في أمام ميين أعوده بنظري كلما احتجت إلى تضييق أو تصحيح » .

ويصور هذا مدى أصالة العمل الذي تشهق مسعود به نفسه في «تحقيق المعنى» ، والذي واجه به علما ضخما كان له تفوقه الفكري الواضح ، هو شيخ العروبة أحمد زكي باشا وأنه أدار معه معارك ومسابقات متعددة كشف فيها عن أصالته وقوته .

ومن ناحية أخرى كان مسعود قد أعد لنفسه ذخيرة ضخمة من القصصات التي عنى بترتيبها وتبويبها ، والتي شهداها الشاعر عبد الله عفيفي منذ عام ١٩١٢ في أول لقاء معه ، وقال له مسعود إذ ذاك : اني لأدع موضوعا في الصحف العربية أو الأجنبية الا قصصته وضعمته إلى نظائره ، فعدني من كل موضوع خير ما كتب فيه . قال عفيفي : ثم فتح أدراج خزانته وأراني هذه النظائر المصنفة في كل باب من أبواب العلم والأدب والتسليخ والاحتماح وكل ما يتجه الفكر إليه في نواحي الحياة وانتهى المطاف إلى « الاندلس » فأراني كل أبتقى الوصول إليه .

وقد أشار عبد الله عفيفي إلى أن مسعودا لم يكن يجمع هذه المراجع والوثائق ليعود إليها وقت الحاجة وإنما كان يمس كل ما فيها ويستوعبه

» ويضمه إلى خزانة صدره قبل أن يضمه إلى خزانة كتبه » .

وكان من أجل ذلك يستخدم كاتبها خاصا منقطعا له ليعاونه في تصنيف القصصات وتنسيقها ووضع الفهارس لها .

وروى عفيفي عام ١٩٤٠ أن مسعود جمع خمسمائة ألف قصاصة وزعها على ملفات وهي تعد للتاريخ جيل كامل وعقل جيل كامل» . ومن عناوين هذه الملفات : المسألة الدولية ، نظام الطبقات ، الأحزاب ، الإثنيات الأجنبية ، الفلاح والقرية ، المرأة والزواج والطلاق ، لغص الحياة ، التاريخ في العالم أجمع ، الفنون الصيلة ، التاريخ القديم والحديث لمر ، العمل والعمال ، الاناسيد والأزجال ، المسرح والسيمياء ، الإنذبة والجمعيات ، الاطفال من المهد إلى البلوغ ، الكيفيات ، التنوير المناطيس والارواح ، الفلك والتقويم ، الايمان وعطوره منذ نشأته ، الحرب في كلزواحيهم ، الاسلام والمسلمون في العالم ، الحضرات ، الطيور ، المذاهب في العالم ، الآداب واللباس .

وقال عفيفي أنه شاهد هذه القصصات في نيف وعائة وخمسين قصما . وأن مسعود كان يعد نفسه بهذه المجموعة الضخمة ثاني اثنين في العالم .

هذا وقد نبه عفيفي إلى أن هذا العمل الذي قام به مسعود ميراث مصري ضخم ويجب المحافظة عليه » .

قال هذا عهد الله عفيفي في حفل تأبين مسعود (٣٠ أبريل ١٩٤٦) :

«اليوم عندما نبحث عن هذه المكتبة الضخمة من القصصات لا نجد منها شيئا مع الاسف الشديد فقد صامت وتنازلت واكتنفا العيران بعد أن أطلق عليها محبيها في بدرومات منزل الاسرة أكثر من عشر سنوات ولم تستنقذ منها الا قصصات قليلة ، استطعت أن أنفي ليلة كاملة طالعها وأجيب بمدى ما تعطين من صورة الجهد المبذول ودقة الإعداد والتبويب ووفرة الإحاطة بفنون الفكر والتاريخ واللغة المختلفة »

هذه هي الثروة للضخمة التي كان مسعود يغنى بها « تقويمه » ومستنده القوي في تصحيح الأخطاء اللغوية والتاريخية التي تظهر في الصحف بين آن وآخر ومواجهة معارك الكتاب والباحثين

ومما يرويه كامل كيلاني : أن مناقشة أدبية دارت في دار الكتابة « مي زيادة » بينه وبين أحمد زكي باشا ، من جسرأ ترجمة كلمة فرنسية هي Sotte ويقابلها بالانجليزية كلمة Double أو « » . وأصر زكي باشا على أن اللغة العربية قد خلعت من مقابل لهذه الكلمة ، وأرعد

الباشا وعصف - على عادته - حين أنكرت عليه دعواه ، واشتد اللجاج حتى كاد يخرج المجلس عن وقاره وصاح متوعدا :

« هات ما يقابلها في العربية أو سلم لي بصحة ما أقول » ورتت مصفا في هذه الجراة وقلت له : ان جهلنا ما يقابل هذه الكلمة ليس حجة علينا ، وقلت له آخر الأمر : إذا لم يرضك أن تترجمها بكلمة « شبيه » فهل تقبل كلمة « ستو » مراد خصيه ومعدا مني سرعا .. وفي الصباح الباكر دق جرس الهاتف وكان أول من يهتدي هو شيخ العروبة وقد هتف : أرايت المجرة العدة ، لكن « مسعودا » كان معنا هذه الليلة فاسأل علينا في « أهرام » هذا الصباح يقضى في الدعوى التي الرناها أمس أضل قضاء : أرايت كلمة « ليم » التي جاء بها مسعود في الكلمة عنها التي كنت أشتدعا في مناقشة أمس لأنها تسمى - كما تقول معاجم اللغة - شبه الرجل في فقهه وشكله وخلقته ، فإذا قلت من أحد أنه « ليم » فقد ثبت أنه شبيه في فدى وشكله وخلقته وهو ما تعنيه كلمة Souff الفرنسية بلا زيادة ولا نقصير . »

مساجلات بين سعود وزكي باشا

ويتصل بهذا ما دار من مساجلات عنيفة بين مسعود واحمد زكي شيخ العروبة في مرات متعددة وقضايا كثيرة وهي فيما توصلت اليه ثلاث محارك : نوفمبر ١٩٣٠ في الأهرام - ويونية ويولية ١٩٣٢ في الأهرام أيضا ، وفبراير ١٩٣٣ في البلاغ .

وقد دارت في هذه المساجلات عبارات لاذعة وعنيفة ، وهي نموذج من صورة الفطش الفكرى وقضايا الأدب في هذه الفترة -

كانت المعركة الأولى بشأن عبارة وردت في مقال لمسعود فقد بدأ مقاله بقوله :

« لاشاغيل طرآتية » مرلتني في الاسبوعين الفائرين من مطالعة الصحف الخ .

وكتب احمد زكي بطل على عبارة « لاشاغيل طرآتية » فقال بأسلوب الساخر :

هل يسمح لي الأستاذ مسعود ان اوسل اليه باسم الرئاسة والنبالة والنبالة ويبقى النطافة والطرافة والفرافة ان يرحمنا من الانفلاف المويضة النضرة القهواء فنيل نفسه الى السلاسة في التعبير وهو طليها فذير والى الكياسة في نظم الكلام .

فاحتنا - برحيم الله - من براعة الافتتاح التي اصدت بها كفتك « لاشاغيل طرآتية » .. يا ستار ، يا ستار ، لمن الله هذه الاشاغيل التي شغفك مشاغلها فاقفنا في صحراء الجيرة وارجمنا وهم اتوفنا الى قصر القاهوس - يا ستار ، يا ستار ، من تلك الطرآتية التي طرات عليك فطرشامعنا بالبرية المفردة وكل مقامع الحديد بالجمع .

ويرد عليه مسعود مهاجما في عنف فيقول :

ليس من الهيات الهيات ، ولا من تاهه الاشاغيل ، ان يسوقك النقط العاتر يوما الى الروول مع شيخ العروبة في ميدان مناظرة ، ذلك لأنك اذا خضت معه هذا الضمار استهدت لفموات شتى من سنان قلمه الجارح ، فمن من

عليك وغيري لك ياتك انما من بحر طيه اغترفت ، أنى تشهبر بك ، وانحاء بالروم والتعنيف طليكه لانك لم تؤد اليه صافرا آثارا الشكر ، لقاء ما غفرك به من نبوس احساناته الطمية ومن تعاخر بأنه النافى وحده على معانيع التحقيقات الطمية والعلوية ، والملك لخاصية البحوث الاندلسية والمهم في دياجير الاطباء بالتوفيق لبور الصواب والحق ، أنى انهام لك النجل واتصال علم لا تعلم .. فهو يرى اذن ان العلم وما يتصل به من تحقيق ومحمص وتراث أوصت له به الحكمة الارلية وميراث حلس له من فغون الاجيال السالفة ، ليس لاحد ان يرمقه بعينه أو ان يشرتب اليه بعفته .. »

وفي تعليق لمسعود عن خبر نشر في الأهرام (١١/١٦/١٩٣٠) عن وجود عرب في أمريكا قال : « ان صد الخبر الذي نقلته من جريدة الهدى الأمريكية فإنه لا يبعد أن تكون القبيلة العربية التي مشر عليها التجار الاتراك في افعال بعض المتطاعنات المكسيكية من سلالة اعضاء بعض البعثات العربية الآتية التي خرجت لهما من سواحل اندلس والبرتغال ومارش لاستكشاف باسطة في غرب بعض القلعات وانهم آثروا بعد وصولهم الى جزر الايتيل الاستقرار والمعيش فيها تقيّة اخطار العودة الى مواطنهم » .

هنالك انبرى للرد عليه احمد زكي باشا وبدأ حديثه في (١١/٢٧/١٩٣٠) بهذه العبارة الجريئة .

« عني ، وعنى وحدي ، خلوا النبا الصادق ، لعندي ، وعندي وحدي ، الحجة الصحيحة والبرهان الناطق : ودع كل مستهوي غير صوتي قاتني انا الطائر المتكى وفيري هو الصدى ثم قال :

« تجد كاتب من الفاضل المصريين فزعم ان القبيلة من بقايا العرب الاندلسيين ، وذلك محال والذ محال .. ان الكاتب الفاضل اداه اجتهاده الى الرمز بهذا القول جرافا دون ان يعتمد على برهان .. ان شبه برهان .. انه اعتمد فقط على المصدر الذي كان لي فضل السبق على كل عربي وكل شرقي حينما نهيت العرب اليه في عام ١٨٩٢ ، ولكن الكاتب الفاضل كتني بهذا الورد الذي لم يدل علي شيء سوى محاولة العرب ، ثم محاولتهم ، الوصول الى امريكا ، ولكنه يؤكد بربروهم خائبين » .

ورد مسعود يفتد أقوال شيخ العروبة ويقول انه لم يعتمد على هذا المصدر وانما اعتمد على مصدر آخر هو جريدة الحاضرة التونسية في مقال نشرته عن استكشاف العرب لأمريكا في أوائل عام ١٨٩٢ أي قبل رحلته والعود على كتاب نزعة المشتتات للدردسي .. وقال ان هذا الكتاب طبع .. قبل أن يعثر عليه زكي باشا بحاضرة روما عام ١٩٥٢ - أي قبل عثو زكي باشا عليه مخطوطا بثلاثمائة سنة ، وقال مسعود :

انه لم يتطع بالتعذر تلك القبيلة من العرب الذين أوغلوا في بحر الظلمات بل احاط استنتاجه في هذا الموضوع بسياج من شروب الاحتمال والتحفظ .

وفي ميدان التحقيق التاريخي أعانته رحلاته التي كان ينتقل لها مع السلطان حسين أو فؤاد على فريد من الاطلاع على الآثار المخلفة وتاريخ مصر الفرعوني القديم ، ويبدو هذا واضحا في كتابه (الرحلة السلطانية الى الوجه القبلي) ، وفي كتابه (النجعة الدهرية في تخطيط مدينة الاسكندرية) وكتاب (الرحلة الأولى للبحث عن ينباع انيسبل الابيض) . وفي جميع هذه المسؤلفات نجد روح الباحث المؤرخ الدائب على التحقيق والاستقصاء ، فهو بالرغم من أنه مضطر لأن يصور رحلة السلطان في كتابه الأول بمثل هذه العبارات :

« .. وماكادت الشمس يتوارى فرسها الذهبي خلف ستار الأفق الغربي حتى تقلد ساحل البحر مقدا منظوما من دود الأنواء السابعة ، كانت واسطة مقدها بأخضره معلقة السلطان » .

أو قوله :

« .. وما تتمص الصبح حتى تحركت الركائب السلطانية منجبة سرب نجح حمادي لمرت داخل حدود جرجا ، وكانت الزينات ولاءه الولاء فيها جميعا مما نقر به الصيون وطرب له الجيوش » .

بالرغم من هذا كله فإنه ما يكاد يصل الى موقع أثري حتى يفيض في عرض الجوانب التاريخية فيقول في زيارة معبد ابيدوس تحت عنوان كلمة **زيارة إلى أبيدوس** .

« أبيدوس واحدة عند سفوح جبال لبية الى الجنوب الغربي من البلبيا على بعد اربعة عشر كيلو مترا منها . وكان اسمها باللغة المصرية القديمة « ايدو » ولاتير من أقدم مدن القطر المصري . والثانية في الاحمية بعد مدينة « طيبة » ذات الملائه باب » وهي مشهورة الآن بالعرابة المدفونة ويسمونها بعضهم « ماريات » وذهب في تحليل هذه التسمية الى أن الأرباب جميع أرباب أو أرباب بمعنى العصور من الجسم ، إشارة الى أن أعضاء الآلهة أولدريس التي تجسدت له جمست ودلنت في هذه البقعة الخ » ..

وقد اهتم مسعود في الفترة الأخيرة من حياته بالاندلس وتاريخها وكل ما يتعلق بها من أدب وتاريخ ودرس اللغة الاسبانية كيما يستطيع الكشف عن كلماتها ذات الاصل العربي . كما عني بجمع الأمثال العربية ينقلها بالسماع ويرصدها ميوبة مرتبة حتى كان عنده منها سجل لم يسبقه الي مثله أحد .

شخصية مسعود

وصف مسعود بأنه : ناصع الصفحة نقي العاضة في عمله الصغرى الذي كان في ذلك الوقت ممرضا لكثير من عوامل الإغراء والاضطراب بالنسبة للكتاب

وهكذا كانت تجرى المعارك والمساجلات بينهما في ميدان التحقيق التاريخي والفقوى ، فقد كان مسعود بين آن وآخر يخرج على الناس بكلمة جديدة مثال ذلك قوله في أهرام ٢٤ يونية سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (شلمنقة)

« .. لا يسبق الى وحك انها لفظة زجر فونسط ونظره تركية أو فارسية ، فلما هي الاسم العربي لمدينة « شلمنكة » التي وردت في الصحف منذ اسبوعين . التي أوربا بطيلة ذلك أن يورث التنداء بذلك اللفظ وحتى المسجج . وأن العرب حين أطلقوا عليها هذا الاسم تقديرها باللفظ الأصلي الذي أطلقه عليها مؤسرها الرومان في القرن الثالث قبل الميلاد » .

ورد عليه احمد زكي يقول :

« يا مسعود ، اتق الله في الإمالة التي في متفك ، فالت تحفظ وتحتفظ وتكتلظ بهذا الاسم وبالحس الذي تصورتم أنهم قد يخلطونه بالاسم القارب له وهو « شلمنكة » فكان عجيب شديدا حينما قرأت هذه الصفات الصحيحة التي ليس فيها عيب سوى واحد هو الانقصاب الأدبي .

« انت اخذت مني ومنى كل هذه المعلومات . ملكك سيبت يا مسعود ، ملكك تقول أن الانسان معدن للنسيان » ..

ورد عليه مسعود :

« وصف تحقيق بعض أسماء الاعلام بأنها الفظ متفجرة وحظنة وجليظة وتحلق وتفصاح .. وما علم الناس طرا في الخلفين وما زالوا يعرفونه أنه شلمنكة مولاى الإسناد وفطرته التي لطر عليها في مباحثاته وسلاحه الذي يحطر به حطرا في فطرسة وهو كلما أليل على ميدان أو لصون للحرب والبطان . أن دوى وذلك أمرنا بالحصى في الجدل »

ليس ثلثي أن يجرى النصيحة لثلك وأنت من المعلوم والفضل في الليرة العليا . ولكني أهيب بك أن تكون نحية أول صديق من الكرام الكاتبين قابلته في صبيحة اليوم قوله لى : يا لله لو كنت طائبا ولم يكن غير ركي باشا استادا على وجه الأرض لأرت البقعة جاهلا خلايا طول عمرى على أن أكون عالما مبيها اذا كان أسلوبه في التظيم كآسلوبه في الجدل والمناظرة ..

وهكذا يبدو مسعود في جده وأصائله يواجهه المعارك في صمود وصراحة ، ومع أسلوب عف بعيد عن التعالي أو العنف .



كما عني مسعود بأخطاء الصحف فقد جمع منها على حد قوله في محاضرة له (١٩٣٦/٤/٢٧) بضعة آلاف قيدها في كراسات « رجاء أن تتاح الفرصة لأبرازها في كتاب يكون عدة للكاتبين في توقيهم معائر الأخطاء . ومن هذه الأخطاء عسارة (أولا فأولا) أو أولا بأول وصحتها : أول أول ، وعبارة (على قيد) صحتها (قيد) وعبارة (جلس على يمينه) وصحتها جلس الى ، وعبارة : من أول وهلة أو لأول وهلة أو في أول وهلة وصحتها (أول وهلة)

طريقة تفكيره بالاعتدال والاتجاه الى التربة بالمثل والقيم . وقد جمع في أحد تقاويمه كلمات لكبار الكتّاب وأورد له من بينها كلمة ربما تكشف عن طابعه النفسي :

« ثمين بالعقل البعيد مراسي النظر في اطار الدهر وتقلباته الا يستند وجاه على كونه حطيا ولا على انه نال ما كان يستحق من ثروة وجاه . بل يجب عليه اذا افتر له ثمر الزمان ان يسجل في ذاكرته تلك الانتماسة مكتنفا بذلك دون الاطمئنان اليها او الاعتماد عليها مرجعا في نفسه انها ابتسامه قد تعقبها عبثا وانطفاق قد يتبعه نفور ورعاه قد تتلوه شدة . »

وحير اللرائع الى المجد والجاه والسياسي اما هو ان يتخذ المزمع من حريته مطية تقرب له اليه من هذه الغايات السنية والمراتب الشريفة على شريطة التحلي بالمعاملات الكفيلة بالنسب الطريق . لانا لسنا الا في حيز الزمن الذي كان احسبه يصورون الحظ او الجراف في صورة غادة تفرق بين المستقر في النوم ، بل مرنا الى زمن لا يلوح طيف الحظ فيه الا ان يشفي آثره صانينا في ادراكه الفشاق والاهوال ما يفتق المرات ويتقطع بياض القلوب .. »



وتتلخص وقائع حياة محمد مسعود في أنه ولد بالاسكندرية عام ١٨٧٢ ، وأتم تعليمه بمدراس الفرقة الأولى وعمل بمدرسة اللغة الفرنسية في مدرسة رأس الخيري الثانوية عامين ثم التحق بتحرير المؤيد في أول شبائه عام ١٨٩١ ، وظل به حتى عام ١٩٠٦ عندما استقل مع أحمد حافظ عوض بإنشاء صحيفة (المنبر) التي تركها عام ١٩٠٩ بإنشاء (النظام) .

وفي عام ١٩١٠ التحق بالتحرير الفني بإدارة المطبوعات وظل بها حتى أحيل على المسحاش في فبراير عام ١٩٢٢ حيث ظل يعمل في ميدان البحث والتأليف والمراجعة الى أن توفي عام ١٩٤٠ .

ولعل حادث ميلاده محمد مسعود للكاتب الإيطالي سانتيوريلي رئيس تحرير جريدة الكورييري دي ايمبريانو في القاهرة من الطرافة بما يستحق الإشارة اليه ، فقد نشر مسعود في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠١ موقعا رأى فيه المسير سانتيوريلي أهانة للجالية لعمد مسعود أني البائرة وحدد زمان ومكان البائرة . ولم يضطر مسعود - الذي لم يكن يعرف لمية السيد - وكان ذلك حدثا أثار الصحف وشغلها ولفت الأنظار بقوة ، ثم كان السعي الى فض الخلاف بمقد تسوية ، وجدت لدى الاستاذ يحيى مسعود صورة لها مخرقة ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠١ جاء فيها أنه بعد الاطلاع على المقال المشار اليه تبين أن كاتبه قد تكلم فيه بوجه عام وقد رأى أن « مسعود افندي » لم يركم في مقاله في أهانة الرجل لا باعتباره فردا ولا باعتباره صحفيا وأعلن شهود البائرة لمسود وسانتيوريلي أن المسألة قد امتدت منتهية .

الوطنيين ، فقد قال معاصروه : بأنه عاش خادما أميناً للقلم والصحافة . وأنه عرف بالجلد على العمل والأمانة في البحث والصدق في القول وكرامة النفس ، كما عرف بالذئاب المتصل ، والجمع بين الكبرياء والتواضع مع النزاهة في العبارة وشفقة اللسان . كما عرف بالجدل الذي يعتمد على المناظرة والإقناع بالحجة . فإذا رأى مناظره قد بدأ يتجه الى المهاترة تركه وحده .

وقال معاصروه . انه لم يكن يبالي أن يرجع الى الحق متى نبه اليه واقتنع بصحته .

ويرى مؤرخوه بأنه بالرغم من حياته في بيئة سياسية واشتغاله بها طويلا واحترافها واصدار الصحف مشتركا مع غيره ومنفردا فإنه لم يخضع لما في تقاليدها من عبث ، وظل على الأدب ، عف اللسان فلم تقو السياسة على المساس بأخلاقه الفاضلة ، ولكنه تحداها فعاش كريما .

وقد وصفه ابنه الأستاذ يحيى مسعود بأنه كان جلدا صابرا مثابرا ، لا يعرف الكلل ، وربما يقضى الليالي ساهرا باحثا على وجه من التواصل وفي جهد مطرد متناسق ، وربما طالع كتابا يهتف للبحث عن كلمة أو معنى ، وكانت حاسته الحسية الاستيعابية تساعده على الإشارة الى مصدر ما كتبه ، فمن التادير أن يفوته المصدر مع تعيين موضعه من الكتاب . محبا للتؤدة والتفكير المرتب والنظام في كل شيء ، ويعيب الاقنان في كل ما يتولاه من الأمور ، كأنه لا يرى في شيء مجالا للتوهم كما لم يكن يرى في مجال القول موضعا للتبذل ، (١)

ومما يتصل بأسلوب مسعود في الكتابة ، فقد عرف بالوضوح والبساطة مع البلاغة . وتتمسح

(١) مما أشانه ابنه يحيى مسعود أن وصفه أيضا بقلة الملاحظة والاستنتاج وشره مثلا على ذلك واقعة الزلزال الذي حدث ذات ليلة من شهر يولية سنة ١٩٢٦ وباتت آثاره الشديدة في النظر كله ونشأ منه هدم بعض المباني بالقاهرة وسارعت جريدة الاهرام الى سؤال مرشد حلوان ممسحا اشارت اليه اجهزته عن مصدر الزلزال فاعتذر المرشد بظنه اجهزته من اثر الزلزال مظهر للجريدة أن تتمتع بليونيسا بمحمد مسعود في بيته فسأله رايه فأجاب بأنه يعتقد أن مركز الزلزال جزيرة كريت ، والسبب أن « بدول » سامة الحافظ المغلفة على أحد الحوائط الشمالية بالزول مد مطقة رحمة الزلزال ، فلو كان مصدره من اتجاه غير ناحية هذه الجزيرة التي تقع في الشمال للنظر المصري لما حصل البنول ولظل في حركته ، وصدرت الاهرام في الصباح بعد أن تلتفت من انباء الخارج أن الزلزال مركزه جزيرة كريت .

هيخا... سَحِيل المودة!

قصيدة : للشاعر عبده بدوي



✻ يا صاحبتى .. يا ذات الفستان الأخضر
يا من تطينى عينها فجرا بهر .
مدى كفك الى وجهى . وجهى الاسمر
وتلقى احزاني الحرى دمعاً يقر
— يا للمسكين

✻ اليك بدى
— يا للمسكين

هل ضاعت منك اغاريدى ، والليل سكوت ؟
هل جف صباح فسى من فوق جبين ؟
هل ضاع الحطل المستلقى من بين جفون ؟

✻ انى اشلاء ملقاة من بين ظنون
انى ايام شاخصة نحو التنين .
انى اتساقط مدحوراً تحت السكين
.. لا فاع يلامس اقدامى - والليل حزين -

فانا اتهوى فى جب جنياه سنين
لا مرفاً فى وجه ! لا واحة بين عيون !
حتى فى اعماق اعماقى لم يبق حنين ..

— ابكيك بفجر مبهور فوق القدر
بستابل من ذهب دارت فى المنحدر
بنفوس لم تعرف يوما معنى الضجر
بحكاية حب يفرها .. وجه القمر
ولقد تلفت « بموال » خصب الصور

فلترجع

✻ ارجع فى نفسى حزن البشر ؟
— فلترجع

✻ بالعرشات بعمرى المختصر ؟
— فلترجع

✻ بالظل المتند على الذكر ؟

بدوى العصر . بعل يدنين من العمر
ويايام كالونى مفرغة البصر .
الفربة يا اختى اصحت .. اصحت قدردى !



فست فات جوج



تولوز لوتريك

يونس جوجان



هنري بيم

بقلم
نعيم عطية

وض السير

وقد كتب الهيريه مورا (١) عضو الاكاديمية الفرنسية من سلسلة « الفن والقدر » قائلا انها مشروع جريء ونبييل . جرىء لان البحوث التي يعضها طويلة ومضنية وتتطلب ضخامة الجهد من المؤلف تفردا دائما ، بل ان يكرس حياته كلها من اجل تحقيق مايطمح اليه ، وهو مشروع نبيل ايضا لانه يحكي سير شخصيات ضمت بكل رخيص وغال في سبيل فنها محترمة الامجاد الزائلة والانعاط البالية . وقد قام هنري بيروشو بالنسبة لكل من تراجمه بالبحوث التاريخية الاولى باخلاص رائع دون ان يهدف الى تصوير حياة بضعة اشخاص فحسب ، بل الى تصوير حقبة كاملة من التاريخ الحديث . وعندما سيفرغ بيروشو من مشروعه سيجد نفسه قد رسم بكلماته لوحة ضخمة تعكس قرنا ونصفا من الزمان . ان سلسلة « الفن

اخذ الروائي الفرنسي هنري بيروشو على عاتقه منذ عام ١٩٥٥ ان يكتب في شكل سلسلة من التراجم بعنوان « الفن والقدر » تاريخا حيا للتصوير الحديث من شخصياته الكبيرة الخلاقة اعتبارا من ديلاكروا الى بيكاسو . وهو مشروع ضخم ، الا ان كل الدلائل توحي بان بيروشو يمشى في خطته قدما . فقد نشر فعلا كتابا مستفيضا ودقيقا عن « حياة فان جوج » عام ١٩٥٥ وآخر عن « حياة سيزان » عام ١٩٥٦ وآخر عن « حياة تولوز لوتريك » عام ١٩٥٨ وآخر عن « حياة مانيه » عام ١٩٥٩ وآخر عن « حياة جوجان » عام ١٩٦١ . وهو يجمع الآن المادة اللازمة لكتاب عن « حياة رينوار »

وليست هذه الكتب من الصنف الذي يكتب على مجل ويلا اناة كما يفعل الكثيرون ويكثره ، بل هي تراجم جادة مستوفاة الى اقصى حد ، يتراوح كل كتاب منها ما بين خمسمائة وستمائة صفحة مستندة الى وثائق ومعلومات مجمعة تجميعا حديثا وكاملا .

(١) راجع مقالته من هنري بيروشو في عدد نوفمبر ١٩٦١ من مجلة « هل قرأت » الفرنسية الصادرة من دار هاشيت .

ويكرس جل وقته لها ؟ الواقع أننا لو أجبتنا على ذلك بأن السبب هو حبه للفن فحسب ، قلن تكون اجابتنا وافية بحال لأن هذه الاجابة وإن كانت مستقوى على تفسير اختياره لموضوعاته إلا أنها لن تقوى على أن تفسر السبب في تكريسه الجزء الأكبر من نشاطه كمؤلف لهذه السير . والحقائق أنه لو كان قد أضحي راوية لسير الفنانين الكبار فليس ذلك لمجرد شغفه بالفن فحسب ، بل لأن حياة الفنانين الموهوبين فيها ما يستاهل اهتمام الاديب القصاص بها . فحياة الفنان الموهوب هي أبلغ حوار بين الإنسان والقدر . وسواء أكان الأمر أمر فنان جوج أو مانيه أو تولوز لوتريك أو سيزان أو جوجان

فإن هدف القصص يبروشو في كل الاحوال واحد لا يتغير . هذا الهدف هو محاولته بالنسبة لكل من أولئك الفنانين الذين خصص لهم سلسلته « الفن والقدر » أن يزيح النقاب عن إنسان في عظمته وضعفه ، في لحظات سعادته وشغائه ، في حياته المنزلة الهادئة والثقلة المضطربة إلى حد الخطر .

وباختصار لنقل أن يبروشو إنما يبحث في حياة كل فنان عن روعة المصير الإنساني . أن الفن يتفجر لدى هؤلاء الموهوبين على الدوام من الحياة . وإذا كان الفن يقتضي تصوير عن الحياة فهو نتاج تلك الحياة أيضاً . وللمعنى هذا التقى من حياة أولئك المبدعين من أن يلتقي بهم بالمثل . ويتزايد الإيمان العام يوماً بعد يوم بأنه مامن وسيلة أنجح لفهم العمل الفني من النظر إليه من خلال حياة الإنسان الذي خلقه والذي استشعر حاجته إليه وسخر طاقاته له .

ولكن حياة الفنان هذه التي تختلف وتتشابك بحياة أناس آخرين ، كيف يمكن وضع اليد عليها وإعادة تشييدها ؟ الواقع أن هذه هي المشكلة التي يواجهها كاتب التراجم . ويستجيب هنري يبروشو من ناحيته الكتابة الرومانسية للتراجم فلماذا يلجأ الكاتب - على حد قوله - إلى التخييلات ليعرض لنا حياة أناس عاشوا حياتهم فعلاً بكل تفاصيلها ودقائقها الحافلة ؟ لماذا يلجأ كاتب مثل ارفينج ستون في الفصل السادس من روايته « شغف بالحياة » التي كتبها عام ١٩٣٤ إلى تصوير فنان جوج وقد التقى بالهة الفن « مانيا » التي تقول له في حوار طويل متخيل أنها أحبته منذ أن أمسك القلم وخط رسومه الأول لعمل المناجم في البورنيج وأنها كانت ترافقه على الدوام رغم أنه لا يعرفها ؟ لماذا يلجأ

والقدر ؟ في الواقع جهد جبار لا يتحلى للقائم به راحة أو انصرافاً ، إلا أن هنري يبروشو يحب العزلة والعمل . وبعض في تنفيذ مشروعه الضخم بمهمة وسعادة لاتقل من المتعة والسعادة التي تخلفها سيره في نفوس قرائه .

وقد ولد هنري يبروشو في السابع والعشرين من يناير عام ١٩١٧ وتجنّد عائلته من أصل ريفي . وكان أبوه يشتغل في مصلحة السكك الحديدية . وقد أمضى هنري طفولته وصباه في مارسيليا حيث تلقى دروسه ثم حصل على ليسانس الآداب من جامعة ايكس .

ولم تكن القراءة مستحبة كثيراً بين أفراد أسرته ولم يكن للادب عندهم أي حساب . على أن هنري أراد أن يصبح أديباً منذ صغره . بل عمد إلى الكتابة اشباعاً - على حد قوله - لحاجة عضوية تماماً كحاجته إلى النفس أو الطعام . وقد وجهته أسرته إلى التدريس إلا أن نظاره هو كانت متجهة اتجاه آخر . وفي سن العشرين أرسل محاولاته الأولى في الكتابة إلى الاديب الكبير هنري دي مونترلان الذي كتب إليه قائلاً : « إن ثروائك الداخلية جليّة ولكنني أنصحك بأن تفعل ما فعله شاتوبريان ، بمنح إني تخفي مصادرك » وكان يقصد أن يخفي الاديب الناشئ إنتاجه الأول والا يعمد إلى النشر إلا بعد اجتياز السن الطائفة التي يمر بها كل الكاتب . وفي سن التاسعة والعشرين نشر يبروشو أول كتبه وكانت قصة طويلة بعنوان « سيد الإنسان » ثم أعقبها قصص أخرى ثم روايات ومقالات وقصائد من الشعر ودراسات عن مسرح مونترلان وأنوي وكلمى وشو ، على أنه - على حد قوله - لم يكسب يحس بالارتياح في مجال القصة والرواية . كان الخيال يضايقه وتستوحي الشخصيات الواقعية القوية التي تصلح لأن تكون أبطال تراجم مثل تراجم أندريه مورا لا أبطال قصص روايات عرضة لعدم التصديق .

وقد حصل هنري يبروشو على جائزة « شارل بلان » من الاكاديمية الفرنسية . واستندت إليه اعتباراً من إبريل عام ١٩٦١ رئاسة تحرير مجلة « حديقة الفنون » .

ولكن ما الذي جعل هنري يبروشو يتجه إلى كتابة سير المصورين بالذات ، وإن يكف عليها

كاتب مثل بيير لامبور في روايته « الطساحونة الحمراء » التي كتبها عام ١٩٥٠ من حياة هنري تولوز لوتريك الى وضع شخصيات حقيقية في مواقف متخيلة ؟ ان الواقع اغنى ألف مرة من الخيال بل ان الواقع ليس اغنى فحسب بل وأكثر فتننة والاثارة وتحريكاً للمواقف ، وذلك لانه واقع ، وواقع فحسب . لقد كان الاديب الكبير ميشليه يقول :

« أتريد قراءة رواية ؟ اقرأ التاريخ اذن ! » ومن ثم اذا وجب ان تكون السيرة مؤثرة كالرواية فانها لا يجب ان تقل دقة عن أكثر مدونات التاريخ جدية وموضوعية . ويعترف بيروشو بأنه عندما انكب على اعداد تراجمه لم يشك في صعوبة المهمة التي أخذها على عاتقه . فلذا كان الهدف إعادة تشييد حياة معينة فان هذا يعنى الالتزام بعدم كتابة أية كلمة ، وعدم الإشارة الى أية جزئية ، الا اذا كانت مدعومة بسند من الواقع . ويمكننا ان نعطى أمثلة جلية معبرة على ذلك من واقع كتابات هنري بيروشو . ففي الصفحات الأولى من « حياة فان جوج » يتحدث المؤلف من قراب يتفق في أصل شجرة طلع في مدفن بلدة زوندبرج مسقط رأس الفنان (١) هذه جزئية متناهية في الصغر . ولكن بيروشو لم يبتدعها مع ذلك . بل استخلصها من خطاب كتبه فينسنت فان جوج ذاته الى أخيه ثيوفى الثالث والعشرين من يناير عام ١٨٨٩ (٢) . وعندما وصف بيروشو وصفاً تفصيلياً مختلف الغرف في البيت الذى سكنه لوتريك بعض الوقت فى شارع الطواحين ، فانه لم يفعل ذلك الا من خلال عديد من الصور الفوتوغرافية التى حصل عليها ، بل انه وضع تحت نظريته عند كتابة ذلك الوصف خريطة للبيت المذكور أيضاً . وهذا ما يحدث بالنسبة لكل شيء ، الطابع المخيم على شارع من الشوارع .. النحو الذى طرز عليه رداء كانت ترتديه إحدى الشخصيات .. لون الورق الفطى

(١) راجع صفحات ٢٢ و ٢٦٥ من « حياة فان جوج » المدين ٤٥٧ و ٤٥٨ من سلسلة « كتب الجيب » التى تصورها دار هاشيت الفرنسية .

(٢) وهو الخطاب رقم ٥٧٣ فى مجموعة الخطابات المتبادلة بين الاخوين فان جوج .

لحوائط غرفة من الغرف .. الى آخره (١) . ومن ثم لا يهمل هنري بيروشو أى مصدر للمعلومات عند كتابة تراجمه . وهو يبدأ مادة بقراءة ومقارنة كل ماكتب من الشخصيات سواء أكان ماكتب منها مودعا فى بطون الكتب او منشورا على صفحات الجرائد والمجلات ، بل انه يفحص أيضاً صحافة تلك الحقبة التى عاشت فيها الشخصية . وليس من شأن ذلك القارئ فى اجراء تلك الحقبة فحسب بل انه يمدد أيضاً بكثير من التفاصيل الجديدة ، ويتيح له الحصول على مقتطفات مفيدة ، وتحديد بعض التواريخ تحديداً دقيقاً ، وفهم بعض ماحاط من غموض بشخصيات أو بأحداث معينة قد طواها النسيان .

وقد زاد عدد المراجع التى رجع اليها بيروشو بصدد حياة فان جوج مثلاً على المائة ، ومن بين هذه المراجع رسائل عملية وأبحاث طبية من طبيعة المرض العقل الذى اطاح بصواب فان جوج . ولم يقل عدد المراجع بالنسبة لأية سيرة من سيره عن ذلك العدد الضخم . فالواقع ان سيره ليست روايات بل مادة علمية معروضة عرضاً خاصاً فيه براعة الفنان وطلاقة الاديب ووقار العلماء . فقد قلل بيروشو قدر امكانه من استخدام الخيال الذى لا ينكر أحد ان مثل هذه المؤلفات يمكن ان تخلو منه . لقد قصى بسبر كل مله معروف عن فينسنت فان جوج ، وجمع بأناة كل العناصر اللازمة لإعادة تشييد حياته . ومن السهل على من بذل مثل هذا الجهد الذى بذله بيروشو أن يشير بالنسبة لكل من تفاصيل كتبه الى مرجع أو أكثر . الا أنه تردد لحظة فيما اذا كان يجب عليه أن يشير فى كل صفحة الى مراجعه العديدة ، ثم قرر الا يفعل ذلك ، حتى لا يشوه جمال القصة المسروبة ، وحتى لا تتخسذ سيره صورة الأبحاث العلمية ، فى حين أن هدفه الاساسى هو أن يكتب عملاً أدبياً ولذلك فقد اكتفى بالإشارة فى نهاية كل من سيره الى مراجعته بالتفصيل .

كما ان الخطابات المتبادلة بين الفنان واقربائه واصدقائه ومعارفه هى بدورها مصدر غنى للمعلومات التى تلقى أضواء صادقة على شخصية

(١) راجع مقاله لبيروشو فى مجلة « هل قرأت » سالما الذكر .

وهي حفة من حياة جوجان كان يكتنفها كثير من الغموض ، وقد أوصلت أبحاث بيروشوف في سجلات البحرية الاهلية الى تحديد الأسفار التي قام بها جوجان في شبابه عندما كان يعمل على ظهر الباخرة « الغيرون - نايليون » كما زودته شركة المساجير ماريتم للملاحة بتاريخ اقلاع ووصول السفن التي أقلت جوجان الى جزر المحيط الهادى والتي أعادته الى أوروبا وخطوط سيرها والموانئ التي رست فيها وبعض التفاصيل الأخرى .

وبالإضافة الى الكتب التي يرجع اليها هنرى بيروشوف بالنسبة الى كل من سيره فقد رأى ان المعرفة المباشرة للأماكن التي عاش فيها كل من الفنانين الذين كتب عنهم هي أمر على غاية من الأهمية فيدون هذه المعرفة لا يمكن أن يفهم فهم واضحاً وصحيحاً حقيقة الحياة التي عاشها الفنان .

وهكذا تأتي معلومات هنرى بيروشوف من كل صوب وحذب ويضفي في التنقيب عنها في كل مكان . ومن خلال مراسلاته مع أحد الفاروسيين بمعاونة مترجمة بلونوية أمكنه أن يعدد الروابط التي كانت تربط جوجان بالفنان البولونى سلونينسكى ومن عطف أئمة المصور جورج - دابيل دى مونفريد وكيلى جوجان أثناء فترة إقامته في جزر المحيط . أمكنه أن يجمع أهم الاستدلالات عن الحقيقة التي عاشها جوجان في تلك الجزر النائية . ولنتوقف عن الخفى في تعداد هذه المصادر فهذا أمر لا ينتهى . وباختصار أمكن لهنرى بيروشوف من هذه المصادر التي لا حصر لها أن يصحح وجهات النظر السابقة في عديد من النقاط وأن يضيف إليها وجهات نظر جديدة .

ويقدر بيروشوف بكل تواضع أنه لا يستبعد الخطأ والزلل فيما كتبه رغم عنايته الفائقة بالدقة وحرصه الشديد على توخى الصدق وتجنب الغيالى ، وربما ارتكب خطأ هنا أو هناك ، ولكنه سيكون خطأ فى التفسير . ولا يعتقد على أى حال أنه لم يكن أمينا كل الإمانة فيما ينقله الى قرائه .

ويجدر أن نفيه الى أن مرحلة جمع الاستدلالات لا يمكن ضبطها ، على الأقل فى أول الأمر ، فالمعلومات تتجمع رويدا رويدا . وقد أمضى بيروشوف أكثر من خمسة عشر عاما يجمع المادة التي أودعها في كتابه « حياة جوجان » . وكل من الفنانين الذين خصص

الفنان وحياته . فالخطابات التي يكتبها المرء عادة الى أبيه وأخيه وأمه أو صديقه أو زوجته تنفَس بها عن مكتون صدره أو يشكو فيها متاعبه أو يطلب قضاء حاجة أو يحكى حادثة وقعت له أو يصف شخصا التقى به - مثل هذه الخطابات تكشف عن خبايا كثيرة تفيد كاتب السير فائدة بالغة فى تشييد ترجمته لحياة الفنان الذى يكتب عنه وتعتبر خطابات فان جوج ثروة أدبية ضخمة ومصدرا رائعا لاستقاء الحقائق عن حياته فقد بلغت الخطابات المتبادلة بين فينسنت فان جوج وأخيه ثيو ستمائة وأثنى وخسين خطابا كما خلف فينسنت إحدى وعشرين خطابا أيضا الى صديقه أميل برينار ، وثمانية خطابات الى أمه ، وأربعة أخرى الى أخته ولهمينا والى جوجان وفان داباروجون روسيل . وقد استعان هنرى بيروشوف بهذه الثروة الضخمة من الرسائل فى تقصى حقيقة الفنان الكبير .

وإذا كانت هذه المراجع المطبوعة ذات أهمية قصوى بالنسبة للسير التي يكتبها هنرى بيروشوف ، طالما أنها تمدد بأسانيد جديده بميدة المدى ، إلا أن مرحلة البحث لا تنتهى بمجرد استهلالها بتقديم هذه المصادر المطبوعة . بل على العكس هناك بيروشوف أيضا يتجسس أقصى ما يمكن تجميعه من المراسلات ومعلومات غير مطبوعة تعاونه فى القضاء الضوء على هذه أو تلك من لحظات حياة الفنان أو المحيطين به ، ويتشعب عمله هذا فى شتى الاتجاهات . ولناخذ على سبيل المثال « حياة جوجان » نفضلا عما رواه لبيروشوف بول فور قبل ممانه من ذكرياته عن صديقه جوجان ، فقد أمكنه العثور على كثيرين آخرين ممن عرفوا الفنان معرفة شخصية وسمع منهم الكثير من ذكرياتهم عن الفنان الراحل .

وقد أمدده كثير من هواة اقتناء اللوحات وأفراد العائلات التي كانت على علاقة بجوجان بخطابات لم يسبق نشرها ، خطابات لجوجان ذاته ، وخطابات لأصدقائه تمسه بطريق مباشر . وقد كان بعض هذه الخطابات على غاية من الأهمية فىلقاء الضوء على جوانب خفية من حياة الفنان . كما كانت خطابات المصور شارل لافال الى مصور آخر هو فرديناند بيجود ذات فضل فى إثراء معلومات بيروشوف عن القومات الأساسية للمدة التي قضاها جوجان ولافال فى جزر المارتنيك عام ١٨٨٧ ،

المكان الذي عاش فيه جوجان وبلا ادنى تخبط او اضاءة للوقت ، ان يبدأ تحقيقا انتهى بإجماع الآراء الى نتائج مثمرة للغاية .

ولكن هل يعتبر حصر تفاصيل حياة الفنان وجمعها مدعمة بالاسانيد المستمدة من واقع حياته نهاية المطاف بالنسبة لكاتب السير ؟ كلا . ان جمع هذه التفاصيل وان كان امرا لا يستغنى عنه كاتب السير ، الا انه ليس سوى وسيلة الى رواية حياة الفنان والشرط اللازم ليشعر في الكتابة . صحيح ان كاتب السيرة يمكنه ان يقتنع بان يسرد التفاصيل التي اسفرت عنها تحرياته ، وان يضع بذلك مؤلفا ذا قيمة علمية او تاريخية غير منكورة . ولكنه لن يكون بذلك قد قدم عملا ادبيا . فلا يجب ان يقتنع كاتب السيرة ، في نظر بيروشو ، بإبداع المادة التاريخية في كتاب ، بل عليه ان يقدم للجمهور من واقع تحرياته عملا ادبيا . ان كاتب السيرة يجب ان يكون في النهاية قصاصا * او ان شئنا الدقة قصاصا من نوع خاص ، قصاصا من نوع امبيل زولا ومن على شاكلته ممن يعملون لكي يكتبوا رواياتهم الى استحقاق تفاصيلها من الواقع . ان كتابة السيرة كما يهيمه بيروشو يجب ان تكون عملا تشبيها يشو من خلال فصوله المرسومة بمهارة وواقعية بحتة ، نمو يدفع العمل الفني قدما الى النهاية . على اننا هنا ازاء مخاطرة ، فسادا كان القصص او الروائي حرا في ان ينظم على هواه العناصر المستقاة من الواقع ، فان كاتب السيرة سجين موضوعه ، ولا يجب ان يضطر بالخروج من سجنه . فهو لا يملك ان يغير شيئا من ظروف حياة من يكتب سيرته . وكل براعة كاتب السيرة تتركز في ان ينجح في التزام حدود المادة الواقعية التي جمعها ، والتغلب في الوقت ذاته على الصعاب التي تعرضه الواحدة تلو الاخرى بشكل لا يحس معه القاري بوجود تلك الصعاب ، مبررا سيرة الفنان كما لو كان يقرأ رواية ممتعة . او بعبارة اخرى ان تبدو السيرة امام عيني القارئ على غاية من البساطة والوضوح كما لو كانت مهمة الكاتب من اولها الى آخرها سهلة سهولة رائعة ، في حين انها سهلة سهولة خطيرة .

لهم سلسلة « الفن والقدر » ملفاتهم ، وكذلك لمئات الشخصيات الثانوية التي تدخل هذه السلسلة . وهي ملفات تتزايد وتتضخم تبعا لقراءات بيروشو ومقالاته ورحلاته وتنقيبه في بطون الاسابير الرسمية وغير الرسمية التي يتاح له الاطلاع عليها .

وتلعب المصادفة ولاشك دورا في جمع هذه الاستدلالات . ويروي بيروشو أحد مصادفاته الاخيرة فيقول (١) انه ذات ليلة اتصل به تليفونيا استاذ لم تكن له به معرفة سابقة ، وطلب منه بعض التفاصيل عن جان أفريل صديقة هنسري دي تولوز لوتريك . وتطرق الكلام مع محدثه الذي تسن انه على ثقافة ودراية بما يكتبه بيروشو ، فناقشه فيما افقه من سير لم سألته عن كتاباته التال فاخبره بيروشو انه بعد كتابته عن « حياة جوجان » يفكر في كتاب عن « حياة رينوار » واذ بمحدثه الذي ماكان يعرفه يدله على عنوان سيدة في حوزتها خطابات قيمة لرينوار .

واذا كانوا يقولون ان الحظ يسير جنباً الى جنب مع الاجتهاد ، فان الحظ في الواقع لا ياتي اعتباطا بل هو ياتي لمن انصرف ذهنه فعلا الى البحث في كل ما فمن المعروف ان التفاحات تسقط كل يوم من اشجارها آلاف المرات ، ولكن التفاحة التي وقعت على رأس نيوتن التي كانت مشغولة بفلف الجاذبية - تلك التفاحة هي التي نبهت الى اكتشاف قوانين الجاذبية الأرضية . ومن ثم كان من اللازم ان يقوم بيروشو بجمع استدلالاته بعناية قصوى . وعندما بدأ يشيد « حياة جوجان » قضى حوالى خمسة عشر يوما في اقليم بريثاني الذي عاش فيه جوجان . وقد عنى بيروشو عناية فائقة بترتيب برنامج هذه الرحلة . فمنذ بضعة أشهر سابقة عليها تعرف باثنين من الشبان كانا يهتمان بجوجان وبمصورى مدرسة « بونت أفين » فطلب منهما موافاته بقائمة كاملة بقدر الامكان عن أسماء الذين يمكنه ان يجمع عندهم معلومات عن جوجان في بونت أفين وبولندو وسائر بلدان اقليم بريثاني . ثم قام باخطار هؤلاء الاشخاص باعتزامه زيارتهم وحدد معهم مواعيد لمقابلتهم . وهكذا أمكن لبيروشو في ذات

(١) في مقائله سالمة الذكر بمجلة « كل فترات »

هي أنفاسه وزفراته وصرخاته وإبتساماته ودموعه وقهقهاته ، وبرسومه التي هي أحاسيسه وانطباعاته وغلجات نفسه وخطرات فكره ونزعته خياله . والحق أن ماتشته لنا سير بيروشو المرة تلو المرة هو ان الفهم الصحيح العميق والكامل لانتاج العباقرة لا يأتي ، كقاعدة عامة ، الا من خلال ربط فهم بحياتهم ربطا صادقا واعيا . ولقد قال الاديب الانجليزى اوسكار وايلد ذات مرة انه وضع عبقرته في حياته بينما كتب ادينا العربى توفيق الحكيم في مقدمة احد كتبه انه وضع عبقرته في كتبه لا في حياته . والواقع ان سير بيروشو لا تعترف بذلك الذى قاله وايلد ولا بذلك الذى قاله الحكيم ، بل تؤكد ان عبقرية فان جوج وجوجان ومانيه مثلا انما هي في حياتهم كما هي في لوحاتهم . ولقد عني بيروشو بأن ينتبج لوحات فنانيه ورسومهم ويضعها في موشعها الصحيح من حياتهم ويربطها ربطا محكما باحداثها ، مبينا بدقة السنة واليوم التي تسخت عنها فيه عبقرية اصحابها ، ويعرض لنا ما كان يعتقده فيها خالقوها وقت ان ابدعوه ، وما كان يعتقده فيها ايضا رفاقهم واصحابهم وخصومهم وقت ان راوها . وعندما نقرا في تلك السير مالتيته لوحات أولئك العباقرة في حياتهم من عنت وتسفيه واستخفاف ، وتبئين ماتحققه في نفوسنا نحن أبناء الاجيال اللاحقة من متعة وسعادة تلك اللوحات ذاتها التي لقيت مالتيته من ازدراء وتحقير في حياة اصحابها - عندما نقرا وتبين ذلك لابد ان تكسو شفاهنا ابتسامة مريرة ، ونذكر قول السيد المسيح بين يدي معذبيه : ربى اغفر لهم ، انهم لا يعرفون !

ولعل من امتع واجمل واصدق ما يمكننا ان نقرا من وصف للوحة من اللوحات خلال حياة مصورها ذلك الوصف الرائع الذى وصف به بيروشو لوحة فان جوج التي صور فيها بين جلدان غرقته في مصححة سان ريمى وجهه للمرة الأخيرة (١) .

ويقول بيروشو في مقدمته القصيرة لحياة سيزان (١) انه لم يفعل سوى ان جمع كل ما يمكن اليوم جمعه من معلومات عن پول سيزان ، ورتبها ، وقابل بينها ليميز الفث من الثمين ، ثم زاد الاماكن التي عاش فيها الفنان ، وعاین عن كتب الأجواء التي سبحت فيها روحه ، وتأمّل المناسطر والأشياء التي وقعت عليها عيناه وسجلتها عبقرته في لوحات تعتبر من أعز ما قدمه فنان الى بنى جنسه .

واستطرد بيروشو في مقدمته القصيرة تلك الى ان شخصية سيزان لاندع احدا يقترب منها ويفهمها بسهولة ويسر ، فلقد كان انسانا غامضا تكتنفه الاسرار ، وأولئك الذين عرفوه صوروا لنا شخصيته تصويرا لا يخلو من التناقض على ان هذا التناقض وان كان يشكل صعوبة كبيرة امام كاتب السير ، الا انه مصدر متعة كبيرة له ايضا ، عندما يتوصل في زحمة الأقوال المتضاربة الى ان يتبين وجه الحق والصواب ، وأن يتخذ في خضم الاحتمالات المعقدة موقفا مطمئن اليه ، ويؤسس عليه بناء لحياة الفنان .



ويقول بيروشو انه حاول ازاء ما كتبت شخصية سيزان من فموض ان يولى عناية أكبر تلك الاحداث الصغيرة التي قد تبدو مرضية وسطحية في حياة الفنان عند الوهلة الأولى ليستخلص منها الخط الرقيق المتين الذي تتعلق به حياة الفنان . فالواقع ان العناية بتلك الاحداث الصغيرة التي قد لا تسترعى انتباه كاتب عجول ، ومحاولة ابرازها وايضاها قدرها الحق في اطار السيرة - العناية بتلك الاحداث على غاية من الأهمية لان الخط الحقيقي الذي تسير فيه حياة الفنان الحقيقية بكل ماساتها ودوعتها يختفى خلفها .

وطالما يتابع بيروشو حياة الفنان الذى يكتب سيرته خطوة خطوة ، فلا بد انه يلتقي بلوحاته التي

(١) راجع صفحة ٤١٢ وما بعدها من « حياة فان جوج » لبيروشو . الطبعة سائلة الذكر .

(١) طبعة « كتاب الجيب » الصادر عن دار هاشيت - العددان ٤٨٧ و ٤٨٨

الجسد الممزق في صراعه ضد الموت وتلك الروح المرتجة في فراها من ظلمة الليل . ويجب أن يحيا مع جوجان في حلمه الكبير الذي دفعه الى دروب بعيدة ، وقاده من سراب الى سراب بحثا من جنسة عدن ، حتى وصل الى جزر الماريكيز حيث وجد مند أولئك الماوريين البدائيين ذوي الوشم والصادات الفطرية بعض حلمه الكبير .

ونعود الى مطلب بيروشو الأول ، وهو أن يربح النقاب عن حياة انسان في تلك الروعة التي يتغرد بها مصيره ، أجل ، هذا هو هدفه ، والباعث له على كتابة كل تلك السير التي كتبها والتي يجمع كتابتها . ان في الحياة الكبيرة على الدوام أصعب القدر ، ولن يكون تشييد هذه الحياة الكبيرة من جديد بدقائقها وتفصيلها وسير اغوار المواقف وارتباطها ببعضها ، وتحليل الاسباب النفسية التي أملت على رجل ما تصرفاته - لن يكون كل هذا شيئا ذا بال مالم يكن الهدف وضعا في النهاية ازاء فردية قوية في التحامها مع القدر . ولماذا نعد الى الاخفاء ؟ ان الجهد الضخم في السجيم والترتيب والتحليل الذي تقتضيه كتابة السيرة يتم عبثا لو لم يكن الهدف منه في النهاية ترجمة دقائق السيرة الى لغة القدر .

ان هنري بيروشو في كل من تراجمه يروي لعبة القدر مع ابن من أبناء العبقريّة . والقدر هو المتزعم للعبة على الدوام ، والقدر المجهول ذو الالف وجه هو البطل الحقيقي . ومن سيرة الى سيرة لايفصل بيروشو سوى أن يقص حكاية هي على الدوام واحدة ومختلفة في الآن ذاته - حكاية رجل في سجاله مع القدر . ولن يكون لكتابة السير اى معنى لو لم تفتح آفاقا أبعد من مجرد أحداث الحياة المروية ، آفاقا تطل على الغار المصير الانساني .

« من أين تأتي ؟ من نحن ؟ الى أين نذهب ؟ » هذه الاسئلة الثلاثة التي اتخذها جوجان عنوانا للوحته الكبيرة التي يمكن اعتبارها قمة رواثه - هذه الاسئلة الثلاثة هي المحور الذي تدور حولها كل حياة . وهذه الاسئلة الثلاثة ذاتها يجب أن تكون محور كل سيرة تكتب ! .

وفي هذه اللوحة الخالدة التي تزين اليوم أحد متاحف باريس كشف فان جوج عن سره الحقيقي . فالوجه الذي أحاطته لحيه شعته يعبر عما في اعماقه من رعب هائل واصرار عنيد . انه وجه رجل عائد من الجحيم بعد أن انتصر عليه . ولكنه يعرف ان الارض لن تلبث أن تشق تحت قدميه في ايسة لحظة لتبتلع النيران من جديد . انه وجه رجل تلظظ تغارده السنة اللهيبي ، وقد نزلت دماؤه من حرقه حتى الموت . ولكنه لا يستسلم . نظرة العين تفضاة صارمة والفم مزوم في وحشية ، راسخ بين ثنايا اللحية الخشنة الحمراء والوجه شقي متوتر صلب ينم عن عزيمة ثابتة . وكل لحظة أودعتها فرشاة فان جوج ذلك الوجه تصرخ معلنة في حرقه عن بشاعة المعركة التي تدور في اعماقه وهولها .

ويتساءل بيروشو على الدوام لماذا لاتحقق سيرة من السير ماتحققه رواية لفلوير أو زولا مثلا تتصف بالواقعية والقوة ؟ ولاتصور بيروشو كاتب سير لا يكون لديه حب استطلاع لا يهدأ له قرار ولا يكون مفعما بالرغبة في ان يعرف بكل ما في كلمة المعرفة من معنى ، وفي ان يفسر السلوك الذي لا يتجلى ؟ وان يحب الحياة بكل ما في عاطفته من قوة . ان كاتب السيرة كالتصاص يجب ان يكون باعنا للحياة في التفاصيل ، حتى المتناهية منها في الصغر فيجب أن يبين كاتب السيرة للقارئ كيف انبسطت تلك المصائر الكبيرة التي يروي دقائقها في الزمان والمكان والوسط الذي انبسط فيه . فيتابع مثلا الطفل سيزان بسترته الزرقاء وهو يلهو بين يامة الخيول في ساحة ميرابو ، ويدخل مع لوتريك الى ملهى الطاحونة الحمراء ، ويرقب بعيني ذلك القزم الموهوب المحطم المنحصر خطوات الرافصات الرشيقة وحركات البهلوانات المبرنة . ويجب عليه وقد وصل الى الفصل الاخير من حياة فان جوج ان يحيا معه مأساة تلك الايام القاسية ولحظات الجنون الذي كان يكسح عقله ، ثم لحظات الصحو الذي تشبه السكون الذي يخيم على الخراب بعد العاصفة الهوجاء . وأن يكون هناك في قلب اعنف شقاء عرفه انسان ، وان يحيا حياة ذلك



بقلم: محيي الدين محمد

لا شك في أن الشعر العربي الحديث ، فز في هذه السنوات العشر أكثر مما كان مقدراً له أن يفز ، فقد كان خطوه البطيء يعني أن عليه أن يمر خلال التجارب الذاتية لآلاف شسلس على الأقل ، وخلال الوعي الدائم لكل ما تقدمه أوروبا من تصيغات والمفاهيم ، ليستطيع أن يقدم شيئاً بارزاً .. وهكذا كان يشي الشعر العربي عند طمران والقناد وسواحها .

وكان أي نصيب ، معناه أن يقسده الشعر العربي كثيراً من ملامحه ، ويتسبب قليلاً قليلاً ، هذه السمة الحديثة للشعر الإنجليزي أو الفرنسي ..

وفي لغوة هذا الانتقال المفاجيء ، ظل بعض الشعراء أن يرحمة الشكل الحديث للقصيدة الإنجليزية مثلاً ، سوف يسهم في إغناء القالب العربي ولطواره ، وولعت هذه الحركة في مزالق خطيرة ، حين ترجم صلاح عبد الصبور مثلاً ، من ت. س. اليوت ، بعض مفاطم من « الرجال الجرب » و « الأرض الخراب » وأوردما في نص قصيدته « رحلة في الليل » ، وكانت الاستعارة غير متفارة تماماً ، لأن مجالها ذهني للغاية .. وترجم السياب كذلك بعض الفترات الترنيمية لقصيدة اليوت

"Busbook with a haadeekes Bleistein with a cigar"
بدون أن يدرك الجو النفسي للقصيدة الأوروبية في « مربية جيكور » ، فاحسبنا ، على الرغم من جمال الانتقال ، بغربة التجربة ، واجتبيها .

دفعت هذه النقلة أيضاً بعض الشعراء إلى الاستعانة بنفس المصادر التي يستعين بها بعض الشعراء الأوروبيين ، ممن يؤكثون على جهود الحضارة ، وداريتها ، في اقتناهم بتغير الشكل الخارجي فقط للحضارة ، في حين يظل المحتوى الأصلي لها ثاباً ، كآزرا يابوت ، وت. س. اليوت ، فالشاعران يعتمدان بالأنثروبولوجيا الحضارية من حيث نتائجها الثابتة ، ويهتمان بالأسطورة وبالرمز ، ويستعينان بؤلف السير جيمس ج. فريرز (الفصح الذهني) The Golden Bough ، ويعبى كتب الأساطير الهندية كآراماياتها وأنهاياراتها ، وكتب التصوف القديمة كالأباجاديش والاباجاداكيتا ، فضلاً عن التراث الشعري الإنجليزي ، كعمال شكسبير ومكثوب وداريدن .. وكل شعراء اللامح . الشاعران يهتمان بكل هذه الأصول ، على أساس طرح

المحتوى الأسطوري ، والاسميكة بالدافع الرمزي من وراء الاستعارة ، أي أنهما يجردان الأسطورة من أسطوريتها ، وينسكان برعش اللحم الرمزي ، وركيبه مرة أخرى في صورة نظمهما تماماً ، وتقدم بالتآل غرض القصيدة ، كما خدم الما ، المقدس ، فكرة الطهارة في الأرض الغراب ..

ولقد فستين بعض شعرائنا بالنتائج النهائية التي وصل إليها هذا الشعراء ، ولم يستعينا بالوصول التي يمكن أن توصل إلى نتائج مماثلة ، إلا أن للأسطورة ، في شكلها الجامد ، أكثر من وجه القرائي يسعح أن نفهم به ، فقد استخدم بعض الشعراء العرب محتوى (الأرض الغراب) الغامض ، وهو أن الإنسان الحديث جاف وناسب ، ولا شيء حقيقي سوى أطراح مشاكل الجسد البشري ، والعودة إلى روحانية الكاتوليكية ، ولم يلاحقوا أن الجو النفسي والحضاري في شرقنا بعيد عن أن يتسجم مع التفل الحرقي للمشاكل الحضارية في الغرب .. وقد ظن بعض النقاد أن ترجمة هذه النتائج إلى لغتنا العربية ، له معنى واحد ، هو فطر هؤلاء الشعراء ، وفلة معارفهم وثقافتهم ، بل مستجبتهم يد أن الإم على خلاف ذلك تماماً ، لقد كان هناك تالي كبير من شعرائنا للشعراء الغربيين .

وهكذا استمر تيار كبير من الخطأ - الحسن النية - بجوس في شعرا ، ويالك أصالتنا ونقاوتنا ، وصمدنا بيروميثيوس وسيزيف وتموز ومشتار - مصوخن في معظم القصائد العربية ، حيث وضعوا فقط كلافات لغرض المصطلات الثقافية ، بدون أن تكون هناك تجربة أصيلة تربط الاسم المذكور ، بعنسايا القصيدة .. وأئن لقد كان هناك نوع من الارتجال والتسلط في هذا الانتقال المفاجيء الذي حدث لشعرا العربي المعاصر ، وهذا لا يعني أن الحركة الحديثة كلها موضوعة بهذا الخاتم ، إذ نفل هناك عشرات من القصائد الكبيرة المستوى ، تعيش في وجدانها ، وتبقى ملاحنا ، وتشي بالرؤية العربية الأرض والناس والعلافات .. أثر شعراء هذه الحقبة كالبياتي والسياب وازاد وصلاح عبد الصبور ، بقراءتهم التساوية للشعر الإنجليزي الحديث ، في روح القصيدة ، والزمو صفار الشعراء الآخرين بالفوضى في النبع ذاته ، إلى درجة أن ملاحظاً خارجياً يستطيع بقيل من الصبر واللمرية أن يرد بعض شعرائنا الحديث إلى

الشعر الإنجليزي الحديث ، بل الى شعر ت . س . اليوت بالذات .

وما دمتا نحرس ديوان السياب الآن ، فاحرى بنا ، أن نبحثه أمثلة ، يدل أن نستعين من مصادر قد تكون بعيدة عن يد القارئ العربي ، ففي القصيدة الطويلة (التوسيع المعيا) ، يستخدم السياب ، هذه الأساليب الأسطورية القريبة على التوالي (ميوزا) . أوديب ، جولست ، الفرديت ، فلاوست ، هيلين ، أبولو) ، وكذلك يستخدم في (جيكور والمدنية) هذه الأساليب (هيرال) هومر ، عشتار ، غنثيد ، أليس . . ولم تفلح هذه الأساليب في إغناء التجربة - حتى لو كان القارئ العربي مدركا للصلة بين الاسم ومحتوى الأبيات ، وهذا القارئ غير معقول - ولا في توصيلها ، والآثر الوحيد الذي تركته هو زيادة البلبلة ، وتزاد الفرصة للاستنتاجات غير الدقيقة ، وزيادة توتر القارئ ، بدون داع . . وبالطبع ، ليست إضافة الأساطير الى القصائد بديعة جديدة ، انمساها في نشاط قديم ، استعملته الكلاسيكيون والرومانتيكيون الذين فطنوا الى الرباط بين الشعر والشعر والغرافة . . ويؤخذ على شعرنا أنهم تجنبوا معاناة الثقافة ، وسعدوا بالنتائج . وفي ذلك تطور القصيدة الشعبية في المولودكور ، من حيث صلتها بالأساطير الشعبية وبالتالي عمومها ، على القصيدة الحديثة ، المتمثلة استمارات أوروبية . . لأن الإخلاص للسان العربي في القصيدة الشعبية ، عمل تلقائي لايتزم لصفا ودفعة وتسجيلا كما يفعل الشعراء الممثلون الذين يغشون من الفرجية عواطفهم ، فيحاولون - ذهنيا - تعريب وجدانهم ، وفي النهاية يطرح الجنب شائها ، ومولدا . . لاحقا هذه الفقرة من (الموسع المعيا) :

من هؤلاء المايرون ؟

أحدان (أوديب) الضرب ووارثه المبهرون .

(حوكست) أرملة كاس ، وباب (طيبة) ما ران بلقي أبو

النور) الرهيب عليه ، من رعب ظلال . .

حين يلجأ الشاعر الى استعادة كلمة لا يرد أن يدخل في حسابها لقافة القارئ العربي ووعيها أولا ، والرافعة القيسولوجية بين الأسطورة والمحتوى لائقا ، وإذا لم يكن طراد المصنمان في أدراكه الشاعر ، بهت الرباط المفترض الذي يجمع القارئ به ، بل والصحي العمل الفني متوقفا مغلقا ، لا يملك محتاجه إلا الشاعر وحسب ، وما أظن الشاعر يرحب بذلك أو يرى به .

واعتادني ان السياب قد تخلق من هذه الرحلة الابتدائية ، في تعسكه الأخير بفكرة البعث ، أي العياة من خلال الجسد ، من خلال الضميمة ، والبلبل والمطارد ، من خلال التجدد ، ومن خلال اللون والملمس . . وهذه رؤية شريفة أصيلة ، لم يعرفها القريب إلا بعد أن أصبح مسيحيا ، بل أنها رؤية فرعونية ، أدركتها الحضارة المصرية القديمة ، وأدركتها بعد ذلك الحضارات الأخرى على دالات الانهيار الكبرى ، كالحضارة البابلية وحضارة نهر الكنج ، وإكباتنجي ، ونقلها اليونانيون ، بين ما نقلوا من أفكار وتمايلات ، عادت اليها مرة أخرى في أفكار مدرسة الاسكتيرية ولفسفتها . .

وها نحن الآن نستعيد من الغرب ، الرؤية ذاتها التي سرقنا منها ، تماما كما كانوا يفعلون عندما يسرقون الفطن العربي ، وينزلونه في لكشايار ، ثم يعيدونه اليها بسحر مضاعف . .

الشعر العربي الحديث في هذه التجربة التي تحتوي أخطاء ومزالق ، يختلف عن الشعر العربي القديم في مصدر الإدهار واضطائه ، بل أن بعض التوسيع في شعرنا الحديث ، بفضل بعض الجيد في أذهن المصور القديمة ، وذلك لأن الشاعر القديم ، كما مصطلحيا ، يمتنى أن قاينه المردة لا تفكر إلا من خلال مناقشة ما هو عام ، فحين يشاهد هذا الشاعر أن يتكلم عن وحدته وساقوته ، فإنه يستخدم لذلك نفس الهيكل الذي استخدمه السابقون له ، إذ كان كل تجديد ، وعلائقها في اللغة ورايه سوى الهمم . وعلى ذلك فقد احتشد التراث العربي بفضائل متعائلة تعكس ، كما تحكي كل واحدة ، عن الإقلال وعن القبول والموافق ، أو على الأقل تستخدم هذه الاصطلاحات

مطية للبريدة والقافية . .

وهذا الاختلاف بين الشعر العربي الحديث والقديم ليس أسبابه الحاجة الى هيكل جديد للتعبير ، يكرس من حسنة الالتزام السطحي بالقافية الواحدة ، ونظام الشطر الواحد ، بل هو التحول الذي أحدثه التطور الاجتماعي والاقتصادي والنمسي ، وقد دبت هذه الحاجة ، الشراء الى الاستزادة من حصيلتهم الثقافية ، ودمتهم الى كتابة شعر يتخذ الشكل الأدبي ، وينتج نهجه ، وبعد عشر سنوات من التجربة والفحص والتنقيح بوقت أيضا قصائد عربية الى لغتها ، مشدودة الى تورتنا ونفسيتنا وروحنا . .

إن مرحلة الوعي التي يمر بها العربي المعاصر في كافة مجالات حياته ، أعطته الحق في أن يغير كافة ما يراه تقليديا ومعاسيا تطوره . فلماذا لا يتغير شكلنا إذا كانت حياتنا تتغير ، نتأثر هذا الوعي ، ويتأثر التطور العظيم الذي حدث في أرضنا ؟ وإذا كان التحول الفكري تابع بطيء للتحول المجتمعي ، فهل هناك أقل من الثورة التقنية كما يتحقق هذا الشكل العظيم من الأحياء الضماني ؟

الظواهر الأساسية :

الشكل : إن المحتوى الواحداني والذهني للقصيدة ، يستدعي في الغالب شكلها ، وعلى ذلك فإن تطور الرؤية عند السياب ، هو الدفاع الأصلي لتطور الشكل متنده ، وهذا يظهر أصالة الشديدة ، يكسب بطي الشعراء الآخرين من فائدي الأصالة ، والذين يطوعون التجربة الفاصلة لمجي أنوار الشكل الجديد ، فتسبب التجربة ، ويشوه الشكل . .

استخدام السياب معظم الأساليب الأوروبية في التقفية ، والبناء ، والتزعم الداخلي ، على مستويات متباعدة ، توسع مراحل تطوره .

ففي التطور الأول ، نرى - حتى من خلال التجربة - بجفاف الشاعر ، وشدة بروز الصور وتجنسها ، مما يعطي للتجربة أهمية لاقوية ، وتختلف أيضا منتهي الحاج الشاعر على الموضوع ، الى درجة أن الاختلافات تحول الى منطق ذهني ، وينتج ذلك في (الموسع المعيا) :

١ - ويح الرمال : أكان عدلا ليه أنك تدلفين سهاد مقلتنا

السر

نفسا لم يدرك زيتا من منايه الغزيرة ؟

٢ - كانت تقرب من بصيرة قلبها صورا علاها

سدا المدينة وهي حرد في القرار من مهادا :

كل الرمال ؟ وأهل قريتها ؟ أنسوا طيبين ؟

كانوا حياها - مثلها هي أو أبيها - بالسين ،

مثلها - وهم الرجال - ومثل الآف النسايا

بالخير والظلم يترجون ، والمجدد المهن

هو كل ما يتمكنون ، هم الخطاء بلا خطايا

وهم السكارى بالشرب ك هؤلاء المايرون

في السكاري بالمشور . . هؤلاء الفارين بلا نجور .

فإذا لاحقا أن (التجربة) في بساطتها ، هي تجربة يفي

عياه ، لا يقربها الرجال ، بالترجم من جمال جسدها ، وجدنا

أن القصيدة الأولى والتي من حدود هذه التجربة الصغيرة ،

ووجدنا أن كثيرا ما جاء فيها يعتبر دخيلا ، وإدعاء حكماء ،

ومجرد رارة ، وذلك لأن التجربة لم تنته في وجدان الشاعر ،

حيث لم تبدأ ، فالتحتوي الأساسي للقصيدة لا يزيد عما ذكرناه ،

وان احتشدت بالتأملات والملاحظات ، وسبب المجتمع - من هنا

أختلت الدراما في هذه القصيدة بالذات - بشكل مسالاج

وواضح ، الى أن درجة كل شيء مطكور ولم ينس أو يتسوك

الغصة والتأمل . السبب والهمزة ، لم الدعوة . .

وتس بالأسف العظيم لنفسها : لم تسبح ؟

البر تان على الأريكة قريبا . لم تسبح ؟

شيمان ألقى ، وهي حالة ثم من الرماح

أسعاد تقيمة السكارى في الأتة ، والنتاج .

وقد زادت القافية الكلاسيكية برغم شكلها الحر من عدم

احساس القارئ بالفجوة ، وعدم ارتباطه بنفسية هذه البيي ،

بل يعيدارته المطلقة تجاه ما قلته الشاعر تراجميدي للغة في ،
والذهنية بارزة بشدة في هذه القصيدة ؟ كما لو كنا في محادثة
فلسفية ، فلا أتأمل وجداني ، ولا الشاعر يستخدم الصور ،
بدل هذا الإجمال في إبداع الحكمة ، وفلسفة الوضع الاجتماعي
بكله ، وهذا العيب الذي يتضح في بدايات السياب ، عيب
تقليدي وموروث ، لتصبح فيه القصيدة في المطلق ، كما شاع
شلي وكينيس وإفرومانكيون ، والتعبد المركز الذي نجاهه الآن
في قصائد الشاعر الحديثة ، والذي يفتنه بعددا شاكيا ، ليس
الآن طوراً كبيراً سوف ندرسه في مكانه .. في (الأسلحة والأطفال)
والأطفال) تسبح العمومية ، والسوفية ، كما تبرز بصليات من
الأسلحة .

سرى دائما من مروق العصور
وأرسل عاتبا المجد
يسمى بأشواقها الماتية
التي : إلى القمة العالية ..
إلى أن يمل الردى بالحياء
وتلفد أجبالها الآتية ..
وما ... من :
لن كل هذا الرصاص ؟
لأطفال كوربه البائسين ؟
وعمال مرسيليا البائمين ؟
وأبناء بغداد والأخوين ... (III)

والسوفية هنا ، راجعة إلى التزام الشاعر القديم بالمركسية ،
حيث شاء في وجدانه كل شيء ، ما عدا الإدراك السبلي الذي
يحفظ له عواطفه ، وما عدا نوعية الشعر الذي تفتقره هذه
النظرة ، وتلفظ به على شعرائها ، إلى درجة دفعها لزينين
ومايكوفسكي - أنقى الشعراء الروس - إلى الانتحار .
والد استودت هذه الحركة - التي خدمت أركان الشعر
العربي - مدة في قصيدة ، لم تسحب نهائيا ، لأن القناريه
العربي أصابه الفتيان من الترويد العصبي لغذوات (السلام
التشيلية . الكلاخ . الضلم ، بل « ديان بيان فو » أيضا) ،
الشكل الجديد في الشعر الثاني الذي يستخدمه السياب ،
هو (البيتي) قبل كل شيء ، وأبرز مثال على ذلك هو (رؤيا
في عام ١٩٤٦) :

حطت الرؤيا على عيني سقرا من لبيب
أنها تنقش ، تحت السواد
تقطع الأصابع تنص القلى من كل
جنح فالعبيب
عاد منها لوما للصبح - أثار المداد
ليس تطفى غله الرؤيا : مسخاري من نجيب
من جهور تلفت الإلهام ، مل جاء المداد ؟
أهو يمت ؟ أهو موت ؟ أهي نار أم رمد ؟
أبها الصقر الآلهي الفريب .

وهي اقتراب - شاكيا - من (لوحة سيدة) للشاعر الإنجليزي
ت. س. اليوت ، حيث يعمد الشاعر إلى استخدام القافية على
نحو جديد (١ - ٢ - ٣ - ٤ - ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ١ - ٢ - ٣ - ٤)
ولا يتجسد بالشكل الإبياني المورث ، مما ألقى هذه القصيدة ،
والقصائد الجديدة الأخرى وأعطى التجربة فيها ، بنية تلقائية ،
نحس بكتفاتها وزخما ، بينما تتراوح الموسيقى الداخلية
والميلانية ، بين أزمته الإبيات ، فتعطينا توفيق الحركة ، وعطائيه
السكون ، كما تعطينا حدود التجربة من خارجها ، وتلقى تمدد
الماكليات ، في هذا التركيز القاطع الذي تتمتع به الإبيات .
من عيوب المرحلة الأولى - هذا الإرتباط الانطوي ، أي
القصود تماما ، بالتراث الأجنبي ، والشاعر يتمسك بالقطاع
بعض الإبيات من الشعراء الآخرين ، لأنه أرتبط بنظرية اليوت في
الثوروت والإبداع ، أرتباط ميكانيكيا ، إلى درجة أنه يستعير
إبياتا من أديمت سينويل وشيكسبير في (الأسلحة والأطفال)
وبعضا من فلوست في (اللوس الضياء) ومن سينويل مرة أخرى
يستعير إبياتا ستة في قصيدته : من رؤيا فوكاي . وإذا
اعتبرنا بأن اليوت قد وضع في نهاية (الأرض الخراب) ملحقا

دون فيه مصادر الاستعارات ، فلنا تحكم للوهلة الأولى بأن
السياب كان على حق حين أسند استعارته للوهوش الكاريجيه
وهذا خطأ محض ، إذ أن استعارات اللوهوش الأصلية - أي
المعوية - غير واردة إطلاقا في الملحق ، أو في الوهوش ، فهي
قصيدته Sweeny among the nightingales فقرة صغيرة
هي :
Tears at the grapes (with murdered paws)
استوفنتني ، لأنني كنت مررت بتعبير شقيق لهذا ، وبالعقل ،
وجدت النص في مسرحية مارلو الشعرية Dido ونص
الفترة (paw) (in their murdering paw) With balisof
وفي الأرض الخراب أيضا في نشيد (دور الشطرنج) لاحقت
أن Syvan Scene مذكورة في الملحق على أنها من
(الفردوس للفسود) لملتون ، غير أنني وجدتها أيضا في
All for love لعرايين ، وفي خاتمة (دور الشطرنج)
لم يذكر شيء في الملحق من هذا الشطر :
Goodnightladies
الفترة (paw) (in their murdering paw) With balisof
في حين هو واضح تماما ، أنه مأخوذ بالنص من (أوقيليا) في
هاملت تشيكسبير .

وهناك كثير من هذه الشواهد التي تدلل على أن الاستعارة
لا يجب أن تكون نشية مطلقا ، وهناك ملاحظة هامة ، هي أن
الشاعر لا يستعير شيئا أجنبيا إلا : أولا : لشدة اهويته بالنسبة
للتجربة إلى درجة أن الشاعر يعجز عن ابتكار مشابه . ثانيا :
لأن عالية التجربة والتراث والقصيدة تعتم عليه أن يستخلص
من هنا وهناك هذا العمم الإنساني اللامع .
غير أن استعارات السياب تطلع نهائيا من هذين الافتراضين ،
وتتأكل كل استعارة منفصلة من لحم القصيدة ، ووجودها وحدها
تماما ، يعزل من التجربة ، وهذا يدل على أن الاستعارة سببية
مجرد إغناء القصيدة بالرؤى الأخرى ، وزيادة أواصر القناريه
عمومية التجربة وعاطبيتها ، رغم أن التجسسية في العاطلية
لأتملك من ملجأ العاطية والأصانية لا قدره شيئا للغة . ولابد
أن نلاحظ أن شكل هذه الاستعارة يقلل على الغوام ذهنيها
مجردا .

(موعنة ملاي) هي إحدى القصائد النادرة في شعرنا
الحديث والتي تتمتع بمحتوى شديد التركيز وشديد الملانة
الشكل الجدد تماما ، فما من كلمة غائصة في بحر لطيف
والجديد .. ما من كلمة زائدة ، فكل لفظة تخدم الغرض تماما ،
وكل حرف موجود لكي يوصل حنانا أو سطحا أو صباة .. بل
أنها تصلح بفيل من التنظيم ، حلاية أسطورية صغيرة ، ندرج
لأتملك من ملجأ العاطية والأصانية لا قدره شيئا للغة . ولابد
أن نلاحظ أن شكل هذه الاستعارة يقلل على الغوام ذهنيها
مجردا .

مدينتنا تروق ليها نار بلا لبيب
نعم دحوبا والدور ، من تزلزل حماما
ويصغها الغروب بكل ما حملته من سحب
فترسها على تلير شرارة ويهب موما
ويهب هذا التلير أنه يفرقي وفي القاري ، ولقائه ودكاه ،
فيل أن يفرقي أرتباطه الوجداني ، لأن الذهنية هنا توصل إلى
الانفعالات ، أي أن القصيدة لا تمنح سطحا وإسارها إلا في
لحظة اكتشاف الحقائق ، وتكشف الستر ..
في هذه اللحظة يفتأ الوجدان بهذا العالم العظيم الذي
تكشف فجأة من أعماق وأخيلة ورؤى وإحساسات محببة كان
يغلفها هذا الجدار الخلف من المعلومات والحقائق والطرافة
وعشرات العوامل الأخرى ؟ من هذه الناحية بالذات ، يفسر
القاريه في بعض هذه القصائد أن يتوقف قليلا لكي يلم الشتات
الحقيقي ، ويكتشف معلوماته ، ويصغر التذلل أيضا - قبل أن يفتح
فمه - أن يعرف أولا حدود القصيدة العقلية ، وهكذا كان على
هذا اللون من القصائد أن يشدد على الفكرة ، أكثر مما يشدد
على التجربة الوجدانية .
أما مرحلة السياب الثالثة من حيث الشكل فتبرز في

مجموعة (جيور والمدنية) ، حيث انطلقت مدلولات الاسطورة القديمة ، واخذت تبرز من الظلمات وحدة اخرى غير وحيدة الدلالة في الغرافة ، وهي وحدة الرمز ، بمعنى احالة شيء الى آخر ، ولعل الوصول السليم الذي كان سائدا في العراق قبل لوردة الاخيرة مسئول تماما عن هذا التحول الشكلي الذي يؤرخه السياب في مرحلته الثالثة ، فلذا لم يستطع ان يقول شيئا بوضوح فانه يظلعه هكذا :

من ينزل الصلوب من لوحه ؟
من يطرد العلبان من جرحه ؟
من يرفع الظلماء من مسبحه ؟
ويبدل الاسودك بالقران ؟
اواه يا جيور لو تسمعهم !
اواه يا جيور .. لو توجدين !
لو تجبين الروح ، لو تجفين
كي يبرر الساري
نجما يجره النيل للناثين .

وان في هذه المرحلة تنتهي تحكم السياب البنائي والوسيمي ، والرسوخ الهيكلي للقصائد :

جيكور : يا جيكور : اين الشير والماء ؟
الليل والى وقد نام الاله ؟
والركب سهران في جوع ومن مشى
والربيع سر ، وكل الالف اصداه ..
يبداه ما في مداها ما بين به
درب لنا ، وساء الليل عيابه .
جيكور مدى لنا بابا لشدخله
او سامرنا بنجم فيه اشواه ..

هذه المرحلة الساحرة اوما يلقى عليه بالانجليزية Iacobination بدليل مقصود من الرؤية اللحظية في المرحلة الثانية ، وهو يدل صولي ، ويتم بالاتجاه القصبي في البداية ، أي يستعمل ابتداء صولي ، من حالة الضعف النفسية ، اول مراحل الانفعال ، والارتباط بالبناء العام للقصيدة .. وحالة الضعف هذه مؤقته لقائية ، أي مؤقوتة بطلاس القارئ ، من شبابه النفسية والاثوب ، والصور ، والنفعية ، ولذلك يبقى الغزى عند السياب ، كامنا ومستورا ، الى ان يبدأ التذوق لفرادة الثانية ، منحيا عنه حاسته الموسيقية ، وتعتصم بعواطفه وحسب .

لقد تطور الشكل عند السياب مرات لثلاثا ، وذلك لان المحتوى قد تطور قبل ذلك ، بعدد مرات التطور الشكلي ، ولعلنا ان يقل السياب في تطوره الى ان يتكشف قالبا جديدا ، من خلال اكتشافه للانسان العربي الاصيل : موافقه واخواته وسعاداته .. المرسية : في المرحلة الاولى وخاصة في (الويس العيابه) نلاحظ نفعية كائناتية ، فيها التمشوع والتكرار واختيار الفن العمود الذي ينتهي بتأليه متوالية :

والاميات بلدت للند بيسمون
لم يبق من حجر علبا ، فبحر ربح او خيال
وادار من سطع البلاط رحي ، وساط من البطون ..

ومن (الاسلحة والاطفال) :

أرى القواعت التي تصف
- سيد المدى - والظلي ، والشمس .
ويهل كالغيث ، ملء الفضاء ..
رصاص وتار : ووجه السماء
موسى لما اصطلك فيه الحديد .
حديد وتار : حديد وتار ..

وهذه الطريقة الهندسية لتفريغ ان يكون القارئ شامدا للامبالاة حتى تبرز كل هذا الصليل والجمجمة ، والشمع الموسيقي ، وشدة انزياحه . وللتلحاح ان السياب في هذه المرحلة ظل انشائيا ، ولم يتم بما يسميه الموسيقون (الجلودية) أي اللحنية ، لان شدة التوافق الاحساسى في بدايات أي شاعر ، طمس لا محالة كل هدوء نفسي .
وهذه الطريقة الترتيبية سوف تظل الى مدة طويلة بالية في

شعر السياب لان سبب بروزها ليس شكليا معنصا ، بل انه نفس ومن ناحية اخرى يترب هذا الشكل من الوصف والارشاد ، وربط كل شيء بالمرحلة الاجتماعية وبالوضع ، فكل شيء محدد وراجع الى اصوله واسبابه .. اما في قصائده المتأخرة ، فنظير الترتيبية ، بشكل علوي ، وغير متكلف ، وان كانت اقل حدة من القصائد الاولى ، ولعل ذلك راجع الى اكتساب الشاعر لمميزات المرحلة الثانية ، وهي المرحلة التي يمكن تسميتها (بالجلودية) ، حيث ظفت الروح الاسطورية ، بموسيقاها الوئيدة الهائلة ، على القربان للصحة ، والتوقيعات القبلية :

يدع ما الزلوتي ، سمعت الرباح
في نواح طويل نصف النخيل ،
والخضى وهي تناي - اذن فالجراح

والصليب الذي سرورني عليه طوال الاصيل
فلاسطورة - من الناحية الشكلية - تفرغ الى يقل الاهتمام بالصفة النفسية ، لكي يتمكن القارئ من متابعة الرموز بطريقة غير متعبة ، وهكذا كتب مقنون (الفردوس المفلود) ، وكتب كوريج (الجراح القديم) ، ولو كتبت الاسطورة بالشكل الذي نكتب به (القراني) مثلا ، لاحتاج القارئ الى وفي شديد لتفسيح مدلولات القصيدة واكتشافها ..

المرحلة النفسية الثالثة تقرب من شسكال المراتي ، ويمكن لسميتها بمرحلة الناحية ، حيث تستعمل الاصوات الى امتدادات معنوية ، تنطق بها نفس نموت من الطاب ، ولا شك ان ذلك مرتبط بموقف الشاعر الوجودي - بمعنى العيوى - من مشكلة المراتي ، وهذه المشكلة التي تؤرخه باستمرار ، وتعتصم به باستمرار ..

3 - اربع صرخى في عراق

والفرج يبعول يبي : عراق ، ليس سوى عراق
البحر اوسع ما يكون وانت اهد ما تكون
والبحر دونك يا عراق ...

- جيكور يا جيكور اين الخبر والماء

النيل واهي وقد نام الاله ..

3 - وامامك يا ابي الذي امين الاطفال هذا المهجد المنهبما
صانعا لدماء كنية ، في منيته نار وبن كنيه نار .
كل طرث اكلهم واستجاروا ،

وهو يدنو .. كانه احث ربحا ،

مستجيبا

مستجيبا ، مهذا ، مستجيبا .

ولا بد من ملاحظة ان هذه الفكرة الاسيانية بالمشاركة هي نفس محتوى الاسطورة القديمة ، ولكنها يجب ان تبرز هذا الامتداد للمرحلة الثانية ، بان فكرة الانتماء عن طريق الجسد ، وهي فكرة الرموية الباليية في الرواة ، سوف تظل باستمرار ، أعفج بلين بملكه الشاعر ...

مرحلة الناحية ، ليس معناها مرحلة الياسي ، واذا كانت النفسية تفريغ ان تسمى هذه المرحلة هكذا ، فان المحتوى يظل اقلتي واكثر املا ...

تحدد هذه المرحلة على جرس اساسه ملك النفس ، والبطه التندب ، ليوصل التندب والمويل والناحية ، والام الذي يفس به الشاعر تجاه هذا النصب الذي يعياه وقته ، واهيانا تجاه كراته فلسطين :

عريان دون لم كافر ما يكون : بلا مقام
ويلا اب ، ويدون حيفا دون ذكرى - كالظلام !

واحيانا تجاه القضايا العربية الاخرى ، كقصية الجزائر في (الى جميلة بوحيرد) :

يا اختنا الشبيحة الباكبة ،

أطرقنا الدماهي

يتظنن في قبي ويكبن فيه

لم يلق ما تلقين انت المسبح -

انت التي تدين جرح الحريج

أنت التي تصطين .. لا تفسد ربح ،
يا أحبا ، يا أم أختانا ..
بل إن التربة الآمنة ، والتي تجلن تأكلها بالإنبيات ، تنظر في
شكل تدبير :
هذا محاسن الأرض لاتتأني .
بشارك يا أحداث ، جان المشور
بشارك في وهران أمضاء صور
سيزيف التي منه عبء الدعور
واستقبل الشمس على « الأطلس »
آه لوهران التي لا تنور ..
الرمز : لا نجد أي استبطان أو معاناة أو حمل للرمز في صورة
الصدقة إلا في قصائد السياب المتأخرة ، لأن مفهومه للرمز
ليس هو عملية تحويل الأشياء والعلاقات إلى صور دالة ، بمقدار
ما هو فهم عميق للصلة بين غوصي الكون وحيادته ، وبين مذاب
الإنسان .

فالتصميم الإنساني عند السياب ملغز آخره ، أمل أن يلقى
بالتقدير والاندراك الكوني ، غير أن هذا الإدراك لا يأتي مطلقا ،
وهذا هو سر الفتور وعدم التأخي بين الإنسان والعالم في رموز
السياب بالنسبة لبعض مرحلته الثانية ومرحلته الأخيرة .
إن حاجة الشاعر إلى الرمز ، ليست حاجة إلى الألفاظ ، ولا
حاجة إلى أمضاء المعنى ، أنها توازي بالسياب حاجة الحرية إلى
وضوح الصورة ، وهي هنا حاجة الإرادة إلى التعبير عن مشاركة
غير مشاركة الواقع ، ليثقل إلى الآخرين واقعها جديدا ، فيه
طرف من القديم ، وأطراف من الجوهري .. أنها ليست معادلة
رأسمية تقوم فيها (س) مقام للعامل الرقمي ، أو كمة من
الاضافات الكيميائية بل محلول تركيب محلول جديد . . أبدا .
بل إن العدالة الرياضية هذا الفورنت بهذا الرمز تعتبر أمرا من
الأمور الملائمة للصورة . فالعالم هنا معناه إلى مسورة مشرقة
وجدانية أولا ، وذلك يعني أن نموذج مثلا يستطيع أن يعيش في
وجداننا حتى إذا لم نتكهن من معرفة قصته ، بعكس البوت ،
الذي يصبح لفرقا مطلقا إذا لم نعرف نأير نأير إلى فلسفسي
الليبيقي . فالدلالة العنيفة للأسطورة عنده تصبح جبرا لمرور
الانفعالات والمواقف .

والرمز الأسفي عند السياب هو (تموز) الإله الذي صرعه
خنزير بري ، وهو يموت مرة في كل عام ، حاسا إلى أنه لم
السلي المظلم ، وبنيابه تفتني حبيبه مشتار ، وبه الطغائن
الخصبية في الصام ، وتوتفئ بذلك موارف الحب ، وينسى
الإنسان والحيوان فرأعها لمعط أنواع ، وتهد الحياة بالذواء ،
ولكن ملكة الجحيم (أري كيجال) توافق بفير رغامها على أن
تثبت مشتار بفرقة تموز مرة إثر كل شتاء ، وأن تنبت لذلك
الحياة في كل عام (١) .

معظم الحضارات الزرمانية حاولت أن توثق بين الغصبي
والمحل ، الحياة والموت ، وبين هذه القدرة السحرية المعجبة
المتخيلة في باطن الإنشاء فمن أين تبت الحياة ، ومن الذي
يبعثها ، وما سر حلول الأمطار ، وما سر الجفاف وعشش التربة
والقوت .. وكان اشتراك هذه الحضارات في توعية الأسئلة
دافعا لتلارب نوعية الأجوبة ، فالاحتفالات التي تقام في سردينيا
وكالابريا وأرستقلانيا كل عام تحت اسم الاحتفال بالقدوس جون
ليست إلا تطورا مسيحيا لاحتفالات الوثنية التي كانت تقوم
بها الشعوب القديمة هناك في ذكرى أوديسس الذي هو توم باسوم
آخر ، وفي مصر الفرعونية كان اسمه أوزيريس ، وفي غربي آسيا
سمى آتيس ، وكلها رموز عن هذا الإله الذي يعيش كل عام في
صحنه القبح والغبرات والمطر .

والرموز جواب من أجوبة الأنفال الترابط بالنحن : الحاجة
إلى الوضوح والفهم عمل ذهني بحت ، تطور بعد ذلك إلى صورة
العلم الحديث ، أما الحاجة إلى التعبير في الشكل الأنفالي
التي تمت به حدود الأسطورة ، وهكذا حاول هذا الإنسان

البديهي عن طريق اشتراك كل ما فيه من طاقات أن يفسر الكون
والتاريخ والزمأن ، ففي جنوب دوربات بالروسيا ، وهالاهيرا
وجيلواو غربي نيو غينيا إلى هندو الأماصا في جنوب أمريكا
كل هؤلاء اختروا أسطورة تعالال أسطورة تموز ، لأنه لا جواب
ولا صحيح إلا هذا الاشتراك الجسدي بالآلة .

لما في العصر الحديث ، فما هي الحاجة إلى الأسطورة بعد
أن فسر العلم كثيرا من الأشياء ، وأقربها إلى الألهاة ؟ لماذا يبقى
هذا الشك في أشكال الإدراك القديم موجودا ، في حين أن
أدراكنا معاصرا يبقى بغيره فلم هذه الغرارات المستعيلة ؟

لا بد أن توثق بين الأسطورة ، والرمز ، وبعبارة أوضح ، لا بد
أن توثق بين الدلالة الانشائية أو العنيفة للأسطورة ، وبين
الواقع الزمان ، فمن هنا تنشأ الحاجة إلى الرمز . فالنفسج
الأسطوري يبقى كما هو ، وخصبيته تموز نكل هي هي ، أما دلالة
موت تموز وأتبعائه ، فتتغير ، لأن الدلالة أصبحت رمزية ، ولم
تبق لمصرية .

فتعود الحديث ، هو الحياة من خلال الموت ، الميت الجسدي
بعد التحطيم والتشجير والتناثر ، هو قوة الحياة المتجولة التي
تنزع الموت بربالها من جسد عن ، في ذات اللحظة التي يحكمها
الموت ، فبوة قابله تلكها الحياة ، وأي صراع رهيب تكون هي فيه
القابلة ؟

إن هذا التجدد العظيم للعالم ، يمثل تجديد نية الخلود التي
غامر من أجلها الملك السومري « جلجامش » مغافرات الطبيعة أن
سرها منه التهيان لتناء لغوة الملك ، والتهمها ، ولذلك فبعد أن
التصين يجدد شبابه كل عام ، فيغير جلده القديم ، وينشأ
جلدا جديدا (١) .

إن هذا التجديد الربيعي الذي نشأ به الأسطورة ، أصبح
رمزيا من (الحياة من خلال الموت) . هذه الرؤية التي يبعدها
السياب أكثر الرؤى حقيقية بالنسبة إلى وطنه ، وهو يستعملها
أحيانا بدلالة سياسية ، وأحيانا أخرى بدلالة ميتافيزيقية ، بمعنى
من المعاني ففي (مدينة بلا مطر) تتفصح الدلالة السياسية بالقهر
اشكالها ، أما في قصيدة (تموز جيكور) فالدلالة مبهمة ، لأن
الأمل يبقى مجرد رؤية في رؤية زوال الجفاف ، وعودة الخضرة
والربيع والشتاء : فالأمرال : هذه الأرض اليائسة الجريحة تنزى
لأنا وعششا ، ورؤية في الأتواء ، والعودة إلى الحياة الطبيعية
يكل أمنا وفرحنا وجوهرا .. مجرد رؤية مؤلمة ، لا يحفظها أبدا
هذا (العدل) الكفوفاني الرهيب ، ولا يشغل نفسه بدعواتها
وطبها وطوقوسها . وبذلك انغمس شيء ما عن حسدا التكيان
الإنساني الذي قرر مأساة وحده الغناس ، وفشل في الحصول
عليه ، بل أن المأساة تزيد حدة ، عندما يتقدم هذا (العدل)
الوفاي فيبقي الإنسان مرة أخرى ما كان يطلبه .. فيشعر
الإنسان بالاجنوبي ، وبالاستحقاق . في كل ربيع تكمل له نهاية
القصة البشرية ، ويصحب الإنسان إلى بداية الربيع في نهاية
عذابه ، أو هي المرة الأخيرة ، بيد أن الحاجة إلى هذا العدل
تستمر أبدا . من هذا الضعف البشري احتاج الإنسان إلى طافة
غير العلة ، طافة منه ، توقف حسه بالمرارة وتنتقل إلى الأبد ،
ولذلك وقد تموز ، هذا الإله الناقص الذي يموت .. وتموز في
رموز السياب ، ليس ألها ولا ملكا ولا قدرا .. أنه المعسل
الإنساني . الجسد البشري الذي يمتع منتهى ما نطيقه فونه
ووعيه لكي يطبخ بالفقر والجوع والنخش والرأس ..

في فترة بدون شك ، تنظرها دلالة الأسطورة من التفسير
النفدي القديم إلى تفسير الناقص حديث ، فيه الوحي ، وفيه
التطور ، والتقدم ، والرؤية في احترام الإرادة البشرية ، والعمل
البشري ..

نلاحظ في القصيدة « مدينة بلا مطر » وهي التمزوية الأولى ،
إن الطر يبدأ في الهطول عندما تنتهي النفوس البشرية التي
ألمها الناس دعوة لري . وهذه الاستجابة ، ليست مجرد نزوة

(1) Joseph comblante, 'The hero with a Thousand
faces, Meridian Books (PP. 185-183)



الشاعر: بدر شاكر السياب

هيمتُ أوروبا إلى آسية

وما انطوى النهار ،

كما ألتجأ الجبال والبحار

ربي وأطراف من الساقية

يظفرها الصغار .

بين شروق الشمس والغروب

تعانق الشمال والجنوب

ونامت المروج في القفار .

وأنت يا ضجعتي ، كأنك الكواكب البعيدة

كأن بيننا من الكرى جدار .

تضحك اليدان تعصران جثة بليده ،

كأنني معانقُ دمي على حجار

في منزل لصوصه الرياح والهجير والغيوم

من (العدل) الفوقي ، بل هي نتيجة ميكانيكية للطقوس ،
والنطق لا تتحقق سجة كل شمسية واحتفال ، أي إن الطقس
التي قام لجلب الطر ، لا تتحقق بالبيعية عطوله ، إذ إن هذا
الآخر متوقف على مجرد مزاج (العدل) الفوقي . أما في
القضية فالتحقق ميكانيكي يتم على اثر التماسك التزميني
للاشودة ، وإن فلا بد أن هناك دباطا متوقفا بين الطقس وبين
هطول الطر ، أي إن هناك رمزا آخر للطقوس ، فإذا وضعنا في
اعتبارنا الدلالة السيمائية للقضية ، أدركنا بوضوح مغزى
الرمز ، وربطناه فوراً بالعمل الإنساني الذي يشير ويحول ويطور .
الرمز يحكمه الملك السابق الأبيض ، الإطاعي (وفي العراق
جوع) ، والأرض مشقة من العطش ، ودماء تهر في الأفق :

مدینتا تروق لیلها نار بلا نهب
تم دروبها والنور ، لم تزل حياها
ويصعبها الغروب بكل ما حملته من سحب
تترسك أن تطير شرارة وبهب موتها ..
الناس يسامون هذا العطش الملح ، ويدركون مفزاه على انه

دافع الموت :
مذارنا حرائق ذاهلات حول مشتار
يقبض الماء شيئاً بعد شيء من حياها
ونفساً بعد نفس تدل الكرمه
بطء موتنا النسل بين النور والظلمة ..
يتقدمون بأداء شعائرهم وطقوسهم ، ويعملون ندرهم لاله :
وسار صغار بايل يحملون سلال صبار
وفاكهة من الفخار ، أرباباً لمشتار
والنتيجة الطبيعية لذلك هي :

وفي أيد من الأصفاء بين الرمد والرمح .
سمعنا ، لا حفيف السيل تحت العارض السحاح
أو ما وشوشته الريح حيث أبتلت الأوداج ..
وكن حقة الأندام والأبدى
وكركة واه صميرة قبضت بيمناه
على قمر يرفرف كالفراسة ، أو على سحبة ..
على هبة من الصمحة ،
على رعشات ماء ، نظرة همست بها لثقتهم ..

إلى هنا والدلالة تشير ، بكل الرموز إلى أن المقصود بالطر
هو مجرد أدواء الأرض ، وقد كان يمكن للقضية أن تتم بالشكل
السابق .. ولكن الشاعر يفتح من مكتونه وسر أسرارها عندما
لطم أن بابل سوف (تغسل) من (خطاياها)
(تغسل من خطاياها) وليس (تروى من عطشها) .. وهكذا
استبدل الرمز الأساسي برمز أكثر احتواء ، وأشد صلة بالواقع
السياسي للعراق ..

أما الرمز الميتافيزيقي فيفتح في (تموز جيكور) أكثر مما
يتفتح في القصائد التوميزية الأخرى :
ناب الحرير يشق يدي
وبهرس لظاء إلى كبدی
ودمي يتدلق في يساب
لم يند شقائق (1) أو شعما
لكن ملحا ..

فالقضية مجرد إعلان عن ولادة جيكور ، وهي قرية الشاعر
في جنوب البصرة :

جيكور .. متولد جيكور :
اندور سيورق والدور ..
وتعتبر الفصاحا قفلاً من دمل (تموز) بل وتبريرا تمسك
الشاعر بهذا الرمز بالذات ، وليست فيها أية مضان مستورة
أخرى .. وهكذا كان على الرمز عند السياب أن يفجر عالماً
حقيقياً وأصيلاً إلى أبعد حدود الحقيقة والإصالة ..

(1) في الأساطير أن دماء مشتار هي التي صيفت وهرة
الدار لنج (شقائق النعمان) التي كانت ناصمة البياض بهذه
الصيغة الدموية عندما جرحتها الأسسوداء وهي تبحت من
(تموز) ..

مساؤه السكون والنجوم

وصبحه انتظار .

ترامت السنون بيننا : دماً ونار ،

أمدّها جسور

فتستميل سور ،

وأنت في القرار من بحارك العميقه

أغوص لا أمسها ، نصكني الصخور ،

تقطع العروق في يدي ، أستغيث :

« آه يا وفيقه

يا أقرب الوري لى ، أنت يا رفيقه

للدود والظلام » .

عشر سنين سرتها إليك ، يا ضجيجة

تنام

معى وراء سورها ، تنام في سرير ذاتها

وما انتهى السفار

إليك يا مدينة السراب ، يا ردى

حياتها .

عبرت أوروبا إلى آسيه

وما انطوى النهار ،

وأنت يا ضجيجتى ، مدينة نائية

مسدودة أبوابها ، وخلفها وقفت

في انتظار !



بقلم : هدى حليشة



جويس .. جويس .. على (عسر)

ايرلندا . ولكنه يقف . ويبدأ يتذكر الدوافع التي انتهت به الى ذلك ، فيقف في الركن الايمن من المسرح بينما يسود الصلوات الذي يتذكره في الجانب الايسر ، وهو شيء يشبه ماقلعه بولتي الحكيم في مسرحية الاخيرة . ياخالع الشجرة . ولكن ليونارد استقل هذا انكيتيك ليعبر عن شيء آخر واستطاع بذلك ان يحافظ على العالم الخارجي ، عالم الحدث في الجانب الذي تدور فيه الاحداث الخارجية ، والمصالح النفسي وهو ما يفعله البطل تمليلاً على الحدث ، فينبأ ستيفن الطفل يجلس بين افراد عائلته يستمع الى مناقشاتهم السياسية والدينية ، يقف ستيفن الرجل يشق بالتولوج الداحسل - الذي هو في الواقع لب الرواية . وبينما هو يتكلم يقف الباقون في الجانب الخاص بهم كالاصنام ، ثم يعودون للحياة عندما يصود الطفل ستيفن من العالم النفسي الى العالم الواقعي ، او بالاصح عندما يعود جويس الى الحدث الخارجي .

واليسك مثلاً يوضحنا مانج عن وجود الشخصيتين على المسرح تعبران عن المستويين اللذين تدور بينهما المسرحية . ان المدرس القبي يفرق الطفل ستيفن ، الذي يقف صامتا يتحمل في جلد ، ولكن ستيفن الحقيقي يتعذب وتبدأ الصور تتر امام عينيه . ان يد المدرس خشنة - يد ايلين لاعة وبردة - باردة كالعاج - هذا ماقلعه كلمة جبل من الصااج - المدرس ، برج من العاج - الطراد - ان مايستور في خلده في هذه اللحظة يظهر في حديثه بيناصوته وحركاته تنبئ بالالم - الالم الذي رفض الطفل ستيفن ان يظهره امام المدرس وانما بقية التقليد .

والمثل الثاني الذي اسوقه هو اليوم الذي اخذه فيه أبوه للتقديم له في مدرسة ثانوية ببلد آخر غير بلده . كان ستيفن قد بدأ يغير وبدأ يشعر بأنه يختلف عن بقية القوم ، ويقف ستيفن مع أبيه وصديقين قديمين للاب ، ويلور الحديث بين الثلاثة الكبير ومعهم ستيفن ، بينما يقف ستيفن الآخر بعيدا

هل تجربتي من ناحية ، وعزومي لمنى الطالب الفني من ناحية اخرى جعلاني لا أؤمن بعيداً مسرحه أي عمل قصصي على الاطلاق ، إذ ان اختيار الفنان للكاتب فني حين ليست مسألة ذات ارتباط ، بل هو يختار الكاتب السليبي بعينه مايريد ان يقول . فلما لا أستطيع ان اصور ان مسرحية الكوميديا مثلا لو سردت يكون لها نفس الواقع ، ولا أستطيع ان ارى الاستعداد الزمني الذي نجده في روايات نجيب محفوظ مثلا مصمورا في نطاق زمن السريعة وهو ثلاث ساعات . لصلية تغيير الكاتب الفني لأي عمل هي عملية اهدار للأصل ، وغالباً ما تكون عملية تجارية .

ولكن حدث ان رأيت مسرحية لقصة جويس « صورة الفنان في شبابه » Portrait of an Artist as a young-man تحت عنوان "Stephen D." على مسرح سانت مائتر وكنت أتوقع ان الفنان هنا سيكون بصورة أبيض مما هو في مسرحية أي عمل آخر ، للصورة الكاشنة في هذه القصة .

والصعوبة في معالجة رواية لجويس تكمن في ان روايات جويس اهدائها قليلة عادة ، وبالحز، الغلب منها عبارة عن تيار الوعي الذي يأخذ القارئ الى نفس البطل من الداخل واثي تلك الاحداث في نفسه ، بل انه بواسطة الالفاظ والصور يعبر عن اثر تلك الاحداث في اللاشعور ذاته .

كيف السبيل الى نقل هذا العالم النفسي الى خشبة المسرح ؟

لقد حل هيو ليونارد Hugh Leonard هذه المشكلة بان اوجد شكلاً مسرحياً ، جديدا استطاع من خلاله ان ينقل الى لب موضوع جويس . بدأ المسرحية من نهايتها ، وليس هذا بجديد فقد سبقه الى ذلك سارتر في « الابدى القلدة » وكثيرون غيره .

ولكن الجديد هو استغلاله لهذه النهاية ان ستيفن Stephen البطل قد بلغ سن الرجولة ، وهو في طريقه الى ملادة بلده

وحيدا يقول : « لم أكن معهم ، كنت اشعر بعارق كبير يفصل بيني وبينهم - كنت وحيدا - ان انفصاله النفسي عن المجموعة يصبح في هذه الحالة مجسما بانفصاله القلبي عنها »

وبانتها ، الفصل الاول ودخول ستيفن الجامعة يبدأ سنن الشخصيتين تقابل ، ويصبح لزما على الفرجح ان يجعل البطل واحدا ، ولكنه قد ثبت في ذهن المتفرجين ان هناك شخصيتين .. وقد حافظ الفرجح على وجودهما بحيث انه عندما ادخل الشخصيتين في واحد كان هذا الواحد يستلعب في أي لحظة ان ينتهي جانباً من السرح ويترك النفس الداخلية تعبر عن نفسها بينما تلق العواطف الجارية .. ولقد استعان الفرجح بكل ما تيسر في الفصل الأول .. فكان اذا انتهى الفصل امكن جانباً تطلعت الاضواء على السرح ويسلط على البطل ضوء واحد - وهو ما كان يحدث في الفصل الأول حين كان ستيفن الكبير يقف بلا حراك تقريبا يعبر عن الواقع النفسي .. كذلك استعان بقدرة بسيطة كانت تستعمل في الفصل الأول لكي يعالج مشكلة ادماج الشخصيتين في شخصية واحدة - فمثلا كان العقل - ستيفن وهو صغير - لا يتكلم ابدا ، والا وجه ابيه احدثهم سؤالا فان الذي يرد هو مستيقظ الكبير وان كان يقف وقلته في جانب السرح الايمن بلا حراك ووجهه نحو الجمهور - وقد افاد ذلك حين دار حديث بين ستيفن وحادق القباوسة يطاول مختاه بإمكان دولته سلك القساوسة .. كانت الاحداث الداخلية في هذا الفصل عنيفة في حين كان ستيفن - على المستوى الواقعي - لا يقوم بأكثر من الاستماع الى الناس والرد عليه بنعم أو لا بين الحين والآخر ، في هذا المشهد ولق الفرجح مواجها الجمهور وقد سلط عليه ضوء واحد في حين كان الناس يتحدث مع شخص غير موجود .



ويندرج العديد .. واقفيا من جانب اليسار - تليها ديبيا في نفس الشباب التي يواجة الجمهور - ولكن الواقع ان عبي القرفة بين العالم الواقعي والعلم النفسي أصبح ملتق والفضل الثاني على كتمني الممثل وحده - فاصبحت التفرقة بين الحديث الذي يدور على المستوى الواقعي وذلك الذي يدور نفسيا كتمت على طريقة الاقفا .

قام بالدور نورمان دودواي Norman Rodway ولم يكن ذلك بلربح لا لقفودته التمثيلية فحسب - بل لانه يلهم جويس كل القوم ، فهو رجل عاش في ايرلندا ، وتطسرح في نفس الجامعة التي تفرج فيها جويس ، وكسات دراسته في الادب الانكليزي واللاتيني ، فهو في الواقع الرجل المثالي الذي يستطيع ان يلهم ما اراده جويس بنفسه وكان اقدر ممثل على فهم ان اراده الكاتب السرحي من الشخصيتين - وهو اكثر بكثير من مجرد عرض للملحي على طريقة Flash-back السطالية - لذلك استطاع دودواي ان يقوم بالدور بالسرح من صعوبته والمجهود الجبار الذي كان مطلوبا منه ان يؤدبه .



ولعل المتفرضي الوحيد على السرحية هو طريقة اداء خطبة القس عن النار وجهنم - ان الخطبة طويلة بلا شك وقد كتبها جويس في كتابه في صفحات كثيرة ، وكان على السرح - كما للخطبة من أهمية في نفس السامع - ستيفن - ان يجعلها مطولة ، ولعل حافظ الكاتب السرحي على طول الخطبة ، ولكن كان انذارها يشير الفسحة في نفس الجمهور - فهل نجسها الفرجح او الممثل الى ذلك خوفا من الملل السلي قد ينتج عن الخطبة ؟

على أي حال كان المفروض ان تثير الخطبة احساسا بان الخطيب يؤمن بما يقول ، وان الخطبة من النوع الذي يجب

ان يؤتى على نفس ستيفن فيخرج منها يرعد صارخا لا جهنم . جهنم . جهنم » .

ولقد كان الإخراج غاية في البسطة ، ولكنه كان مع ذلك فنيا للغاية ، ويذكر واحد لم يتغير خلال الفصلين ، كان كل هم القمص هو مساعنة الفرجح على استغلال الاضواء - فكانت الستارة الخلفية زرقاء تماما ، فكانها سما او بحر او قسمة ، مسلل على جانبيها ستار مفتوح تماما من اعلى ، ويكاد يلتقي طرفاه من اسفل ، لتكون النتيجة ان هذه السماء الزرقاء لمبد أصبحت بانظر جعلها على شكل نصف دائرة كبيرة - وفي كثير من الأحيان كان يسقط ضوء داخلي على هذه الستارة فيجعلها تلمع وتنف السيفيات امامها على الكوبيري - وهو الشيء الوحيد الثابت على السرح - فتلوهه وكانها اشباح سوداء معددة العالم .



وكان هذا الاسلوب يستخدم دائما عند البدء في تذكر حدث معين ، فيقف ستيفن في مقدمة السرح يتذكر ذلك اليوم الذي خرج فيه مع ابيه ، ويضاء التوراداخلها ، فيظهر الشبان جامعين حتى يتم ستيفن الحديث النفسي ، فتلوهه بقسمة السرح وتذب الحياة في هذه الانبجاحت لتتحرك وتكلم ، وهكذا .

والواقع ان اغلب المؤثرات كانت تكتسب حسولية ، ولم تستخدم مكبرات الصوت الا مرتين ، مرة لتجسيم الواقع النفسي وكان ذلك بعد ارتكاب ستيفن خطيئة الزنا واستماعه الى خطبة القسيس واعتقاده انه ذاهب الى جهنم لا محالة - فلهذا لم يمتدح ، ليسل خطيئته ، وجلس امام الناس يمتدح .

وصوته لا يكاد يسمع وهو يردد الطغايا البيوعية العادية : الكلب ، والضاح ، والذيرة والقدح وعندما سألته الناس : أي نوع آخر يا بني ؟ اذا بصوت الميكروفون يدوي مفسرا بالخطبة الكثير في الذي كان في الاني ستيفن ، ففسرح كالتيق - تلك المصمتات التي تكاد لا تسمع كانت من التاجية النفسية لدوي . والهم في السرحية ، كما هو الحال في الرواية هو الواقع النفسي .

والمره الثانية التي استخدم فيها مكبر الصوت كانت لتكثيير عن الصوت الذي حدث في ايرلندا عند موت بارثيل احسنه الساسة الذين كان لهم اثر كبير في حركة تحرر ايرلندا .

والواقع ان السرحية من المسرحيات القليلة التي استطاعت ان تصنع كل الامكانيات لخدمة الاصل الروائي - وقد صرح كاتبها انه لم يستعمل جملة واحدة لم تات على لسان جويس انها في « صورة المؤلف ككتاب » او في الاصل الذي عدله ونشر اخيرا باسم Stephn Hero



ان جويس يعبر عن ثورته على ثلاثة اشياء تتحكم في الفرد الايرلندي منذ مولده ، ثلاثة اشياء اضطر في اول طرفة من طرانه حياته ان يشعور عليها : الامرة ويرمز اليها بالاب ، الكنان ، وهذه الاشياء الثلاثة هي : الامرة ويرمز اليها بالاب ، والوطنية الايرلندية ، والكنسية الكاثوليكية ، فاختار الكاتب السرحي ما يبرز هذه المتناوديات الثلاث ويؤدو ثورته عليها ، ثم ثورته التمثالية عليها : « ان احسن لا ابي ولا وقتي ولا كنيستي ماتت قد فقت ايمانهم » .

ولقد عاد جويس وغير موافق الى حد كبير من هذه الثورة وقبل ايرلندا وفهم موافق والده ، وفهم كل ذلك في نصته الثانية « يوليسيس » ، كما في القصة الاولى فكان ذلك ما انتهى اليه وهو مغرسته مسرحية : Stephn ID . يتجاح كبير .

3 المهرجانات

الدولة

الموسيقى المعاصرة

بزعرب



بقلم : الدكتور سمحة المنحولي

عندما هبطت بنا الطائرة بين ربوع هذه المدينة الصغيرة الجميلة التي ترفد في أحضان الجبال الخضراء شعرونا أننا في قطعة من أوساط أوروبا ليس فيها مايلد لأول وهلة على أنها عاصمة كرواتيا - إحدى مقاطعات الدولة للموسيقى فقد استقبلت زغرب فيه فيسوفيا من أربع عشرة دولة وفي رحاب الموسيقى وعلى أرض هذه البلاد العديدة الثلاث روسيا وأمريكا وبولندا وفرنسا ومصر وبريطانيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا وإيطاليا والجزر وبغايا ولغيسرها ، حيث بعثت كل دولة بموسيقى الطليعة فيها من السامعين للاتجاهات الحديثة في الموسيقى المعاصرة . من مؤلفين وعساذرين وفادة اركسترا ونقاد ، وعلى رأسهم شيخ موسيقى القرن العشرين إيجور سترافنسكي ، الروسي الكوند الأمريكي المولود ، ذلك الفنان المظفرم الذي عاصر وعاشى سرع وامتد التطورات الموسيقية خلال ثمانين عاما حافلة في دنيا الموسيقى .

وبدت على المدينة ظواهر نشاط غير عادي ، واخضار متلفو المهرجان شهر الربيع - مايو - لمقد المهرجان الدولي البياتالي الثاني للموسيقى المعاصرة ، ورغم حداثة عهد هذا المهرجان بين المهرجانات الدولية للموسيقى فقد استقبلت زغرب فيه فيسوفيا من أربع عشرة دولة وفي رحاب الموسيقى وعلى أرض هذه البلاد العديدة الثلاث روسيا وأمريكا وبولندا وفرنسا ومصر وبريطانيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا وإيطاليا والجزر وبغايا ولغيسرها ، حيث بعثت كل دولة بموسيقى الطليعة فيها من السامعين للاتجاهات الحديثة في الموسيقى المعاصرة . من مؤلفين وعساذرين وفادة اركسترا ونقاد ، وعلى رأسهم شيخ موسيقى القرن العشرين إيجور سترافنسكي ، الروسي الكوند الأمريكي المولود ، ذلك الفنان المظفرم الذي عاصر وعاشى سرع وامتد التطورات الموسيقية خلال ثمانين عاما حافلة في دنيا الموسيقى .

وقد خصصت للطلال الأركستري والكورالية صالة الحفلات الموسيقية « استرا » وهي قاعة حديثة الانشاء امتسار بترين صوتي دائري موزان ، أما الأوبرا فقد قدمت على مسرح دار أوبرا زغرب القديمة التي تكاد تكون صورة مصغرة من دار أوبرا القاهرة في طرازها وتصميمها ونقوشها ، أما المحافرات والأفلام والتمثيلات فكان مكانها الجامعة المعالية الجديدة . وقد شمل برنامج المهرجان الواتنا من الموسيقى المعاصرة في أحدث تياراتها وخاصة ما يكون منها بعد الحرب العالمية الثانية ولكنه دكر بصفة خاصة على أعمال التين من ألح الشفصيات الموسيقية في فرنسا وهما : سترافنسكي ، وألبان بيرج Berg (١٨٨٥ - ١٩٦٥) وهو اختير بيرره أن فنهنا قد استقر مكانته وأصبح من الكلاسيكيات بالنسبة لتيار الموسيقى المعاصرة .

وأمام هذا الغيبي الزاخر من الموسيقى التي قدمه المهرجان خلال أيامه التسعة لا أرف من أين أبدا ، ولكن فنيذا سترافنسكي الذي بسط قلته على المهرجان كله وكان قبسة الأنظار طوال إقامته هناك . فقد افتتح المهرجان بأحدى أوبراته الشهيرة وهي « حياة داير » التي أتم تلحينها وأخرجت للمرة الأولى سنة ١٩٥١ ، وأحداها تدور في القرن الثامن متشسر وتصور حياة شاب تزي عائل أفراد الشيبطان باللدات حتى انتهى به الأمر إلى الجنون والموت ، وبعد استدال الستار على مشهد التسع والآخر منها يفرج الممثلون الرئيسيون جميعا على المسرح ليقلوا إلى الجمهور بخلامة المنسفة ، وهي أن الشيطان يعد ضحاياه من بين الماطلين المشتهرين .

وقد اتفد سترافنسكي في تلحين هذه الأوبرا اتجاهاتلاسيكيا حديثا « نيوكلاسيكي » فلم يحاول أن يتجنب التقسيم على الطريقة الإيطالية القديمة إلى أجزاء الفرادية وكورالية وأجزاء ثلاثة (ريسيتاتيف) وقد عبر عن وجهة نظره بهذا الصدد قائلا : أن هناك فرقا شامسا بين « الأوبرا » بمفهومها الإيطالي الذي نقله موليارد ، وبين « الدراما الموسيقية » بمفهومها اللاجنري وهو في خلفه الموسيقى لهذه المسرحية قد اتبع طريقة « الأوبرا »

ايچور سترافنسكى



البيان



توفى بلا تشييم

لوتو سلافسكى



الجميل من أحداث القصة مجرد دراسة تبرز خلق عدد من الألحان الموسيقية الجيدة التي تنسب إلى (أريا) وتلاوة وكورال .. وغير ذلك من التسميات المألوفة في الأوبرا الإيطالية بصفة عامة .
ورغم هذا الهدف المحدد في هذا الألبوم الكلاسيكي استطاع سترافنسكى أن يطلق عملا فنيا ممتازا من الوجهة الموسيقية والدرامية على السواء والتي بذلك فاعلية للتل والبديهي الكلاسيكية العديدة (النيوكلاسيكية) في ميدان الفناء المسرحي المعاصر .

ولقد كان طبيعيا أن يكون الافتتاح من نصيب فرقة أوبرا زغرب التي قدمت « حياة داور » لسترافنسكى بتجاح كبير وقدمتها مترجمة إلى اللغة الكرواتية جريا على سياستهم في ترجمة نصوص جميع الأوبرات ، وكان الفناء والآداء الأوركستراي والكورالي والأخرج بصفة خاصة من مستوى فني مشرف .
أما الأوبرا الثانية التي قدمت نفس الفرقة فهي « حيلم منتصب ليلة صيف » للموسيقى الإنجليزي المعاصر بتجسيها بريتن Britten (١٩١٢) وهي أخرجت للمرة الأولى ١٩٦٠ .
ولا شك أن بريتن هو نتاج مؤلف أوبرا أصبحت إنجلترا منذ عدة فرون ، ولقد لمضى نجاحه حدود الجزر البريطانية . وهذه أوبرا الأخيرة « حلم ليلة صيف » تترجم إلى اللغة الكرواتية وتصبح من العصيلة الثابتة لفرقة الأوبرا في زغرب ، بعد أن سبق ترجمتها وتقدمها على عدة مسارح أوروبية وأمريكية .

ولقد تناول بريتن هذه المسرحية التشكسيرية الشقيقة بأسلوب موسيقى سلس ناجح في الإيعاد المباشر بالأجواء الأسبورتية والمشاهد الليلية ولواقف الساعرة اللكنة ، فهو من الخصيب للإلهين المعاصرين مقدمة على الابتكار الموسيقي ، وذلك من نواحي الموسيقى في هذه الأوبرا تلك اللصقات التكميلية الدعائية التي ألقت عليها فلا ساحرا من ألحان الساعر ساهم فيه التسلون الأوركستراي بنصيب وافر ، ورغم الجهود الكبيرة التي بذل في إخراجها إلا أن فرقة أوبرا زغرب لم تبلغ فيها نفس مستوى الإجادة والافتتاح الذي بلغته في أوبرا سترافنسكى .
وتركت فرقة أوبرا المدينة الداعية خشبة المسرح بصفه ذلك لميولها وأهمهم فرقة أوبرا هامبورج التي سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

وقد سلطت العطلات الأوركستراي الأولى الأصوات المعلى للموسيقى اليوجوسلافية المعاصرة ، فقدم أوركسترا الانامسة والتليفزيون السيمفوني بزغرب حفلات عزفت ضمن برامجها نماذج من موسيقى مؤلفي الطليعة التقدميين في يوجوسلافيا مثل ميلكو كيليمن (١٩٢٤) ، ودوشان راديتش (١٩٢٩) ، وبافيل ميروك (١٩٢٧) وأيفو بتريتش (١٩٢١) وغيرهم ممن ابتدعوا ناعاما من عالم القافية السائلة في الموسيقى حتى القرن الماضي ، واعتنقوا مياديه الموسيقى الأثني عشرية أو الدوديكاغونية (التي تأتي معنى المقام أو السلم ناعاما بل تعتبر انصاف الأصوات الموسيقية الأثني عشر أجزاء مستقلة أو لينات يرتبها المؤلف بل مطلع موسيقاه تربية تحكميا ثم يلتزمه طوال القطعة يستخدمه في أوضاعه المختلفة) ، بل أن من هؤلاء المؤلفين التقدميين اليوجوسلافيين من نغلتوا دوديكاغونية شسوانتيرج ولكنهم احتفظوا بالبادء المعلى Serial سواء في اللحن أو في الإيقاع ، وهو مياد مشتق عن للموسيقى الدوديكاغونية بل هو امتداد لها ، شتاهم في ذلك شأن الجيل الجديد من

موسيقى أوروبا وأمريكا واليابان ممن يؤاصفون السعي إلى توسيع امكانيات التعبير الموسيقي على مدى مبادئ شونبرج التي ازالت قائمة وانجحة في كثير من اتجاه العالم .

وكان الشعور العام الذي ارتد الإعمال اليوجسلافية المعاصرة في نفوس المستمعين أنها أعمال متحررة مكسرها موهبا يتلصص عالم الطريق دون أن يستطيع تحديد اتجاه المستقبل بعد ، ومن هنا جاءت المحاولات التجريبية الجريئة التي سمعنا بعضها بعضها ومنها مقطوعة بافيل ميرو « تونسيير للكونون والكورال » وقد لاقى نجاحا طيبا ، ومنها المقطوعة « التوازنات Les Equilibres » من تأليف ميكلو كيلين ، وفيها مناة بالغة بالعناصر الانساني وتقليل واضح من شأن التكوينات اليولوية المميزة الشخصية ، ولعل موسيقاه للبالغين « رجل أمام المرأة » اثنتي ابتكارا واضحا صنفه .

والى جانب هؤلاء المؤلفين التقدميين هناك جيل آخر أقل نطرا في محاولاته التجريبية وجماعة ثالثة تجمع بين الموسيقى الشعبية لبلادها وبين الأساليب الموسيقية الحديثة . واستطاع أن أقول أن انصاع والمضى تجربة فنية في مجال الموسيقى الأوكسترايالية والكورالية في كل ما سمعته في مهرجان لفرم هي تجربة الاستماع إلى المقطوعة الجديدة التي قدمت هذه للمرة الأولى في العالم والمسماة « ثلاث فصائل » للموسيقى البولندي الكبير هـ . لونسلافسكي (١٩١٢) وهي ثلثين ثلاث فصائل للشاعر الفرنسي المعاصر هنري ميشو Melchaut (١٨٩٩) وهي على التوالي : أفكار ، والاتصال الكبير ، وراحة الشقاء ، ولحنها المؤلف للأوركسترا ولكورال مختلط من أصوات النساء والرجال .



وقد اجمع المستمعون والتقاد ، على اختلاف مذاهبهم ، على أننا نأزدها عمل فني عظيم مؤلفه صاحب أسلوب شخصي خاص ظل ينضج منذ عدة سنوات ، وقد أتبع في التحنين السكودالي طريقة غاية في الطرافة والقرابة إذ كتب له بأسلوب قلبه عليه الهيتروفوني Heterophony . فيقبل أليك قالت تستمع إلى الكورال في التجميع الأولى مكلنا أن الأصوات تتلقى في نجلوها الصر حول التونات لئلا يطغى تحكمه الصلابة ولكنها صدفه ترتبط دائما بنهايات العبارات الموسيقية . وتابع المؤلف في التحنين الكورالي في التجميع الثانية « الحركة الكبيرة » طريقة أقرب إلى الصباح أو النهار غير الموسيقي وكان له هذه الطريقة تأثير قوي صادق ولا اعتقد أنها وافية نزعاً لتقليد الطبيعة بلقد ما هي وليدة الرغبة للغة التي تلعب مؤلفي هذا العصر لتوسيع امكانيات التعبير الموسيقي لأقصى حدودها بحيث تشمل بعض الظواهر والاصوات غير الموسيقية ، أما في التجميع الأخيرة فلم يكن الكورال يشهد بل كان ينفذ الإلم في خمس خانات لا تتبين في معالم ميولدية محددة إلا نادرا ، وكان في مجموعها يوهي من بعيد بنبزات شرقية كمثل منشأ الشهور بها تلك الهيتروفونية التي نعرفها في الغزف الجماعي الشرقي حيث تقوم الآلات المختلفة حول نواتن الذهن الاسمي كل بطريقة الخاصة مع بعض الإخلاف المرتبطة التي تعبت اختلافات طفيفة غير مقصودة بين مجموعة الأصوات التي تطرق السمع في تحفة معينة مما ينتج عنه تلويح الخط اليهودي ، وهذا تكرر الخاصيل الفنية لهذا الأسلوب الموسيقي اللورد فانه رغم غرابة أسلوبه متع ومؤلر ينقل إلى السمع شعورا طائيا بمعاينة تجسيرة الشاعر ، وقد أخلصنا جميعا على صاحب هذا العمل الفني الكبير مثنين ورجوانا أن نطلع على مقطوعة المدونة الموسيقية (التي لم تلحن بعد) ، وهاتان صوبية لدوين هذه الموسيقى ذات مظهر الطغوية واحسنا الارتجال (الهيتروفوني) التي استغنى خلق طريقة خاصة في التدوين لتلقى جانباً بالقيم الإيقاعية المألوفة ، كما حالتنا صعوبة أدائها فلا بد أنها استغرقت في الترتيب هذا جبارا يشهد لفكرة كورال زغرب بقدرة كبيرة على استيعاب هذا الأسلوب النادر غير الكالوف .

وإلى ميدان الموسيقى الغنائية الكورالية أيضا لمع مؤلف جديد للحن الإيطالي الشهير لويجي نونو (Nono) ذلك الشاب الذي ملا اسمه الانتعاش وأصبح من أشهر موسيقيي المدرسة الحديثة الكلاسيكية في التجديد بجرأة شديدة وهو مؤلف الجزء الثاني من خميسا لمهرجان غزرب البينالي ، وإنه « أنشيد إلى جيوپار » هي نص للشاعر الإسباني الثائر الخوليو ماشادو لحنه لمجموعة صغيرة قريبة من الآلات الموسيقية في فيولينة وفيولا وتسلو وكنترياس وجيتار وست آلات إيقاعية معدنية صغيرة غير مألوفة والصوت سورانو منفرد وكورس نسائي صغير .

وهذا العمل الفني جرى في جده أنه أن المؤلف يبعث فيه عن قيم إيقاعية وتأثيرات صوتية غير مألوفة ، فمجموعة الآلات فيه معدود وفيه التكوين ودينتها الصوتي قائم والتسبيح الموسيقي تسبيح خفيف من الوترية تغلظه بين الحين والآخر دنات الطفرات الإيقاعية المعدنية في لحظلات غير متوقعة ، بل إن كتابة المؤلف للآلات الوترية قد اشتملت على عنصر جديد غير معروف فيها وهو الفرب بكاف اليد على ربة الآلة (التسلو البولندية) فربان إيقاعية أمريكية ومتلاحقة نشعا تأثيرا أقرب إلى صوت الطرل منه إلى أصوات الآلات الوترية أما معالجة المؤلف للصوت الغنائي المتفرد فهي تليقي رقة رغم انتفاء عنصر اللحن أو اليولوية الواضحة وعما اللذان كانا من قبل من أول مستلزمات الغناء ، وذلك لتأثره بعبادته صانوف الأصوات للودونة من شونبرج ، ويقل الكورس النسائي صامتا ولا يدخل إلا قرب النهاية بنبزات رفيعة خائفة وانكاسا أصداه صلاوات بعيدة في أحد صناديق بودا . وهكذا نجد نونو ، كغيره من فناني هذا الجيل ، يتطلع دائما إلى امكانيات صوتية جديدة ويتلصص عناصر التجديد من كل المصادر القديمة والشرقية في الأوروبية ويستغرها لخدمة التعبير الانساني الموسيقي المعاصر .

ويشت روسيا بلوركسترا موسكو الفهارموني ومعه قائده كيريل كوندر شين عزف للمؤلف الأرمني ادوار ميسروديان سمفونية للوركسترا الوترية وهي لحن معالجة جديدة لأسلوب قائم على الإحسان والإيقاعات اللولكورية الأرمنية ، وشهد بعضه سمفونية متفردة وإن كانت تفرق فيها من اختلافات يوراني التالير بأسلوب سيمبوس وبيروكوليف ، ولعل أهم عناصر هذه السمفونية العناصر الفنية التناجسية الشرقية التي استطاع ميسروديان أن يصورها صياغة متفلسكة في قالب سمفوني ، مع المحافظة على الروح الكلاسيكية ، كما يلعب العنصر الإيقاعي في الحركة الأولى دورا هاما حيث تنوف الطبول جزوا متفردا مقبدا في قمة التفاعل ، وإن لم يكن له مبرر واضح في السياق العام للحركة .

ويختلف تناول هذه المؤلفات الأرمنية للعناصر الشعبية من تناول خائسا نوربان ولكن أسلوبه يميل بصفة عامة نحو الصفاة والصعب وإن كان لا يعتمد عليها ، ومع ذلك فقد قوبلت هذه السمفونية بكثير من الإعجاب .

وكذلك غزف الأوركسترا نفسه السمفونية الرابعة للمؤلف الروسي الكيريل ديمتري شوستاكوفش (١٩٠٦) التي كان قد كتبها منذ ثلاثين عاما لم سبها ولم يسمح بعزفها إلا في أواخر الثمانينيات ، وهي موسيقي فنان يعاني تجربة نفسية مسريرة ويلعب عليها التسلو ويبلغ فيها الصعب والعنف مبلغ الصعج حيث يعشد فيها صدا من الآلات الإيقاعية لا نظير له ، وهي عمل فني غريب يحتاج إلى وقفة خاصة بين إنتاج هذا الفنان الكبير الذي عاصر تغيرات هامة في المناخ الثقافي في بلاده تركت أثرها على نفسيته وفنه .

ولعل قمة الحفلات الأوركسترايالية في المهرجان الحفلة التي خصصت لموسيقى سترافسكي وفاد المؤلف الأوركسترا فيسه بنفسه ، وقد أتيحت بقاءة أستراليا جمهور ضخم ليشهد هذا العنصر وهو يغرد شغفه مؤلفاته رغم أنه تصدى الثمانين . واشتمل البرنامج على « سمفونية لآلات النطق » للفلسا

سترافسكي سنة ١٩٢٠ تحية لذكرى ديوبوس ، « وحسركات للبيان والاوركسترا » من مؤلفاته الأخيرة ، وقطعة « مهداة الى جيزولدو الفينوزي » « وقد كان جيزولدو » امير فينوزا في جنوب إيطاليا ، من أخصب وأهم مؤلفي المادريجال في القرن السادس عشر (١٥٦٠ - ١٦١٤) وكانت له فيها الجبهات هارمونية كروماتية جريئة تعتبر سبقا مبكرا - جسدا الى الهارمونية الكروماتية () ، وقد تولى قيادة اوركسترا زلمسروب الهامبولتي في النصف الأول من ثورت كرافت للسماع المأتم لسترافسكي ، وكان نجاحه محدودا أما الفنان الشيخ فقد قاد بنفسه « السمفونية ذات الحركات الثلاث » التي ألفها سنة ١٩١٦ ، وقد استخرج من الاوركسترا سبلا متدفقا من الموسيقى يبرز فيه الإيقاع كقوة معركة هائلة وراء هذا الأسلوب المتأخر الذي نرى بكثير من المذهب والاساليب المعاصرة فلهما واستوعبها دون أن ينتقص من طابع سترافسكي الشخصي شيئا .

ولقد قابله الجمهور بنحية عاطفية حارة لزيارته الحاضرون وهم ولوف أجلا للفنان العظيم الذي بسط ظله على موسيقى القرن العشرين .

ولا نستطيع أن ندع الحديث عن الموسيقى الاوركستراية دون أن نذكر النحلة التي قدمها قائد الاوركسترا الاثني المصروف هانس مولر - كراي من شتوتجارت وقاد فيها اوركسترا زلمسروب السمفونية بمقدرة وسيفرقل مؤلفات كوسبيجين من بوجسلافيا وألتيا وسوليرا نذكر منها بصفة خاصة متناججا باليه أوندنين (١٩٥٧) للمؤلف الألماني هانس فرنس هنتسه Hentze (١٩٢٦) الذي يعد من أشهر مؤلفي الاوبرا الآن في هذا الجيل .

والذا كانت الحلقة المهمة للؤلؤات سترافسكي تمثل فيه الجانب الاوركستراي من البرنامج لأن كمية الفن الاوبرالي كانت بلا شك العجلات الثلاث التي قدمتها اوبرا هامبورج التي استطاعت في السنوات الأخيرة - تحت إدارة المؤلف الموسيقي السويسري رولف ليبيرمان - أن تعز الى مكان المجدارة بين فرق الاوبرا الاثنية بل والاوربية كلها ، واشتهرت بتمثيلها من الاوبرات المعاصرة بالذات .

ففي هذه العجلات قدمت اوبرا هامبورج نماذج متعده من كلاسيكيات الاوبرا في القرن العشرين حيث قدمت اوبرا « فوستيك Wozzeck » و « اوبرا « لولو » لألين برج أحد زعماء المذهب التعبيري Expressionism ومن أهم المصنفين للدوديكافونية بلغ في تطبيقها لها ميلا من الاجادة وعمق التعبير الانساني بصارح - أن لم يقل - ما بلغه شونبيرج مبدع التعبيرية والدوديكافونية على السواء كما قدمت في ليلة واحدة اوبرا الطوفان لسترافسكي و « السجين » للمؤلف الإيطالي دالا بيكولا - Dallapozza .

و « فوستيك » من النظم الشاعفة في الاوبرا في القرن العشرين (كتبت سنة ١٩٢١) وهي تماثل بحق ليسجها النوع خاص من الشخصيات المضطربة الريبة وقسوة ظروف المجتمع وثقافة الحياة ، وهي تتكون من مشاهد قصيرة تتابع في سرعة وفي تباين درامي حاد - طبقا لطرائق التجريبية في الموسيقى ، ولكن موسيقيا ليست دوديكافونية بل بحركات الانفعالات الانسانية قبل كل شيء ، وهي موضوعية في إطار من الصيغ الموسيقية الكلاسيكية الآلية فاشادة الخصبة للنصل الاول تكون على التوالي من متتابعة Suite ثم دابسودية ثم مارش عسكري ثم باسكاليا نظم واحدا وعشرين نوتيا للحن ، يتبعها جسر - هارموني - أما الفصل الثاني فهو مصوغ في صورة صوناته من أربع حركات وهكذا ، وهذا أسهل أوجهه برج يتطلب به على مشكلة البنية الموسيقية الكبير دون الاعتماد على مفهوم المقام وما يتبعه من عناصر الصيغ والالتقاطية علمنا انه في لعنة الاوبرا فوستيك لا يسير وفقا لفقيدة فنية جامدة بل بلحا القامية في الفصل الأخير عندما يشعر بانها

نظم التعبير الدرامي ، وهذه الاوبرا تمثل في الواقع طرف التخليق لاوبرا « حياة داعر » لسترافسكي رغم أن كلا منها عمل فني عظيم في نوعه .

أما اوبرا « لولو » فهي من نفس الجو العام وتتنساول شخصيات مرفهة مدعرة نيلها المجتمع فانتمت منه بطرقها الخاصة ، وقد كتبها برج بلسلوب دوديكافوني وتولي قبل أن يتم الأجزاء الأخيرة منها وكذلك توزيعها اوركستراي ، وهي الأخرى من أهم الاوبرات الحديثة ودور البطولة فيها من أصعب الاوبرا السبالية في حصيلتي (رينوات) الاوبرا الاثنية إذ انه يتطلب صلات وفدرات طبيعية وصونية ودرامية على أن تتوفر بين مفاتيح الاوبرا وقد اشتهرت بهذا الدور هيلجا فيلانديش التي أدته في البرنامج ببراعة واضحة .

واوبرا « الطوفان » The Flood لسترافسكي اوبرا قصيرة كتبها خصيصا لتلفزيون في محاولة لخلق أسلوب اوبرالي يلائم الشاشة الصغيرة ، وعرضت للمرة الأولى في أمريكا في العام الماضي في ظروف لها مغزى عميق ، إذ قدمت ضمن برنامج يستغرق ساعة كاملة سبقتها وتلتها فيه اعلانات تلفزيونية تجارية لا تطلق لها مطلقا موضوع الاوبرا وهو سبيل نوع الطوفان .

ولا « الطوفان » عمل مسرحي ناجح جدا وخاصة من وجهة النظر البصرية ، وهو من الناحية الموسيقية ناجح ايضا ، فالويسيبي فيه تساند التص أو تعلق عليه في نسج خفيف بفضلع به اوركسترا محدودة العدد ، أما أوضاع الطوفان الهادئة فتعكسها راضات الباليه .

وأخيرا وليس آخرا فإن اوبرا « السجين » القصيرة للموسيقى الاثنية المعاصر « دالابيكولا » كانت خير ختام لهذا العرض من اوبرا هامبورج - كما أنها في الوقت نفسه القصوى دفاع عن صلاحية الموسيقى الدوديكافونية وفدراتها على التعبير عن معنى التي يمتق عندما يتناولها فنان موهوب ، فإن شخصية السجين الذي يعرض لنوع جديد من التطبيب ، وهو التطبيب عن طريق العقل في الغلاص والحرة ، لهي شخصية انسانية تمثل تجربة تزل النفس من أعماقها وتحيي الفاني الشاهدين بما لبثته الموسيقى فيها من صياح مروع ، تعاطف على قدميه عناصر كثيرة منها الفناء والآداء اللذ للمعنى الوجودي بوجسلاف فلايدير روجديا ، وهو ضمن فرقة هامبورج حاليا ، والاخراج الممتاز الذي اشتهر به جونتر رينارت مخرج اوبرا هامبورج ، وأن كان يميل كثيرا نحو تجسيم معاني الكلمات في زرع تعبيرية مجال للمشاركة الفعالة المبكرة .

- وخاصة في اوبرا السجين - مما لا يترك لخيال المشاهد أي مجال للمشاركة الفعالة المبكرة . وبعد ، فهذه ملامح وأصدا تناولت أهم الأحداث الفنية في البرنامج الدولي الثاني للموسيقى المعاصرة بزراب ، ولعلنا تناولت بصفة خاصة أهم الأعمال الفنية الكبرى التي فرغت نفسها على مدى المجتمع وذكرته وأحتلت مكانة بالية بين نتاج هذا القرن واصبحت في مصاف الكلاسيكيات في موسيقى القرن العشرين ، وهو نتاج موسيقي لا نملك أن نتجاهله إذ انه تعبير عن عصرنا الذي نشهه ، ونحن لا نتجاهل تمار الفن المعاصر في الادب أو الشعر أو الفن التشكيلي ، أما الموسيقى فلا بد لنا أن نسعى لفهم فلسفتها واتجاهاتها الحديثة لكي نسير في الثقافة الانسانية المعاصرة .

ولكن هناك اتجاهات تجريبية متطرفة لم يأخذها الكثيرون مائلا جدا ، مثل الموسيقى الجزيئية Musique miteaire ومثل اتجاه جون كيج Cage الأمريكي الى ادخال الضوضاء Noise في دنيا الفن الموسيقي وهذا الاتجاه الموسيقي الاكثريونية ويرفضها ما يمثل جاسيا لا سيك انكارة من النشاط الموسيقي المعاصر ، ولكن المجال لا يسمح هنا بالتفوي في فالي فرصة أخرى قريبة .



ترجمها عن الروسية : محمود عبد المجيد

وقد ردت كلافا الا تسرع بالطفل الى الملجا وخاصة بعد أن أعطاه المصنع حجرة جميلة من مبانيه السكنية وانها لها أيضا . وأهدت اليها الثقابة ملابس داخلية كاملة للمولود ، وقدم لها الاصدقاء هدايا مختلفة . وكانت كلافا تعلم أن العسل في كل هذا لصديقتها اولجا بالطبع ، كما كان العطف الذي اطهرته بصنة دائمة اكبر في نظر كلافا من كل الهدايا التي أهدت اليها . وفي خلال شهر واحد عاشت لطفلها . كان أجمل وأمر طلع في الوجود . كان يهتمته معنى خاص في نظرها . . « انظري إلي يا أولجا ! ! انظري كيف يبتسم . . انه يعرني ! ! »

كيف تستطيع أولجا اذن أن تواجه كلافا ؟ وكيف يمكن لكلافا أن توافق على إعادة ماكسيم الى الملجا ؟ ماذا تقول ؟ كان هناك تبادل في الأدوار ! لكن كلافا تختلف من أولجا وهي لن تتحدث بشيء ضدها ، وسوف تسلم بالأمر الواقع على طريقتها الخاصة قائلة :

« لقد قامت أولجا بشيء من العطف برعايتها لطفل يتيم » . ثم تضيف بطريقة عرضية :
« وقد حصلت أولجا على حجرة طيبا . . وما الخطأ في هذا ؟ ان كل انسان يهتم بشئونه الخاصة » .

وامتعتت الدماء في وجه أولجا مع أن هذه المبارات لم تكن قد تناثرت بعد . لم تكن أولجا من ذلك النوع من الناس . لكن ماذا كان في استطاعتها أن تفعله ؟ لقد أحبت بيريزوف ، أحبته حبا خرافيا مضنيا آخر حب في حياتها ، وأعطته كلماتها ، وهناك شعور جارف - لا يمكنها أن توقفه - يحول بينها وبين

أرسل الصباح أشعته الذهبية على المتضدة وعلى وجه ماكسيم وهو نائم في فراشه في هدوء تحت غطاءه الأبيض . كان يبتسم وهو نائم لأنه سيذهب مع امه أولجا لزيارة العمدة دوتا في الصباح .

وبلغت أولجا أصبعها ولمست به المكواة ، ثم أخذت تكوي حلة البحار الصغيرة بعناية ، وداس بالمكواة مرة أخرى كما لو كانت تحاول أن تدو احساسها بالذنب ازاء الطفل . وبفس العنابه وضعت ملابسه كلها في حقيبة صغيره برقالية اللون ثم أغلقها وأوقفها في ركن من أركان الغرفة خفية كان القفل يلعب كعين من النيكل .

وبدا كل شيء كما لو كان يودع ماكسيم ، المتضدة والمفعد والمرآة التي كانت تلعب في كآبة في ذلك الضوء الخافت . لقد شعرت أولجا بذلك على الفور ، فهذه الأشياء ستحدثها دائما مع ماكسيم ، وستعرف معنى الألم والخجل عندما تستيقظ كل صباح وترى سرير الطفل المطوى على الحائط . لكن لماذا تفكر في هذه الأشياء الجامدة ؟ ان يكون هناك من الناس من يتذفها بالكلمات الغاضبة المحرقة عندما يعرفون أنها نبذت ماكسيم ؟

وماذا عن صديقتها كلافا فورونوفا ؟ كيف تستطيع أولجا أن تواجهها بعد كل ذلك الذي حدث ؟ لقد هجرت كلافا والد طفلها قبل أن تبرح غرفة الوضع ، ويكت كلافا ولمعت الأب الغائب ، وأقسمت أن تضع الطفل في أحد الملاجئ فضضيت أولجا وقالت ان كلافا لا يمكنها أن تفعل ذلك ، لأن الطفل لا ذنب له ، وكان ماكسيم هو اقوى حجة لديها بالطبع فقد أعاد السمادة الى بيت أولجا على الرغم من أنها تبنته وكان هذا أكثر اقتناعا من أية كلمات .

المدول عن كلمتها ، ولذا فهي تكوي يلوزتها
للمرة الثالثة ، وتمر عليها بالكواة الباردة من ناحية
لاخرى .

فى الصباح الباكر من شهر يونيو يصعد
الهواء بأهازيج الطيور ويوقظ النسيم الهادىء
الأوراق الناعسة لتستقبل أشعة الشمس ، فى
صباح كهذا ذهبت أولجا لزيارة صديقة لها فى
« بيت الأطفال » منذ عامين . وعندما رأت ماكسيم
شعرت فى الحال بأنها لن تجد طيلة حياتها ابنها
يفضله .

وهاى اليوم بعد مرور عامين فى طريقها مرة
أخرى الى هناك وماكسيم الى جوارها فى حيلة
البهار الجديدة ، ولسب ما مرت بيدها على رأسه
وانغمسته بقليل من الكولونيا التى اهديت لها منذ
وقت قريب ، واهتز ماكسيم من الفرح وأشار
الى الخارج من شباك الترام المفتوح وامطرها وأبدا
من الأسئلة . وكانت أولجا تجيبه وهي غارقة فى
تفكيرها فبدأ ماكسيم يتأمل وجهها ، محاولا أن يقرأ
فيه شيئا يعينه اللامعتين الفاحكتين ولاحظت
أولجا قلق الطفل فابتسمت له ابتسامة جامدة
مرتبكة ، أما هو فقد أدرك بفطنته ان ثمة شيئا
على غير مايرام ، فجرت الكلمات على لسانه وتبسم
كل شيء .

وبدا الصمت يدق فى أذنى أولجا ، كان صمعا
لايحتمل ، وحاولت أن تستأنف الحديث بسرور
مفتعل فقالت :

— ماذا دهك ياماكسيم ؟ هل فقدت لسانك ؟
هل أنت بخير ؟ فتحول اليها الطفل بعينه الزرقاوين
وأجابها فى شيء من الجدية وبلا ابتسام : « نعم
أنا بخير » ثم أغرق فى الصمت مرة أخرى .

كان بين محطة الترام وبيت الأطفال ممر يخترق
أشجار البتولا ، وكانت أولجا كلما اقتربت منه ساءت
حالتها ، وتبددت الكلمات التى كانت قد أعدتها
لتنقلها لمديرة البيت ، التى ستفقد أهمية السبب
الذى حدا بها الى إعادة الطفل . لكن كان على
أولجا قبل كل شيء أن تسيطر على نفسها وتهديء
من روع ماكسيم . وهفت أولجا : « هيا بنا نجلس
هناك على الحشائش ياماكسيم »

كان عيب الأزهار يملا المكان الذى تناثرت فى
أنحاله أشجار الأناناس وقشور البتولا ، ووضعت
أولجا حقيبة الملايس على أرض الممر الرطب ، وغاصت

فى الحشائش ثم جذبت ماكسيم الى جوارها وأخذت
تمسح على رأسه ، وصاحت بفرح :

— انظر .. هناك فراشة .. وها هى واحدة
أخرى صفراء .. أمسكها ياماكسيم .. أسرع ..
واندفع الطفل نحو الأزهار ، ولم يمسك شيئا
بالطبع ، ولكنه التقط بعض الأزهار الصفراء اللامعة
وعادت اليه روحه المرحة فأخذت أولجا تشجعه
قائلة :

— « ياجمال هذه الباقية من الأزهار ، ليس
رائعا أن تصطاد فراشة من هنا كل يوم بالشبكة ؟
كم هو جميل هذا المكان ؟ ليس كذلك ياماكسيم ؟ »
فأجاب الطفل : « بل .. انه مكان جميل »
ثم جلس على الحقيبة وأمسك بالأزهار حتى تشمها
أولجا ، فسألته :

— هل تذكر كيف كنت تلعب مع الأطفال
هنا ؟

— نعم .

— واللعب . هل تذكرها أيضا ؟

— نعم .

— أتحب أن تظل هنا مع الأطفال بدونى كما
فعلت مع الةم فاليا .. عندما ذهبت أنا الى الريف ؟
لكن نغمة مسطحة خالجت صوتها ، ونظر الصغير
الى عينيها وقب دأجل الشك نفسه ، فسألته وصوتها
يتهدج قليلا :

— لم لا تقول شيئا ؟ ستبقى هنا فترة قصيرة ،
تلمب مع الأطفال وتركب الدراجة ريثما أذهب الى
الريف وأعود ثانية ، ألا تحب ذلك ياماكسيم ؟
— لا أريد أن أبقي هنا .

— ولكن سأخذك الى البيت مرة أخرى .. وهنا
نظر اليها الطفل وقد لمت عيناه بحكمة لا يدركها
الأطفال فى سنه . وفجأة ومض بريق من الفهم
بينهما ، ومض بوضوح لدرجة أن قلب أولجا
أوشك أن يتوقف فخفضت رأسها ثم لوت أعواد
الحشائش ثم عادت فأطلقتها ، وبجهد رفعت رأسها
والتفت عيناهما مرة أخرى .

كان الصغير يطيل النظر الى وجهها وأهداب
عينيه تختلجان ببطء واستطاعت أولجا أن تقدر
عذابه الطويل وأحست كأنه يقرأ كل شيء ، فقرة
فقرة ، ثم يتسائل فى صمت :

— لماذا أنت فاعلة بى يامى ؟ أى ذنب جنيته ؟
وينتظر الاجابة فكيف تجيب ؟ أن أبسط شيء هو
أن تمزح معه وتضمه الى صدرها كي تهديء من روعه

قايلتها مديرة البيت قائلة : تفضلا .. تفضلا ..
.. اننى سعيدة برؤيتكما .. وأخيرا سمح لك وقتك
بزيارتنا .. انظروا كيف كبر ماكسيم ! كيف حالك
أيها البحار الصغير .

ثم أقبل ناظر المدرسة والطبيب ومهندس
الموسيقى وتجادبوا الطفل فيما بينهم بمسرح ،
وامتدحوا أولجا لعنايتها الفائقة به . وأحسنت أولجا
بفصحة شديدة فى حلقها . وأذهلها أن تفاجأ بأنها
كانت غبية بلهاء لدرجة أنها جاءت الى هنا لكى
تعيد الطفل ، واستغربت مندهشة كما لو كانت قد
أفاقت من كابوس . كيف فقدت عقلها وقبسلت
باختيارها .. ولو لحظة واحدة - فكرة إبعاد ماكسيم
عنها ، وتسليمه بيديها هى يمثل هذه الطريقة
وبما فيها من خسة وخيانة ونذالة ؟

أجل حدث ذلك بالفعل . اتفقت مع بيرزوف
بعد أن أوضح لها فكرته ودلل على أن إبعاد الطفل
سيكون أفضل .. لكن شخصا مثل بيرزوف أثنى
وغليظ الطبع لم يستطع أن يفهمها وأن يتسامح
معها هذه المرة . وأنها أن تفكر بطريقة تلقى اللوم
على بيرزوف خطيبها فاستعرت لتلتصق لموقفه المبررات

أن بيرزوف ببساطة لم يفهم ظروف ماكسيم ،
وهى اللومة لا إله عجزت عن أن تجعله يفهم . كانت
عظمتها بالظبح . فخطتها هى . وعليها الآن أن تصحح
هذه الفلطة الفاحشة كان عليها أن توضح كل شيء
فى نفس اليوم وأن تقنع بيرزوف أن السعادة لن
تفرق عليهما أن أعادا ماكسيم الى بيت الأطفال .
فلن يستطيعا أبدا أن يعيشا معا أو أن يفتح كل
منهما عينيه فى عيني صاحبه .

فى تلك الأمسية حدثها بيرزوف بالتليفون
كالعتاد ، ثم حضر بعد قليل وألقى بقبعته على أحد
المقاعد ، ثم قبل أولجا وقذف القطة النائمة بعيدا عن
المقعد وجلس . فى هذه اللحظة شاهد ماكسيم
نائما فى سريره فقال مندهشا بصوت مرتفع كانما
قد سره الاكتشاف : - حسنا .. حسنا .. لكنكما
ذهبتما الى بيت الأطفال هذا الصباح ! أليس كذلك ؟
- فاجابته أولجا بطريقة آلية : بلى .. ذهبتنا .

- وماذا حدث إذن ؟
- لم أستمع أن أخرج الطفل بسهولة ياسيرجى ،
فرد عليها بيرزوف وقد فقد صوته نفثته
المرحة برغم أن أصابعه كانت تنقر على المنضدة :
- لقد حان الوقت الذى تقررين فيه اذا كنت
مازلت مبقية على حبلى يا أولجا .

ثم تعود به الى المنزل حتى لا ترى ثانية تلك العيون
التعسة النائمة فى وجه الطفل ، بيد أنها رأت أمامها
وفى اللحظة نفسها عينين أخريين تحت حاجبين
كثيفين فى وجه لوحته الشمس ، رأت هاتين
العينين وعرفت أن فيهما شيئا لاستطيع مقاومته ،
لقد هزم خطيبها بيرزوف طفلها ماكسيم .

- « لم تنظر الى هكذا عابسا ؟ انسينت الأسماك
الذهبية التى تسبح فى ذلك الصندوق الزجاجى ؟
انسينت « ياشكا » الذى يحب المزاج ، ذلك السنجاب
الذى يجرى يروح فوق الأسطوانة الصغيرة استمع
الى ياماكسيم ، أنا أعدك اننى سأعود من الزيف
وحيثند تعود ثانية الى المنزل ، بهذا كانت تحدثه
أولجا التى بنت آمالها على الحياة السعيدة التى
تسود بيت الأطفال وكانت ترجو أن يعقد الصغير
صداقات مع الأطفال الآخرين ويستمتع بوجوده
بينهم ثم تعود الحياة بدلونها ، وفضلا عن هذا
فقد تكرر ذلك مرارا من قبل كما حدثها أصدقائها ،
« لنتفق الآن يا عزيزى ماكسيم على أنك لست تيكى .
هل تعدنى ؟ » فاجابها الطفل بقراره الحاسم ،
« سأبكي بكل تأكيد » وأربد وجهه ، واهتزت
ذقنه ومط شفته السفلى ، وعن خلفها سمعنا
صوتا أليفا يقول :

« ما هذا .. من الذى يطلس هنا ؟ » كان صوت
فيرا المدرسة صديقة أولجا التى أجملت وانطيسر
ماكسيم بالبكاء بصوت مرتفع فقالت أولجا وهى
مضطربة :

- « أوه .. أهلا فيرا .. نحن نستريح قليلا »
دارت فيرا حول الجانب الآخر من الحقيبة
وانحنحت على ماكسيم ثم أمسكت بيديه قائلة يروح
ولم تكن قد رأت وجهه الباكى : « حياتنا ، فإن
من الأفضل أن نستريح فى المنزل » ولكن الطفل
انتزع يده منها والتصق بأمه فتساءلت فيرا فى
دهشة .

- ماذا دهام يا أولجا ؟
- أوه .. لا شيء .. لقد أصبح مجببا
للمتعاب »

- « هذا شيء جديد » قالتها فيرا وهى تربت
بحنان على رأس ماكسيم ثم سألته : - أهذه حلة
البحار الجديدة التى أحضرتها لك أمك ؟ ما هذه
الكتابة ؟ أوروزا .. أهذا اسم سفينتك ؟
بالحديث المرح والفكاهات تمكنت المراتبان
أن تستدرجا ماكسيم الى بيت الأطفال . وفى الحديقة

— كل شيء عن حبي ؟ ماذا تعني ؟ لقد أحببتك
أنت يا أولجا لكن أهدأ يعني أن أبعثر عواطفى الأبية
على أطفال الآخرين ؟

ومرة أخرى لمع شعاع من القسوة فى عيني
بيريزوف الحادتين البارزتين . ونظرت أولجا إلى
عينيه بشبات ووجدت نفسها أمام غضبه وصلابة
حجته المنطقية غير قادرة على الحركة وشعرت بتصلب
فى جسدها يشل عزمها ، وأدركت أن عليها
الآتنها أبدأ ، والآ تكبل نفسها أبدأ بأية اغلال
والآ تحمر من الخجل أبدأ أمام صديقاتها ، فتحولت
إلى ماكسيم دون أن تنظر إلى بيريزوف وقالت بلهجة
واصحة تماما .

— سيرجى لقد تبينيت ماكسيم واتخذته
إبنًا لى ، ولذلك فهو ليس ابنا لأحد الغرباء انه ابنى
أنا . وأنت تعرف المثل الذى يقول « ليست الأم
من تلد ولكنها من تحنو وتطمع وتربى »
ومرت فترة طويلة من الصمت قال بعدها
بيريزوف .

— در ص لا حبيبتى يا أولجا .
فنظرت إليه أولجا نظرة ملؤها الأسى كما ينظر
الإنسان إلى شخص مريض بسبب حماقته فى حين
نابضها حديته قائلا :
— أنت لم تحبينى أبدأ . كنت قد سلمت
الوحدة لا أكثر .

وأخذ يروح ويضد ويداه خلف ظهره يقبضهما
ثم يبسطهما فى عصبية .

— حسنا ، إذا انصرفت الآن فسوف تعثرين على
شخص آخر يؤنس وحدتك .

وهنا ارتعش صوت أولجا وهى تجيب :
— كم أنت صعب وقاس . أنك رجل بلا قلب
على الإطلاق .

— أما أنت فعلى العكس رقيقة القلب جدا .
— ينبغي أن تجعلى مما تقول .

وأخيرا استيقظ ماكسيم ومسح عينيه فرأى
بيريزوف وعندما بلغ الطفل صدر أمه انفجر باكيا
فاحتضنته أولجا وتحسست جسمه ، وفى تلك
اللحظة طوق الطفل رقبتها بذراعيه الدافئتين وعاد
البكاء بصوت أكثر حدة كما لو كان قد بدأ فيه
لتوه ولأن يتوقف عنه أبدأ فى حضور ذلك الرجل
الذى لم يعد مرغوبا فى بقائه .

— سيرجى . . استمع إلى . . لقد أمعنت الفكر
طيلة هذا اليوم . . كان يوما تعيسا يا عزيزى ، ان
الطفل لالوم عليه لأنه لم يفعل شيئا ، ليس لعذوب
على الإطلاق .

فالتوت شفتا بيريزوف فى تصميم وقال .
— أوه . . وهكذا كنت تفكرين . . هه . . ربما
حطرت لك أنتى غريب عنه . . اسمعى أنتى لن أفعل
شيئا من أجله . . لا شيء بالمرة . . أنا لا أستطيع . .
اتفهمين يا أولجا ؟ لا أستطيع . . لن أكون أبًا لطفل
لم أنجبه .

— كلا يا سيرجى . . لقد ربيت الطفل حتى الآن
وساواصل تربيته من مرتبتي الخاص .

— مرتبك الخاص . . لكن إذا تزوجنا فلن
يكون هناك شيء يخصك وآخر يخصنى . . اتفهمن
. . سيكون كل شيء لنا نحن الاثنين . . كل شيء
يخصنا معا ولا شيء غير ذلك .

— سيرجى . . ان مات قوله مؤلم وأنا لافهمك ،
فألقى نظرة على سرير الطفل وقال

— لاتفهمن . . هه . . أنت لا تبهدين أنه تفهمى
. . ان الناس يجبرون أطفالهم من أجل الحب وأننى
ليس فى قلبك أى حب . . أنتى لاتن فى حبك .
فتنفست أولجا بصعوبة وقالت .

— انهم قوم فاسدون يا سيرجى .

— كلا . . بل يفهمون الحب على حقيقته ويمكنهم
أن يضحووا فى سبيله مادامت التضحية ضرورية ،
فالحب لا تلق فى طريقه تضحية يا أولجا . .

— سيرجى فكر مرة أخرى . . أنك لست
متوحشا . . أنت رجل مثقف .

— الثقافة لاتجدى فى هذا الأمر . . أنتى أريد
أن أصبح أبًا . . أب طفل من صلبى . . لطفتلى
أنا . . اتفهمن ؟ . . أنتى أحبك يا أولجا . . وأنت
تعرفين . . أنت وحدك .

قال ذلك وهم أن يحتضنها فتراجعت خطوة
تتعاذى ذراعيه وقالت :

— أعرف أنك تحبني ، ولست أعتقد أنتى
عرفت كل شيء عن ذلك الحب .



شكل (١)

ي وصف كان معنى من معجوده في وضع النسبية في شكلها
عام - الصورة مأخوذة من كتاب بعنوان « إيشتاين » مؤلفه
- ريجيب رابك - من مجموعة كتب « العلماء والعصائل »
رئيسها الدكتور جورج نازيس - ١٩٥٠

إيشتاين

فلسفة جديدة

بقلم : الدكتور محمد محمود غالى

نسقاء ونباء - مثالا - لهذا الشعور بين المرح والامس وبين
الصغير والوجل .

وكنا نشعر بالحيرة والسعادة في الكتاب ، وليس احب الي
نفس من ساعة اخلو فيها للقلادة ولا الى الفلب من لحظات
اشعر فيها ان هناك قراء يتابعونا فيما نكتب وشايطوننا الراى
فيما نذهب اليه ويستمتعون كما نستمتع بسير العلماء ، وما
ذلك الا لان اسماءهم اقترنت بوليات للملم ليست هيئة ، ولبات
أحدثت وتستحدث تغييرا كليا في مستقبل البشر واترا بالغا في
تاريخه ، ولعل القاري استطاع ان يفكر ذلك عندما طالع
ما كتبناه من هؤلاء العلماء الذين اصبحوا في ذمة التاريخ ،
وهم الذين ولسمناهم من جدارية بين الحسنين الذين ادوا لحياتنا
اجل الخدمات والذين هم على حد ما ذهبنا اليه بناء القرن
المعشرين .

ولقد تعددت ان تكون كتابتي لا لاطالة المشتغلين بالعلوم
وللزملاء المهتمين بل لاهل الادب والفلسفة والمكر ولكل متطلع
الى المعرفة .

سأحاول ان ان اتابع مع هؤلاء اهم نواحي الميراث العلمي ،
ويطعن منذ الامم عن « إيشتاين » اننا نستعرض اهم ماوراه
الانسان في العصر الذي نعيش فيه من فكر وعلم بل وحضارة .

ولنبدأ الان في شرح اعماله العلمية ، وهي الامصال التي
تهبتهما زمتا طويلا ، فقد خلقت مقالاتي السابقة مسيسواء في
« الرسالة » او في « الكتاب المعصرى » منها ولا تعرض اليوم
لحصر هذه الامصال وهي كثيرة ، فمنها ما لم يزل انتباه العالم مثل
دراسته للحركة البراونية في السوائل وكانت أولى اعمال
حياته وهي التي وجهت النظر اليها في رسالتي التي قدمتها
للدكتوراه منذ اكثر من ربع قرن لطلالتها بخركة الجسيمات
الصغيرة مثل حركة الغلي في التبل ، ومنها ايضا دراسته في
شبهه لتكاثر الفولوى الكهربائي ما لا تدخل فيه الآن - كل هذا

تابع القاري على صفحات « المجلة » بحسوساتنا عن القدرة
وعلاقتها اليوم سلامة الانسان ، ففي عدد يوليو منذ عام كتبنا
مثالا بعنوان « الثقافة العلمية ونزع السلاح » ، وفي سابركتينا
مثالا بعنوان « اما سعادة وعناء واما شقاء وعباء » لخصنا فيه
الموقف الذي نمره من قتال الليتوم ، وهي القاتل فسوق
الهيروشيما ، وذكرنا بالتحديد ان قنبلة واحدة من هذا
النوع يعادل لتجربتها اكثر من مائة مرة مجموع القنابل التي
التي بها جميع المتحاربون في الحرب العالمية الثانية ، والتي
استمرت ست سنوات ، وطرق الحديث بنا الى ذكر مسير
بعض العلماء الذين كان لهم اثر في العلوم الذرية وفهم نواة
الذرة فتحدثنا عن العالم اللد المتروكي نيكيور الذي فطن
بطريقة غاية في الابداع الى حقيقة دنيا الذرة فالتب ان
للالكترونات الدائرة حول نواتها وقياسات في مدار وكبات
لم تحدث الى الا ان لوكيتا الارضي لم تعدت الى عدد ابريل
من مدار كوري وزوجها في مقال « جائزة نوبل تدخل خمسينات
منزلا واحدا » وتحدثنا في عدد مايو من كريمتها ايرين كوري
وزوجها جوليو ، وقد اقتقدناهما الانسانية منذ حوالي الستون
واخيرا وفي العدد السابق كتبنا مقالنا « إيشتاين شيخ العلماء »
واليوم نتحدث منه من جديد باعتباره واصفا فلسفة جديدة
ونظريه هامة لم يسبقه اليها احد .

ولم تكن مقالاتنا وبحوثنا على صفحات المجلة شاتها شمسنا
مقالاتنا في « الرسالة » للكتاب الكبير احمد حسن الزيات منذ
ربع قرن ، كذلك في « الكتاب المعصرى » لرئيسها الدكتور حه
حسن منذ ١٥ عاما فقدنا نواتنا منذ كتابتي في « المجلة » بالاحداث
العلمية تارة ومطالعاتنا عن القنابل الذرية تارة اخرى ، وكنتسا
كلما دفعت اكتشاف العلمية الفنية خطوة الى الامام استعرضنا
هذه الاكتشاف فرحين مبتهلين ، وكلما الدرننا باخطار لايت على
العلمائين والسلام نيتنا اليها علمين جزعين ، ولعل مقالاتنا -
« الثقافة العلمية ونزع السلاح » ، « اما سعادة وعناء واما

لا نتعرف له الآن ، إنما نستعرض سويا أروع ما جاءت به مغربة هذا العالم في ثلاثة مواضيع كبيرة :

الموضوع الأول : النسبية . وهي التي بدأها سنة ١٩٠٥ وكانت سنة ٢٥ عاما والتي تأبها حتى سنة ١٩١٢ ، وهي نظرية الخاصة بالزمان والمكان ، وقد علمنا فيها أننا أبناء كون ذي أربعة أبعاد : الأبعاد الثلاثة المعروفة الطول والعرض والارتفاع أما البعد الرابع فهو الزمن .

هذه النسبية الأولى لاينشتاين في شكلها المحدود علمتنا أن سرعة الضوء سرعة كونية ، وأنه لا يجوز التعذب عن سرعة طولها وإن انتقال الضوء في غير حاجة لذلك الأثير السلسلي ليعمل نيون وعلية الطعلا لكي ينتقل فيه ، ولم تكن هذه النسبية مجرد ، فلسفة كلامية لا أثر لها على البحوث العلمية التطبيقية التي يلد منها الإنسان ، إنما كان من أهم نتائجها المباشرة أن استنتج اينشتاين قانونا كونيا زليا ، ذلك أن المادة هي الطاقة ويمكن أن تتحول إليها ، وأن الطاقة بدورها هي المادة وأنه من الممكن أن تتحول إليها ، ولقد خلق أخيرا المصطلح « لورانس » Lawrence أمريكا بورونوا هو أحد جميعات نواة الذرة من الطاقة .

الموضوع الثاني :

موضوع التجاذبية : فقد وسع قانون بعث في يشير فيه إلى أي قوة ، فهو يصف الأجسام في مجال التجاذبية كالكواكب مثلا لا على أساس قوة الجذب بل على أساس تعديل المسالك التي تسلكها الأجسام متأثرة هذه المسالك بوجود المادة بجوارها .

وليست نظرية اينشتاين في التجاذبية عبارة عن خطلة عديمة فحسب بل أنها مبنية على الافتراضات لها دلالات كونية حقيقية ، وليس الحال في هذا المثل في الكتابة من اينشتاين في النسبية العامة التي خلفها بمغبرته سنة ١٩١٦ ولا الدخول في قبورها بعد كشف الشمس الذي حدث سنة ١٩١٩ ولا الظرفه التي يجب أن نعلم بها الشكل الهندسي للكون الذي نحس في وسكون ذلك متما انتهى من الموضوع الأول ألا وهو النسبية في شكلها المحدود Relativite Restreinte والتنازع التي تربت عليها .

الموضوع الثالث : وحدة الكون

فقد حاول اينشتاين في سنة ١٩٢٩ أن يدخل الكهرومغناطيسية في قانونه العام في النسبية المحدودة الخاصة بالزمان والمكان والنسبية العامة الخاصة بالتجاذبية ، بحيث يكون هناك قانون موحد للكون في مجموعة يشمل الكهرومغناطيسية ولم ينتج في ذلك الوقت في هذا السبيل ولكنه أعاد الكرة سنة ١٩٤٩ ، وستدرج في بحث قادم مدى نجاحه ونجاح العالم الفاعصر هايزنبرج Heisenberg في هذا المجال .

والآن نعرض بوجوتا في الموضوع الأول الخاص بالزمان ، والمكان أو الخاص بالنسبية في شكلها المحدود ، ولعل القاري يشعر معي بتأنيص أعمال هذا الصغرى الذي يمثل في الواقع أكبر ظواهر العصر الذي نعيش فيه ويتنسى لنا المصير في تقسيم أعماله إلى ثلاثة مواضيع رئيسية حيث أننا نكتفي اليوم بشرح الموضوع الأول فيها .

وكيف نستطيع أن نتحدث في مقال واحد عن كل هذه المواضيع الثلاثة وهي موصفة وهل يمكن وصف الكون الذي نعيش فيه وفق اينشتاين بهذه السهولة ؟

لا يمكن أن نصل في مقال واحد إلى الكون في نظره أشبه بلفافة صابون بها تضادات على سطحها ، والكون كله ليس داخل القفظة بل أنه على سطحها الكثير من التجاعيد وأن نعلم أن قفظة الكون لها أربعة أبعاد ثلاثة منها للفضاء ، والبعد الرابع للزمن ، ولذا . . . تتلفق منها القفظة ، هي القفظة الخاوي وركب فوق زمان خلوا . . . أتعد هذا كله وأعود لأحاول شرح الموضوع الأول : « النسبية في شكلها الخاص »

تري ما الذي حدا بهذا الشاب في الخامسة والعشرين من سنى حياته أن يدخل يتألب فكره في الفية الزمان والمكان ، ما الذي حدث في زمانه وقبل زمانه أي قبل سنة ١٩٠٥ ليحمله على أن يتأمل موضوعا ويتفقد فيه بطريق لم يتفق فيه غيره من قبل .

ما هو الحادث العلمي الذي أثاره وجعله يفكر فيما يعرج على العالم بالنسبية التي حزت العالم هذا ؟ ما هي العلاقة التي أثار تفكيره ؟ ما هي المسألة التي حاول أن يتكسرها لها سنة ١٩٠٥ فلما أصاب في حلها كتب له القولود ؟

الحادث كان خاصا بالتجارة الخالدة التي يهرها كل العلماء اليوم وهي تجربة ميكلسون ومورلي .

تجربة ميكلسون ومورلي

من هو ميكلسون ومن هو مورلي ؟ الأول هو البرت ابراهام ميكلسون Albert Abraham Michelson استلأ في جامعة شيكاغو بأمركا حصل على جائزة نوبل في سنة ١٩٠٧ وتوفي سنة ١٩٣١ ، والثاني هو الأستاذ مورلي Morley استلأ الطبيعة العروف اشتد مع ميكلسون في نظريته الخالدة التي سترجوها ، وكنت أنا تجربة ميكلسون خاصة باليات سرعة الأثير في الأثير أجراها سنة ٨٨١ في بوتسدام Potsdam بلاتنا .

والفكرة في هذه التجربة أنه إذا كانت هناك وسيلة عملية لتقسيم حزمة غولية خارجة من منبع ضوئي ثابت إلى شعاعين يسيران بحيث يكون أحدهما عموديا على الآخر وجعلهم سيرا ن نفس المسافة من التبع للمرأة العاكسة لكل من الشعاعين ومقارنة الفترة الزمنية التي تمر لوصول الشعاعين وعودها فإنه إذا كان أحد الشعاعين قد سار المسافة في الاتجاه الذي تسير فيه الأرض حول الشمس والثاني قد سار المسافة ذاتها في الاتجاه العكسي عليه فإنه يمكن لتسير سرعة الأرض بالنسبة للأثير التي فرضه العلماء والذي تسير الأرض فيه .

إن أول قياس من هذا النوع يمكن الاعتماد عليه هو الذي قام به ميكلسون سنة ١٨٨١ والذي ذكرناه ، ولقد كانت نتيجة تجربته غير متفردة للعالم أجمع لأنه لم يجد فارقا في الزمن لرحلة الشعاعين رغم أن أحدهما كان في الاتجاه الذي تسير فيه الأرض .

لذلك أعاد التجربة ذاتها في « كيلفنلاند » بولاية إيجو بأمركا مع زميله مورلي في يوليو سنة ١٨٨٧ ووصيلا إلى نفس النتيجة السالبة . وقد نشرا بحثهما في تلك السنة بعد أن أعاد التجربة عدة مرات وفي أوضاع مختلفة دون أن يوجد أي فارق في الزمن ، ومعنى ذلك أنه : أما أن الأرض سائلة لا تتحرك في الأثير الكوني وأما أن هناك موضوعا غير مفهوم بالنسبة لحياتية نيون التي الفها .

وهذه النتيجة التي وصل إليها ميكلسون ومورلي عجيبه بالنسبة لطبيعة الطبيعة السالبة والتناصلة من أن الأرض والكواكب تتحرك في الأثير . وهكذا خلقت التجربة موضوعا جديدا أصبح موضع دهشة العلماء في كل بقاع الأرض .

ولقد أعيدت التجربة التي أعطت هذه النتائج الغربية بواسطة مورلي والعالم الكبير « ملر » W. Morley في سنة ١٩٠٢ حتى سنة ١٩٠٦ ، وأعطت النتيجة السابقة ، ولا تذكر هنا التجارب التي أجراها من جديد Miller سنة ١٩٢١ والتي أجراها توماشك Tomaschek سنة ١٩٢٤ كذلك التي أجراها كيني Kennedy في سنى ١٩٢٦ و ١٩٢٨ فلها كانت بعد نظرية النسبية لاينشتاين التي ذكرنا أنها كانت سنة ١٩٠٥ . وكما أيدت التجارب الأولى التي ذكرناها .

وكي تقرب الموضوع إلى ذهن القاري فلننتد قليلا من حركة جسم في اتجاه معين وحركة جسم آخر في الاتجاه المعكودي عليه وتأخذ مثالا آخر أقرب إلى الفهم ولكنه في الموضوع ذاته . . .

بالفوضى وبالقواهر الكهرومغناطيسية ، وقد جمعها كلها في قانون أساسي هو أن كل قواهر الطبيعة وكل قوانينها واحدة لسكل الأجسام التي تتحرك بسرعة منتظمة بنسبة بعضها إلى بعض . وقد حمل هذا العلماء على أن يتقوا ويؤمنوا بنوع من التوافق الكوني للقوانين الطبيعية ، وقد أوحى بهذا للعلماء أن يوفقوا في بحوثهم في إيجاد إطار مطلق ثابت يعتبرونه مرجعاً لهم في هذا الكون ، فإن الكون مكان غير هادئ ، فالنجوم والسدم والجرارات كل ما هو في الفضاء في حركة دائمة ، ولا يمكن وصف سرعة أحدها أو تمييزها إلا بنسبة بعضها إلى بعض ، إذ أنه لا توجد اتجاهات أو حدود للفضاء الكون ، بحيث إذا زادت العلماء إيجاد السرعة الحقيقية لأي جسم في حركة فإنه يجب عليهم أن يستخدموا سرعة الفوضى كمراجع للقياس لأن سرعة الفوضى حسب التفكير سرعة كونية ثابتة لا تتأثر بسرعة مصدر الفوضى فالطبيعة لا تجود بمرجع مطلق ثابت .

وكما رفض أينشتاين فكرة المكان المطلق فإنه رفض أيضاً الزمان المطلق .

ولم تكن كما قلنا فكرة عدم وجود مكان مطلق يرجع إليه ولا زمان مطلق يرجع إليه ولا فكرة أن الفوضى سرعة كونية ليس لنا أن نتصدعاً من قبيل الفلسفة اللاهوتية أو نوع من الرياضيات التي لم تلت نتائجها ولكنها كانت السبب البشري في أن أينشتاين اكتشف أعظم قانون في الوجود وهو صلافة المادة بالطاقة ، وأن الطاقة التي تتحول بها أي كتلة مادية تساوي هذه الكتلة مضروبة في مربع سرعة الفوضى ، الأمر الذي كان له أخطر النتائج والذي انفتحت صحته في هذه الأيام لا سيما بعد اكتشاف التناوب اللدنة وسيشرح ذلك في مقالات قادمة .

(شكل ٢)

اينشتاين يجالس على البار بجوار الاستاد أهرنلست ويحلى اسمه الميزيالي الكبير « لانفان » الاستاذ السوربون وكلية فرنسا وخلفه الاستاذان كارلاف ونايس الصورة في اليد ومقولة من نفس الكتاب .
وقد أسبقه بلفنسر كم حوت في كل الزمان من حول صيغة ولكن هذه المرة حوت أكبر مسألة لشغل الأذهان بمسألة انكور الذي يعيش فيه .



لفرض فطرة تسير بسرعة معينة ويدخل إحدى عرانيها بالغ متحول يسير في اتجاه سير القاطرة مرة وفي الاتجاه المضاد لسيورها مرة أخرى . أن سرعة البائع بنسبة مسافة ثابتة على الأرض تساوي في الحالة الأولى سرعة القاطرة زائدة سرعة البائع المتحول داخلها ، وفي الحالة الثانية تساوي سرعة القاطرة ناقصة سرعة هذا البائع . هذا كلام واضح لا لبس فيه وهذه قضية واضحة امتدنا أمثالها منذ أن جلسنا جميعاً في صفوف المدرس ، ولا يخبرنا إذن إلا أن المسافر أو الفوضى وكانت العربية هي الأرض ، مرة يسير الفوضى وله سرعة معينة فوق سطح الأرض وهي متحركة ويسير في اتجاه الحركة ، ومرة أخرى يسير الفوضى فوق الأرض ذاتي وهي متحركة ولكنها وسيرة ضد اتجاه الحركة . لا بد أن يكون هناك فارق حسب لغتنا وحسب ما درستنا ، وسيكون الفارق بسيطاً ، ذلك أن سرعة الفوضى ليست بوسائل عملية غاية في الدقة تساوي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية وسرعة الأرض في دوراتها حول الشمس ومقاسه بوسائل عملية لا يتفكر فيها الشك هي ٣٠ كيلو متراً في الثانية بمعنى أن سرعة الشراع الفولفي في تجربتنا .. يجب أن يكون مرة ٣٠٠ ألف زائدة ٣٠٠٠٠٠ أي ومرة ٣٠٠ ألف ناقصة ٣٠٠ ألف .

قد يقول القارئ أن فارق السرعة وفقره ٦٠ كيلو متراً بنسبة سرعة الفوضى التي هي ٣٠٠ ألف كيلو متر يسقط جداً لدرجة أن يكون لمة ما يسمنونه الخطأ التجريبي أن النسبة هنا ٦٠ على ٣٠٠ ألف تساوي واحداً على خمسة آلاف ، ومن السهل أن يحدث الخطأ في ذلك ، ولكني أطمح القارئ أن كل هذا وأكثر منه اهد في محل الاختيار وإن اللباس كان ادك من كل هذا الذي يلفه القارئ ، فقد كان بطريقة استغنوا فيها تدخل الفوضى ، ولا مجال هنا لشرح الطريقة بالتفصيل وإن العلماء جميعاً والمختبرين كانوا في قد من التهمة السليقاتي نوصوا إليها ، وعلى هذا الأساس ليس هناك من شك في صحة التجربة ، حتى ولو كان المراد قياس فارق ثانو كيلو متر واحد أو الثتان ٦٠ ألف كيلو متر .

ونظراً العالم كله أصبح ذلك أو فهم الأوضاع الجديدة من سنة ١٨٨١ وهي السنة التي أجرى فيها ميكلسون تجربته الأولى ، وتجربته المعادة على الزمن ، حتى سنة ١٩٠٥ السنة التي نشر فيها أينشتاين تفسيراً لهذه التجربة ، وتفسيراً غير المعاداة العلمية ، ووضع للزمان والمكان والسرعة والطاقة تعاريفها الجديدة ، فقد اعتبر أن سرعة الفوضى سرعة كونية بحيث لا يتم الركبة التي تحمل هذه الأمواج سواء كانت الأرض أو غير الأرض ولا لتخل بعالم من الأحوال في التأثير عليها .

ولتعد الآن إلى هذا العهد السعيد :

كان أينشتاين مولفاً في مكتب تسجيل المخترعات في مدينة برن عاصمة سويسرا وكان عمره في ذلك الحين ٢٥ سنة .

وقد نشر بحثاً يقرر فيه خلا لها الأشكال بطريقة أدت إلى خلق عصر جديد من تصور الفكر البشري .

فاستبعد نظرية الأثير بل استبعد وجوده ، واستبعد الفرائ القائل أن الفضاء نظام ساكن يمكن الرجوع إليه لمعرفة الحركة المطلقة ، ونظر إلى الحقيقة التي لا نزاع فيها كنتيجة لتجربة ميكلسون ومورلي التي أدت على أن سرعة الفوضى لا تتأثر بحركة الأرض ، واستغل هذه الحقيقة فاعتبرها قانوناً عاماً للزمن من خواص الكون الذي نعيش فيه ، بمعنى أنه إذا كانت سرعة الفوضى ثابتة بالنسبة لحركة الأرض فهي بدورها ثابتة بالنسبة لحركة الشمس أو أي نجم أو جسم يتحرك في الكون الشاسع ، واستنتج أينشتاين أن قوانين الكون لا بد أن تكون واحدة لكل الأجسام المتحركة بسرعة منتظمة .

وإذا كان جاليليو قد ذكر أن قوانين الميكانيكا واحدة لكل الأجسام التي تتحرك بسرعة منتظمة فقد عمم أينشتاين ذلك لا لقوانين الميكانيكا فحسب بل للقوانين الطبيعية كلها والتي تشمل

المحطة وحدها في الفترة بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٤٥ كان ينحو ١٥ مترا سنويا بطول الساحل . وقد نقص هذا المعدل في خلال العشرين سنة الماضية فأصبح يتقدم بنحو ٨ أمتار سنويا بسبب إقامة حاجز للأمواج في طرف فيه الجزيرة المذكورة . وهو حاجز يمتد في البحر لمسافة مائتي متر مصنوع من كتل الخراسانة المسلحة ، وكان له بعض الأثر في حماية المنطقة المجاورة . إلا أن البقية من الساحل رأس البر لا تزال مهددة بفطر التآكل ، حتى لقد أصبح من المسير الوصول إلى صفوف المنازل الأولى المقامة على الساحل سيرا على الأقدام أو خوفا في الماء وانظر الشكل المرفق . وإذا استمر الحال على هذا القتال فسيأتي وقت تزول فيه رأس البر من الوجود وينتهي البحر ويعيب معها ذكريات الصيف الجميل التي تحلها قلوب كثير من العائلات المصرية التي اعتادت قضاء الصيف في تلك البقعة البادئة بعيدا من ضوضاء المدن وحظيتها .

ومع ذلك فقد لا يحتاج الأمر إلى مقارنة غرابط المسباحة لأدراك مقدار تآكل الساحل ، بل يمكن الاستدلال على ذلك من مواقع القلاع والاستحكامات القديمة التي اشتمت لحماية الساحل ، وبعض آثار هذه القلاع يوجد اليوم تحت الماء على مسافة بعيدة من الشاطئ . ويكاد يكون من الثابت أن سواحل بورسعيد تغرق جزئيا لمسافة كيلو مترين أمام طغيان البحر عليها خلال السنوات المائة الماضية ويذكر المعمرين من أهل بورسعيد كيف كانوا وهم أطفال صغار يراودون أطفال لقمة بورسعيد على الأقدام ، وكانت وفندا لا تبع من الساحل بأكثر من مائتي متر . أما اليوم فإن أطفال تلك القلعة نفسها توجد على بعد مئات الأمتار من الساحل وفي أعمق تزيد على سعة أمتار ، كما أن منشآت غر السواحل التي أقيمت على ساحل أجبر منذ ثلاثين سنة ثم يق لي لها من أثر ظاهر اليوم ، ولا تزال بقاياها تحت الماء بعيدة من خط الساحل .

ولا يسع المرء إلا أن ينحن أحيانا لأهل بورسعيد الذين دعوا حياتهم في مواقع مري مع البحر لحماية بلدتهم من طغيانه دون استسلام ، ولما طغى هذا الجبار على جزء من البلد تفتقروا إلى الدواب حتى يلب البحر في أحشائه مقابر موتاهم القديمة وجانبها من سائرهم وأسواتهم ؟ ولا يزال يقدمهم عاما إثر عام .

وبين المواقف القديمة التي تزيد وجهة النظر المذكورة بقسور مداه أن الحكومة أوفدت في عام ١٨٨٥ مهندسا يدعى دجاليس بك « لغراسة السواحل الشمالية من الناحية العسكرية لاختيار أصح الأماكن لأقامة الطواحي . وقد كتب المهندس المذكور إلى مدير ديوان البحر في ذلك الوقت وكان يدعى « خسو بك » بأن المنطقة بين كفر دمياط وبورسعيد لا تصح لأقامة الطواحي وأن الجبل الصالحة هو « أبر قبر ومنطقة الأسد » .

ولعله قد وضع مما تقدم المص القصد من تآكل الساحل وأثره المباشر على المدن والمنشآت الساحلية . ويمكننا الآن أن نعرض على القاصد على الصفوف الأولى من التآكل للامانة في مصيف رأس البر في فصل الشتاء

تآكل سواحل الدلتا

لتعرض السواحل المتاخمة لدلتا النيل في مواقع متعددة منها إلى مشكلة خطيرة تنحصر في تآكل هذه السواحل بفعل الأمواج والفيضات البحرية التي ترتطم بها وتكتسح معها زوال الساحل من هذه المواقع وترسيها في مواقع أخرى أو تحلها إلى القاع العميق . ويساعد على هذا الأمر طبيعة تكوين الساحل نفسه ، من رواسب غير متماسكة ، كمسيبات الرمل والطمي يسيل نقلها من مكان لكان .

والمناطق المروضة لظاهرة التآكل في سواحل بورسعيد عليها الرياح السائدة الشمالية والشمالية الغربية رابوية مبنية مع اتجاه الساحل ، فتدفع تلك الرياح أمامها أمواج البحر وتكون تيارات ساحلية ودوامات موضعية تزيد من حدة التآكل فتمسها لتخرج الساحل ومقدار تعرضه لهذه الأمواج والتيارات البحرية . وتنتقل الرواسب الساحلية بوجه عام من الغرب إلى الشرق فيما لايجاه سير التيارات . وتزداد المشكلة سوءا في حالة الأمواج والعواصف الشديدة التي تحتاج الساحل في فصل الشتاء صدمة أمواج عالية قوية تستطيع أن تحلل منها قدرا أكبر من زوال الساحل .

وأكثر الأمان تعرضا للتآكل على سواحل بورسعيد هي مناطق رشيد ورأس البر وبرج بورسعيد والقرية « الشيخ من الساحل الذي يفصل بحيرة المنزلة عن البحر الأبيض ويمتد بين دمياط وبورسعيد .

وفي فصل الشتاء وحده اجتاحت منطقة رأس البر أنواء شديدة أحدثت خسائر في منشآت هذا المصيف الجميل فتلوت بنحو ٢٥٠٠ جنية . كما تعرض هذا الساحل نفسه لأنواء مختلفة الشدة خلال أعوام ١٩١٨ ، ١٩٢٥ ، ١٩٤٥ ، ١٩٥٥ هـ على التوالي ولقا للبيانات المدونة في مصلحة المساحة وفي بلدية رأس البر .

وقد بدأت مشكلة تآكل السواحل تسترعي انتباه الرأي العام منذ أوائل سنة ١٩٦٠ حين تلقى السيد سكرتير عام الاقتصاد القومي في ذلك الوقت شكوى من مواطني مدينتي دمياط ورأس البر بشأن التآكل الذي يحدث في رأس البر من عام لآخر ، وقد أحييت اشكوى المذكورة إلى المجلس الأعلى للملحوم . ومنذ ذلك الوقت اهتمت الدوائر العلمية في مصر بهذا الأمر وأولته عناية خاصة .

والواقع أن المشكلة التي نحن بصدد حلها إبعاد في حساب الزمن من ذلك الوقت بكثير . وأن من يقارن الخرائط المساحية التي أعدت للساحل في فترات متعاقبة خلال المائة عام الأخيرة يمكنه أن يفت على مقدار التآكل الذي أصاب منطقة رأس البر من مجرد النظر إلى تفرقت خط الساحل وطغيان البحر على اليابسة في الشطين المختلفة .

وإن موقع رأس البر بالذات ، في شبه جزيرة غير محمية ، بعدلها فرع دمياط من الشرق والبحر من الشمال والغرب يجعلها أكثر تعرضا للتآكل من مناطق الساحل الأخرى . ومنذ عام ١٩٠٢ أكل البحر ما يزيد على ثلاثة كيلومترات من ساحل رأس البر كما ينحس من الشكل المرفق . كما تبين أن معصبل الساحل في تلك



التي تعد من قوة البحر ، وتحس سواحل الدلتا من التآكل وتعمل على بقاء بواغيز البحيرات مفتوحة .
من آتياء العلم في العالنج .

حول هجرة العلماء الانجليز الى الولايات المتحدة الأمريكية

أشرنا في عدد سابق (١) ص ٥ « المجلة » الى تزايد عدد العلماء والباحث العلميين الانجليز الحاصلين على درجات الدكتوراه الذين يهاجرون الى الولايات المتحدة الأمريكية للعمل بها ، كما كان هذا الامر متاركا قائق وخفية في البرلمان الانجليزى ، وقد صدر مؤخرا في لندن تقرير اللجنة التي شكلتها « الجمعية الملكية » لبحث هذا الموضوع ، نورد منه الحقائق التالية :

● ان معدل هجرة الشباب الانجليز الحاصلين على درجة دكتوراه في التخصصة للاقامة الدائمة بالخارج لا يقل عن ١٤٠ شخصا سنويا . ويصل هذا العدد الى ١٢٪ من جملة الحاصلين على هذه الدرجة العلمية من الجامعات الانجليزية كل عام ، وبفضل ٦٠ شخصا من هؤلاء المهاجرين العمل بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها .

● يهاجر نحو ٢٦٠ شخصا آخر من الانجليز الحاصلين على درجة الدكتوراه كل عام للعمل بصفة مؤقتة في الولايات المتحدة الأمريكية . ويصل هذا العدد أكثر من ٢٠٪ من مجموع الحاصلين على هذه الدرجة العلمية من الجامعات الانجليزية كل عام .

● في السنوات العشر الاخيرة وادت نسبة أعضاء هيئة التدريس الذين يتركون جامعاتهم الانجليزية للعمل بأمريكا زيادة ملحوظة وذلك بمعدل ٢٣ شخصا كل عام .

● يهاجر اجنرا كل عام نحو ٤٠٠ مهندس انجليزى للمعمل بالولايات المتحدة .

● يفيد التقرير ان خاصة الباحثين الانجليزم هم الذين يهاجرون للمعمل في أمريكا . وان هذا الامر مقلق للغاية إذ من شأنه أن يعطل الحياة مشروعات التخطيط ، كما أن الاجيال القادمة من الباحثين صرفة لا توجد لقيادة علمية توجها .

هذا وقد اتى البورد هشام وزير العلم الانجليزى في مجلس الثورودات باليوم على وحال الاعمال الأمريكى وعلى الجامعات الأمريكية ومن ما اسماهم « بسمارة العلم » الذين يهرون العلماء الانجليز على ترك بلادهم وكذلك على « المؤسسات العلمية للحكومة الأمريكية » .

وتورد الاوساط الأمريكية على هذه الاتهامات بالحقائق الآتية :

١ - أن بريطانيا نفسها استقبلت علميا اجانب حتى من رهايا أعدائها في الحرب العالمية الأخيرة وببداها .

٢ - أن بريطانيا نفسها لا تعرف قدر علمائها وهذا من اكبر الاسباب الدامية الى الهجرة ، فاجور المشتغلين بالعلم في انجلترا شقيقة ، والرجال الكفاء يهرون الى أمريكا للحصول على مرتبة أعلى ، والدليل على ذلك أن متوسط الأجر السنوى الذى يتقاضاه الباحث الحاصل على درجة الدكتوراه في إنجلترا لا يتعدى ١٥٠٠ جنيه في السنة ، في حين يترقى أمريكا على الباحث بمئة مئلا يتراوح بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ دولار في السنة أى ثلاثة أضعاف مرتبة في إنجلترا .

٣ - أن طريقة الحصول على أجهزة علمية للقيام بالبحث امر عسير في إنجلترا ، تتدخل فيه كثير من التعقيدات الروبونية ، على حين يستطيع الباحث الحصول على ما يشاء من أجهزة سهلة في أمريكا .

٤ - أن الجامعات الانجليزية نفسها عتيقة وبالية سواء في مبانيها أو في تقاليدها ، ولا تتمشى مع روح العصر ، كما أن وقائف أعضاء هيئة التدريس فيها محدودة .
ويعد : فقد شهد شاهد من أهله ا

(١) عدد مايو ١٩٦٢ .

تخدم خطوة أخرى لتبحث المفهوم العلمى لهذه الظاهرة بطريقة مبسطة ، وتبحث أيضا من العوامل التي تساعد على ظهورها ومن الآثار الأخرى المترتبة عليها .

الواقع أن ظاهرة التآكل هذه هي نتيجة لاختلال التوازن بين قوتين تعملان في اتجاهين متضادين : أحدهما هي قوة الترسيبه وترتفع على كمية الطين والرمال التي يحملها نهج النيل التي يتوقف على كل عام وبخاصة في وقت الفيضان ويرسبها أمام الدلتا . - والأخرى هي قوة البحر التي تسببها التضاوير البحرية كالواجز والنباتات الساحلية المتقدمة ذكها .

ولما كثر كمية المياه المحبلة بالرواسب المترتبة التي تساق الى البحر من نهج النيل في كل عام ، وادت كمية الرسوبه وتمت الدلتا وتقدمت سواحلها الشمالية في البحر . ومن المعلوم أن دلتا النيل قد تكونت على مدى الآلاف من السنين بعملية ترسيب بطيئة في خليج يجرى كوبر كانت تصب فيه سرور النيل القديمة المتعددة .

كما أن من شأن مياه الفيضان المتدلفة بقوة الى البحر أن تدفع أمامها التيارات البحرية الساحلية التي تسبب البحر وليصدها من الساحل . ولهذا السبب أيضا نلاحظ أن تضاير البحيرات الشمالية وهي المعروفة باسم « البواغيز » مثل بوقاف بحيرة اذكو عند بلدة المطرية وبوقاف بحيرة البرلس عند برج البرلس وبوقاف بحيرة المنزلة عند اشتمد الجميل تبقى مفتوحة أو متصلة بالبحر حين يرتفع منسوب المياه في تلك البحيرات . ولبقاء هذه البواغيز مفتوحة أهمية قصوى بالنسبة للإنتاج السمكى في تلك البحيرات حيث أن الاسماك المهاجرة من أنواع النورى والبطوبار وغيرها تحتاج الى الخروج الى البحر للتوالد في موسم الفرجاء الجنسى ثم تعود صفائرها المعروفة عند الصيادين باسم «الزورية» في أسراب كبيرة من طريق هذه البواغيز ، مدخل البحر مره أخرى حيث تجد غذاء غصيا لها من الكائنات الدقيقة الموجودة في مياه البحيرات ، ولعل فيها حتى تهاج أحجاما متنامية نفسها

وحين يتغلغل منسوب المياه في البحيرات المذكورة يفيض من البواغيز لأطرافها نتيجة تراكم الرمال فيها ، ينفذ التضاير البحرية الساحلية ، وينقطع اتصال البحيرات بالبحر ، وفى ذلك خطورة كبرى على الثروة السمكية في البحيرات ، التي تقدم بالتكسر من صف الإنتاج السنوى السمكى للمصايد المصرية كليا ، كما أن إطفاء البواغيز يعطل أيضا عمليات خروج مراكب الصيد الى البحر أو دخولها الى البحيرات . ومن ذلك يتضح أن قوة البحر لزود حدة كليا قلت كمية مياه النيل المحبلة بالرواسب التي تنساب الى البحر ، وينجم عن ذلك ازدياد تآكل الساحل وترعى بواغيز البحيرات للأطباء ، وتقص الثروة السمكية في البحيرات .

وتشير الدلائل التي تقلب قوة البحر على سواحل الدلتا الشمالية في المائة سنة الأخيرة نتيجة لاضرواح فيب النيل وإقامة السدود والتضارير على النهر وتحويل جزء من مياهه للتوسع الزراعى واستصلاح الأراضي ، ومن شأن ذلك انخفاض كمية الرواسب التي ساهمت في نمو الدلتا في الماضى . وسيزداد الأمر شدة بعد حفر كمية أكبر من مياه التمهسر ورواسبه خلف السد العالي ، ومن ثم يجب أن تتفقد الحجة لعدم من قوة البحر منذ الآن .

كما يشفى إذا استمرت عملية تآكل الساحل بالمعدل العالى أن يزول الشريط الضيق من الأرض الذى يفصل بين بحيرة البرلس والبحر من ناحية وبين بحيرة المنزلة والبحر من ناحية أخرى فتتحول البحيرتان المذكورتان الى خليجين يهجرين مرة أخرى . وفى ذلك خطورة كبيرة على الأراضي الزراعية الواقعة الى الجنوب فضلا من فقدان مورد غنى من موارد التسميرة السمكية .

الآن التناؤل ليجئنا على القول بأن الاوساط العلمية في البلاد شديدة العمل واليقظة من هذه الناحية . وقدموا للجنة العليا لولاية الشواطيء وهي إحدى منظمات وزارة البحث العلمى بأمرصاد ميدانية وجار عملية بقصد تصميم الحراجز والروموس

كتاب الشهر

- تراث العلم ومشاركة المسلمين فيه :
 ١١١ دراسة مقارنة ، بقلم جورج ساروتون ، ترجمة عزت قرني

في تحقيق التراث

- « وقفة صابن لنصر بن مزاحم النخري »
 ١١٥ تحقيق : عبد السلام هارون ، نقله : د. عبد الله دويش

في المكتبة العربية

- « ديوان البحترى في طبخته الجديدة » تحقيق : حسين كامل الصبري ، عرض : ابراهيم الانباري ١١٧
 « في الادب الحديث » تأليف : عمر القسوي ، عرض : عبد الحميد ابراهيم محمد ١١٩
 « السببا آله وفن » تأليف : البرت دولون ، ترجمه : صلاح عز الدين ويؤاد كامل ، عرض : هاشم النحاس ١٢١
 « مساهمة فلسطين في الرواية العربية خلال عشرينيات »
 ١٢٤ « ستة أيام » تأليف : حليم تركاي و « رجال في الشمس » تأليف : غسان كنعان ، عرض : هاني شكرى

في المكتبة الغربية

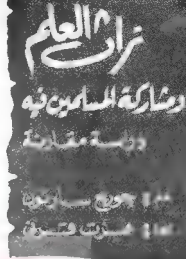
- « المقامرة الفاشلة » لو « اجازة من العالم الآخر » تأليف : جان بول سارتر ، عرض : محمود محمود ١٢٨
 نظرية الرواية في إنجلترا ، تأليف : دينشارد ستانج

The Theory of the novel in england.

- عرض : د. أنجيل بطرس سمعان ١٢١
 « الشعراء الرومانسيون الانجليز » مقالات حديثة في النقد ، شررها : ماير ، د. ابراهيم ، عرض :
 ١٢٤ محمد محمد عثاني
 « عصر القرائة » تأليف : مسير آلان جاردنر

Egypt of Pharaohs, An introduction by sir Alan Gardner.

- عرض : احمد عبد الحميد يوسف ١٢٧
 « الجناح والمضطرب العلاقة الابوية » تأليف : روبرت اندري
 Delinquency and Parental Pathology, a study in Forensic and Clinical Psychology.
 by Robert G. Andry (London : Methuen & Co. Ltd, 1960.
 ١٢٨ عرض : السيد ياسين



وأما أحكامه فقد ذهبت عن الغرض وعن الهوى ، وليس يلتزم على ذلك غير الإحاطة .

يعتبر تاريخ العلم في العصر القديم والوسط تاريخياً للتراث إلى حد كبير ، ولم تكن الاكتشافات والاختراعات كثيرة لقلة عدد المتعلمين بالعلم حينئذ بالقياس إلى اليوم ، في حين يعتمد تعلم العلم - بطبيعته - على السرعة ، فإنه كلما نظرنا إلى الوراثة كانت السرعة عكسية ، وتعتبر الجبهودات التي بذلت لإحصاء هذه الاكتشافات ومناقشتها مختصرة نسبياً وإن يكن من الصعوبة بمكان ، من جهة أخرى ، شرح هذا التراث ، وهو الذي بدونه لا يمكن أن تقوم لهذه الاكتشافات قائمة ، لأنه يحتاج إلى مجلدات كبيرة

وقد كان التراث إما شفوياً أو مكتوباً أو يدوياً ، وأصبحت جميعاً في الدراسة هو النوع الأخير ، إذا أردنا التفصيل الدقيق ، وإن يكن ممكناً أن نتحدث عنه على وجه عام ، وإن نستعمل عليه من النتائج الأخرى . فيمكن أن ننسب التراث اليدوي بالترتيب يجري تحت الأرض ، ويبقى مغلياً عن الأنظار مسافات طويلة ، ويمكن مع ذلك أن نستيقظ أن التهمس الذي يتردد من الأرض في الموقع « ب » لابد أن يكون هو هو ذلك الذي يخفي عند الموقع « أ » على بعد أميال عديدة من ذلك . وقد تم نقل الكثير من معرفة الصناعات والأطباء والكيميائيين ، بل ربما أهم جوانب معرفتهم ، إلى تلاميذهم ، من طريق الأمثلة اليدوية ، ولعل المعلم كان يقول لصبيه : « لاحظني ، وانظر ما أفعل ، وكيف أفعله ، وحاول أن تفعل مثله »

فلنحاول أن نصور هذه الآراء بالشكل ، ولنمثل لتراث كل فكرة أو واقعة واحدة بخط ، قد ينتظم أو لا ينتظم ، له عرضاته ومختلفاته . وبعض هذه الخطوط قد يتوقف لأن التراث لم يعد « أمراً لفترة من الزمن » وقد تتداخل الخطوط أحياناً ، وقد يكون تقاطعها بغير نتيجة ، وقد يؤدي إلى أشكال أو إلى اكتشاف جديد .

أما إذا أردنا أن نصور التراث كله في شكل من الأشكال ، أي أن نصور قطاع العلم بأكمله ، لا تطور بعض الأفكار والاختراعات فحسب ، فن الشكل الجديد سيختلف اختلافاً شديداً عن الشكل الأول

ويصور لنا هذا الشكل أن جلود العلم الغربي كانت في مصر وفي بلاد ما بين النهرين ، وكانت في إيران أيضاً والهند إلى حد أقل . أما الخط الرئيسي في الشكل ، فإنه يصور مرحلة الانسلاخ العربية التي كانت تمثل التيار العلمي الرئيسي منذ القرن التاسع الميلادي حتى الحادي عشر ، كما استمرت حتى القرن الرابع عشر من أكبر التيارات في الفكر الوسيط .

وبعين هذا الشكل على شرح الكثير ، فهو يظهرنا أولاً على أن التراث العربي كان استمراراً وأحياء ، لا لتعلم الإغريق وحده ، بل للفكر الآرياني والهندي أيضاً .

ولا تزال هذه المسألة الأخيرة غير معروفة إلى الدرجة الكافية حتى الآن ، وستطلب معرفتها دراسات أكثر مما تم منها حتى الآن بكثير . ومهما يكن الأمر فالتأثير على بعين من أن فرعون أساسيين من فروع العلم الوسيط ، مما علم الحساب الجديد وحساب المثلثات الجديد ، قد ظهر نتيجة لانفتاح تيارين تبادلت الفكرين مختلفين إلى حد كبير ، وهما التيار الإغريقي والتايسار الهندي ، في أرض المسلمين .

بعد جورج سارتون ، الذي توفي منذ حوالي عشر سنوات ، في المقدمة بين دواشي تاريخ العلم في العصر الحديث ، وهو بلجيكي الأصل ، نزع إلى أمريكا سنة ١٩١٥ واستقر هنسلاً محاضراً في أعظم جامعاتها ، وإن امتد نشاطه إلى انتهاء الفترة وإلى أوروبا . وأشهر أعماله « مقدمة إلى تاريخ العلم » الذي صدر في أربعة أجزاء كبيرة ما بين عامي ١٩٢٩ - ١٩٤٨ ، و « تاريخ العلم » الذي صدر المجلد الأول منه سنة ١٩٥٢ ، كما يذكر له خاصة جهود في إصدار مجلتي « أيريس » سنة ١٩١٢ و « أوزيريس » سنة ١٩٢٦ اللتين تعنيان بتاريخ العلم . ومن الكتب التي ترجمت له إلى العربية « تاريخ العلم » و « العلم القديم والحديث »

والقال التالي مقتطف من كتابه المرشد إلى تاريخ العلم ما بين صفحتي ٢٦ - ٣٣ . وعلى رغم أن هذا الجزء يقع ضمن كلام متصل ، إلا أننا رأينا - لأهميته - أن ننزعه من السياق ، وأن نضع له عنواناً نلته القرب إلى أن يمثل صفوة الحديث ، وسأستد على ذلك ، ويرد ، أن هذا الجزء يكون - بالتفصيل - وحدة متسقة . ولم نهدف شيئاً من التفت ، وإن تجاوزنا عن الهوامش .

وتأتي أهمية هذا المقال من كونه رداً - مفصلاً - على من يزعمون من الغربيين أن دور الحضارة الإسلامية - من ناحية العلم - لم يزد على ترجمة التراث الإغريقي ونقله إلى الغرب ، ومن أن هذا الرد صادر عن سارتون بالذات ، وهو المستطعة العلمية الوثوق بها .

والحق أن هذا الحيز الضيق من الصفحات تلف وراءه خبرة سنوات وسنوات حافلة بالتفكير والتجريب ، وفيه نوع من دراسة لا يتيسر إلا للقليل ، ولا يمتلكه إلا الأقل ،

محاولة تقويم الفكر الوسيط بالاعتماد على الكتب اللاتينية وهذا لهي محاولة قديمة ، فإن الكتب العلمية اللاتينية لم تكن شيئا طيلة قرون يسرها ، بل لقد كان يشوبها التأخر والتأخر من الحضارات الصرية ، على حين كانت اللغة العربية آنذاك هي اللغة العلمية للعالم إلى درجة لم تساوها فيها لغة أخرى من قبل (إلا اللغة اليونانية) ولا من بعد . فما كانت العربية لنفسه شعب واحد أو لغة واحدة أو عذبة واحدة ، بل كانت لغة شعوب وأمم وعقائد .

ولم يلق أحسن العلماء العرب بالعلم الأفرقي أو الهندى إلى ولده . فما هم أعجبوا بالسنكون الذى ولعت بين أيديهم واحترموها ، إلا أنهم كانوا « عشرين » تعميمين إلى العلم مثلما نحن اليوم ، فربوا في الزيد . هم تقنوا القليس وأبولونيوس وأرسيميدس ، ونالوا بطليموس ، وحاولوا تصنيف الجداول الفلكية وحذف مواضع الخطأ المسترة في النظريات الفلكية ، وساروا على تطور الجبر وحساب المثلثات ، وهاجوا الطريق أمام علماء الجبر في أوروبا في القرن السادس عشر ، كما أجتحت أمامهم الفرس لتعده طاهير جديدة ووضع مشكلات جديدة وإضافة المسائل جديدة إلى التراث السابق . وهذا التراث المشترك الشرقى - الأفرقي - العربى هو - تراثنا (١)

ويرجع إصعنا العلم عند العرب وعابنتج من ذلك من إساءة الفهم لما كان عليه تراثنا عنه في العصر الوسيط - إلى أن الدراسات العربية في الحضارات كانت تعتبر جزءا من الدراسات الشرقية ، فكان المستشرقون يتكرونها من سبغة غيرهم من المستشرقين أمثال دارسي اللغات السنسكريتية والصينية والملاوية . قد لا يكون هذا خطأ ، إلا أنه ضلل إلى حد كبير . فلما كان هذا من التراث المشترك - تراثنا المشترك - قد فهم إلى جانب العناصر العربية والعربية عناصر شرقية أخرى كالهندية التي إنشأ لها ، فإن إنشأنا الأنظمة من هذا التراث قد حيك بغيوب عربية . ولو حدثت لك لتعرفت تلك الضبوط فإن ذلك التراث المشترك سخطت تلك للوسط ولا شك .

ولما كان كثير مما ينسبه ميدان الاستشراق غربيا من اهتماماتنا ، فإن التراث العربى الدينى والتراث العلمى عنه العرب ليسا عربيين منا ، بل هما جزء ثابت من تراثنا المشترك اليوم ، ومن وجودنا الروحى جزء لا يتصل . بل أنك لاستطيع أن تقول أن الحضارات العربى من حضارتنا جانب شرقى ، لأن جزءا أساسيا منه كان غربيا تماما . فقد وفد ابن رشد المسلم وابن ميمون اليهودى في قرطبة متعابرين خلال سنين قليلة (١١٦٢-١١٦٥) كصفا وقد الدريسي (ق - ١٢ - نصف الثانى) في سينته ، وقرده في صقلية ، كما كان ابن خلدون (ق - ١٤ - نصف الثانى) وكان ابن بطوطة (ق - ١٤ - نصف الثانى) مغربيا ، ويعطو حصر العلماء المغاربة . ولأنك أن طغر اسبانيا به غير غير حتى ، لأنها عاملتهم في غير ماعدل ولا راحة كانها زوجة الأب القوم .

وللدراسة العربية أهمية خاصة عند دارسي التراث الإنسانى بصفة عامة ، ولؤلؤ الذين يهتمون بالظواهر تكامل الجسود الانسانية مرة أخرى في وجه الأنظار الوضعية والعمالية ، لأن الحضارة العربية كانت ، ولا تزال إلى حد ما ، فطرة ، وفطرة رئيسية ، بين الغرب والشرق . فبها أخذت طريقها إلى أوروبا ، الإعداد والجيوب الهندسية والتشريح من الهند ، والحسرى والورق والخزف من الصين . وعلى حين كانت الحضارة اللاتينية حضارة لغربية ، والحضارة الصينية حضارة شرقية ، كانت الحضارة

وهذا مما يعنى لفهم مبرما على أنه أناس يكتفون بجهول العلم الوسيط تماما ، وهو أمر مؤسف ، أو أناس يكتفون أنهم يملكونه ، بينما تنقصهم المعرفة الكافية ، وهو أمر أسوأ ، هؤلاء الذين يقولون في تسرع :

« لم يمل العرب شيئا إلا أن ترجموا الكتب الإفرقية ! كما أنهم كانوا مثقلين في الصناعة ، فمنا إلى أن الترجمة إنما كانت بأيدى المسيحيين واليهود لا بأيديهم »

وليس هذا الرأى رأيا خاطئا كل الخطأ ، ولكنه جزء ضئيل من الحقيقة ، إذا أخذناه بمفرده لم يزد عن أن يكون أكثر من أكاذيب .

أذن ، فلنلخص عناصر الحقيقة - - صحيح إن أغلب الترجمات تمت على أيدى مستعربة وليست مسلمة ، ولكن ماذا كان يمكن أن يكون غير هذا ؟ لقد كان العرب والمسلمون ، مسلمي الأغلب ، ولا يتركون إلا قلة منهم ، والقيس منقسم من كان العرب اليونانية إذا عرف لغة أخرى ، في حين تتطلب الترجمة من لغة إلى أخرى معرفة هاتين اللغتين معرفة وثيقة . ولما حين كان المسيحيون واليهود الذين كانوا يعيشون في الشرق الأوسط ، في دار الإسلام ، محصورا بمصر في اللغة وترجمتهم بالثقة فإذا كان لترجمات أن تكون للابسة إن يقولوا هم بها ، ولن يمكن لترجمات أن تتم إلا بصوتهم . وهكذا أمرهم الحكام المسلمون أن يسكنوا في خدمة العرب والمسلمين .

أما إن قلت أنه لاوجود لعلم عربى ، فكأنك تقول أنه لاوجود لعلم أمريكى ، بحيث أن صدق أو كذب إحدى هاتين القسطن سلسو لصدق أو كذب القضية الأخرى . فكما أن الأمريكى يقول اليوم على أكتاف الأوربيين ، فكذلك وقف العربى يوما على أكتاف بابليهم الفارقي . وليس في هذا شيء غريب . بل أنه هو القانون الأساسى للتطور . إننا جميعا أبناء الأرض وأبناء لعم ومولدون ومصحون . بل أننا كثيرا ماكون أقبل من أسلافنا ، بحيث أنه لو توفرنا لدينا الشجاعة المناسبة والاعتزاز بالجميل ، أذن لأحسننا أننا كالأزلام نلف على أكتاف العمالة فلما وإن كان يحدث أحيانا أن يكون الغلب انقسم كثيرا من السلف ، ولعل وفرة الأحداث وتعددتها والظهور المتسارع ، للعمالة في عصر أو آخر ، معنا أو هناك ، هو الذى يجعل من دراسة التراث الإنسانى دراسة عميقة التأثير .

وينسى بعض عمالقة الصور الوسطى إلى الحضارة العربية ، فكانهم الرافضون والمكفرون أمثال الطوائفى (ق - ٩ - نصف الأول) ، والفرغانى (ق - ٩ - نصف الأول) ، والبالى (ق - ٩ - نصف الثانى) ، وكان منهم المفسلة إشكال الفارابى (ق - الماتر - نصف الأول) ، والفزافى (ق - ١١ - نصف الثانى) ، وابن رشد (ق - ١٢ - نصف الثانى) ، وابن خلدون (ق - ١٤ - نصف الثانى) ، كما كان منهم الألباء ، أمثال الفزافى (ق - ٩ - نصف الثانى) ، ومسحاق ابن إسرائيل (ق - الماتر - نصف الأول) ، وعلى بن عباس (ق - الماتر - نصف الأول) ، وأبو القاسم (ق - الماتر - نصف الثانى) ، وابن سينا (ق - ١١ - نصف الأول) ، وابن ميمون (ق - ١٢ - نصف الثانى) ، . . . ويقول حصر كل هذا بكثير . ولعل من هؤلاء من كان غربيا ، كما أنهم لم يكونوا جميعا مسلمين وإن كانوا يهتمون بترجمهم إلى مجموعة مغربة واحدة ويكتفون اللغة العربية . ولين هذه الأمثلة إن

(١) ينسب المؤلف بذلك - في هذا النوع والسباحة - الحضارة الغربية - (الغربى)

العربية غربية وشرقية معا بسبب امتدادها على طول الطريق من المغرب الاقصى حتى الشرق الاقصى . وعلى حين كانت الحضارة اللاتينية حضارة البحر المتوسط ولتحيط الاطلنطي وكانت الحضارة الهندية حضارة المحيط الهندي وكانت حضارة الشرق الاقصى حضارة المحيط الهادسيكي . لان البحارة العرب كانوا يملكون كل محيطات الصور الوسطى . كما يملأ البحار الانجليز محيطات العالم اليوم . وعلى حين كانت الحضارتان اللاتينية واليونانية مسيحيتين ، والحضارة العربية يهودية ، وحضارة شرق اسيا بوذية ، فان الحضارة العربية كانت اسلامية في الحال الاول ، وان لم تكن اسلامية تماما ، ممتدة بين مسيحية الغرب وبوذية الشرق ، مجاورة لهما في آن واحد معا .

ولقد ظهر الدين المسيحي في الشرق الادنى ، وكان مهده قريبا من مهد سلفه الدين اليهودي ، كما لا يبعد عن مهد خلفه الاسلام ، فحمله القديس بولس الى الغرب حيث تطور هندساك باعتباره ديناً غربياً . وعلى العكس من ذلك ، فقد نشأت البوذية في الهند ، ثم رحلت نحو الشرق . وكما ان تاريخ المسيحية ضروري لهم تطور حضارتنا نحن ، فان تاريخ البوذية ضروري كذلك لهم حضارة الشرق الاقصى . وكان الدين في الحالين هو الذي حمل العلم على جناحيه . اما الدعوة الاسلامية التي احيت عقيدة التوحيد اليهودية ، التي كانت قد هزلتها المثل التي اُخذت بالتثليث ، فانها نجحت اعظم نجاح ونفذت اعظم نقلا الى ممالك الغرب المسيحية وممالك الشرق البوذية على السواء .

وبينما كانت الحضارة الهندية مغلقة على نفسها . على رغم وجود بعض الاتصالات غارسة ، واكثر منها في ذلك الحضارة الصينية ، فقد اختلفت الحضارة الغربية بالحضارة اللاتينية اختلافا كبيرا التشابك . فلذا كان في الامكان ان تستفيد بالتعام ما حدث في الهند والصين من تطورات ، حين تكون بلداً . لتفسير الحضارة الغربية ، فان استبعاد التطورات الغربية ليس في استكفانها ، والا اسدنا قصة هذه الحضارة « الغربية » كلها وجعلناها امرا غير مفهوم ، ولكن ، هل يعني هذا اننا سوف نعمل دراسة التاريخ الهندي والصيني ؟ بالطبع لا . الا انها ستكون دراسة من نوع آخر ، سمح ان تست دراسة للحضارات الجيدة او الغربية عنا . اما قصة الحضارة الغربية ، فانها تيسر لنا فهم حضارتنا لانها ما هي الا جزء . داخل منهجها . . يمكن ، حقا ، ان تساعدنا قصتا الحضارتين الهندية والصينية على فهم حضارتنا ، الا ان ذلك سيكون بطريقة مختلفة الى حد بعيد ، اي من حيث انها يساعدنا على فهم امكانات تطورات مختلفة من نماذج مختلفة على حقيقتها . فقد وجسدت هاتان الحضارتان حلولا للمشكلات الاساسية نفسها (روحانية وفلكية وفيزيائية وكيميائية وبيولوجية وعطية) التي وجسدها اسلافنا ايضا لها الحلول . فالتهود والصينيون بشر من نوعنا بالطبع ، ولهم الطالب والامال نفسها الا ان ظروف حياتهم كانت مختلفة الى بعيد عن ظروف حياتنا ، فكانت لهذه المشكلات ، بالتفصيل ، حلول مختلفة ايضا . في بعض الجوانب لا في جميعها . . ولكنه مما يدعو الى اهتمام الفيلسوف او عالم الانثروبولوجيا ان يلاحظ

بين هذه الحلول المختلفة التي قدمها اناس متشابهون تحت ظروف مختلفة . ان الحضارة الصينية « شايك » (١) حضارتنا ، وهو امر له اهمية القصوى .

والنتيجة العملية لهذا كله ، هي انه ينبغي على دارس العلم الوسيط ان يكون على علم بالعربية قدر المستطاع « ٢ » ، فاللغة العربية ضرورية له كالكلمة اليونانية لدارس الحضارة القديمة . فلذا كانت اللغات التي كتب بها العلم والفلسفة في العصر الوسيط لغات اربعة هي : اليونانية والعربية واللاتينية والعبرية وكانت كلها ذات اهمية ، فان اهمها جميعا كانت هي اللغة العربية (على الاقل حتى القرن الثالث عشر) .

ولقد انقلص الكتاب اللاتينيون في الغرب عن المتابع الاغريقية بسبب الحاجز الذي فصل اوروبا الى عالم كاثوليكي وعالم ارثوذكسي . ولقد بدأ هذا الانفصال منذ القرن الخامس ، ثم اصبح كاملا لا يبرح منه خلاص بعد ذلك بثلاثة قرون . فادى احتكارهم للمسيحية (اللاتينية) الى احتكارهم للثقافة اليونانية (اي الفكر اليوناني قبل المسيحية) ، حتى نصب عليهم ، او كاه ، باللغة اليونانية ، وفقدوا كل وسائل الاتصال بالبحر الرئيسي للعلم . فكان عليهم ان يبدلوا من جديد بدلا من ان يستمروا بما صنع القدماء ، بلقيين من حيث انتهى هؤلاء ، مما كان شائعا عليهم ، حتى ولو كانوا على رغبة في البحث العلمي اكثر مما كانوا عليه . لقد كان عليهم ان يقوموا بمجهود الاثرين بدون شقيرة الاثرين .

(١) هذا اصطلاح تستخدمه العلوم الانسانية ، وخاصة علم البليدات « علم البشر » . فلذا اتينا ، على سبيل المثال ، بيجوهين من اطفال اسرى الفارس ، بحيث تكونان متساويتين في كل الشروط ، السن - درجة الذكاء - المستوى الاجتماعي . . . الخ . الا في شرط واحد ، هو ان المجموعة « ا » تسير في دراستها على النحو العادي ، في حين تحظى المجموعة « ب » باتوا من المكافآت التي لا تحصى بها المجموعة الاولى ، حتى لرى بعد ذلك تأثير هذا العامل الجديد . وهو عامل المكافأة ، على نتائج التلقين . فان المجموعة « ا » ، وهي المجموعة العادية ، تسمى متدلة بالمجموعة « الضابطة » ولتجنب انواع اخرى واتوا اكثر من ذلك تمقيا حيث تصبح الشروط المتغيرة شريطة او أكثر مثلا . . وواضح ان المؤلف يستخدم هذا الاصطلاح هنا بدلا من البامبة ، لان الحضارة الغربية هي ايضا « ضابط » للحضارة الصينية بقدر ما ان الحضارة الصينية « صامت » للحضارة الغربية ، هذا على حين ان العلاقة بين المجموعة الضابطة والمجموعة التي يجري عليها التجريب او تدخل عليها شروط مختلفة ليست علاقة عكسية ، بمعنى ان المجموعة الثانية لا يمكن ان تسكون « ضابطة » للاولى في نفس الوقت . ورغم هذا ، فان استخدام المؤلف للاصطلاح استخدام تبرره طبيعة الميدان .

(٢) كان سارتون على علم بالعربية

والصمت هما أحسن الشروط لعمل الجيد الذي يكتب له
البقاء .

وحدث كثيرا أن حرق التراث العلمي حين نقله من اللغة
العربية إلى اللاتينية ، لأن المترجمين الجدد لم يمتازوا بعقل ما
امتاز به المترجمون الصرب . حيث كان في استطاع هؤلاء أن
ينقلوا إلى الحضارة الأخرية نظرة واضحة حتى بعد حوال الكلف
من الاتواء أو تزيف ، على حين لم يمكن في إمكان المترجمين
اللاتينيين أن يدركوا عن كتب ما استعجله العرب ، بل وكثيرا
ما أعظمهم حسن الاختيار بين ما لدى اليونان وما لدى العرب .

ولقد وصل اللاتينيون إلى الكلاسيكيات الأفريقية عن طريقين :
طريق الأفريق وطريق العرب . وكانما بدا أن الكنوز الأفريقية
التي اكتب عليها المدرسون اللاتينيون في ذلك الوقت - في
توبيا العربي الخشب منها في توبيا الأفريقي ، فإذاعات فنية على
فنية ، حتى أن ترجمة جيرارد من كزيبونا سنة ١١٧٥ لكتاب
الجسطي من اللغة العربية طغت على ترجمة له من اليونانية مباشرة
تمت في صقلية قبل ذلك بخمسة عشر عاما

فالما نلقنا إلى الكتابات العربية (بغض النظر عن الترجمات
العربية للمؤلفات الأفريقية) ، فإلنا سنجد أنه ترجم كذلك بعض
من أحسنها ، كأمثال الخوارزمي والرازي والفرغاني والبستاني
وإبن سينا ، وإن كان اللاتينيون لم ينتبهوا إلى بعض الأعمال
التي لا نرى في قيمتها من تلك ، كأمثال عمر الخيام والبيروني
وتنزيل الفلاس . كما أنهم لم ينتبهوا إلى البعض الآخر بسبب
تأخرها في الزمن ، وهو حال مؤلفات كبار المؤلفين بالعربية في
القرن الرابع عشر .

ومن جهة أخرى ، لقد ضمت الترجمات اللاتينية (والعربية)
عن اللغة العربية قدرا كبيرا فعلمنا من الكتابات التجريبية
والكيميائية Alchemical وغير ذلك من سقط المتاع ، وإن
كان ينبغي أن نشير إلى أن بعضا من تلك الكتابات التجريبية
والكيميائية - قيمة أو تحتوي على معلومات قيمة ، وأنها مهدت
الطريق - إلى حد ما - لأعمالنا نحن في الفلك والكيمياء ، وإن
يكن هناك كثير غيرها مما ليس بذي قيمة ، أو مما كان - على
الأقل - تافها خفرا سيئا الزل

ومهما يكن الأمر ، فلا ينبغي أن ننسى كثيرا في حكمنا على
هذه الانحرافات - لانتنا - أنفسنا - لم نتج بعد في الفساف
عليها ، ولولا رقابة الهيئات العلمية والأكاديميات ، والتلبد
التواصل في الصحافة العلمية وعن أساذلة الجامعات ، لكان
لظمت الغرابات والأكاذيب على حضارتنا فختلتها .

هذه الهوة التي فصلت بين جزئي العالم المسيحي كان من
متناقضات التاريخ أن يربط بين طرفيه آسيويون لهم عقيدة
أخرى ويتكلمون لغة غريبة لا تربطها بلغتهما أية صلة . هل
حين أن اللاتينيين لم يشاءوا أن يقرأوا اللغة اليونانية ، لقصة
الكنيسة الأورثوذكسية ، فإنهم قد اضفروا ، في النهاية ، إلى
قراءة اللغة العربية - لغة الأسلام - وقد تطلب هذا التطور
زما ، وإن يكن أقل مما تصور .

وفي نهاية القرن الثامن كان البحر المتوسط قد أصبح بحيرة
اسلامية ، واندحرت قوة شارلمان وحضارته تجاه الشمال . وعلينا
أن نذكر أن العلم العربي لم يكن قد ازدهر بعد ، إنما كان
عمره الذهبي نوا من ثلاثة قرون ابتدأت من القرن التاسع حتى
القرن الحادي عشر ، وفي نهاية هذه الفترة فقط ، أدرك
اللاتينيون أهميته ، على رغم أنهم كانوا يدركون بالطبع قوة
الاسلام المادية - وإن تطلبا قسرين أو ثلاثة من العسروب
الصليبية ليعلموا أنهم دولها حريبا حتى أن واحيا من جائذهايم
Gandersheim (في دوتيه برونشفيك) تحدث عن قرطبة
فقال : إنها زينة الدنيا .

وإذا كان سهلا حينذاك أن يحسن الباحث تقدير الحضارة ،
إذا لم يتم التصيب البدني عيني ، فإن تقدير العلم العربي ،
الذي كان إلى وفوها من ذلك بكثير ، كان أمرا أصعب .

وكما أن المسلمين تحفظوا من حاجتهم إلى العلم ، والفلسم
اليوناني خاصة ، لكي يقيموا حضارتهم ويبرزوا ملكهم ، فكذلك
تعلق اللاتينيون كذلك من حاجتهم إلى العلم - العلم العربي -
حتى يستطيعوا محاربة المسلمين بغض أسلحة المسلمين والدفاع
عن مطامعهم . فكانت ضرورة تعلم اللغة العربية بالنسبة إلى
أدكي الاسيان والإنجليز واضحة كضرورة تعلم الإنجليزية أو
الفرنسية أو الألمانية اليوم بالنسبة إلى الياباني مثلا . أن العلم
قوة ، وقد أدرك الحكام المسلمون ذلك منذ البدا ، على حين تردد
القادة اللاتينيون في إدراك هذا ، وإن اضفروا إلى إدراكه في
النهاية .

فكان ظهور قيمة العلم العربي لدى الغرب متأخرا نسبيا ،
حوال القرن الثالث عشر ، لم لادت قيمته على التدرج في الوقت
الذي أخذ فيه العلم العربي يتدهور بالمثل . وهاتان الحركتان ،
حركة تقدم العرب وحركة تقدم اللاتين ، هاتما لا وجهان لشيء
نفسه . إنه القانون العام للحياة ، ينطبق على الكل وليس
باستثناء ، وهو ينطبق على الأفراد انطباعه على الامم : لقد يصنع
الإنسان أعظم أعماله وهو معذور نسبيا ، ثم لا يشتره أمره إلا حين
ياخذ نتيجته في الأول . وهذا أفضل له ، لأنه بين أن الوحدة



في ذلك الوقت متحلي في المهاجرين والانتصار الجيشين في المدينة قد بايعه وإن قراره ملازم لبقائى الاقليم ، فان وجهة نظره معاوية تختلف .

فمعاوية أولا ، يتهم عليا بقتل عثمان ، أو بتدبير قتله ، أو بإياديه من ارتكبو القتل وجبروا له ، وحمايه لهم .

ومعاوية ، ثانيا ، يطلب تحقيقا واسما ، ومحاكمة فاصلة ، في شأن من قتل عثمان .

وإذا كان بعض حكام الاقاليم الاخرى قد قالوا بمشعل رأى معاوية فان عليا لم يشأ أن يعارضهم بادىء ذي بدء ، ولكنه صرف همه الى معاوية ، لانه اقواهم شكامة واكثرهم جيشا ، ويظهر انه كان يتولى ان يستقل بالشام نمويها لتتصبيه خليفة فيما بعد ، وكان يستعد لذلك من زمن بعيد .

هذا وعندما دارت رحى الحرب في صاين لم تسفر عن نصر حاسم واضمح لاي من الفريقين ، لان خداع عمرو بن العاصم ربيب آل سليمان ويد معاوية اليمنى ، وكذلك طيبة أبي موسى الانصاري مشدوب على بن أبي طالب ، فسيح فرصة النصر من علي ، وظهرت على الاتفاق مسالة التحكيم .

وانصرف ما بقي من فلول الجيشين هذا الى العراق حبيب كان على يتخذ من الكوفة مركزا له وذلك الى دمشق حيث يحكم معاوية ، على أن ينفق في جولة اخرى .

هذا ما يقوله التاريخ بامتحان في تلك الموقعة الشهيرة موقعة صعين ، وهذا ما يمكن استخلاصه بعد جهد من كتاب « وقعة صعين » موضوع الحديث .

والقول « بعد جهد » لان منهج الكتاب في عرض الاحداث يختلف كثيرا جدا بين الروافضى كتاب التاريخ القديمة والحديثة زمن هذا كاتب القصصية في تحليله واخراجة .

اما منهج الكتاب لانه يعنى في الرتبة الاولى بالروايات ، على العادة الواحدة ، او في الخبر الواحد ، يذكر روايات عديدة لا تكاد تختلف في جوهرها ، ربما تختلف في حيسارة ، او في جزئية بسيطة .

وهذا المنهج ليس بدعا من « للتقوى » ولكنه على غرار كتب التاريخ الاولى مثل « سيرة ابن هشام » فكلهما يعنى بالرواية . ويعنى ايضا بالشرح الذى قيل في الحوادث التي يوردونها وعلى لسان أبطال المعارك التي تدور .

ولقد خلف التقوى من هذا المنهج ، فرغم انه يذكر للخبر الواحد عدة روايات احيانا الا انه يعنى بالتسلسل المنطقي والزمنى للحوادث ، ويعنى كذلك تمحيص الجيد والتعليق على الروافضى .

اما « للتقوى » فلم يشأ أن يعلق على اية رواية ذكرها .

ولكن من ناحية اخرى تبرز أهمية كتاب « وقعة صعين » في انه يعنى « التوثيق الهام » وهى الخطب المتبادلة بين افراد الفريقين المتنازعين . وكذلك الاشعار التي جاءت على انفسهم .

ففيه الخطب والاشعار يمكن ان تكون بمثابة المذكرات الخاصة والخطابات المتبادلة بين القواد العسكريين والزعماء السياسيين في الوقت الحاضر .

وإذا كان الورق للعرض الحديث يبلل الكثير من الجهد والوقت والبال ، في التنقل بين مقتنيات المصور ، ووزارات الخارجية للحصول على بعض هذه المذكرات او الرسائل المتبادلة



في قلب بلاد الشام ، وعلى سفة القارات ، وفي المصام السابع والثلاثين بعد الهجرة ، كانت موقعة « صعين » الشهيرة بين علي ومعاوية .

فقد كان معاوية واليا على الشام ، منكرزا في دمشق ، امام خلافة عثمان ، وقد اطلق عثمان رضى الله عنه يده في هذا الاقليم ، الذي يقع على مشارف الدولة الرومية ، شانه مع كل ولاء الاقاليم الاخرى ، الذين اطلق يدهم في شئون الادارة ، وكان الخليفة من قرابته ، ولعل وجهة نظره في ذلك : ان التلة والاخلاص للخليفة ، يمكن ان يعتمد عليها ، وهما يتوفران توافرا اكثر ، في قرابته . ثم جاءت احداث « المدينة » لقتل عثمان .

وباع وجهاء المدينة وهم الانتصار والمهاجرون عليا بالخلافة وقد امتنع بعضهم فعلا ولكنهم قللة .

وارسل الامام علي الى الولاة في الانتصار ، يطلب منهم الطاعة والموافقة على بيعته واطلاق ذلك للناس على التساير . فمنهم من وافق ومنهم من رفض .

وكان راس الرافضين طلحة والزبير في البصرة ، ومعاوية في دمشق الشام . وكان طلحة والزبير قد وافقا ميثاقا على مبايعه علي ، ولكن الظروف السياسية اضطرهما لتقصير البيعة وقد استطاعا ان يجلبا الى جانبهما ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

وشهدت أرض العراق (في البصرة) موقعة الجمل الشهيرة وانتصر فيها الامام علي ، وبذلك استتب له الامر في العراق . وعلى هذا يمكن ان تعد موقعة « صعين » تمة لموقعة الجمل وإذا كانت وجهة نظر علي أن « برلمان » الأمة الاسلامية

فإن « التري » منهجه هذا قد وفر الجهد والوقت على الباحث ، وجعل له كل « الوثائق » - إذا جاز أن نسميها بهذا الاسم .

وعلى المؤرخ الدقيق أن يقارن هذه الوثائق بعضها ببعض ويستخلص منها الحقائق التاريخية .

فهل لنا بعد ذلك أن نعتبر أن هذا الكتاب بهيمته وثيقة هامة في تاريخنا القومي ؟
مجهود الحق :

إن كتب التراث العربي لا تكمل الاستفادة منها إلا إذا توفر عليها محقق متخصص ذو خبرة واسعة في هذا الميدان .

ومحققنا الذي أخذ على عاتقه إخراج الكتاب ، هــسو الأستاذ عبد السلام هارون ، الذي تخصص في هذا الميدان ، منذ الصغر ، فحقق أول كتاب له وهو في مرحلة العراصة الابتدائية . وله الآن ما يقرب من ثمانين كتاباً مطبوعاً نفى حوالي خمسة وثلاثين ألف صفحة ، وهو رقم قياسي لم نشهد مثله بين الاساتذة المتخصصين ، جامعيين وغير جامعيين .

وكان أن أخرج المحقق الكتاب على نسخ غليظة ، وعلى نسخة أخرى استبطنها من شرح ابن أبي الحديد للكتاب « نهج البلاغة » وهذا يبرز أهمية الاعتماد على الكتب التي تعتبر أصولاً أو فروعا للكتاب المراد تحقيقه . ولهذا نجد في أول الكتاب جداول في أربع صفحات تبين المقاربات بين نسخة الأصل وبين كتاب ابن أبي الحديد .

كما نجد الكتاب مصدراً بغرصة جغرافية وعصما المحقق ، لترسم صورة واضحة للقارئ ، فيلج على فهم الأحداث . ونظراً لاشتغال الكتاب على كثير من مسائل الشيء العربي الأصلي ، الذي يحتاج إلى شرح وتعليق ، فإن الأستاذ المحقق قد أوضح ماضيهما وفسر مبهميهما ، ليسهل فهميهما إلى القارئ ، وعلى الأخص إذا عرفنا أن بعض ألفاظ الشعر خرجت حسن صيغتها النحوية والصرفية المألوفة لتتسجم مع وزن البيت ، من ذلك ما ورد في صفحة ٢٢ :

إن الربيـجـسان التي مرتـبـها

ليست لجدد « فاشنها » ببلاد

فقد فر في الهامش كلمة « فاشنها » وقال أن معناها « فاشنها » من الشئان وهو الخفض .

وهذا مما يدل على النسي الفلوي أو التلوق الفلوي الذي يلزم لكل من يريد أن يحقق كتب التراث العربي .

كذلك مما يدل على النسي العروفي عند المحقق أن يتنه على بعض أبيات وردت غائصة أو غير مؤونة ، فمن ذلك ما ورد في ص ٢٢ :

والأ يكونوا عند طني بنصرهم وأن يظلموا طني كف هابي

فقد نه المحقق في الهامش « طني » أنه ورد هكذا بالأصل « أي أنه لا يوافق على وروده كذلك .

ولكننا من ناحية أخرى يمكن أن نقبف أنه : لكل صحة الشطر الثاني :

وأن يظلموا طني « طني » كف هابي

كما إن الحق قد عني كثيرا فيسقط الإعلام التي ورد ذكرها في الكتاب ، وما أكثرها . بل أنه فوق ذلك قد عرف بها في الهامش ، معتقدا على كثير من مراجع التاريخ الكيري ، لديها وحديثها ، بل أنه ذهب إلى أبعد من هذا فاعتمد على المعاجم الفارسية فيسقط الإعلام فبطا صحيحا ، وهذا شيء نطلبه من كثير من الاساتذة الذين يتصدون لتحقيق كتب التاريخ أو الأدب .

لم اختتم المحقق الكتاب بفهارس ستة ، للإعلام والإمكان ، واللوائف والألغاف والمصطلحات .

وبالجملة فهذا الكتاب وأمثاله من كتب التراث التي تحقق حديثا ، يعطئنا على مستقبل « علم تحقيق النصوص » إذا صح لنا أن نسميه علما ، وإن هذا الجهد وهذا التنظيم ليس وفقا على المستشرقين كما كان في الماضي .

وبهذه المناسبة نود أن نضي الجامعات عمننا نهاية كافية بالثرات العربي والإسلامي ، بأن تخصص لذلك بعض الأقسام التي تتفرع لهذا العهد في كليات الآداب أو في دار العلوم ، مثلا .

وإذا كان الأستاذ عبد السلام ، قد بذل هذا الجهد ، فإنه قد ذكر مقدمة متبسية من النسخ وعن حياة المؤلف ، ولكنه لم يعرف بموضوع الكتاب .

فهل من مهمة الحق الاهتمام بهذه المسألة ؟
ولقد رجعت إلى بعض كتبه الأخرى التي حفلها ، فوجدته قد أفل « الكلام من موضوع الكتاب بنوع » . وقد سأته في ذلك فقال أن هذا ليس من مهمة الحق الرئيسية . ولكن لا يحق ذلك فائدة للقارئ ؟

ثم أتى وجدته قد وضع عناوين جانبية ، حيث أن الكتاب ليس له عناوين البتة ، وقد جعل من هذه العناوين الجالبية مسائل وعناوين لفهرس الموضوعات .

ألم يكن من الألفيد للقارئ أن توضع بعض هذه العناوين في أعلى الصفحة ولي وسطها بحيث تبدو عناوين رئيسية ، مع وضعها بين القوسين لكفيلين (....) ليدل على أنها من هذه .

فهل الأستاذ المحقق رغم خبرته الطويلة ورغم سمعته الواسعة في التحقيق يمتز من قبيل المحافظين الذين لا يتصرفون بالنص إلا في حدود إضاحه وإخراج نسي سليم بعد مقابلة النسخ والتعليق في الهامش بالشرح ، والعناية بالفهارس وتطريج الشواهد .

فهل لنا أن نطمع في أن تمتد يد الحق إلى النص ، موضعا سبب ذلك في الهامش .
وعلل الأستاذ المحقق ذلك لتصرف في بيت الشاعر السابق . وبعد ..

فكتاب « موفعة صيف » بعد ذخيرة فيبة في ترائنا العربي ، وهو بتحقيقه الطمعي المحقق « المحافظ » قد خرج للناس في هذه الطبعة الثانية أجلى وأكمل ، وأولى بالفهرس ، وأكثر للامانة

المكتبة العربية



ديوان البحترى في طبعته الجديدة تصليق حسن كامل الصيرفي (دارالساكنة)

هذا عمل شهد مولده منذ نحو من سبعة عشر عاما يزيد قليلا ، وكنت مندها أشهد مولدين آخرين ، أحدهما مولد المصمم الكبير الذي أخذ الجميع يعد له قبل ذلك بقليل ، وكنت واحدا من ثلاثة وقع عليهم الاختيار ليملأوا في هذا المصمم الكبير .

وكانت مولد صداقة لا تزال امتز بها رغبتي بالصدق حسن كامل الصيرفي . وهو ما يكاد يعرف حتى يخلص . وهو حين يخلص يعطى لهذا الاخلاص بطل من أجله ويضحي . وهو كما يعطى لأخوانه من اخلاص يعطى لعمله ، لا أراه يفتي هنا كما لا أراه يفتي هناك ، لا يصبره أن يقسو عليه الصديق كما لا يصبره أن يقسو عليه العمل .

وهين عرفني الصيرفي أخذ يختلف الى كثيرا ، وكنت عندها ذا مغرب ، مقر بالتهار بإدارة الثقافة ، وكان اختلاف الصيرفي الى فيه قليلا على قدر ما تتيج له الفرص القليلة التي يقع عليها مؤلف مسئول ، ومقر بالليل في غرفة موحشة كانت تقع على سطح المجمع ، كنت أهد فيها للمصمم ، وكان هذا مع كل مساء ، أبدا مع الغروب وانصرف مع العاشرة أو بعد ذلك بقليل .

وكثيرا ما كان يختلف عن زميلي الصالحان معي ، وكثيرا ما كنت أتفرد في هذه الغرفة المنفردة فاحس لهذا الانفراد وحشة .

وأحس هذا الصديق ما أجد فشمع يسمى الى مع كل ليلة يؤنس ويدين ، وإذا الليالي تكشف عن رغبة تطالع نفسه في اخراج ديوان البحترى ، ووجدت الفرصة فيما مرضي موافقة لي أراه الى جانب كل ليلة بعد عمله الرابع فيه ، وأعد أنا لمصلي البادية فيه ، فقلت لي الكيالي اخوين عاملين تنسج رابطين ، رغبة الصداقة البائدة ورغبة العمل البادية .

وكانت المراجع شبه موفورة الى وله ، وكانت الزعيمة الاولى الى القوة من ومنه ، فقلت عشقت ما أعمل ورليت فيه وعشقت هو ما يعمل ورلب فيه ، ومن لم مغينا أعمل في العجم ويعمل هو في ديوان البحترى ، وإذا الطرفان يتشجان بنا بعد قليل فيجسب الصديق الصيرفي نفسه في بيته الى الديوان بين خطياته التي جلبها من هنا ومن هناك يتعبد من رزقه يؤكسر شراه الكتابة على شراه غيره مما يحتاج اليه ، فلما بين يديه مكتبة تنهض بديوان البحترى وبأعمال ديوان البحترى ، وإذا هذا الاخلاص الذي حدثت عنه يؤري به ديسوان البحترى

فلا يتال الإصغاء منه إلا لما ، يسمى اليه الناس أكثر مما يسمى هو اليهم وكان شأن الصديق غير هذا يسمى الى أصدفاته أكثر مما يسمون هم اليه .

والصيرفي شاعر من شعراء العصر رغم القديم اليه قبل أن يفصح الحديث ، فلذا هو مجتهد على حصيلته من معلوف وأساني من عصر ، ولذا هو بان لا هدم ، يعرف للقديم حقه واته مادة الجديدين ، إن شادوا أن يبدوا من ماضيهم ويصلوا جهدا بجهد ليكون جديد الأمة غير فاقها من قديمها ولا مضيع عليها تراثها ، فتدخل الحياة غير مزودة ولا ممددة .

والتجديد فلاح الحياة لتتد أن هي ابتسبه واستصمت عليه كتب عليها الفناء ، وهي الى ما يشبه الفناء أيضا أن قبلته غير امتداد لماضيها فتصبح به صدى لغيرها بعد أن كانت أمة بذاتها .

والمجددون كما يكونون رحمة إن اخلصوا التنية ولم تسب مغوسهم الاغراض ، يكونون نعمة إن هم حملوا لواء التجديد عن بعض للماضي وتلوه منته وحقد عليه ، يمثل هذه السروح التي لا تليق بكرم يخرجون بيورولهم - من اخلصوا - من شيء له أسسه وقواعده الى شيء لا أسس له ولا قواعد ، ويكونون بين يدي مجهول يعيشون عليه ، يبدون فيه ويعيدون من غير رأي ضابط ولا فكر محدود .

القول هذا ونحن نقرأ من الشعر الجديد والشعراء المجددين ، وليس بغائب الشعر العربي الموروث أن يجد تجددا وأن يجد مجددين ، يستملون منه ويعطون في أنماط تقارب أو باعد ، فيبني لنا قديما نمطا نعتز به وبألفاظا جديدا نمطه الذي سوف نعتز به أن أرسى رجليه على الطريق واستوت له ماله .

وليعلم المجددون في الأدب واللغة أن التجديد هنا أو هناك ليس تحررا من قيود الأدب التي بها يعرف الأدب من غير الأدب ولا استحيى الناول كله وكان التناقض بلسان ما أدياه كلهم ، كما أنه ليس تعطلا من قيود اللغة التي بها يتخيل قول سليم عن قول حافظ ، ولا استود العبارات صاتها وخالطها .

والذين يظنون التجديد أنه التحرر في الأدب وذلك التحلل في اللغة يظنون لسوف لا يتد بهم الزمن كثيرا حتى يروا أنهم ملتزمون بأن يرتدوا الى قيود في الأدب وقيود في اللغة ، وإذا هم بين يدي قيود كذلك القيود التي ضافوا بها في موروثهم ، وقد نعتي أجيال دون أن يروا تلك القواعد فيعيشون في بلبلة أدبية ولبلة لغوية ، ولا يكونون قد كسبوا شيئا ليسر نلوتهم على أصليهم لغتهم وتلوتهم عليهم أديهم .

يودي ألا ينطق للجديد في أدب ولا للجديد في لغة ، إلا إذا كان موصولا أولا بذلك الأدب موصولا بتلك اللغة ، صلة حقيقة دارسة مستوية ، فمثل هذا الوصول بادبه ولفته هو الذي له أن يفلو في التجديد ، وإذا قال هن وعلى لانه يصمم ، لا عن استصباح لانه يجمل .

ولا تنكر أن مما أساء الى أدبنا ولأساء الى لغتنا البعد عنهما تكليفا والبعد عنهما تعلما ، فقلت تلك القوة المصيفة بين التكليفي والباعدي وبين أديهم ولغتهم ، ثم كان أن زحمتهم لغات أخرى بأديها لانا في جملة هؤلاء المتكلمين بالعربية عن الآداب الأجنبية وعن التراكيب الأجنبية ما يربى على مسأ في مجيئهم من الآداب العربي والتكلم العربي . وكانت هذه سببا بالاعتماد على أن يصمم لغته أو بصممك بادبه ، فانطلق يشق له طريقا في ظل التحرر وفي ظل التحلل ، ولكي يعطي نفسه وجهي تقصير أخذ يسمى نفسه مجددا ويسمى ما ياتي به لجديدا .

إن النفرة من التجديد الحق خيانة كما أن الإقبال على

التجديد الوهم حياته ، وحذار أن نغدر النفوس ، بها هو في طيعها من ميل إلى التخلخل والتخلخل ، فتسوق إليها الغشاي عابدا هذا التخلخل وذلك التخلخل ، فتعجا سوف نغير ادبنا ألبيت وجوده على مر القرون ، وعندها سوف نغير لغة البيت وجودها على مر القرون ، ونحن نودع تلك اللغة وذلك الأدب لتستأيل لغيرها سوف لا نجد لغة ولا نجد ادبا .

أقول هذا وأنا أتناول ديوانا من دواوين الشعر القديمة ، وليس هو بديلي ، ممن في القدم ، ولكنه ديوان تشاء عاش في القرن الثالث الهجري وكاد يستوعبه كله ، شاع بكاد يذكره الكثير ممن ألوا بالادب العربي المامة بسيرة ، ويكادون يذكرون له قوله في وصف الربيع :

أناك الربيع الطلق يخالصا حكا من الصن حتى كاد أن يتكلمنا
فمن شجر رد الربيع لباسه عليه كما شرت ولبيا غنمينا
أجل فأبدى للصور بشاشة وكان قلبي زائما إذ كان سحرما
كما يكادون يذكرون له قوله ولا يسونه :

عنت شجر رد الربيع يفتي نسى وترمت من جدا كل جيس
ولما كنت حين زعمتني الشعر سر التباسا مع نكس ونكس
ولكن هؤلاء الذاكين لهذا القائل من شعر هذا الشاعر الكبير لا يكادون يعرفون أنه مات بعد أن خلف وراءه نحا من سلفاته فصيدة تنتظم نحا من التي عشر ألف بيت .

وعلى الذين لم يعرفوا مردود إلى المستولين من الحياة الأدبية قديما وحديثا ، فليد قل شعر هذا الشاعر بفهمه ديوان لا يبين ، مملوء بالتحريف والتضخيم ، ينقصه شعر وتلفه فطالة على غيات الديوان المختلفة .

وهكذا على هذا الديوان في البيئة العربية ياتل عليه الناصفة ليقتادوا منه ولا يبلل عليه العامة ليجيدوا منه ، وكان القابل الخاصة به يكاد يكون حول قصائد لا بمدونها يكرونها فاضافوا بهذا ملا إلى ملل وكاد الناس يكرهون الجعري وينظرون من شعره ..

فخرج هذا الديوان على هذا النحو تجديد أو تجديد للتجديد بعبارة أصح ، فمن حين تمكن للكتاب أن يدرسوا نكتهم من أن يجدوا أو نحن حين نمكنهم من الدراسة السليمة انكسر من التجديد السليم ، وأن تكون الدراسة سليمة ألا إذا استوت بين أيديهم نسايبها هذا الاستواء الذي خرجت به هذه الطبعة الجديدة من ديوان هذا الشاعر اللعل الجعري

ولقد حدثتكم كيف صبر الصديق العيصري لهذا العمل ، وكيف بذل فيه ، وكيف فصحى من أجله ، وكيف عاش له وأهيا وقته كله له سبعة عشر عاما .

والناظر في الديوان بعد أن قدمه لنا الصديق العيصري واقع على هذا الجهد ، يقع عليها أجمالا حين يطالع القصيدة التي قدم بها الأستاذ العيصري لعله ، ويقع عليها تفصيلا حين يطالع المعائن القصيدة فصيدة والأبيات بيتا ، وحسين تتسابق بين يديه القوافل النسايب وتتوعد بيتا كثيرا ، يدل على مقدار ما بذل الحقيق من عني وما بذل من صبر وما بذل من جهد وما بذل من وقت .

هذا عمل جليل لا شك في ذلك ، وعمل أمين لا شك في ذلك ، وعمل يتم من الخالص ، ما في ذلك شك ، وما أتا بجبار وراء فلم الصديق في أثر هتات لا يبرأ منها فلم ، ولا أتا متنع تخريجات للصديق أراها لأخالفه في شيء منها فذلك شيء أن يخلو منه جهد كبير ، ولكني تأثر هذين إلى شيء آخر يتصل بالرسالة التي من أجلها حمل الصديق الجهد ، يعني ألا اداء واجب المستول من أدبه الموروث ولفته الموروثة ، فيقدم تراثه إلى طالبه أقرب ما يكون إليهم ، أيسر ما يكون عليهم ، أني ما يكون منهم ، ليسقط بذلك طهرهم وليغثهم على الإفادة منه والأقبال عليه .

في قل هذا الواجب الف مع الصديق العيصري فليلا لاذر له أن القداس من طلماتها جالوا بتطيق الكتب ، ولكن على نحو لم نسمه نحن لم نعتقنا ، وكان أكثر ما جالوا من تطيق دواوين الشعر . ولعل عنايتهم بهذا كانت أكثر من غيره أراهم في الشعر وأنه أصح من أن يستقيم للنازود بدون شرح وأصح من أن يستقيم به بشرح الكلمات دون أجمال الديوان وأصح من أن يستقيم له دون أن يشار إلى رموزه ودون أن يلتفت إلى كتاباته ودون أن يفصح عن أرقامه .

وهذا الذي نراه من شروح كثيرة لدواوين كثيرة هو ذلك التحقيق الذي أعني أن القدماء فالجوه ، وأتت تراهم يشيرون إلى الروايات المختلفة ، وهي ما نعر عنه نحن اليوم باختلاف النسخ . ثم هم بعد هذا يعاولون أن يشرحوا وأن يؤولوا في الشرح وأن يوضحوا وراء المعاني ، أو أن يتيقوا وجوه الأعراب لا يمتون من وراء هذا كله الأعراب ولا الآثار ، ولكنهم كانوا يحسبون أنهم يعلمون يقيمون النص ، إلا مع هذه التاويلات الكثيرة تثبت الكمال في مكانها أن صحت دلالاتها أو ينحو بها مكانها أن اضطربت دلالاتها .

والقاري بعد هذا مفيد من هذا كله وأع للشعر بصد جلالة مدر له بعد بيانه عارف بالشاعر معرفة لا يشوبها نقص .

هذا هو منهج القداس في التحقيق ، لا سيما الشعر وحسبنا ما بين أيدينا من شروح كثيرة لدواوين كثيرة لطيف اغاصة ولطيف اطالة ولطيف استيعابا ، فلننظر إلى مدانا من مداهم وما حققوا وما حققنا

لا شك أننا حين دخلنا إلى هذا الميدان ميدان التحقيق كنا متحذرين إثر المستشرقين نحسب أنهم السامون إلى هذه السلفاة ، وما نكر أنهم كانوا السابقين إلى الإفادة من نهج السلف منا ، لم كانوا السابقين بتصوير هذا النهج تصويرا جيدا .

ولكنهم على هذا أخلوا شيئا وتركوا أشياء ، أخلوا ما يعود على تركوا ما لا يكون عليه ، أخلوا هذه المقالات التي جاءت على السلف السلف (اختلاف روايات ، وصبروها هذا التصوير الجديد وطمعوا كل منهم وطمعوا ضاعا بمدونها لأنهم لم يقدروا على التق الثاني ، وهو هذا الشرح وهذا القوس وراء المعاني .



ولقدناهم نحن فلما نأني بما تنوا به وترى ما لم يمتوا به ، غير أن أحساب الكثير من المستشرقين بالتحقيق منا - أعني المعارضة - كان من أحساب أسلافهم فإذا هم يزدون على المستشرقين وإذا هم يضيفون على الشروح الكثيرة التي لا زال إلى اليوم نصر بها نحن الشارقة الغربيين بتقليد الغربيين يعيرون عليهم دون وهي ما يزدون من شروح .

ولقد بينت لك أن الشروح جزء متمم للتحقيق إذ يهده الشروح يكون الحكم على الكلفة بصحتها أو زلفها ، ثم هي بعد هذا يكون أوصها القداسي أضلوا الناس بأدبهم ولقنهم على حين كان القداسي أقرب إلى الألب واللغة منا ، ونقصوا نحن اليوم ضرورة كبرى لتصل الناس بأدبهم ولقنهم ، وهم أبعد ما يكونون من هذا الأدب واللفظ .

وما أقول أن الصديق العيصري أفل هذا الشرح والمثل تلك الإشارات الدالة ، ولكني أخذ عليه :

١ - أنه جعل تجميع الخلافات همه وهو جهد مشكود لا شك
٢ - وأن هذا التتبع عوفه من أن يكثر في الشرح
٣ - وأن هذا التتبع عوفه من أن يجعل المعاني التي تحتاج إلى أجمال وما أكترها
٤ - وأن هذا التتبع عوفه من أن يفل للأبيات موقف الشرح القداسي فيكشف لنا عن مستويات الشعر ، وهو الشاعر المقام بخفايا الشعر .

ولكني أن طالبت الصديق بذلك كنت كمن يود أن يهرم

(١) الجدا : الباد ، والجسي : الجياض الضميف .

الغرام من أن يروا هذا الأثر الأدبي الرائع سبعة عشر عاماً أخرى يقضيها الصديق صابراً راسياً .
ولكن حسب التعريف ما قدم ، وهذا عمله بين يدي الناس سلباً ، أن شأواً أن يقبلوه إليه هذا الشرح فليقبلوا ، وكفاً أن وفر لهم الكثير وترك لهم القليل .

أبراهيم الأبياري

عمر الدسوقي في الأدب الحديث

ينحى المؤلف في عرض هذا الكتاب منحى جمالياً ، وبالرغم من أنه يعرض لفترة خصيبة في هذا الكتاب من حق ، وبالرغم من أنه يعرض لفترة خصيبة متشابكة ، فإنه يبرز بأسلوبه « الدنياميكي » وحسن انتقائه للكتابة المواتية .

ولاريخ الأدب في العصر الحديث عسير ، كما يقول المؤلف في مقدمة الطبعة الأولى للجزء الأول « هذه الالتفات المختلفة من الأدباء ، والألوان التباينة في الأدب في عصر ازدهار بالعلوم والثقافات لتجمل مهمة مؤرخ الأدب عسيرة في تعرف طرقة إلى درسيها ، وتنشيطها ، وحصرها ، وأصداها أحكام عامة عليها ، وليبان كل مدرسة والفريق الذي ينتهي إليها ، لاسيما والنهضة اليوم عامة » ومع تلك الصعوبة المتنامية التي استلقت المؤلف ندائها حتى عرض لنا المسجل الرابع ، فإنه يهتد بتواضع العلماء ، على مقدمة الطبعة الخاصة للجزء الأول يرى أن هذا الكتاب لم يبلغ حد الكمال ، وأنه سيظل عالماً على تعهده حتى يبلغ الغاية التي يصبو إليها .

وسانقصر في هذا العدد على التعريف بالجزء الثاني من هذا العمل ، الذي يؤرخ للشعر في مصر بعد البارودي (ولد ١٨٢٨ وتولى ١٩٠٤) .

ويبدأ المؤلف حديثه ببيان المؤثرات العامة في الشعر الحديث ، ويقعد لذلك ثلاثة فصول : « الثقافة الإيجابية » ، « النفسية » ، « القد الأدبي » .

ففي الفصل الأول يتعرض للصراع بين التكتافيين الفرنسية والإنجليزية ، الذي انتهى بغلبة الثقافة الإنجليزية ثم يشير إلى سياسة الإنجليز التعليمية ، وأخيراً يوجز أثرها في الأدب الحديث « بعد التسماء إلى استقطاب كثير من الأدباء العربى القديم ، حتى يستقيم لهم الأسلوب ، ويملكو ناصية القافية ، ويكثر محصولهم من الكلمات والتعابير ، بيد أن هذا الاستقطاب أورد لهم الجود ، والتقليد للأدب العربى القديم : في أساليبه ، وصور بيانه من كناية واستدارة وتشبيه ومجاز ، وف موضوعاته ، ولم يستقيموا اللغة التي أحاطوا بمفرداتها في الغرض عصرهم ، وتصوير يفتهم والتعبير عن مشاعرهم لغتهم ومجاز مشاعرهم في صور في النيبان جديدة مستمدة من بيئتهم الحضرية ، ومختلفة من الحديثة ، وأساساً احتفوا حلول الشعراء الأنجليز في كل شيء ، وعارضوه في مشهورات قصائدهم » ص ٢٨ .

ذلك هو أثر سياسة الإنجليز التعليمية في الشعر الحديث ، والذي يؤكد المؤلف في أكثر من موضع « وقد كان لكل هذا أثر في الأدب الحديث ونهضته ، إذ أولفت أكتمال لنموه واكتمال قوته ، وحصلته لا يجد سبيلاً للتقدم إلا تقليد الأدب العربى القديم » وعده ، لولا بعض أمثلة قليلة ترجمت في تلك الحقبة من الأدب العربى . ولذلك نقول هيوارد (١) « ما قتلت اللغة العربية مائة في الاستعمرات القديمة ، وهي لا تستعمل إلا مجموعة من التعابير التي لا يتاني فيها لأهل التنساسة مما يعزل دون انصافاً بجمهرة الشعب لتحداهم بما يفهمون ... » ص ٢٨ .

النتيجة إذن : اجتراح للأساليب ، وجود للشعر الذي أصبح « بقاء عن رقبته (الشعب) ومطالبه ومكبلاً بقيدو الماضي » ص ٢٦ .

ويستمر استطلاع المؤلف في عرض آثار الاتصال بالأجانب وتذقتهم ، فحين يقارب الإنتماء من هذا الفصل يبين أن « الحال في مصر منذ الاحتلال الإنجليزي حتى اليوم قد تدمر تدمراً شديداً ، وأساساً أوردنا أوتباطاً بأوروبا وثقافتها المختلفة ولعل كان لكل هذا أثر في الأدب العربى بعمامة ، وهي الشعر بخاصة » ص ٥٢ ، ومهما يكن من أمر فمن أبرز الظواهر في أخريات مهنة الاحتلال ومهد الاستقلال الاهتمام الرائد للإصلاح الاجتماعى في كل مرافق الحياة » ص ٥٥ . يتشد الشعراء أشعارهم حين يرون يذلة إصلاح تشجيعاً للعديين بها : عند افتتاح مستشفى ، أو ملجأ ، أو مصنع ، وما شاكل ذلك وعند كل ما من شأنه أن يمس مصر ، حتى تصير في حياتها المادية والمالية ، ولصحية مساوية لأوروبا » ص ٦١ . ويتكلمون من الموسيقى والغروب الجميلة ، ويصفون مختلف المفردات : كالقوفاة ، والطيار ، وأسبارة ، والميداع ، والحطاب المختلفة ذات الطابع العربى إلى غير ذلك مما يمثل عصرهم أنهم لتمثيل ويظهرون في لوب الفنية الحديثة وبالبحر ومشكلات المجتمع المصرى والسودات التي تقبهاها عن أوروبا من اصحاب الطليعة وطريق العواية ... » ص ٦٢ .

وبعد هذا الفصل الذي دار مقدمه حول أثر سياسة الإنجليز في الأدب بعمامة والشعر بخاصة « الذين لم يلتفتوا كما انتفت الكتب إلى الشعب يفحصون من طله وادواته والآله وأمانه ، ويمدوا تلك الروح الرواية ، بل انصرفوا إلى الأمراء والوزراء ذوي الجاه والمال يشغلونهم ويستعبدونهم » ص ٦٦ . بعد هذا الفصل كما ذكرنا يأتى الفصل الثانى (النهضة القومية) وهي « من أهم العوامل التي أثرت في الأدب الحديث شعراً ونثراً ، حتى صار أدبا ثورياً مثلاً استلهمت به اللغة العربية سابق روثتها وبنائها أيام عصرها الذهبي في عهد الأيبسيين ، بل أثبت على ما كان لها من سبب سبب اتصال القوى بالثقافة الغربية ... » ص ٨٨ . وفي هذا الفصل تحدثت عن المنظر السياسى للنهضة القومية ، ثم المنظر الثقافي ، وأخيراً المنظر الاجتماعى .

ونطالعنا في حديثه نزاهته المبهودة وطرهه للمجاملات ، فمثلاً حين تحدث عن مؤلف شوقي قبل نفيه من أحداث عصره الجائفة لم يتوان أن يذكر أن شوقي كان حبساً في فلبس من فلبس ذئب ، فكان « بعيداً عن فلبسات الشعب لا يعرف من السياسة التسمية الصحيحة إلا بمقدار ما يشعر به ، وثارة يسبح بالقرى » وثارة يأتى عليه أن يهجر براه « ص ٩٢ وسبب هذه الصلة بين شوقي والأدب يفسر المؤلف موقف شوقي من حادثة ، دنسواى : « لقد اتبع سياسة القصر في ذلك ، سياسة الحياء والمهادنة والخوف من كرومر ، ولم ينطق إلا بعد مرور عام فزال قصيدة من أربعة عشر بيتاً ولحقها ترديد لما قاله حافظ » ص ٩٧ .

ولكن الدكتور أحمد محمد العزلى يرجع أن يكون موقف شوقي وقتذاك يسبب غيابه من مصر في ذلك العين ، فلهذا كان شوقي يتبع الطبع في معظم حالات الصعيف إلى الاستقالة (١) . ولما كان واضحاً في مذكرات أحمد شفيق باشا أن العزلى كان بالاستانة من ١٠ يونيو إلى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٦ (٢) ، فمن الطبيعي أن يكون مع العزلى شاعرهم وصفيه ، فيكون شوقي قائماً عن مصر حين وقعت حادثة دنسواى ، لأنها كانت في ١٢ يونيو سنة ١٩٠٦ (٣) . ولست أدري ماذا يمنع شوقي على فرض وجوده بالاستانة من تسجيل شعوره نحو تلك الحادثة التي نالها أثر في الأدب الإنجليزي أنفسهم . فالكتابات الساخر « جورج برناردشو » كتب فصلاً عن هذه الحادثة « ست تشر صفة في مقدمة كتابه « جزيرة جون يول الأخرى » دافع فيه عن موقف الفلاحين العربى ، وأجمل القول في الحادثة وواقع الحكمة والقوال الشهود وما جازى به يفهمهم على العجرفة في أداء الشهادة . واتشيع اللورد كرومر

(١) حسين شوقي « ابن شوقي » ١٨ - ٢٨ .

(٢) دمترى في نصف قرن القسم الثاني من الحزب اللسانى ٦٥ - ٦٨ .

(٣) انظر « وطنية شوقي » ١٦٥ .

(1) Huart, Littérature Arab, Paris, 1961;

ويسبب ذلك تهكم الطغاة بشوئي في قصيدته التي دلى بها مصطفي كامل ، فقد رأى أنه من الممكن أن تقدم بيتا وتؤخر الآخر أو تعده ولا يقدّر المنى .

وهذا لصري تطرف « فان طبيعة الشعر الوجداني أن يكون اشتمالات يتناول بعضها بشفا ، وليس اشعلا واحدا متصلا ، وذلك لتعدد الاشتمالات وتباينها نوعا وفرة وضخا » ولم تتحقق الوحدة الحسوية أبدا في الشعر الوجداني لدى أي شاعر من شعراء العالم ، اللهم إلا إذا تعلقها على طريقة القصيدة « فهنا فقط يجوز أن نتحقق » (١) .

ولكن في الدكتور « محمد شمسى حلال » نص على الفرق بين الوحدة في المسرحية وبين الوحدة في القصيدة التي لم تتطرق على هيئة قصة . وأشار الى مرونة معالم الوحدة في القصيدة « إذ يمكن ألا تتناظر أجزاءها » وبعد ذلك قد تتساوى الأجزاء الواحدة في موضوعها من القصيدة ، بحيث لو وضعت بعض الأجزاء أو الأبيات مكان الأخرى لم تفتل وحدة القصيدة « وأحدثت نفس الأثر » وهذا مايسلم به دعاء الوحدة في القصيدة انقسم « (١) . وقد هرب مثلا تلك الزونة بابيات من قصيدة الاستبداد الطغاد « نبشني » منها .

لست أهوّل لجمال وإن كان جديلا ذلك المحبسا المعقب لست أهوّل للدكاء وإن كان ذكاه يذكي انتهى وبسوف لست أهوّل للبلبل وإن كان طريقا يصور ظله الظريف لست أهوّل للجمال وإن كان طليبا منهن فظل وريفت لست أهوّل للرشاقة وإن كان رشقا ، وهو شفي منوف وراى أنى فقرأ البيت الذى يتحدث عن الذكاء بعد البيت الذى يتحدث عن الغلال ، أو آخرها بيتي الذكاء والفضال ، بعد البيت الذى يتحدث عن الرشاقة والرقة « لم تنغير معاني القصيدة ولا وجدتها » (٢) .

أما المدرسة الثالثة ، فهي التي تأثرت بالثقافة الفرنسية ، ومن أمثلتها الدكتور هيكال ، والدكتور طه حسين .

والأول يطالع هؤلاء المدرسة بمبتهى الصراحة والواقعية . فمثلا لا يدرك أن الدكتور طه حسين « كثيرا ما كان يصدر أحكامه بدون دليل » ، ولذا يترك طوله الأحكام قاسية ، ولكنه لا يملأها دائما حتى يبرهنه نفسه من جهة الحكم والشامل ومن أمثلة ذلك الأحكام غير الملهمة وشبه التي على محمود طه أن يلقى قصيدته « ميلاد شاعر » عند طبع ديوانه « الفلاح الناهل » ص ٢٧٧ .

وهذا الفصل من أمتع فصول الكتاب ، ومن أطرف ما فيه نصور الفصل « في « مشنراته » للقافية والوزن » ذلك الشعر الذى لم يعرفه منه المؤلف ، والذي ربما يعرف أصحاب « مدرسة الشعر الحر » . وما القافية والبحر إلا الزمان وأصابع تعرض للكلام يعرض له من شؤنه وأطواره ولا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ... الشعر أمر وراء الانقسام والأوزان ، وما انظم بالنسبة الى الكاظمي في جسد الحسانه ، أو الوثنى في توب الديباج الملم . فكان لا الغالية لا يعجزها عن جديها ، والديباج لا يورى به أنه غير ملم ، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظم وموزون « ص ٢١٨ .

بعد تلك المؤثرات ، يعتقد المؤلف فصلا للحدثين عن « الشعر في مصر بعد البارودي » . فيبين أولا تطور الشعر في افراسه ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه .. ثم يقسم الشعراء الى مدارس يتبنى في هذا الجزء الحديث عن « المدرسة التقليدية » حيث يقصد لذلك النحوي الخامس والآخر ، يذكر فيه أول الخصصات المشتركة بين شعراء هذه المدرسة ، ثم يترجم لتماذج منهم . فيترجم لاسماعيل صبرى ، ولمحمد عبد الطيب ، ولعيسى الجبيري .

وتأخذ في هذه التراجم متاعة المؤلف فسد الآراء الشائنة ، فعلا في ترجمته لاسماعيل صبرى « شيخ الشعراء » كما كان

وكيله « المستر فندلي » تقريبا وسخره على التقرير الذى يصا به الى وزارة الخارجية البريطانية ، وقد شملت حملته الوزارة البريطانية والبرلمان الانجليزى لانهم لم يمتنعوا تنديد الحكم بمد تليفه ، وقال « ان الافراج عن المسجونين من أهل القرية لئلا تكبر منظر من هذه الكارثة البربرية » (٤) .

و ان شوقي مرته تلك العدالة لانتفته حتى لو كان في بلاد « واقى الواق » ، ولوصلنا شعراء « كما وصلنا شعراء الذى قاله في التفتي وهو يتحرق شوقا الى الوطن ، وكما وصلنا حديث « شو » من هذه الكارثة البربرية ..

وإيه لجميل من المؤلف تلك التوصية التي طالما بها في المقعر السياسي ، وفي مقام نواحي النظر الاجتماعى بيد أننا في انتظار وعد المؤلف « أود أن أسوق نماذج على كل لون من ألوان الحياة الاجتماعى » ص ٢١١ . وفي ترتيب الطبيعة الغامضة لهذا الجزء نستنتج بانماذج الأدبية التي عودنا أياها المؤلف ولا سيما النماذج الدالة على النهضة الاقتصادية فترى كيف صور الشعراء تحرر الأرض ومن عليها ، وكيف تحدثوا عن السيد العالى ، وكيف استقبلوا بياض الفناء ، وما هو مسحورهم محسو القواطين الاشتراكية .. وغير ذلك من مظاهر جذرية طرأت على مجتمعنا الجديد .

أما الفصل الثالث « النقد الادبى » فمن خلال حديث المؤلف الرابع نستطيع أن نميز ثلاث مدارس :

المدرسة التقليدية التي لمنى بالنقد اللغوى ، وصحة الالفاظ والتركيب ، ومقاييس البلاغة العربية القديمة وعلى راس هذه المدرسة الرافضى ، على أننا نعلم الرافضى اذا أوردناه فسمم أنصار المدرسة القديمة في النقد .. فالحسب أن للرأفى آراء جديدة كل الجدة في نقد الشعر « ص ٢٨٢ . ومن ذلك حيبه الشعراء القدماء بأنهم يعنون بالعجزيات دون المكليات ، ولا يتوصون بالنظره الكلية الشاملة ، فالشاعر العربى القديم « لا يوايه طبعته أن يستوعب كل صورة شعرية بخصاصها ، لذا هو على الخاطر المرشخ يأخذ من مفوه لا يوظف فيه ... وإذا نفسه تبر على التكون مرا سريما وإذا شعره بقطع لفظ ، وإذا لآله والرفاع أوصاف لا شعور ، وظل خامس ملقى على الأرضى الماقتانلية بتفاصيل الجسم المحى الناسا على الأرضى » (٥) .

والمدرسة الانجليزى التي تأثرت أكثر ما تأثرت بالثقافة الانجليزية . ورائه هذه المدرسة هو الاستاد عبد الرحمن شكرى ويعترف المؤلف بهذا « ذلك أنه كان في طبيعة المحدثين ، إذا لم يكن هو الطليعة والسابق لهذا الفصل ... ومن الملام الذى اتبعاني بنفسى منه أن أكثر أنه أول من أخذ يبدى « (٦) . ويكاد العقاد يعترف بهذا « ولا أذكر أنني حدثته عن كتاب قرأته إلا وجدت عنده ملما به وأحاطة بغير ما فيه ، وكان يبدنا أحيانا من كتب لم يقرأها ولم تلتفت إليها ولا سيما كتب القصيدة والتاريخ » (٧) .

ولكن الاستاد العقاد هو علم هذه المدرسة ، وبالرغم من أن المؤلف يقدس جهود العقاد في إرساء قواعد تلك المدرسة اتنى أمتد أصحابها « بالمرحى من الإفراس الأبدية » وأننا نحن نقرا أشعارهم نرى فيها شععية لها وزن وقيمة ، وعقلية تفكر وأصرف كيف نعلم من تفكيرها للناس « (٨) . بالرغم من هذا فان المؤلف « برحامة النقاد » أخذ على العقاد أمورا منها : تطرف العقاد في فكره عن الوحدة الحسوية للقصيدة « ان القصيدة ينبغي أن تكون مثلا فنيا تاما ... بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أهل ذلك بوحده الصمة وأصدعا » فالقصيدة الشعرية كالمصراع يقوم كل قسم منها مقام جهات من اجزائه « (٩) .

(١) في « الأدب الحديث » ص ٢ ، ص ٩٦ .

(٢) وحى القلم ج ٢ ، ص ٣٥٠ .

(٣) جريدة السياسة عدد ٥ من أبريل ١٩٣٠ .

(٤) مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٥٩ .

(٥) طه حسين « حافظ وشوقي » ص ١٢٥ .

(٦) الديوان ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٧) الاستاذ عمر الفتوفى « دراسات أدبية » ج ١ ص ٢٩٦

(٨) الفصل فى النقد الأدبى الحديث ص ٤٦٨ .

(٩) انظر هامش المرجع السابق ص ٤٧٠ .

السيرة فلولون الصينما آلة وفن مترجمة: صلاح عز الدين - مؤلف كتاب

ان ظهور العديد من الكتب السينمائية المترجمة في الآونة الأخيرة ، على اثر النشاط العام لحركة الترجمة في محيطنا الثقافي ، هو احدى الظواهر الجديرة بالانتباه ، لها اخرجته الطابع من هذالك حيث في غضون الثلاث أو الأربع سنوات الأخيرة يصل الى حوالي أربعة اصناف ما اخرجته ابناء الثلاثين عاما السابقة . ولكن حتى لا يتفقد القارئ بظلال هذا القول فيقوم عددا مبالغا فيه لكلمة هذه الكتب ، يجب ان يعرف ان كل رصيدها السابق منها لم يند عدد اصناف اليد الواحدة . ومن هذا يتبين مدى الفقر الثقافي الذي عانته مكتبتنا العربية ، بل وما زالت تعانيه حتى الآن - رغم الظفرة الأخيرة - في هذا المجال الذي يمثل إحدى مشاغلنا الهامة ، فضلا عن اهميته باعتباره واحدا من الفنون الضرورية لاشباع حاجة الجماهير للفن ، بالإضافة الى طوره الاعلامية التوجيهية السليمة .

وكتاب « الصين آلة وفن » من اهم هذه الكتب المترجمة الأخيرة ، ان لم تكن أهمها بالفعل ، كما موضوعه من علاقة مباشرة بالتقنيات السينمائية ، وجديده معالجته ، وسلسلة ترجمته . وهو اصغرها حيث يبلغ عدد صفحاته ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير عدا عدد لا يلبس به من الصور اللازمة ، كما انه اعد لها فهرسا باستثناء كتاب « فن السينما » ترجمة « عبد المزي ليم » الذي ظهر بعده مباشرة .

والخط الاساسي الذي اتخذه مؤلف هذا الكتاب هو محاولة تبين الجهود التي كانت بمثابة علامات الطريق نحو فن الفيلم . فالصور المحركة لم تتأكل ، بل نشأت كآلة لتسجيل الحركة وتصويرها . وكان « الفيلم » اول من ابدعه ما لهذه الآلة الجديدة من قدرة على الترفيه فاعرج خصماته فيلم صورها بنفسه ، ثم اعيد فيها على فترات من البرامج التي كان يقدمها على مسرح « كورج وولبي » . واعتازت الافلام باعدادات الترفيه وافهم الفيلم « ركعة الى التمر » . وبعتبر اول فيلم من السلسلة بين الكواكب ، وهو عبارة عن سلسلة من المشاهد المرفقة ، استعان فيه بالسابق خيال الظل ، وقد تضمن الفيلم ديكورات مسرحية بارعة ، وميلا ميكرة ، ووضعت له موسيقى خاصة . الا ان اول فيلم سينمائي حقيقي هو فيلم « سرلة الظل الكبير » الذي اخرجته « ادوين س. بورتير » عام ١٩٠٢ ، ذلك ان كل مشهد من مشاهد الاربعة عشر لم يتم تصويره حتى النهاية كما هي الحال في فيلم عليه . فقد اكتشف « بورتير » ان الصورة المتحركة تسجل بقطع المشهد قبل اكتماله والانتقال فجأة الى مشهد آخر ، في مرونة لا تسمح بها المسرحية . وهكذا وضع يده على الطريقة السينمائية في رواية القصة التي لا تقوم على اساس سلسلة من المشاهد ، بل على اساس ترتيب اللقطات ، وذلك لكشف في تركيب الفيلم Editing . كما ارجع أهمية هذا الفيلم الى انه لم يعتمد على جودة الاداة وإنما استخدمها كوسيلة لعرض قصة .

ولم على يد « حريت » كشف كل الامكانيات الفنية لهذه الآلة الجديدة وفق لزميله « ريه كبير » ان يقول : « لم يصف شيء جوهري الى في السينما منذ حريت » . لذلك كان اول من استخدم اللقطة الارتدادية Flash Back ، وكشف من أهمية اللقطة القوية ، وعرف كيف يخلق المعنى النفسي بمجرد ترتيب اللقطات ، وابتكر طريقة « الصلة ومبررات » وبها يفسر جانب التعلق كآلة في لوحة مرسومة ، واستخدم اللقطات المتقاطعة ، أي الانتقال بين مشهد الى آخر لبيان الامثال التي تحدث في لحظة واحدة في اكثر من مكان واحد

وبعتبر فيلم « مولد آلة » - بجانب فيلم « التعصب » - اعظم الافلام ، وفيه استخدم ايضا لقطات مدونة لبرازيل التشاؤمي ، وعالج مشاهد المجموعات بدقة ، وايدع في استخدام المؤثرات

يشيع عنه معاصروه ، لا يتسالى مع آراء الكفاد في ان عبقورية صبرى تجلت في « مقطوعاته القصيرة يجرى فيها ذوب قلبه » ويرجع فيها من نفسه ، بمعناه ولغته ، حتى فيها لنفسه ، ويتعدى ما الى بث لونه وتخييد كرتنه (٣) فهل تعرف روحا أدب من هذا الروح ؟ وعاطفة أسقى من هذه العاطفة ؟ ولهجة لرب من هذه اللمحة (٤)

لم ينسق مع هذا ، وإنما استعرج شعر صبرى ليبن آله « شاعر صانور » ، ربما بسبب تأثره بالتقافة الفرنسية - وشاعر الصانور يراعي دائما غيره قبل ان يراعي نفسه ، وأنه من شعره التذمعات وليس من شعره الوجدان . وقد وافق القواد المؤلف في هذا النقد ، حيث عكس على قصيدة صبرى « بالزوا ، الحب ، بقوله : هنا ذوق وكياسة ، وليس هنا عشق وحرارة » ولن تذكرنا هذه الأبيات بمادى يعوى مشرورا يتدف عليه نفسه ويطلب اليه ان يثقف نفسه عليه وإنما تذكرنا بتسديم قاهر في سيرة من سهرات الطرب (٥) ولكن الدكتور محمد متوفى في الكتاب الصغير الذي أصدره من اسماعيل صبرى في « بواق المؤلف في رايه فيقول على قصيدة » يا اواه الحسن « باله « ليس في القصيدة نعمة حسية أوسهترة او مبتذلة » وهي ايد ماكون من روح التذمعات ومجالس القرف او الخلاعة (٦) ولكنه في كتاب آخر يتألف نفسه ويذهب الى راي قريب من راي المؤلف ، فيرى ان صبرى كان « يتعمق من الحب بمجالس الطرب وصالوات المؤانسة دون ان يستشعر شيئا من صدق الحب العميق الا الذي يثير الفكرة ، حتره لا يطلب من هؤلاء التي يمارها الا ان يسري بين عاشقها حتى يقول : يا اواه الحسن الأسات » (٧)

وتصور البيئة واضح في هذه التراجم ، إذ يتحدث المؤلف في كل شخصية من تاريخ حياتها : طفولتها ، أسرته عوامل الوراثة في اخلاقتها ، منزلتها في الأدب ، مؤلفاتها . . . الى غير ذلك من العواطف التاريخية ، بل ان تصوير البيئة واضح في كل المؤلف ، فالفصل الاول والثاني يقبل عليهما ان يكونا صورة لسياسة التمساح ، او الصراع بين التقاليد الفرنسية والانجليزية ، او للصعابة في مصر ، او الاحتجاب . . . الخ . ولا فرق للمؤلف منهج يصير به وهو ان دراسة التاريخ جزء من دراسة الأدب لا يقل اهمية من دراسة شعره وتناجيه والطريقة المنى التي تؤدي الى نتائج صحيحة قدر المستطاع هي ان تدرس البيئة العامة التي نشأ فيها

الأدب من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية » (٨) ولا زلنا نذكر تلك الشادة التي حدثت بين المؤلف وبين الدكتور احمد ميد المقصود هيكل ، إذ اعترف الدكتور هيكل على طريقة طالب تقدم بمراسة للماجستير ، فالتألم اهتم بالتاريخ وتصوير البيئة قدر اهتمامه بالأدب والتناج فارد للتاريخ بابا مستقلا وجعله من صلب الرسالة ، وكان حق ان يعطيه نهيدا او مقدمة فعا كان من الاساذ المؤلف - وهو اشراف على الرسالة - الا ان دافع من هذا المنهج ، مبينا انه من خلال هذا المنهج الذي يمزج بين الظروف التاريخية ، وما تنتجه هذه الظروف استطاع ان يخرج للملكية العربية اكثر من ٢٥ رسالة ما بين ماجستيراه ودكتوراه .

وبعد فلن نستطيع الادعاء بانني عرفت بهذا السفر الضخم (٩٨) صفحة) الذي يطبع طبع كل عام ونصف العام . فقصي الادباء العربي اشرت الى ملاحظه ، ونشرت بعض انتطعاته التي تملأ الافق العربي ان ان الكتاب طليته جامعات بغداد وحلب والرباط ونونس كمرجع للدارسين في الأدب الحديث .

عبد الحميد ابراهيم محمد

- (١) أحمد حسي في مقدمته ديوان اسماعيل صبرى ص ١٧ .
- (٢) مله حسين في المقدمة نفسها ص ١٢ .
- (٣) شعراء مصر ويثاقهم في الجيل الماضي ص ٢٥ .
- (٤) ص ١٢ .
- (٥) الشعر المصري بمد شوقي ص ٣٦ .
- (٦) محاضرات لم طبع بعد .

الصولية ، ولم يكن هناك فيلم قبله تسمن ١٢٧٥ لقطه ، أو كان على مثل تنوعه في اللقطات . والواقع أن علمته تتوقف على ترتيب لقطاته ، أي على ترتيب الفيلم ، فمع أن « بورتر » قد اكتشف نظرية تركيب الفيلم ، إلا أن « جريث » هو الذي طورها ابتكاريا .. وفيه ينوع في المساحة التي تشغلها اللقطه ، كما ينوع في الطول الزمني لها ، وفي الموضوعات التي تتضمنها . ومن مشاهده الميزة الجديرة بالدراسة الجسيمة الخاص بالبرودة Climax فهو قسم مثلا لطريقة جريث في التقاط البطل أو البطة في آخر لقطه .

أما فيلم « النصب » فيحدث بالناظر أكثر من فيلم سابق ، بل أن منظره لا يضارعه من بعض الوجوه شيء حتى الآن ، كما أنه ليس لمة فيلم يضارعه من حيث تنوع اللقطات ، وإن كانت أهميته في القام الأول بسبب التركيب لا يستخدم جريث في هذا الفيلم - كما استخدم في موند أمة - القطع المتقطع ، والقطاعات الزنادية ، والقطاعات القزور والإختفاء ، ودواني الظهور والإختفاء ، والمزج ..

ولئن كان جريث قد أرسى قواعد نظرية التركيب في السينما فقد طورها « آيزنشتين » من بعده توسيع نطاقها وجعلها فن « البروج » ، والنتاج بصياغة تعريف آيزنشتين نفسه هو : « تركيب لقطات في مقام بعضها البعض بنية بشكل محسوس وصوره » . ومعناه أن طريقة بناء الفيلم ، أي ترتيب اللقطات ، لها نفس أهمية مضمون اللقطات إن لم يكن أكثر ، مثال ذلك : لقطات الأسود الرخامية في فيلم « الممره بونكين » (سنة ١٩٢٥) ، فقد أخذ آيزنشتين ثلاث لقطات لها أحدها رافد والثاني مستطيل والثالث ناضج على قدميه ، ادجها معا في مشهد المذبحه ، فبدت كأنها أسد واحد يثب للأنفاسي احتجاجا على سلك المدام . وليس المثل من هذا مثلا على الحركة التي يمكن الحصول عليها بعمليه التركيب وحدها . وفي مشهد التمر بطع من لقطه للصابون وهو ينثر على جراب السيد بخلاف أصابعه إلى لقطه للسيس وهو يفرط بصفيه على راحة يده لكي يبين أن التفتيش زائر الطباين القيصري .

وبالإضافة إلى أهمية فيلم « الممره بونكين » من ناحية المونتاج فهو يميز كل التميز من طابع آيزنشتين . أنه يستخدم موضوعا أكثر مما يقدم قصة ، والتشخيصات ليست ذات طابع فردي خاص بها وإنما بمزاج عامه واضح ، وتنوع به اللقطات والزوايا تنوعا كبيرا من حيث إبداعها وإزائها ، ولا نكاد نوجد فيه لقطه واحدة غير مدروسة من ناحية التكوين الشكلي ، وفيه نظير استاذية آيزنشتين في اخراج مشاهد الجسموع من حيث تحريكها في تكوينات شكلية مدروسة ومتعمدة ، ويلجأ إلى توسيع الزمن في بعض الأحداث حتى تستغرق على الشاشة زما أطول مما تستغرقه في الواقع للحصول على تأثير درامي معين .

ونحنما بدأ الفيلم يخطئ استغل الصوت في المساعدة لذاته بوصفه بعمه ، كما كان الحال بالنسبة لآلة السينما ذاتها ، مما كان سببا في إعادة تقييم حرية آلات التصوير في الحركة ، حتى ظهر فيلم « المنبر » عام ١٩٣٥ اخراج « جون فورد » واستخدم الصوت استخداما عموما ، فأعاد للصورة المتحركة قيمتها الفنية وارتفع بمستوى الفيلم . فالصوت فيه رغم فاعليته لا يظلي على الصور أبدا بل إنه يعتمد عليها وليس العكس ، فتقوم أجزاء كثيرة من الموسيقى بدور التعلق ، تصور أجزاء أخرى موضوعا كالتقود مثلا ، ويمتد هناك المنبر « روز أوف ترالي » بمصاحبة الكغان من أروع أمثلة الموسيقى السينمائية ، بل ويبدو البراعة في استقلال الصوت نفسه قبل الصوت أو بعده لإزلات موافق معينة كاللحاجه مثلا ، أو الربط بين بعض اللقطات .

أما في مجال الفيلم التسجيلي Documentary فقد استطاع « بورتر لافاري » - وهو أبو الفيلم التسجيلي - أن يقدم لنا فيلما فنيا وإن كان مغاير الواقع لا الخيال كما في الفيسلم الروائي ، وهو فيلم « نازد » عام ١٩٢١ . أنه يكاد يخلو من التكنيك ، ولا جليل ، ولا أجداد وفي التسجيلي أو تحريك آلة

التصوير ، وإنما يعتمد كله تقريبا على موضوع اللقطه نفسها وترتيب اللقطات واحدة بعد الأخرى . ويركز لافاري الأهمية الكبرى على اكتشاف القدرة الإنسانية الجوهريه من داخله الموضوع نفسه ، فمع أن الذي تتصف به الشخصية الرئيسية في الفيلم هو نوع نادر من المهارة والبسالة والشجاعة فإن الموضوع نفسه موضوع عام وشامل هو الاعتماد على النفس . أما فيلم « النبر » اخراج « بيير أورتر » عام ١٩٢٧ فيعتبر من أعظم الأفلام التسجيلية إن لم يكن أعظمها على الإطلاق ، فالتصوير فيه رائع متناسق إلى درجسته تكاد نفتي الفيلم من الاحتياج إلى الصوت ، ولكن شريط الصوت يضيف إلى الفيلم أبعادا لا سبيل إلى إيفاسها . ففيه ناليف بين أصوات الطبيعة ، وموسيقى من وضع « فرجيل نوسون » نغمات الفسيفساء من الوكالكور الإزميلي ، وتعلق كنبه « لورنز » نفسه وأداء المثل « بوماس تشارلر » . والتعلق هنا تعليق على الصور فحسب ، وهو دائما كائن تحت الصور ولا يفسح نفسه لونها أبدا .

في استحدث السينما من المصادر الأدبية بعض موضوعاتها ؟ يجب الإذلل على هذا السؤال في الفصول الثاني مشروحاتنا ثلث عشر والرابع عشر ، وفيها يقدم لنا - على طريقة من خلال المتنازع التي يعرفها - التعديلات الضرورية التي أجريت على الأعمال الأدبية عند اعتمادها للسينما ، وهو بذلك يواصل تناهته للفن السينمائي في محاولته نفس طريقه نحو النصح بتحديد معالمه وتزيين من غيره .

فالاعتماد السينمائي للمسرحية مثلا يستلزم أن تستغنى عن عدد من خصائصها لكي تحل محلها خصائص سينمائية ، كما هو واضح في أعداد مسرحية شيروود « إبراهيم تكتارن في ألباني » وهو مثال نموذجي لأعداد فيلم من مسرحية . انهم يدخل الموضوع في نقطة أكثر ليكبرا من مدخل المسرحية ، ويعرض طريقة مباشرة الحوادث التي أورد في المسرحية مشابها إليها ، أو السابغة لبداهة الصراع المسرحي ، أو الدائرة خارج النثر المسرحي الصرصور بين المتناظر أو في أنثاه . وهذا صيغ الفيلم التي استعاضها في المجال مما يكسبه تناميا لتقدمه المسرحية . وبمثل مشهد المظلة في الفيلم نوما آخر من أنواع التوسيع ، فالطبيب الطويلة في هذا المشهد من المسرحية قد اختصرت المختصرات كبيرا في محاولة الحصول على التفاصيل ، كما ضم النثر عددا أكبر من الخطباء أي لم يوسع المجال داخل الفيلم ذاته ، كما أمكن بعمليه التركيب تأكيد تفاصيل صغيرة في الصورة والأياء لا يمكن الحصول عليها على المسرح ، مثل التحيات المتبادلة بين إبراهيم وهو على النصف في مشهد المناظرة وبين أسرته في النافذة .

ولكن مسرحية « شيروود » تستأزم تقريبا ثلاث سماعات للعرض على المسرح ، في حين لا تتجاوز مدد عرض الفيلم مائة دقيقة يقوم جزء منها بالتوسيع في المجال ، ولهذا فإن الواقع قد لا يجد حد حلف جزء كبير من المسرحية عندما أعيد للمسائنة وذلك بإدماج التفاصيل الدرامية ونحوها هذا بالطبع على حذف في الحوار . إلا أن الفيلم لم يقل مطلقا في رسمه تشخيصيات المسرحية ، فقد أنها قد حرت من كثير جدا من الحوار ، فإن هذا الذي ضاع قد موهب عنه ، على نحو ما ، بالتوسيع في المجال . وتختلف المسرحية القصيرة من الطويلة في اعتمادها سينمائي . أنها تحتاج إلى قدر أكبر من توسيع المجال ، ولقد أقل من إدماج التفاصيل ، كما تم في فيلم « لكاد ماير » الذي أعد من مسرحية من فصل واحد المؤلف نوبل كوراد . وبينما تكثف مسهله المسرحية من تشخيصيات على نحو موفسوي فقد لها تروى قصصا أساسا من طريق الحوار ، بلجا فيلم « لكاد ماير » إلى العرض الثاني حيث يروي القصة من خلال وجهة نظر « لورا » فكان بذلك القدر على إيراد ما يحتاجها من صراع داخلي ، وإن التقى ذلك حذف بعض التشخيصات وأجزاء من الحوار . والمظارات في المسرحية تقدم بشكل غير مباشر بأحداث أصواتها خارج خشبة المسرح ، أما الفيلم فيقدمها مباشرة على نحو واضح تسجيلي وبشكل واضح ، ولكن ليس هكذا عدد الأفلام في

ذاته فقد بين « روجر مافل » كيف أن الفسلفات الأكسبريس
« تصبح بالتدريج رموزاً لمجر الصائقين من أشباح عواظهم في
أسطرارها إلى الصامة بالمطارات المحسة ، البطيئة ، الضرورية ،
المهيدة » .

ولئن كان « ديكتي » يملأ صفحة كاملة في قصته « آمال كبار »
لكي يصف مس هافيشام ، فنحن نرى في الفيلم مس هافيشام
دفعاً واحدة ونظراً براهي في المشهد كله ، أما إذا كتب مثلاً أن
الطفل يدفع إلى لندن فيستغرق هذا الأخير في الشاشة وقتاً
أطول مما يلزم لقراءته ، وهكذا فينبأ يمكن - عند أعداد الرواية
للسينما - حذف الوصف كله من الفيلم فإن السرد يطول - إلا
أن الرواية تسم من السرد أكثر من الوصف ، ومن هنا فإن فترة
عرض الفيلم القصير من أن تستوعب كل ما يمكن أن يكون في رواية
موسوعة الطول من شخصيات وأحداث وتفاصيل ومناظر ...
ولذا فإن أعداد فيلم عن رواية يتطلب الحذف .

ولقد كانت قصة « آمال كبار » موضوعاً طيباً لإنتاج فيلم
سينمائي ، ذلك أنها : لا تصور شخصياتها بالقطعة سيكولوجية
معقدة قدر ما تقدمها من طريق مظهرها الخارجي ، كما أنها
تتبع وتتبع في المشاهد الثيرة للآفات ، وللأصابع أيماناً .
وكان الفيلم كان أحياناً في « الغناء أثر الكتاب » حيث نجح في
رواية القصة من خلال وجهة النظر الذاتية الموجودة بالكتابة
فنحن لا نرى حسب بل نسمع أيضاً من وجهة نظر « بيب » .
وإنعقد الصوت استخداماً مبدعاً بطرق مختلفة لتخلق وجهة
نظر استيطانية . « فن « بيب » مثلاً ، عندما يهبط الدرج ليراق
الطعام ، يتصور ، كما يعبرس ديكتي ، أن كل لوح من الألواح
الخشبية ، وكل شق في كل لوح منها ، يصرخ وراءه قائلاً
« امسكوا هذا » و « استيقظي يا مسر جو » ، واليوسلم
متصوره لهذا المشهد ينادي يكون نسخة حربية من الرواية » .

وبينما توسع التفاصيل ويضلل الجبال حديد أعداد الرواية
للسينما ، يحدث العكس من القصة القصيرة فيوسع في المجال
للتفاصيل ، وإعلام مثل : « القتال » ، « الحج كسبر » ،
وكل شيء ينكر فزاد بادل ، « تقدم هذه طبة من المطلة »
لأعداد الإلام من القصص القصيرة . وفي هذه الإلام تكتسب
الشخصيات حدوداً أكثر تعبيراً بسبب التوسع في التفاصيل
وطريقة عرض الحوادث . والواقع أن القصة القصيرة يمكن
أعدادها للسينما بأمانة أكبر مما هو ميسر في الأعداد عن
المحرجة أو الرواية .

وهكذا يمكننا أن نخلص مما سبق إلى أن الأعداد السينمائي
إذا نجح في مهنته فإنه لا يقدم مجرد الوسيطة السينمائية ، بل
يبدع فناً سينمائياً . وإذا كانت السينما قد بدأت ونشأت كآلة
قد شادت لها الظروف أن تلتهم طهر فنون السرد التي استتب
أمرها ، فنون الدراما والملمحة ، فالألم شبيه بالمرحلية لا
تتملي ، وهو شبيه بالرواية لأن وسيلته السرد والوصف ، وعلى
الزعم من أنه لا يستطيع السرد بطريقة استيطانية في متوال
الرواية ، إلا أنه يستطيع أن يرد بطرق استيطانية لا تستطيعها
الرواية ، ومرجع ذلك إلى أنه في تمثيله ذو طبيعة خاصة
يستطيع أن يسرد بطرق استيطانية لا تستطيعها المرحة .

هذه هي معالم الطريق التي خلقت من آلة السينما فن القرن
العشرين ، وقد اتضح عرفنا السري للكتاب إسقاط بعض
الفصول الإلال أهمية في تعبد هذه المعالم ، وإن قلت لها أهميتها
الخاصة مع ذلك ، وهي الفصل الرابع ، ويكتشف عن أثر قبول
المثلة المغالطة صارة بترانج العمل في السينما ، فيقوية أهمية
مثل السينما ، ودعم نظام النجوم ، وكانت تلك خطوة إلى
« التشارلي سايلن » مثل البائع على سيطرة المثل في الإلام .
والفصل السادس ، وبين كيف دخلت التصويرية في السينما من
طريق الفيلم الألماني متعمده دكور كاتيجاري . والفصل
السابع ، ويعرض لمود فيلم « المشجع » في نقل المذهب الجيبي
إلى السينما عن رواية « ساينج » Regue « لفرانك نوريس
التي أخذ عنها . وأخيراً الفصل السادس عشر ، ويتأني علاقة

التليفزيون بالسينما ، وينتهي إلى أن ترتيب أجزاء التمثيلية
التليفزيونية مشابه لترتيب أجزاء الفيلم السينمائي ، وليس في
الترتيب التليفزيوني للقطات شيء تعجز السينما من الوصول
إليه ، وعلى ذلك فإذا كان التليفزيون فناً فهو فن السينما .

بقيت بعض الملاحظات على ترجمة الكتاب نوجزها فيما يلي :
● عنوان الكتاب « السينما آلة وفن » غير انطابق لموضوعه
الإجمالي وهو « ما يتضح من العرض السابق » تطور الفن
السينمائي . والكتاب لم يتعرض لإليات السينما سوى في الفصل
الأول الذي لا يمثل أكثر من 1/20 من حجم الكتاب فمن أين
جاءت كلمة « آلة » في العنوان . والصواب الأصلي لاسم الكتاب
Motion Pictures ليس فيه ذكر للسينما باعتبارها آلة .
● حرص المترجم على ترجمة Close Shot بعبارة لفظة
قريبة في كثير من المواضع ، ولكنها كثيراً ماوردت أيضاً « لفظة »
مقربة (ص ١٢٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٥١ في سبيل المثال) .
ويفضل بالطبع الاستمرار على صيغة واحدة في سياق الكتاب حتى
لا يقع القارئ في لبس بينهما .

وكذلك بالنسبة لعبارة « لقطات متعاطفة » (ص ١٢٥) فمن
سيال الكلام يلهم أن المقصود منها هو نفس المقصود بعبارة
« قطع متقاطع » الموجودة بالمعجم ، فلماذا يعدل المترجم في صلب
الكتاب عن أملاً ما أورد به معجمه ؟

● لا فرق جوهري بين اللفظين Close Up و Close shot
فكلامهما للغة لجزء خاص له أهمية معينة ، ومن لم فلا داعي
لترجمة الأولى « لفظة مكبرة » والثانية « لفظة قريبة » معاوهم
بالاختلاف بينهما . ويمكن التعبير عنهما بعبارة واحدة هي
« لفظة قريبة » ، خاصة وأن ترجمة Close shot باللفظة مكبرة
سيؤلفنا في الخلط بينها وبين اللفظة التي يتم تكبيرها داخل
الفصل .

ثم إن ترجمة Close Shot بلفظة قريبة منسوبة إلى بعد
آلة التصوير عن الموضوع ، في حين أن ترجمة Close Up
بلفظة مكبرة يرجع إلى النتيجة التي تراها في الشاشة وهذا
خطا مطفي ، حيث يجب أنفلا أساساً واحد للتصنيف ، فإما أن
نصنف اللقطات من حيث نتيجتها في الشاشة (وفي هذه الحالة
تكون لكلامها لفظة مكبرة مثلاً) ، وإما من حيث وضع آلة التصوير
بالنسبة للموضوع (وفي هذه الحالة تكون لكلامها لفظة قريبة) .
وإنفلا وضع آلة التصوير أساساً للتصنيف هو الأفضل هنا

لأنه سيشمل معظم أنواع اللقطات من Long Tiltting ،
Tracking ، الخ وهو في الواقع يتفق مع ما أتفده الترجمة

عند ترجمة Angle shot « لفظة بزاوية » ، و Folton Shot
أو Dolly shot « لفظة متتابعة » ، و Medium Shot « لفظة قريبة
متوسطة » ، الخ ، ولكن يختلف هذا الباع في ترجمة
Long shot بعبارة « لفظة بزاوية » والأفضل ترجمتها
بـ « لفظة بعيدة » للمحافظة على نفس أساس التصنيف .

والحق أن موضوع اللقطات هذا وتصنيفها يستحق من
المهتمين بالسينما دراسة توحيد مصطلحاتها لغائياً ليس .

● لا شك أن الترجمة قد أخطأ سهواً في ترجمة Pan Shot
بعبارة « لفظة واسعة » (ص ١١٧) وجاء هذا السهو سيكولوجياً
نتيجة للالة العكسية بين هذه العبارة « لفظة واسعة » وعبارة
« لفظة آنية » والأخيرة هي الترجمة الصحيحة للكلمة . ولكن
كان المفروض بالطبع بتأني هذا الخطأ في الترجمة .

● ترد في (ص ٢٥٠ ، ٢٥١) هذه العبارة « الفيلم الناجح
من القصة القصيرة أكثر اختلافاً من مصدره من الفيلم الماحوذ
من الرواية » . وفي ص ٣٧ نجد « القصة القصيرة يمكن
أعدادها للسينما بأمانة أكبر مما هو ميسر في الإعداد عن ..
الرواية » وبعبارة نجد .. الفيلم الحق من الرواية يمثل شئنا
أقل من الرواية ، فإن الفيلم الحق من القصة القصيرة ، قد
يكون شئنا شئنا نسبياً ، والتناقض واضح بين العبارتين فهل
يرجع ذلك إلى الترجمة أم إلى المؤلف ؟

● لماذا يصر المترجم أحيانا كثيرة على استعمال كلمة «كاسبر» الانجليزية ، بينما عبارة « آلة التصوير » العربية تؤدي نفس المعنى ونفس السلاسة ؟
وعلى كل حال فهذه الاختلافات ليست سوى هنات لا تقلل من قيمة الكتاب أو جودة ترجمته .

هاشم النحاس

قصة الإنسانية في رؤية هاشم

حليم بركات
سلسلة أسبوع
دار مجلة شعر - بيروت

عشاق كنفاف
رجال في الشمس
دار الطبيعة - بيروت

الجيل العربي الثالث الذي عاش في بلاد التخلف الحضاري المريع في بلاده ، ويستشقى سمات الإزدهار المادي والفكري في أوروبا وأمريكا ، ومن ثم تعجزت أزمته في ذلك التمزق المتنازع بين الرغبة في أن يعيش حياته بعيدا عن شرارة التخلف ، والرغبة في أن يعيش مجتمعها كما يريد هو .
ثم جاءت مجلة فلسطين - وآيا لمعجب - كقول النجاسة لهذا الجيل العاثر العذب ، فقد حددت لهم بصورة حاسمة انحدار القضية التي قدر عليهم أن يتحملوا عنها بكفايا وإخلاص ناديين ، إذ أحسوا أنهم يتحملون في واقع الأمر عبء أنفسهم أولا ، وعبء أمته ثانيا ، وعبء الحضارة الإنسانية في النصف الثاني من القرن العشرين أخيرا . أي أن كارثة فلسطين قد حلت لهم معلم التناقضات بين هذا التشاؤم ، بمعنى أن نزفاته المديدة المبعثرة قد توحدت في تمزق واحد كبسبر يشتمل على كافة التناقضات التي حشدتها لهم مصر في مواجهةهم للشرق بالوقوف على المستوى الحضاري .. تماما كما كانت العراق العليقان عملا حاسما عند الشباب الأوربي في إصهار أزمته المختلفة في بؤفلة أزمة واحدة كبرى هي مشكلة الإنسان مع القيم التي أدت به لأن يكون « منتشيا » .

حليم بركات في روايته « ستة أيام » (1) يطرح لفظة الإنشاء في حياة هذا الجيل . وقد سبق لتجيب معطوف أن ناقش قضية القضية في الثلاثية ، أمضى لفظة « كمال بيد الجواد » . وخرج من المناقشة بأن أزمة الإنشاء في هذا المجتمع هي « العربية » . وما ذا حليم بركات في يسيف عتصرا جديدا إلى الأزمة هو « التخلف » الحضاري .
والحق أن أزمة العربية وعبء التخلف الحضاري في المنطقة العربية من أخطر العوامل الصانعة لمشكلة « المنتش » في بلدانها فالوقوف الإنسانية بيننا وبين الغرب في الوقت الراهن ، أننا دوننا مرحلتنا الحضارية المعاصرة من أحضان التخلف المريع عن ركب الحضارة العالي ، والتقاليد غير الديموقراطية في أسلوب الحكم . فكان « الإنشاء » إلى النظرات الاجتماعية والحقول الاقتصادية والسياسية ، أمرا لا مفر منه أمام المصير العربي ، وكل « الألاعاب » مجرد أمنية لميليسا الفروغ السنية على الوجدانات الموقفة .

أما في بلاد الغرب ، فالعكس هو الصحيح : لوقوف الأصلي هو الأسبوع ، أما « الإنشاء » فهو مجرد أمنية يعطيها الضيق على الوجدانات العذبة .

لذلك كان تجيب معطوف في منتهى الصدق الفنى والإخلاص للخطية المائلة حين جعل أزمة كمال بيد الجواد تنتهي بالإنشاء إلى الثورة الأدبية ، بالاحتياز إلى صدى كلمات ابن شقينة أحمد شوقي .

أما حليم بركات فقد وضع شخصيته الرئيسية « سهيل » في أتون الأزمة ، في قلب الحنة ، في اللحظة الحاسمة مسن تاريخ المساء .

إن سهيل أحد أبناء قرية « دير البحر » التي أنزلها اليهود بالاستسلام خلال أسبوع ، ولا تلاشت نهائيا مع رياح المون والعمار . إن أهمية الزمان والمكان هنا ، بافظة من زاويتين : الأولى فكرية ، وهي أن الفنان أراد أن يستشبع أعمال هذا النموذج البشري في ذروة العظمة العرجة ، والأخرى تعبيرية وهي أن البناء الروائي يخلو عادة من العواشي والذبول عندما يخالذ الزمن في الأسبوع والعمق لا في التراخي والظول . لذلك يلجأ الكاتب إلى الموبولوج الداخلي والمذكرات الشخصية والأحلام وكافة مستلزمات التعبير عن المأساة والحاضر والمستقبل في قطاع زمني قصير المدى .

إن أهمية الزمان والمكان تخفض بصورة تلقائية للصدت الرئيسية التي تتقدم فيها معاً من خلال الشخصيات الثانوية والرئيسية على السواء .

(1) صدرت من دار مجلة شعر - بيروت .

إذا كانت مسألة هذا المصير هي الترفقة المصرية ، فإن كاتبة فلسطين وقيام إسرائيل ، من أبشع معالم هذه المسألة . فالدمعة الإنسانية التي انتشت عليها دولة الانتصاف ، الفكرة المصرية . ومن هذه النقطة تصبح جراحنا القومية في فلسطين جراحا إنسانية شاملة لأعرق ما في الصير البشري من قيميات كريمة بطبيعتها لمصير البداة والظلام .
ولقد عرف اليهود قيمة التعبير الوجداني مما دعوه بغضبه أروى الهاد . فكانت لهم جولات عديدة في مجال الرواية القائمة على الفكرة الصهيونية في لغات عالية كثيرة .
أما نحن العرب ، أصحاب المسألة الحقيقية ، فقد أوتينا القصيدة الخطابية أطارا ينمنا لإحساننا كما أوتينا تلمسيع الضلال على معنى المسألة في فلسطين ، فنزعا رداة الإنسان المريع ، وأضيقنا عليها لوبا قويا شيئا .
ولذلك كان من المصير أن يكون هذا التشر سكبيرا قريبا مستجنا لدى التسويع الأخرى التي تؤثر فيها الدعاية الصهيونية ليل نهار .

وإذا كانت هناك بعض القصص التي صاغت هذا الجرح الدامي ، فإن صياغتها لم تخرج مما أرادته القصيدة الخطابية لنفسها من اللجوء إلى المستوى السياسي فحسب وما يتبعه من تفريرة ومباشرة ، والانطلاق من المعنى القوي التمسيع دون الدلالة الإنسانية الكبرى ، فلو جرت فكرة الانتصاف والذهب ، ولم تحاول قط إضاعة الفكرة المصرية ، وهي الدعاية الاسبوعية فيها أدى - التي تقوم عليها إسرائيل ، وتنبثق منها مسألة فلسطين .

أي أننا إذا شئنا أن نلهم أدبا إنسانيا يعبر عن مأساتنا « الخاصة » في فلسطين ، فإنه يجب أن يتلاق أولاء النور في وهاد السجادة والسفعية والإبلاء على الضعر المسيحي فحسب .

ومعنى ذلك أنه يتعين علينا الإحاطة الشاملة بكافة أبعاد التجربة وتساكنها المتمد ، فنحرز أحقر شروط العمل الأدبي ، وهو الصدق الفنى .

لذلك ينبغي أن نصدّر في معانينا للتجربة عن وحي عميق بجوهرها الإنساني العام الذي ينفلج ببساطة إلى صير العالم كله . فنكون قد أخذنا للدلالة الكلية في مأساتنا ، واستغنينا أن نلهم إلى إنسان في أي مكان من أرجاء الدنيا ، خلاصة مأساة المصير .

وليس غريبا أن يعاول القيام بهذا الواجب الضخم اتانصم جيل المسألة . فالاستاذان حليم بركات وإسحاق كنفاف من أبناء فلسطين الذين تجرأوا مرارة الكارثة فطره فطرة يوحاشوا في قلب المسألة ، نبضة نبضة ، وهم - بعد ذلك - من أبناء

والحدث في « ستة أيام » هو صفة دير البحر أمام انذار
الإعداد « أن نستسلم دير البحر أو نسمح من وجه الأرض »
كما يقول السطر الأول في الرواية .

هذا الحدث يتجسد في الشخصية الأولى : سهيل الذي
يتمدد في داخله ومن خارجه مونولوج طويل يشترك مع أول
خيوط المسألة : الفتيان المتكاثف يتصادم ويحدث بدير البحر
يفصلها عن العالم . أنها سفينة من أرض كنعان تحضر البحر
لأول مرة متحملة الموت الجحيمي ضد أطراف الوجود « :
السفينة نوابه الموت بلا دنس . رغم هذا تتحدى « : أن
أمة كبيرة ستهلك « (ص ٩) .

هذا الخيط يصل بينه وبين الجمع أو الأمة فكرة الانفصال
عن ذاته . أي أنه يشعر حتى التنازع بانه مع الأرض التي نبت
من ترابها ، فكرة واحدة لا تنجز . وفصلية الانتماء لا تبدأ من
هنا . أنها تبدأ من تصور الفرد للمجتمع ، كمجموعة من الأفراد
من تصور سهيل للفرد وبعد الجليل وناعمة وخاله وليسام
وليبيان . من حركة الفرد في المجتمع ، تبدأ القضية ، قصد
تبدأ الأمة .

وباختيار المؤلف لمسألة فلسطين محوراً فنياً مناقشة هذه
القضية ، نضع أيدينا على جملة أشياء .

فهي - أي الختان - يتزعم لقائنا بوجهة نظر « المتني » إلى
المسألة . ويشير هذا الاختيار في نفس الوقت إلى أن هذا
المتني في أزمة . وهذا هو الاثار الفكري للرواية : « ف (سهيل)
شباب فلسطيني قد تعرف إلى أوروبا معرفة حميمة ، نادر نفسه
لا يدري لأي شيء ، يشرب أحياناً ، وأحياناً يحس . لحساء
والله . يتكلم أن يكون فيها موسيقى وتكلم وأداء وعاش »
(ص ١٢) .

وللأوروبا تتزعم أشياء عديدة في صدره ، ثم يعود إلى
قرية دير البحر لتزداد حدة التمزق . ذلك أنه يعود بهضم
غربي وعقل غربي ، يعود إلى المجتمع المتخلف حضارة متفاداة
ومن هنا يبدأ الصراع « خليف غربي من الإشر يجلد »
رغم هذا يشعر أحياناً أنه يجهل حتى كهؤلاء يتفهم تفرقاً
يوحد بينهم ويعلمهم كالنا حيا » .

هذا هو شعار المتني العربي ، لا يتغرب في الغليل ولا في
الكثير من متني في أوروبا حيث التربية الديموقراطية للشعب
عميقة الجذور ، وحيث الحضارة الصناعية في أوج مجدها ،
فالمتني الأوروبي يتزعم بحرية ، وبلا عقد . كذلك فإن هذا
الشعار لا يتغرب من اللائمتي في الغرب ، لأن اللائمتي الغربي
يحيى أنه يعيش في عالم بلا قيم . أجل أنه يشعر بفتن جارف
إلى الانتماء ، ولكنه لا يستطيع .

سهيل في « ستة أيام » ليس متنياً أوروبياً مستريحاً هادئاً
اليأس ، وليس لا متنياً بالغ اللامبالاة والرهق للقيم ، أنه
متني في أزمة . صدره يمتلئ برائحة العرق والطر ، بالحياة
والأمانة ، باليأس والامل ، بالهرم والتحدى ، بالمرسوالحيا .
خيط غريب بعصل يهيم . لا يتقدر أن يأمل أو ييأس ، لا يتقدر
أن يصغر أو يستقر . أنه في تمزق أبدي « (ص ١٣) .

هو عميق الانتماء حين يقف في الجماهير يخطب « السؤال
هو أن نستسلم أو نموت ، الحروب مسيط جداً ، أن نموت أو
ننتصر » (ص ١٥) .

« أهل دير البحر تشاؤوا مع المخاطر فامتدوا وأهروها حتى
ليصعب عليهم أن يفصلوا وجردهم منها . لقد تابوت أمواج
العدوان على هذه البلدة وتركت فيها اضطهاداً . تريد أن
نوقف هذه الموجات . تريد أن نتحدى . لم يعد لنا غير
التحدى . لم يعد لنا غير الموت . أنه بمعنا الأخيرة . أنه
السفينة التي تبحر ضحير الأجيال الأبية . قد لا تستمر في
هذه الحركة ولكنها تترك لإبناتها المسطورة ، أسطورة التحدى
والبطولة والاستشهاد ، فيرفقون بوجودهم نحوها . هم لا يد
أن ينتصروا » (ص ١٤) .

هذا الانتماء الأصيل يصطدم في وجدانه بكافة آيات التخلّف:
كيف يواجهون الإعداد ، بالتدنية المتقنة والسمنس والفتخر
والوهم الغرائقي الروسي والساعة المتوقفة عن السير (ص ١٢)
الانتماء يصطدم بالثقل في فجرة التخلّف على دحر الصو ،
وهنا ينشأ التمني العربي - سهيل - يعمل إلى الانتماء ،
إلى رفض القيم ، إلى الارتباب فيما قاله للجماهير وهو
يخطب .

وعندئذ يجد المؤلف حيقاً آخر بين التمني والجمع كافراد ،
بعد أن تفقد الخيط الأول بينه وبين المجتمع كقوة . أنسهيل
يصب ناعمة « لماذا لا يذهب إليها الآن ؟ ليصاحبها بحبه .
قد يموت في هذا الأسير » . قد تموت هي ليطلق المصغور من
نفس صدره فوق البحر ، في المطر والضباب « (ص ١٩) .

وناعمة هي الطرف القابل للمية . فهو يصب ناعمة بالرم
من أنها من الدين الآخر ، كما أنها ابنة الشهيد إبراهيم
العائري الذي أقيم له تمثال كبير في دير البحر ورسوا إلى
صلاته في الغاومة . وإبنه لذلك هي رمز القداسة والصلابة
والغاومة . لذلك وفق المؤلف في اختيارها - دون ثياب - وزوا
لأمة التمني مع الجمع . أنه يستطيع أن يقضي وقتاً ممتصاً
مع لجاء بغير اصطدام مع الجمع . أما ناعمة فالدين يمتصها
من الزواج بها ، وتمثال أبيها يحرمه من لقائها .

إن ظروفها هي مجموعة القيم الفاسدة في مرحلتنا الحضارية
المتخلّفة ، لذلك فهو يعجزا ويتزعم بسببها في وقت واحد .

في هذه النقطة يختلف من فريد ، التمني الذي يفتنى
للطامسة فدوس على أمة القيم في حياته : الحرية . فريد
يتننى بإخلاص شديد إلى كافة مواضع أمته وتقاليدها ،
ليصل في النهاية إلى الهدف السياسي فصبب ، وهو دفع
العدو من احتلال أرضه .

أما سهيل فهو يفتنى أيضاً إلى هذا الهدف الجيد ، ولكن
من خلال فهمه المتخالف به ، لا القيم الاجتماعية السائدة .
لذلك ننظم علاقة سهيل بناعمة ، ويسكاد فريد يردد نفس
الكلمات التي رددتها الأم : الإعداد على السباب ونحن نتلقى
بقلعت لا متنى لها .

ويؤجّر سهيل مشكلته ومشكلة الآلاف من الشباب العربي
« الامداد ليسوا الشككة وحدهم . لا أعداد في الداخل أيضاً .
وقد قتلنا حتى الآن أمام أعدائنا في الخارج لأننا تجاهلنا
أعداءنا في الداخل » (ص ٣٧) .

كل ما قاله للام ، وهو قريب الشبه بما قاله لفريد
« هل ما في الأمر أنني أرفض أن أؤمن بشيء فمرد أن أصلي
يؤمنون به . أرفض أن أتبع دون أن أختار . ليس من حق
أن أضع الأجيال القادمة في قفم وألق عليها . أحرمها أن
تتنفس بحرية » (ص ٤٧) .

أما ناعمة نفسها ، فتتور على أمها ، وتتعرد على الجمع ..
فتفرد سهيل وتتحرر من ثيابها وكل القيم .

خيوط أخرى يدها المؤلف بين سهيل والتاني . فهنساء
عنه التدين الذي يتكنى بالصلاة من أجل « الخلاص » ويرد
أن رفع السلاح خطيئة ، وعنه الآخر يدعي أماله بكان ما من
القتل بينما يفتنى خائباً في التوادع ويردد دائماً لا ويريت !

وهناك عبد الجليل ، أحد الناضلين الذي يجمع التقدو من
أهل القرية المكافئة ويهرب بها !! بيد الجليل هذا هو الذي
كان جسداً « ش . وأث جدنا . رائع أن نميت من أجل قضية .
رائع جدنا » (ص ٤٨) .

وكان الختان يمس لنا بأن الانتماء بلا وصي ، أو بلا حرية ،
الانتماء الذي يشغلي للعاصفة ، قد يؤدي إلى الخيانة . وبذلك
يكون فريد شخصية مفردة لا يلبس بها هذا اللون القسام
من الانتماء . كذلك فالانتماء المتناقض الجبان يؤدي إلى الخيانة .

ان كياه لا ترفض التقيم عن وعي بل نضجنا للسلاسة ، لجسد انعيشي وتلك وتشرق ، تقول له «استرك كالزراع والتقاليد المقدسة والشوارع الضيقة والحريم والأسوار حول البيوت وتقبأ الداخلية كي تمام منها في أيام الصيف في بلاد الوهم - سنهرب .. سنهرب » .

هذا الانتماء القريب لا يتم بأية صلة الى الانتماء العربي ، لأنه ينشد الهروب من الموت ، ولو كان في سبيل القسي ما في الوجود من قيم .

أما سهيل فيعترف لها بأنه ينتهي « الى الحقيقة » - هذه أرضنا ، فيها نرحو وفيها نضيع . فيها نعيش مبالغ هامش وتقبأ فيها يمكن ان نعيش في قلب الوجود » (ص ٩٦)
« تتسبب ما هو أهم ، الحقيقة » من حلتا ان نعيش في أرضنا . أنها لنا » (ص ٩٩)

فلما نطق كياه « أصرر ان قرنا تعمليتي من هذا الضمب كرم يمكن ان اصرر بالانتماء ، نحيي بها في لونها من زيف والفشل إذ هي ترد هذه الكلمات وهي تتوسل الى سهيل بدموعها وجسدها ان يقول لها كلمة حب ، ولو لم تكن صادقة! لقد تحولت الى كتلة من الشهوة تحت سنار الحب الزائف ، كما سبق لها ان تحولت الى كتلة من الجبن تحت سنار الانتماء الاكثر زيفا . لذلك يطاردها سهيل وداخله يتشم : « من اجل ان يكون صادقاً مع نفسه ، كفر بمعلم ما يؤمن به الناس ، الصدق كبر لمجاه الوحيد » ، وفي برهة اندك أنه بلا ملجأ » (ص ١٠٥) .

هذه المجموعة من الظروف البشرية يصوغها الفنان حلليم بركات كشخصيات مفردة أولاً ، كل منها يعبر عن ذاتها الخاصة لم تشكيبات رازمه ثانياً ، كل منها يعبر عن أحد جسوبات مشكلة التنمية العربي . بل ان سهيل نفسه شخصية تتكامل لها على طول الرواية معالم الذات المرده ، والسولوج البشري الرامز في نفس الوقت .

ومن هذا المستوى ترتفع أحداث الرواية عن كونها جزئيات البنية البيومية الى مستوى القضية الفكرية المأزومة .
هذه الظروف توجه سهيل وتجاهله في نفس اللحظة . انه يحب ناعمة ويكره الزواج ، ويشقى دير البحر ويحبب التخلّفه ينضم الى صفوف المجاهدين ويرفض الطاعة العمياء . وفيه هذه التناقض يكلف بالانصاف بارتكاب حرب الدولة الشنيعة وفي طريقه يقبض عليه الاعاصم . وهنا تبلغ الأزمة لونها .

وهذا هو منهج حلليم بركات في التعبير الفني .. لقد وضع جميع شخصياته في أزمة واحدة في إطار معقد من الزمان القصير ولكن الهدد بالخطر ، أي في إطار الحدث الذي في حياتهم جميعاً . لم هو يختار من بين هذه الشخصيات أكثرها قلقاً وتوازماً ، فيجتاز سهيل كافة الظروف « العامة » الحرة التي اجتازها دير البحر ، بل يفتح الفنان هذه الشخصيات بالذات أمام ذلك الحدث الذي ، أيقع سهيل في ايدي العدو ، فندرس جسده ونفسه أشجع ألوان التطبيب ، فلما يكون موثق : هل يعرف بما لديه من معلومات ، فينقل نفسه ويحبب للقاء حبيبته ، أم ان « شره » ملق بهذه اللقطة الفاصلة في حياته ؟!

ان كثيراً من المثمنين ينهارون تحت وطأة هذه اللقطة النفسية حين يكون المتألم غير كامل الوعي بمعنى الانتماء ، حين لا يكون متألمهم حراً أصلاً ، حين تكون لمة مسافة بين انتمائهم والقضية التي يتنوعون اليها .

أما سهيل فبعد استعانة ان يحول القضية العامة الى قضية شخصية تتبع من الذات ، فهو ينتمي الى جوهر القضية العامة الذي لا ينصل عن جوهره وهو الحرية ، ان حرية بلاده هي حرته شخصياً . لذلك يتحمل الطلاب بأصالة ودون التماثل ، أنه ينتمي الى أقدس مقدسات الذات الإنسانية ، ولكنه يرفض

يعتف وأصرار ما يمكن ان يعنى هذه الذات من شوائب القيم الاسنة .

لهذا السبب لا يفاجأ بفكر العدو الذي دمر بلاده قبل انموذ المحدث للتعليم ، فعندما يأخذ الضابط الى سطح المتنسل يرى كيف تحولت دير البحر الى كتلة من النار والدخان .. يستقر الضابط قائلاً : بعد قليل تحول الى رماد ، فيجيب سهيل :

« - الرماد يخصب الأرض .

— فنستعملها نحن .

— لوقت قصير .. ولكنني كنت اتحدث عن شيء آخر » (ص ٢٢١)

بعد عشر سنوات من بداية المساة ، تعود أحداث قصة « رجال في الشمس » (١) لكاتب غسان كنفاني ، فيطرح قضية هذه المجموعة البشرية التي انتمت أرضها ، ولم يعد لها من امل سوى « مجر الوجود في الحياة » ..

واذا كان حلليم بركات قد لجأ الى التركيز الزمني والكمالي في « ستة أيام » ، ومن كان التولج الداخلي الطويل هو النضجة الأساسية في العمل الفني ، لأن غسان قد لجأ الى تركيز التملج البشرية وتعميق الحدث الروائي من خلال المولوجات الداخلية التي كانت تمثل لاسمائها في حوار مباشر بينها وبين لوبيا نارة ، وبينها وبين نفسها نارة أخرى ، « رجال في الشمس » هم ابو قيس ، وأسعد ، وعروان ، الذين استطاعوا الوصول الى البصرة بالعراق ، بغية الهرب الى الكويت حيث يستطيعون العيش الكريم .

عندما ينفذ ابو قيس أمام الرجل السمين الذي يشتغل بالتربيب مقابيل خمسة عشر ديناراً للفرد ، تتلألأ على عينيته ذكريات الفراق واليأس واليأس .. ذكريات الانسداد لمسجم المدرس يقرئته القسطاسه الذي رآه من نافذة شباك الفصل القصوي جسداً لثقال بأنه حين يلتقي النوران الكبيران : دجلة والغراب ، والفراق ، والفراق ، واحدا اسمه شط العرب يمتد من قبل البصرة فليل .

ويذكر ابنه قيس الذي رفض امتحان والده له حين سانه ابن ينظر من العرب ، والخبره أنه رآه من مقعده في الفصل وهو يتلع من النافذة .

وهو هو ذا يردد فوق دقات قلبه أمام الشط يتذكر كلمات صديقه أسعد : لقد احتجت الى عشر سنوات كبيرة حادثة كي تصق انك فقدت شجارتك وسك وشباك وفريقك كلها » (ص ١٤) .

لذلك فهو يحس بالقوة أينما وجد ، فحين وفك يهدق مائته « أحس أكثر من أي وقت مضى بأنه غريب وصغير » . أنه يعلم تماماً ان الكويت ليست لامل المفقود وإنما هي المجرى الوجود في الحياة « ويعلم تماماً ان البيت الذي يسكن فيه يفسده ، ليس بيته » رجل كريم قال لك : اسكن هنا ! هذا كل شيء ، وبعد عام ثلث لك أعطني نصف الفرة » فرمت اكياس مرفعة من الجيش بينك وبين الجيران الجدد » (ص ١٥)

لذلك فهو لا يعيا بأنه قد يموت في طريق الهرب ، لان حياته الحاضرة ليست أفضل من الموت ! ولكنه لا يستطيع ان يعطي الرجل السمين كل ما معه من نقود ، فهو لا يملك سوى القسيعة عشر ديناراً .

نفس الانحياص التي يروج بها صبر أسعد ، الشاب الهارب من الأردن « الطريق !.. أتوجد بعد طرق في هذه الدنيا ؟ ألم يصبها بجيبته ونفسها يعرفه طوال أيام وأيام » (ص ٢٢)

(١) صدرت من دار الطليعة بيروت .

الكتابة أخرية :



جان بول سارتر القاهرة المشاشلة أو إجازة من العالم الآخر

لم يعد جان بول سارتر غربياً من الأوساط الأدبية في مصر ، فقد باتت لديه الوجودي مدرسة تؤمن به وتنتسج على منواله . ولست الآن بصدد شرح هذا المذهب الفلسفي الذي كان له أكبر الأثر في تفكير الأتسان ، وفي الأدب الحديث ، وسيلوك كثير من الأفراد . وإنما أود أن أشير في بداية هذا المقال إلى أنه يتشظى أحر النداء بحرية الإنسان ، ويشير بأن الحرية والوجود شيء واحد ، وإن هذا الوجود لا يتفصّل لأهية سابقة أو طبيعة محددة ، إذ إن سارتر لا يعتمد في وجود طبيعة بشرية فريضة على الإنسان منذ الأزل ، ولا يؤمن بصورة مثالية للإنسان لا يسي عليه إلا أن يعاكسها ، بل إن الإنسان منه ليس إلا ما يفتقر لنفسه . وكذا كل امرئ إمكانيات عليه أن يحققها وإن يقطع عليها فيصير ويكتسبها معنى .

وعلى هذا المذهب أنشأ سارتر عدداً من المسرحيات والقصص . ومن بين هذه القصص قصة « القاهرة المشاشلة » أو « إجازة من العالم الآخر » التي اكتسبت شهرة فائقة وترجمت إلى كثير من اللغات . وهي قصة حب نشأ بعد الموت بين امرأة جميلة ذات ثراء مريض وعامل ثائر على الأوضاع الاجتماعية ومركز العمال . وقد أراد العاشقان أن يحققا هذا الحب وأن يبعثوا أمراً واقعاً ، فاستأنوا في إجازة من العالم الآخر ليعودا إلى الدنيا ويعوضا ما فاتهما فيها . وفي سبيل تحقيق هذا الحب في دنياها هذه اللبنة بالعواجز والقيود اصطنعها بما كان لدى كل منهما من خلايا بالآخرين ومشكلات عاطفية أبان الحياة قبل الموت .

وتقع حوادث القصة في بلد مجهول تسوده المسائل والمأزقات السياسية ، وتتم في النفوس بكل أسباب الفرع والجرح ، يلد يتعلم فيه ويسطر عليه حاكم ظالم مستبد .

« القاهرة المشاشلة » قصة حب يعوق تحقيقها ما يهدد الدنيا من اضطرابات عاطفية ، وما فيها من نفرة وعداوة بين الطبقات . هي قصة حب بين امرأة ورجل يسعى كل منهما جهده لكي يعيش وفقاً لثله وهواه عيشة حرة طليقة من كل قيد .

ولكن هل يحقق العاشقان ما يصبوان إليه ؟ ذلك ما تحكيه لنا الرواية .

ويترك سارتر في الخيال فيصور لنا عالماً عجيباً يختلف فيه الإحياء والأموات ، ويجاهد كل حي ويميت أن يحقق وجوده بتعاطف إنسانيه .

يعرض لنا المؤلف في مطلع القصة امرأة علية على فراش المرض اسمها حواء ، تتوجع من الألم ، وتتلوى فوق سريرها ، ثم يلجج غرقتها رجل وسيم الظلمة ، أتبع القيس ، في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، هو زوجها أندريه . ويحصل الزوج في وجه زوجته ، وكاتبة الطبيب الفاحص لا الزوج العاشق . وفي صمت وهدهد يقتل عليها ويناديها بصوت خافت « حواء ... حواء » لكي يعرف ابتغى هي أم نائمة . غير أن الزوجة تبدو مستغرقة في سباتها ، فلا تستجيب له . وينتج أندريه صوب المائدة المجاورة لسرير زوجته ، حيث يجد كوباً من الماء ، فيأرج فيه بضع قطرات من قانورة يخفيها في جيبه . وتتحرك حواء في فراشها فيسارع الرجل إلى رد القانورة إلى جيبه ، ويعاود التحدث في وجهه زوجته .

وفي الغرفة المجاورة لغرفة حواء ترى فتاة شابة حسنة ، في نحو السابعة عشرة من عمرها ، تلح من نافذة فتحت على مصراعيها ، وتستمع إلى وقع أقدام الجنود الذين يلعبون العزق في الخارج . ويدخل عليها أندريه ، ويطلق خلقة الباب وعلى وجهه علامات الهلع والقلق . فتوحده الفتاة النافذة ، وفي شيء من الاضطراب النفسى تسلقت إلى الرجل الذي يناديها بقوله :

« أنها نائمة »

وتدرك أنه يعني زوجته فتسأله :

« وهل تقدر لها الشفاء ؟ »

فلا يجيبها أندريه شيء . وتواصل معه الحديث غامضة وتقول له :

« لا تعانني كلفة ، وأجب على سؤالى »

ذاك الفتاة هي شقيقة حواء ، واسمها لوست . يربث على شعرج أندريه ويقول لها :

« تشعشع يا لوست »

فتعثر الفتاة لما في هذه العبارة من إشارة إلى دنو أجمل اختها . ويبدئ في روميسات أندريه ، وبضمها إلى صدره ، ويقول لها :

« إن شقيت أحيلاً فإنا لك ، وسوف نعيش معاً » .

وفي مكان آخر يجتمع أربعة من العمال المتأخرين - بزعمامة دومين - على قلب نظام الحكم ، ويتفقون على إشعال نار الثورة في صبيحة اليوم التالي .

وتناول حواء في فراشها كوب الماء المجاور لسريرها بما أفرغه فيه أندريه من سائل .

ويطلق الثوار كل إلى مهمته . ويلحق دومين فتى في الثامنة عشرة من عمره ، اسمه لوسيان ، وهو من جواسيس الحاكم الظالم . وقد كلف بمشاهدة دومين واكتشاف مؤامراته . ويحاول لوسيان أن ينفذ ما أمتر من أمر هذا الزعيم المعالي وماجده ، غير أن دومين يقابله بالأهمال والإفلاتة . فيغضب الفتى ويطلق عليه الرصاص ويؤذيه على الأرض صريعاً .

وفي تلك اللحظة عينها بينما تسقط الأرض فوق الأرض يقتصر شيخ دومين وينتهي على فتيحه ويسعدو كأنه يتفلق من حلم . ويسأل هذا الشيخ الذي يمت بعد موت صاحبه كل من لا فاه عما يدور بالديرة فلا يجيبه أحد ولا يستمع إلى حديثه إنسان فهو من الأموات الذين لا نراهم ولا نسمع أصواتهم .

وتخرج حواء متحاملة على نفسها متشافة من غرقتها ، وتصحق إذ ترى اختها مستمئة إلى كتف زوجها ، وتطلب إليها أن يتي مكافئ لكي تعود في زوجها إلى غرقتها الخاصة ، وتغلق إليه في الحديقة ، ثم تأخذ عليه هذا المسلك الشين الذي سلكه مع شقيقتهنا عمره . وبصوت متجهز تلقى عليه قارص اللوم بعدما أدركت أنه لم يتزوجها إلا من أجل مالها ، وهي أن تسمح له بتعطيل المسألة مرة أخرى مع اختها ... ثم يصيحها الوهنس تدربها حتى تسلط على سريرها فائدة الصي والنفس .

دومين : ما أشد حاسبي الموت من اضطراب في مسيرهم ..
الغالب : أجل .. بعد أن الموت ما يعونه ..
دومين : أم برسك البسر ..
الغالب : ليس في الموت حسرات ، أو أسباب مادية لتقلق ،
حرية نامة .. طيور المست كما سره ..

ثم يفران يتسول كفيف البصر يطلس القرفصاء وهو يصرخ
على الثاني وإمامه صندوق يضع فيه الأحياء قطعاً من التمدد على
سبيل الصدقة . ويقل دومين آراء الرجل المسكين ويقول :

« اني لا أحب غير الأحياء » انظر الى هذا المتسول على سبيل
الجل .. انه شح محزون .. وهو من أدباء البشر .. لكنه من
الأحياء « فانا أمتشظ النظر إليه » .

ويجلس دومين تجاهه ، وينظر إليه مسحوراً . ويجس ذراعه ،
وكفه ، ثم يتحنن فقالا :

« انه حى »
« ويترقب منه كانه يريد ان يسترق شيئاً من دهنه » .
ونظري حواء فجأة وتقرّب هي الأخرى من المتسول في شيء من
الأسى والحسد ، فيصبح التمسكين في وضع متوسط بين دومين
وحواء . وعندئذ يقول دومين :

« أه لو ليست جلده وعدت الى الأرض ولو لحظة واحدة
س الزملا »
وسلكي دومين حواء هومومها في الدنيا ، ويغارب خلال هذا
الحدث تلميها ، ثم يتصرفان معا وهما يسيران جنباً الى جنب ،
ويأخذ دومين في الإطراء على حسنها وجملتها ، ثم يتأبك لدهاءها ،
وتأخذ الحيرة لأنه لم يلق بها من قبل . وبذلك نظرهما الى غادة
حسيلة وبقيّة بأربعة الجمال تهبط من عربتها ، ويقبل عليها حامل
شباب في نحو الثلاثين من عمره ، يحمل على كتفيه قميصاً من
الحرير ، ويقل يقوله :

« أتينا من أترابك وهو من أترابي .. وهما يتقابلان عرضاً ،
وتكلمنا لا يبالين حتى النظر » .
« وكان .. معاً » .

والدخل القاعة العساة .. واسمها مادلين .. ملهى في المدينة
وسمى الى زميلة لها تجلس مع شابين اثنين ، ويدخل في أترها
دومين وحواء . ويلاحظ دومين الطريقة الأرستقراطية التي
يستقبل بها الشبان مادلين فيصعب لها لأنه من طبقة العمال ثم يدخل
بالك ذلك . وقبل بعدها كما فعل الرجلان مع مادلين ، ثم يدخل
الحديقه شباب وفناة ، ويجلسان متجاورين الى مائدة دومين
وحواء . ويبدأ من سلوك هؤلاء الأرستقراط تحلف حواء دومين
على الراس ، فيقبل عليه متثاقلاً . ولكنه يجد فيه متصصة
فيقول :

« لو كان هذا هو الموت لانه يفضل الحياة .. وكما أود لو
رقصت معك الى الأبد » لا أرى غير وجهك ، وأنسى كل شيء
سواه » .

وفجأة يدخل الهم نفس دومين ، فيتوقف عن الرقص ويتنهد
عن حواء ، ويدور بينهما هذا الحوار :

دومين : كل هذا وهم ، اننى لم أكن أعصرك .
حواء : حقاً .. ان كلاماً يرتض وحده

دومين : ما أحلى ان أمس كتيك .. كم وددت لو استنشقت
انفاسك حنينا بئسيمي .. ولكن ذلك قد فاسى ، وانقضت بك
بعد فوات الاوان .

حواء : أبى لأقدم روحى في سبيل العيش مرة أخرى ولو لحظة،
لكى أرامسك دائماً

دومين : تقولين بروحك !

حواء : انما كل ما بقى لنا .

ويقبل دومين على صديقه ويغاصرها ، ويترافسان مرة أخرى،
وذلك الصق كل منهما خذ بالآخر ، وانفاسا عنيهما ..

ويتنهبان فيئة وعمران انهما يرقصان وسط شارع «الاجنزي» .

ويقتنى الكهني ، ويظهر لهما العاتون في نهاية الطريق . فيلكان

وق تلك اللحظة فيها يبدو شيخ حواء ، وقد بعثت بعد موته
ورب على شعر أختها دون أن يفتي ذلك لوسب . ويخرج حواء
من غرفها وينادي وصيفها فلا يجيب ، وتنتظر الى نفسها في
الراء فلا تشهد خيالاً ، وسمع صبيحونا ينادى : « لاجنزي »
لاجنزي !

ويستمع دومين في ذات الوقت الى هذا الصوت الذى ينادى
« لاجنزي » لاجنزي ! ، ويذكر ان أحدا لا يراود ولا يسمعه ، فهو
شبح لا جسم له ولا صوت . ثم يفرغ دومين في الأرض حتى يبلغ
طريقاً ضيقاً مسوداً ، اصطفت فيه مدخله جادة من الناس في
صف واحد . وفي نهاية الطريق حاتون متعزل . ويطلع دومين
اسم الطريق فإذا به « لاجنزي » ، فيأخذ مكانه في الصف
ليسير في الركب .

وتصرف ذلك حواء في المسير حيث يبلغ هذا الطريق ، وتقرأ
لأنه فإذا بها « لاجنزي » .

ويقف في الصف نحو من عشرين شخصاً أمام العاتون ، من
كل سن وكل طبقة من طبقات المجتمع . وواجهة العاتون وداخله
ظلام دامس . ثم ينتفض الباب ويدخل أول راقف في الصف ويعلق
الباب وراءه . ويحاول حواء ان تسبق دورها فيزدها الواقفون ،
وتندرد أتبهم يرتبها ، ففسر لذلك لأنها كانت شيئاً لا يرى متدحين .
وضع عينا دومين عليها . ويدخل الواقفون العاتون واحداً في
اخر الآخر ، حتى يأتى دور دومين فيلججه ، ويطلع في داخل
العاتون حجره جانبية ، فيدخلها . وهناك يجد امرأة عجوزاً
يجلس الى مكعبها ، ولا يفرها سوى مصباح خافت من
الزيت ، ويسير دومين نحو المرأة التي دفع سجلاً أمامها لتقصه
ثم تسأل : اليس اسك بسر دومين . فحسبها دومين بالاعجاب .
وهو في دشة وعجب . ثم تقول له :

« وكان مرلوك في عام ١٩١٢ ، اليس كذلك ؟ وكنت رعباً من
رعبه العمال ، ولثقت هذا الصباح » .

فيشند عجب دومين ، ويذكر الآن انه من الأدواب في ريفه
السيدة العجوز ان قالت له لوسيان ، وتطلعي الى انى بوقع في
السجل ، فيفعل ، ويصيح بذلك من التوى الى الأبد . ثم
ينصرف ليجد نفسه في طريق فيصيح يسير فيه الأحياء ويتباح
الأصوات على السواء . ويتلقى رجل من يتلو في يديته .
ويأتى دور حواء أمام السيدة فتشبه بان زوجها دى لها
السم في كوب الماء الذى تناولته وهي في فراش المرض ، وذلك
لكى يظفر بعالم أختها كما ظفر بعالمها من قبل . وتندرد حواء
حليقة الأمر ، ثم تنصرف بين الأصوات تنم بحيرة الموتى . واذ
هي في تجوالها تلف عند بهلوان يعرضى العاهية على المتفرجين .
وهنا تلتقي بكرة دومين ينظرها . ويقود الرجل المسن دومين
الى مدخل قصر العاتون ، فيأخذ لهما يندخلون . ويتجولان في
القصر حتى يلقا قرعة الحاكم ، حيث يلتقيان به . ويرى دومين
لوسيان يغوده رئيس الشرطة للحاكم ، ويذكر انه أخفا قتل
دومين . ويستجيب من هذا الحاكم ان الثورة ان تشمل له لأنه
يعتقى نتيجة لما حدث ان تكبت الثورة في النفوس ، وكان يريد
لها ان تتأجج فيبقى عليها دفعة واحدة . وهنا ينفض الجمع ،
ويخرج دومين وفاتده .

ويطاف الثائرون علما بفشل دومين ، ويعصمون على مواصلة
الثورة برام ذلك .

وتعود الى غرفة حواء فترى جثة هامة فوق السرير ، وأختها
تبكيها ، ويطلع أندريه في اجندائها خارج الغرفة وهو يغاصرها ،
وبينهما شيخ حواء .

ول صورة خاطفة يعرض علينا الكاتب السيدة المجوز وهي
تعلب صفحات سجنتها فيجد في باب الشكوى « ان بين دومين
وحواء لقاء مودعه الساعة العاشرة والنصف في الحديقة » وتتوقع
السيدة ان تتقدم الامور .

ثم ترى دومين وفاتده يسزهان في الحديقة ويدور بينهما هذا

الحوار :

من الرقص بويتجهان نحو الحانوت ، ولقائهما السيمة المجوز
فتفتح سجنها ، وتقرأ لها في صوت جهوري :

« تكون المدة مائة وأربعين : اذا كان هنا رجل وامرأة ، خلق
كل منهما للاخر ولكلها فشكل في الفناء حينما كانا على قيد
الحياة بسبب النفس الكاس في قوانين المنع ، حق لهما أن
يفترا يصير للعودة الى الارض شروط معينة ، كي يحققا حبهما
ويحييا ما حباهما التي حرمانها بغير حق . »

وتعزى السجلة على حواء ودومين أن يستغل هذه المدة
فيقتل ذلك . ثم تقول لها :

« عرفت أن لا تمكنا قد خلق للاخر ، غير أن ادارة
المراجل قد ارتكبت في حباكما خطأ . فيهذا لهما دومين وحواء
وتطلع المجوز بعد ذلك في السجل هذا النص :

« هذه هي الشروط التي يتحتم عليكما أن تلزما بها :
ستعودان الى الحياة . وعليكما أن تذكرا كل ما تطامه هنا ،
فالذا نتجسما بعد أربعة وعشرين ساعة في تبادل الحب بنقطة ثامة
وبكل ما أوتيتما من قوة ، فسكون لكما الحق في وجود انسان
كامل . »

ولتعد هذه الفرصة حتى الساعة العاشرة والنصف من صبيحة
اليوم التالي .

فان لم يتحسا في حبهما عادا الى العالم الآخر مرة اخرى
وقد أحس كلاهما بزعيق من السرور والشوق .

ولطن المجوز على الفور انهماهما وتنهما بهذا التصديق
ويعلمان ان لآخرهما ، ولكلها بيدان شيئا من الرية في الطريقة
التي سوف يلقاهما بها الاحياء . فتطشتهما السجلة بأن الامور
ستعود الى مجراها الطبيعي دون انني تغيير كما تركها في اللحظة
التي ولقاهما فيها الاجل ، ولن ينظر اليهما الاحياء على انهما من
الاشباح . فيعلمان شكرهما ، وينصرفان وقد تأبط كل منهما
لذات الآخر .

وفي طريق مودتهما الى الدنيا يلتقيان بعضا من الاموات يذكر
لهما انه توفي منذ ثمانية عشر شهرا ، وأن زوجة قد اهدت رجلا
آخر من بعده ، ولا يهيم به الاثر شيء الا انه قد ترك انفسه
في الثامنة من عمرها ، لا يحيا زوج أمها ، وبرجوها أن تنقل
الى مكان آخر ، فيعدله بذلك ، ويستعملان منه من اسم الزوج
الجديد وتكون مسكنة .

وينصرف دومين وحواء ، ويتبادلان الفيات ، وفيما نظام
الدنيا ، ويستحيلان ظلي ، لم يفتي الظلال ، ولا يفتي في
الطريق سوى العامل يلوح لهما بيديه ويمنى لهما حلقا
سعيدا .

ويتنطف دومين من سبات الموت حيث أحر صريحا . وكذلك
تنطف حواء في فرحتها . وعندما تنظر الى صورتها في المرآة تفرى
حاليها وتذكر من مودتها الى الحياة تستل لهما عما دار بينهما
وبين زوجها ، وتذكرها من مسلكة ذاكرا لها انه لم يتزوجها الا
من أجل مالها ، وأنه كثيرا ما خان عهد الزوجية وينصرف
وينصرف اندمجه وتوشت وتبقى حواء وحدها في دارها .

ويبحث دومين من بيت حواء حتى يلقاه ، فيدخل مترددا ،
وبهيرة ويطلب بصره ما تلح عليه ميتاه من اثاث فاخر ودياش
ويبقى يحواه في دارها فيكاد يعتقد لسانه لا بينه وبينها من فوارق
اجتماعية ، وتحاول حواء أن تستجبه على المبادأة بالحدث ، ولن
تجلبه اليها ، فيتردد في حركته فيضرب . ثم يقول :

« لقد كان الامر أهون من ذلك في العالم الآخر .. اما الآن ..
اني افتخر أن ارافقني الى مسكني . » فالما لا أظن هذا
الكا . ثم قد كان الحب حينما كنا من الاموات . اما الآن ،
في هذا الجور .. وسط هذا الرثاس .. »

ولمرك حواء ما يدور بنفسه ، وتتلقى عليه ، وتطمئنه بانها
لا تشيبت بدراها من أجل ما به من ريش ، وأنها من أجل اخنها
فقط . ثم تطلب عليه . ولا هي كذلك يفاجئها زوجها وأختها .
وبؤنها زوجها قاتلا لها :

« أنت حرة في اختيار أمثال هؤلاء الاصداغ ، ولكن في احبها
الطبيعة الدنيا . وأنا أسكن من لقائهم في بيتي وأمام لوست . »

ويكاد دومين واندمجه أن يشيكا في غرله . وأخيرا تصمم
حواء على أن تهجر بيتها مع شقيقها الجديد . ثم تصرف بعض
ويسيران في الطريق العام متشاكين لراما في ذراع . ويرقب
مسيرهما أحد العمال من أعضاء حزب دومين الثاني . وتؤكد حواء
لشقيقها أنها تهجد زوجها وأنها لم تصبه قط في يوم من الأيام
بيد أنها تحس كما يحس عشيقا شيء من اللقن النفس لهذا
الوضع الذي لا يراه المجتمع الذي يعيشان فيه .

ويواصل دومين وحواء مسيرهما حتى يلقا القهي ، فيهدش
رواده لذهن الرافين : رجل وامرأة ليس ينس بينهما ما يتم
عن توافق اجسامي . ولكنهما يتشجان ، ويتخذان لهما مائدة
يجلسان اليها معا . ثم تدفع حواء دومين الى الرقص ، فيقبل
عليه متحاشا خيلا ، ولما اندركت حواء أن العاصرين يكادون
يتحولون بالثرات اطلعت للجمع أنها هجرت زوجها - السكونير
العام للقاتل المسلحة - وأنها اخلت لها عشيقا يعمل بيديه .
ويضطرب دومين حين يسمع بعمل زوجها ويسارها به ينتمى
الى حزب التحرير الذي يعارض الإزستراطية والحزب الحاكم ،
فليس من القول أن يبادلها الحب أمام الجمهور ، وقد فعل على
بيد واحد من أبناء طبقها ، ولذا ان ابنته كه فرصة العودة من
العالم الآخر لقتل رافله جميعا في القدر .

ولمركه حواء بأنه لم يعد الى الدنيا الا لأنه التي بها في العالم
الآخر وجبها مؤكدا لها به ، وذاكرها لها انه يشتقها ولكنه
يعتق كل ما يعجب بها . ثم يذكرا ما أوصاهما به رفيق
العالم الآخر من رعاية ابنته التي تزوجت أمها من رجل آخر
بعد عوبه .

ويأخذان في البحث عن مسكنها حتى يلقاه ، ويعيدان تصرف ماري
على سلمه ، ويلجان بيت أمها ، ويشهدانها في حالة غريبة مع
زوجها الجديد في بيت فدر واسع . وبعد جدال بصحان الطاء
مهما ويترجان بها .



ويصحب دومين حواء الى بيته ، ويسلمها مفتاحه ، ويستأذن
في الانصراف الى رافله لانه علم - وهو في العالم الآخر - أن امرأ
يدير لنفسه عليهم ، ويريد أن ينقذهم من يران الطبيعة ، ولابد
من أن يلقاهم هناك والا فأت الازان وولمت الكارلة . وتدخل حواء
البيت وحدها تفرى مكانا توسلها ، لكنه تليف مرتب بكلي لراحة
سكينة ، وينصرف دومين الى شاته .

ويتوجه دومين الى مكان الاجتماع الثوار ، ويتصمم بالمدول
عن الثورة في القدر ، لأن الاجتماع قد كشف أهرم ويريد أن يفتي
عليهم مجتمعين ، ومن الخير لهم أن ينشئوا لبيبي العزوب سلما
غير تصدع . ويستكر زملاؤه من هذا العلور ، ويهيمون بالفرج
على ماينهم لانه أفضل بسكونير عام القوات المسلحة . وينصرف
الى زوجة . ويرسف دومين بأنه قد تزوج منها ، ويأخذ
الثوار في كبل التهم له : تهم الخيانة للجزب ، والاتصال بامرأة
من الأرياء ، وخطف الطفلة وما الى ذلك . ويبدأ بمحاول دومين
أن يبرره نفسه . وينادي الثائرون بيزله من زمامة الجزب ،
ويطردونه من مكان الاجتماع ، فيخرج في لفسب شديد لمسلكهم ،
وفي أسي لمصيرهم . ويعود الى بيته حائقا ، ويهين حواء بضا
حدث ، ويستعرج من أحد أدرج كيتيه صندسا يدمسه فيجيه ،
ثم يهم بالانصراف ، ولذا يبعد الثوار بالباب يندره بأن زملاؤه
يبدرون مقفلة .

فيعد الى حجرته ، ويعيد صندسه الى مكانه ، ويتصمم
حواء بالانصراف وبالعودة الى اختها لوست حتى ينجد من الخطر
الذي يهدده . فتجيبه بانها لا تنشئ لوت لانها خبرته من قبل ،
وبأن هناك ملائح كل امرئ ولو كان في بر صينيد ، بل أن لوت
أحب اليهما الآن لانها فشلا في تمكين الحب من قلبهما

THE THEORY OF THE NOVEL IN ENGLAND 1850 1870 by RICHARD STANG

London Routledge & Kegan Paul. 1959

في هذا الكتاب يطالع ريتشارد ستانج الأستاذ بكلية كارتون بالولايات المتحدة نظرية الرواية في إنجلترا فيما بين ١٨٥٠ - ١٨٧٠. وهي الفترة التي كتب فيها تشارلز ديكنز ، وفلوري ، وجورج اليوت معظم كتبهم . وهو يفتد في مقدمته الرأي القائل بأن نقد القصص الطويلة ومنافضة أنسبها والكتابة فيها بدأ من الصمم نظرياً في فرنسا على يد فلوري ، وإن إنجلترا بقيت منزلة انحرافاً تاماً عن هذه التغيرات التي انطلقت إليها العمود أو أساليب الإصصاف « حسب وجهة نظر » على يد هنري جيمس أو جورج مور في الحلقة الثامنة من القرن التاسع عشر . ويشير إلى الاعتقاد الساطعي بأن الروائي الإنجليزي لم يكن يعتبر نفسه فناناً على الإطلاق في هذه الحقبة أو حتى النصفية السابقة ، بل كان يعد نفسه « مسلياً شعبياً » ، ولم يكن في إنجلترا في ذلك بعض الكتابات التي نقد الرواية قبل أن يقرر النقاد المحدثون « فقد كان هنري جيمس وحيداً في اتجاهه » أن يصفوا بجدية هذا النوع من الكتابة وأن ينظروا إلى الرواية نظرة جدية ، أي أن يعترفوا بها ، وليس مجرد « تسلية » ، ويدلل ستانج على أن هذا الرأي الساطعي يفتد في كتابات بعض كبار النقاد المعاصرين قبل « ولتر آلن » صاحب أحدث دراسة تاريخية للرواية الإنجليزية والأستاذ برادفورد بوث ، أحد المتخصصين في الرواية في القرن التاسع عشر ، لأن آلن يؤكد مثلاً أن فكرة الرواية « كتبت أدبي تلي ... فكرة جديدة » أي أن هذه الفكرة لم تبدأ في القرن التاسع عشر بل كانت موجودة في القرن التاسع عشر ، وقد أثبتوا أن نظراً تقدير كبير إلى حرفهم .

لذلك فإن ستانج يهدف إلى دراسة نظرية الرواية كنوع أدبي مميز في الفترة الواقعة بين ١٨٥٠ ، ١٨٧٠ وهو لا يتقيد بذلك البوديع ، بل يشير إلى أقوال بعض الروائيين الذين كتبوا رواياتهم في هذه الفترة وأن كانوا قد عبروا عن بعض آرائهم في الموضوع قبل تلك الفترة أو بعدها . وهو يستبعد أراء هنري جيمس وجورج مور وجورج جينسن لأنهم ألخوا رواياتهم في فترة متأخرة .

ويوضح المؤلف نقطة عامة في هذه المقدمة وهي أنه لا يمكن أن تقتصر دراسة نظرية الرواية أو حتى نظرية الشعر في هذه الفترة على مسائل التكتيك أو الصنعة والتشكل كما يمكن ذلك في الفترة التالية (١٨٧٠ - ١٩١٤) . وهو يصراف أنه وأن كان لهذه الامور أهمية بالغة في العصر الفيكتوري إلا أن أهم سؤال كان يشغل النقاد والمعالون الإجابة عليه هو مسألة الفن بالخاصة ، فقد كانت مسائل فائدة الرواية ودور القيسال في كتابة القصص والمعالجة بين الصورة الخيالية والصنعة الواقعية مسألة مركزية لا تقل أهمية بالنسبة للروائي والنقاد ، بل القاري المحدث في ذلك الوقت من المسائل الشكلية البحتة بالنسبة لك في العصر الحديث .

ويرى ستانج أن نقد الرواية في العصر الفيكتوري المتوسط لم يزل ما يستحقه من الدراسة والتقدير ويستبعد أن السبب الرئيس لذلك هو أن الكثير من هذا النقد كان ينشر في المجلات وأن ما نشر منه كتاريخ حصة ترولوب تأثري : ليس بحسب عال من الاحوال خير ما كتب . وهو على غير كثير من الصواب حين يقرر أن الكثير من كتابات نقاد هذه الفترة مثل ج. هـ. لويس ، واسلي ستيفن ، وولتر بيجوت Walter Bagehot ، و. هـ. هاوتون ، وجورج اليوت

« لأنه لم يرغب في العودة إلى الحياة من أجلها وإنما من أجل توريه . ولما فشلت الثورة فهو لا يحس الموت . ولما عرف أنهم قادمون لقتله بقي مكانه » .

وبتمهما دومين بأنها إنما عادت إلى الحياة من أجل احتسابها لوست لا من أجله .
الآن لقد خسرنا كل شيء .

وسمع وقع اقدام الثوار قادمين إلى بيته ، فطلب إليه أن يتبعها ، ففعل وكانته يقوم بذلك للمرة الأولى والأخيرة . ثم يقول : لو تشرى قلن أتمد لاتي لامت جيداً ، وذلك وحده يسرد عودتي إلى الحياة » ويتعافان متفان قوما فيه كل شهوة الحب وحراوته ، ويستند الثوار ، فيرجو دومين وجواه أن يكون ذلك لانها يبدأ بتعابان منذ فرغ الثوار الباب فالتسبا حق الحياة ، ومن ثم فقد كانا من الظالمين - ولكنهما يتسلمان ماذا عساهما فاعلين بهذه الحياة الجديدة . ونسأله مرة أخرى أن كان يعتقد زملاؤه ، ويسألان أن كانت تفقد أختها ، فبعض كل منهما أنه لم يفقد شيئاً بل اكتسب حبياً . ويصمها بأن يعمل ويكسب المال من أجلها فيسعد ، وأن نعل مكان زملاؤه وحزبه ولوربه ، فهي كل شيء . ولكنهما ما كان يفرغ من هذا الكلام حتى استمع إلى الجند يسرون في طرافات المدينة لجمع الثورة والفتك بالثوارين فيعود بفكره إلى الإلزام ، وتناول جواه أن تعرف نفسه عنهم ، وبأن لا أن يتجه إلى مستقبلهم بعقله وفؤاده ، ويصم على التصرف ، فيقول له مرة أخرى : الآن لمن أنجهم صحت إلى الحياة . وأب منها لم يتكسب مركة الحياة يد . ويصم على أن يلقي بزملاؤه حيث يجتمعون ويسألها في أين تلعب حتى يعود ، فتقول سأتوجه إلى لوست ، وإنما لننظر منه إشارة لليغونية متدها ، ويصرف ، ويجعل المسلس الذي الحاد في مكتبتي في حبيبتي وتصرف في الأخرى إلى بيتها ، فتجد زوجها وأختها في جلسة تتم عما كان بينهما من صفة ، ويريد زوجها أن يلفها من البيت فتخرج مسلها ويهدده بقتله ، وتضغ أمام أختها قصة حياتها .

ويلقى دومين بزملاؤه وهم على أعبه اشمال نار الثورة متهمين آراء بالتغلي منهم والباطنية ، فيطع من نفسه الإلزام . وفي تلك الآثناء يبلغ رئيس القوات ما يدور بالاجتماع . ويبلغ المجتمعون أن الثورة بدأت فعلاً ، ويلقى دومين اللوم على المجتمعين ويرى أنه من نتائج الأمور . ولعنوان عليه في الإبقاء على الزعامة لسكي يتلفهم ، فيستأذنهم برهة لكي يتصل بجواه تليفونيا ، ويبلغها ما استأثر عليه فؤاده . فتسخط مفتشياً عليها لتوها ويظهر شعبها مرة أخرى . ويستمد لوسيان إلى هذا الحدث التليفوني فيطلق النار على دومين ويردده قتلاً ، ويدخل جند الحاكم مكان الاجتماع ، ويترق المجتمعون قتلاً وهناك ، وتصور بينهم وبين الجند مركة .

وفي تلك الحلقة يظهر شيخ دومين ويسير فوق جثته .
ويشلي دومين بجواه في القهى وتقول له :
« أنك لم تعد كل شيء ، فسوف يتولى الشورى زملاؤك من عندك » .

ويسألها من لوست ، فتجيبه بأنها سوف تموت بعد بضعة سنوات ، ولن تعيا طويلاً ، ويصم دومين وجواه بالقتل ، ثم يدركان أن الموت قد أزال الفرق بين القتل وانتاج .

وهكذا تنتهي القصة . وقد أراد دومين وجسواه أن يهتفا وجودهما بالصحب الخالص ، وبالتالي من كل قيد يعيشا عن مشكلات الحياة ، وأن ينس كل منهما ظروف حياته وما يشغله فيها ، فلهن استطاعا « كلا ، لأن مشكلات الحياة هي الحياة » ولا يمكن للمرء أن يفر منها أو أن يتحرر من اقلاها . وحيث لا حرية فلا وجود . أن الحرية والوجود الكامل لا يتوفران إلا في عالم غير عالمنا الذي نمشي فيه .

محمود محمود

(أولس أيلانز كما كانت تدعى في ذلك الحين) إلى جانب كتابات كثير من صفار النقاد ما زالت غير معروفة بالرغم من أنها نشرت في دوريات هامة مثل « الكورنيل » و « ستيجستريت ريفيو » و « ستراي ديفو » . وجدير بالذكر أن في إنجلترا اليوم حركة كبيرة لدراسة هذه الكتابات وهذه الدوريات دراسة علمية منظمة ، وإن كان ما تم منها بالفعل ونشر ما زال قليلا .

ويضم الألف مقدمته فثلاثا ألف فلم يبحث لعمد وجود دراسة كافية لهذا الموضوع . وهو على حق إذا استثنينا كتاب « الرواية في اعتمد أربعين من القرن التاسع عشر » للأساذة كالينج ييلسون التي تدرس فيه دراسة واقعية عددا من الروايات في ضوء النظريات العامة للرواية . وعلى أي حال فإن ريتشارد ستانج قد أدى فعلا خدمة جليلة للعلمين بتقدّم القصة فقد بلل جهدا عسكوريا لسد هذا الفراغ .

ويستأن منهجه في البحث بأنه يورد كثيرا من الأمثلة والأدلة لا يقدمه من حقائق واستنتاجات وبذلك يتيح للقارئ فرصة الحكم بنفسه على كثير من الآراء الواردة في الكتاب ، كما جمع بين طيات كتابه كثيرا من الأقوال وكتابات بعض الروائيين والنقاد التي يصعب أو يتعذر على القارئ العادي الوصول إليها .

ويتلخص الكتاب إلى ثلاثة أقسام ، يعالج الجزء الأول آراء الروائيين في فنّه وآراء النقاد في هذا الفن ، ويعالج الثاني بعض النواحي الهامة للفن الرواية ، ويعرض القسم الثالث لأهم مميزات الرواية في العصر الفيكتوري وهي الواقعية ، ويقارن بينها وبين الرومانسية والثلاثية .

في الجزء الأول يعرض الكاتب طرفا سريعا لتطور مكانة الرواية كنوع من أنواع الأدب فيذكر أنها كانت تقابل من التعاد بالاحسان وعدم الالتفات في بادئ الأمر ، وذلك لمند أسباب أهمها أنها كانت نوعا جديدا من الأدب وأن الطابع كاتب تخرج أعدادا كبيرة من القصص الخيبيس وخاصة ككتابات الأساذة بيهنوتيه وبيهاطيسا ومنها أنها تعالج الكثير من الأمور سلوكية الناس وطرق حياتهم ولا تعالج الحقائق والأحداث العامة بل تهتم بخصائص الأشخاص والأفراد . ولكن مكانتها ما لبثت أن ارتفعت وسيمتحت حتى أصبحت فنا متعززا بل وأكثر أنواع الأدب رواجا وسبقا من رواج العصر . وبعد سير ولو سكوت أول من جعل الرواية نوعا أدبيا محترما بين الطبقة المتوسطة التي زادت أهميتها في أواخر القرن الثامن عشر ، وإن كان هو نفسه لم يبنرها فرعا هاما من الأدب رغم أنه كثيرا ما سخر من بعض الأفكار الخاطئة عنها . وهو في ذلك يختلف ممن لطفه من كبار الروائيين الذين دافعوا عن الرواية من اعتقاد راسخ بأهميتها .

ويتناول ستانج بعد ذلك آراء بعض الروائيين في الفترة التي اختارها للدراسة ، مبتدئا بلورد بلور ليتون : Beloe Ignition وهو من معاصري ديكنز ولاركى وقد ألف كثيرا من القصص والشعر والمقالات ، وكان له آراءه الخاصة في فن الرواية . ولتسريح طاقته « الفن القصصي » من أهم ما خلف من آثار أدبية . لقد نادى بأن الرواية يجب أن تكون شأنا جادا كما يجب أن تتعق في تصوير الناس كما تعصق شكسبير . وكتابات تدل على تطور النظرة إلى الرواية ، كما تشير إلى التفرقة التي بدأ الروائيون أنفسهم يظنون بها فيها ، وإلى الطلاب التي بدأ النقاد يتكلمونها فيها . فقد نادى بلور ليتون مثلا بضرورة اهتمام الروائي بعمله ، فليس أن يفتن عنه كما يفتن الرسام أو النحاتن فنهما .

وقد أكد نازكي مسئولية الروائي وأهمية الإمالة الفنية . أما أحاديثه المتكررة عن عدم اهتمامه بهذا النوع من الأدب وإهماله بأنه يمارسه مجرد كسب المال فلا تمثل إلا جانباً واحداً من شعوره نحو فنّه ، كما يدل على ذلك استغراقه في شخصياته الخيالية وسيطرته عليه سيطرة تكاد تكون تامة . وكثيرا ما ردد نازكى أن واجبه كروائي يهتم عليه أن يبرز لنفسه عيوبهم ولو أدى ذلك إلى إهمالهم له بكراهية الانسانية .

وقد كتب مرة يقول « أنا لأمالك إلا أن أقول الحق كما يبدو لي وإن أفسده كما راه » . فوضع على غير ذلك ليس إلا كذبا في هذه المله التي أحاسن لها النساء ، وحجابه لذلك القصير الذي يعرف أن « شتر شحات وإن الحق يجب أن يعلن والحق لأبد أن يعرفه » .

كما شارلوت برونتي فقد أعلّنت منذ بدء حياتها الأدبية بعبها لتأثري : « مؤلف « ذاتي غير » وفارثته بالإنبياد ليعبها « مصرية بذلك عن أحد آراء نازكى نفسه في دوره كروائي » . وأوضح من خطاباته ومن بطور فنها من « حين أبر » إلى « ليليت » أنها كانت فنانة جادة جدا متعانية في سبيل صدق فنها . لقد حدث عندما طلب منها بأثرها جورج سميت أن تسرع في إنجاز روايتها « ميب » لأن حالة السوء كانت مؤنسة لنجاحها أن كتبت : « أتنى سأوالي كتابتها بالسرعة التي تكفل انماها أن لم يكن على غير وجه . فعلى الأقل على غير ما أستطيع . وليس قبل ذلك بقليل وبعدة » .

ويبرز ستانج منه عرفة لوجه نظر شارلز ديكنز في الرواية اهتمامه بفتحها اهتماما كبيرا ، كثيرا ما ألفه بعض النقاد المعاصرين ، فقد تغيرت النظرة العامة لأعمال ديكنز التي كان يصورها أملا لأرجائها بل يتمثل المؤلف حتى يوضع خطة مدنية لها . ويعاقل النقاد المعاصرون أن يوصفوا أنه كان شديد الاهتمام بجميع نواحي فنّه كما يبدو ذلك بسهولة للباحث الملقن . وقد أكد ديكنز في كتاباته عن الرواية في الطليق للتسعين التي يصدرها (1) وفي خطابهات وفي نقده لأعمال الآخرين ضرورة العمل الجاد وضرورة الجهد اللازم لوضع المادة التي يدونها الروائي في صورة فنية . وكان إلى جانب ذلك يؤمن « كعامل مجيما ، إيمانا قويا بأن إحدى وظائف الفن الأولية هي أن يغير العالم عن طريق التأثير في الرأي العام » ، وهذا واضح في جميع رواياته التي تعالج كلا منها نغميس من نواحي المجتمع المصري ، ومن طرق التعبير عن أسس أمال الانسانية ومثلها العليا .

ويذكر أن كان قد اعتمد بالناحية الاجتماعية ، فإن جورج مرديك قد قسم إلى فئتين الفردية ، وعلى يده يصبح الهدف الرئيسي للقراءة عرفة الذات . وفي خطاب معروف من خطابهات التكلله إلى بتاتقي فيها فنّه ، كتب مرديت لعضده جورج بيرس ليكي يقول أن هدف الرواية هو أن تعرض « التاريخ الطبيعي » للناس وتمثل له . وكان يرى أن هذا العمل ضروري في إنجلترا لأن « هناك جماعة كبيرة تعارض دراسة الواقع معارضة معيضة وتعترف عندما تبدو حيرة مبهنة » . فروايات مرديت موجهة لأولئك الأشخاص الذين « يرتضون أن يروا » وطريقته اللغوية هي « المتكلمة العقلية » فهو يستخدم الفكاهة ليكشف عنهم الفتناع ويعرفهم بخصيتهم من طريق الضغط الفكر . وهو يعتقد أن من واجب الروائي والشاعر أن يؤكدا حرية الإنسان ويقولوا فكرة أن الإنسان لا يد له في تقرير مصيره ، وهي فكرة كان لها شأن كبير في منتصف القرن التاسع عشر نتيجة لنظريات داروين وألية العلوم الطبيعية . في ذلك الوقت ، فعلى الروائي والشاعر أن يوضحوا أن الإنسان يستطيع أن يوجه سلوكه نتيجة لتساع صرته .

وعلى الكاتب أن يكون فلسفة خاصة . ويقصده مرديت بالفلسفة المعروفة بعلم النفس ، ويؤكد حاجة الرواية إلى هذه المعرفة ويقول أن إذا لم يسرع بالجمع بين الفلسفة والأرواية فإن هذا الفن مصيره إلى الزوال ، لأن موضوع الرواية الحقيقي ما هو إلا عقل الإنسان أو « تاريخه الداخلي » .

ودراسة الإنسان لم تكن دراسة خالية من الهدف ، بل الغرض منها إرساء قواعد المدنية وتحضير الإنسان ، وبذهب مرديت إلى أن الإنسانية والتمركز حول الذات كما يعرفها ويعلمها في رواياته هما اللذان تعهدان الإنسان إلى الإنسانية التي لم يك بد يتخلص منها . ويتخذ مرديت في أعماله جميع مظاهر القوة والخيالات والركود والوجود في المجتمع الإنجليزي ، قائلا أن الإنسان يتحكم في مستقبله وأن الفن « وهو وسيلة التحضر الانسانية » من أهم الوسائل التي تساعد على التحكم في مصيره .

ومع أنه يرى أن للرواية رسالة اجتماعية عامة فهو يؤكد أنها ليست رسالة تعليمية بالعلمي الضيق ، فكتيرا ما أشار إلى أن نهاية الرواية لابد أن تكون حتمية مقنعة وواضحة في الموقف والشخصيات ، فالشخصيات هي التي تصدع الحوادث ، ولا ينبغي أن تفرس الحكمة على الشخصيات ، وكان مريدت يعنى بأن ذلك واضح في رواياته ، وإن كان يفهمه لم يكن يستند إلى أساس حقيقي دائما .

وكان مريدت يقسو في معده للروايات الأخرى « الوعلية » ، إذ كان يرى أن الرواية تصيح غير فنية عندما يقف المؤلف موقف الملاحظ والعلم . وكان يقف شارلي كنجسلي لهذا السبب « كما كان أول النقاد الانجليز الذين دافعوا عن رواية « مدام بولرى » لخلوها من تلك التزعة واعتمادها فلوير فيها على الصورة الفنية ليتغل ما يريد من عظات أو حقائق .

وهكذا نرى أن لمريدت آراء معينة في شكل الرواية ، حاول تطبيقها في أعماله ولكنه عندما تأمل هذه الأعمال في أواخر حياته وجد بها كثيرا من الأخطاء ، فكتب في عام ١٩٠٦ « أتى أرى أخطاء في الرواية منها وبالمثل من أتى لم أسع للكتابة - إذ أن ذلك كن لابد أن يمل يدي في الكتابة - فإنه كان يسرى أن أنتج شيئا أقرب إلى الكمال مما فعلت » ولعل السبب في أنه لم يصل إلى الوحدة الشكلية المثالية التي كان يصبغ بها كثيرا في أعماله مولير هو أنه كان يشعر أنها تستهوه حياة شخصياته الحرة ، وكانت هذه الحرية هي أهم مبدأ يتلذذ به .

ويسبق ريتشارد ستانج في معالجة آراء جورج اليوت التي يعتبرها فريدة من روائى العصر الفيكتوري ، فقد عبرت عن آرائها في الحياة والحب قبل أن تبدأ كتابتها روايتها الأولى ، والمقالات التي كتبها لمجلات لندن (١٨٩١ - ١٨٩٨) وخاصة في سيمبسترس ريف (١٨٩٥ - ١٨٩٧) تحوى نصيرا صريحا عن جميع آرائها تقريباً . وبعد هذه الكتابات بالإضافة إلى خطاباتها مصدرا لمبدأ آرائها في فن الرواية . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن النكتة الشائعة لخطاباتها (١) التي جردت عند جارسب تدف فلا مصدرا عاما لدراسة آرائها فحسب بل لدراسة جانب كبير من الحياة الأدبية في ذلك الوقت .

وتتلخص آراء جورج اليوت في كل من رسالة اجتماعية أخلاقية ، فهو يساعد في القضاء على أسوأ الناس في القضاء وبريف مواطني بمواضيع أخرى كما يكون عن طريق الآراء خيال القارئ مواقف أخلاقية غريبة . ويتحدجور اليوت أن الإنسان يولد محبا لذاته ولكنه غافل لتعلم الأخلاق ، إذ يمكنه أن يتعلم كيف يعيش فرحيا من سعادته الشخصية ، أي لغير الغير ، وتقول « هـ أ لم يتو الخن طاعتك الناس فإنه يقتل أخلاقيا . . والآراء الوحيدة التي أسمى جادة كى تعدته كتابتى هو أن يصبح هؤلاء الذين يترواها أقدر على أن يتصوروا ويشعروا بالألم وفراخ أولئك الذين يحتلهم صميم في كل شيء أنهم جميعا أساس مساعدون مطلون » .

وتشارك جورج اليوت الشاعر وندزورث في الإيمان بأن وظيفة الفنان هي ربط الامبراطورية الانسانية الشاسعة بالمصاوغ والشاعر الودية .

وتؤكد أن وسيلتها لتحقيق ذلك هي إبراز القيم الانسانية المقدسة عن طريق كتابة المساة وعن طريق الزدء الشك والوقوف والاحباب والسود . وتعتمد أن أي تفرقة بين الشكل والموضوع تعد خطأ جسيما ، فقد كان هدفها دائما جعل « الموضوع والشكل حذية لا تجزا » وكانت تحذر لطيرا شديدا من كل ما يمكن أن يسمى وعلا وتقول أنها إذا سمحت لنفسها بشيء من التعليق أو العوار الذي لا يكون جزءا من بناء كتبها فلها تخرج بذلك على القواعد التي وضعتها لنفسها والتي اهتمت بها اهتماما كبيرا . وتؤكد جورج اليوت أنه إذا كان للفن هدف أخلاقي ، فإن ذلك لا يعنى العناية لعائدات أو آراء معينة أو تعليم نظرية أخلاقية

بالذات . وهي إذا كانت تفر شيئا أكثر من كرها للانبياء الوطلى في الرواية أن يصبح الروائي مجرد ممثل Entertainer فقد كانت تؤمن بقدمية هذا الفن على العكس من سير ووتر سكوت الذي سبها بقولاي أربعين عاما .



وبعالم الجزء الثاني من الكتاب تطور نظرة النقاد إلى الرواية كما يتجلى ذلك في الموديات وكتب النقد . ويوضح المؤلف كيف يلف الرواية « سن الرشد » على حد قول الانجليز وكيف زاد الاهتمام بها باعتبارها فنا يبالغ بكثير من الجدية والاهتمام ، إلى أن كانت الآراء تجمع على أن الرواية أعظم أنواع الأدب في ذلك العصر ، كما كانت السرجسة أهم أنواع الأدب في العصر الانجليزى والكركيس ، وأصبح النقد يفسد بتطلوب منها الدقة والعق في فهم النفس الانسانية من طريق دراسة الشخصيات والاهتمام في السطحية ، فلم تعد الرواية مجرد قصة ترفيهية بل سعى الروائيون إلى الارتفاع بها إلى مستوى المساة .

ومن الواضح التي كتب النقاد فيها كثيرا في تلك الفترة إلى بدراسة المؤلف فائدة الرواية وأسباب انتشارها ومدى النفوس الذي تعود به على القارئ ، وعلاقتها بالإحلال .



أما الجزء الثالث من نظرية الرواية فيعالم فن القصص ويدرس تطور الفن الواحدية فيه . وهنا أيضا يلم المؤلف بعض الأفكار الخاطئة عن طبيعة تطور الرواية في المتسرة التي يدرسها ، فيقول أن بعض النقاد يعتقدون خطأ أن اختراع المؤلف الحديث ، وفي روايات فيلجك ، وسكوت ، والكروى ، وجورج اليوت ، يظهر المؤلف في كل مكان بشخصيته هو ليجد ذلك عن الشخصيات ويغير بها يدور من أحداث ويساعده في تكوين حكم خاص على تلك الشخصيات أو ذلك الحدث ويوزع حكمه وتعليقاته هنا وهناك ، أما في الرواية الحديثة فإن المؤلف يغنى تماما ، وتلقى الرواية نفسها ، فلا يعتد المؤلف في سموات شخصياته ولا يحاول تدبير سلوكهم ولا يفرس في الفاري ربا سيم . ويبدل ستانج على أن هذه الفكرة ظهرت في كتابات بعض الروائيين المتعدين فقد كتب كلاكرا ريف في الموضوع سنة ١٧٨٥ وماذا أجودت سنة ١٨١٢ ، وولتر سكوت سنة ١٨١٥ ، وحوالي منتصف القرن التاسع عشر أصبحت روايات جين أوستن متشلا بمتح سبب موضوعيتها وعدم تأنها بشخصية المؤلف ، أو بمعنى آخر أصفاتها التصويرية ، فهي لا تصف بل تقدم صورا حية لشخصياتها وما يشعرون به ، أي أنها تقدم أشخاصا يتكفون عن انقسام بانفسهم ، وبناء على ذلك أصبح قياس الرواية الناصجة على حد قول ج. هـ. لويس وهو من أهم معاد ذلك الوقت ، أنها « تقدم صورة للحياة الانسانية في شكل قصة » .

ومن النقد من دافع عن حرية المؤلف في التعليق والملاحظة وأن كان دفاعهم نفسه يعتبر دليلا على ذلك التعلق ليس ستانج بوجه عام ، وإن كان من المعروف مع ذلك أن معظم كبار روائى القرن التاسع عشر قد سمحوا لانفسهم ببدء الاطلاصات والتفسير والتأمل خلال الرواية كما نرى عند ديكنز وناكرى وجورج اليوت وأن اختلفت وجهات نظرهم في هذا الشأن . وشيفر يستنتج أنه كان من الطبيعي أن يؤدي الاهتمام بالصوير الفني لشاهد القصة وشخصياتها إلى الاهتمام بوجهة النظر أو العلاقة بين المؤلف وقامته ، فقد أصبحت أحداث الرواية وشخصياتها تقدم جميعا من وجهة نظر شخصية بالذات فكتسب بذلك وضوحا وجوية وتركيزا أكثر مما لو قدمها المؤلف نفسه .

ومن الأمور التي تشمل بطريقة تقديم القصة والتي زاد الاهتمام بها بناء الرواية الكلى أو هدفها السكلية . وقد اختلف النقاد في مدى تركيز القصة فمن قائل بأن القصة لابد أن تسير أحداثها في خط واحد ، إلى قائل بأنه يجب استبعاد جميع

(1) Gordon S. Haigher (editor)
The George Eliot Letters,
7 vols. (New Haven, 1964-6)

الإعدادات الثانوية والتشخيصيات غير الهامة إلى ثالث يسلمح بحجة ثانوية إلى جانب الصيغة الرئيسية ، وإن التلق الجيميع على ضرورة وجود وحدة شاملة اقتصادية يترك فيها الانتباه وتجميع أحداث الرواية وتنظيمها في نطاق محكم ، وعلى وجوب اتصال الشخصيات بالصيغة واتحاد الوحدة منها على الأخرى ، وقد عبر أحد النقاد عن هذه الناحية الأخيرة لهذه الصبورة الرومانسية العرة : « يجب أن نصور الصيغة كما نصور النبات ، فإذا لم يتمكن الكاتب من معرفة العلاقة المصوية بين الأحداث ، وإذا لم يجد كما لو بالظرة ذلك القانون الذي يجعل ملا من الأحداث يفرود بصيغة واضحة إلى نتائج معينة ، فإن حبكة لابد أن يبدو ما بها مظاهر النعامة والبدائية » .

وبالحل الجزء الرابع والأخير من الكتاب الوافية في الرواية في العصر الفيكتوري ويغرن بينها وبين الرومانسية والثانية وبين أنوعها المتميزة لدى مختلف الروائيين ، فيبدأن ملا بين أعمال ديكنز التي يشوبها شيء من الرومانسية ولكن لا يمكن اعتبارها أدب ليون من الصياة الوافية بحال من الأحوال وبين اتصال بولز هيربوت التي يمكن وصف بعضها بذلك ، وبين الوافية التي يجدها في روايات لاري وجورج آليوت وغيرها من كتاب هذه الفترة .

ويجب أن نشير في نهاية لندبعنا لهذا الكتاب أنه يحوى قائمة بولوجرافية ممتازة لدراسة أسس الرواية ولنداعا وتاريخها .

الدكتورة أنجيل بطرس سمعان



الشعراء الرومانسيون الانجليز
مقتالات جديدة في النقد
لشعرها - ماسير هـ - اسبرامير

يقدم هذا الكتاب مقالات حديثة عن كبار شعراء الانجليزية في العصر الرومانسي ، كما يسميه مطروفي الكتاب - فتمتاز الكتاب بأنه يفسرهم منطق وجهات النظر النقدية اتجاه الشعر الرومانسي بصورة عامة بل إن فيه مقالات تتطرق في النجج الذي تتبعه والحقائق الذي قدمها نقارضا أساسيا وجوهريا ، ولتكنا مع ذلك لا تختلف في أنها محاولات صادقة - علمية على الأقل - ترمي أولا وأخيرا إلى لقاء القاصد ، دون فرض رأي خاص لأحد الكتاب .

وينقسم الكتاب إلى سبعة فصول - الأولى يتناول العصر الرومانسي بصورة عامة ويشتمل على ثلاث مقالات ، الأولى بعنوان عن التفرق بين الاتجاهات الرومانسية ، بقلم « آرثر أ. ليجوي » ، والثانية بعنوان « تركيب الصور الفنية للبيئة من الشعر الرومانسي » بقلم « دك. ويمسات » ، والثالثة بعنوان « التسليم التجريب : استعارة رومانسية » بقلم « مايك هـ . ايرامز » وهو الذي نول تحرير الكتاب ونشره ، وهذه المقالة هي التي سأحاول عرضها هنا ، لأنها تمثل طريقة الاستدلال ايرامز في التحليل وتمثل اتجاهها جديدا في معالجة الصور الفنية عموما ، وفي الشعر الرومانسي بصفة خاصة ، ولم يكن يسبقه إلى هذا المنهج سوى الشاعر الانجليز « اثيريكي الأصل » و « هـ . آودن » في كتابه « الطرزان الجارف » والذي درس فيه صورة البحر لفت كما استعملها الشعراء الرومانسيون .

ويشتمل الفصل الثاني على ثلاث مقالات تتناول « ولیم بليك » ، وتظانها أربع مقالات ونقدية في الفصل الثالث عن « ولیم وردزورث » ثم ثلاث مقالات عن كولريج في الفصل الرابع ، وثلاث أخرى من بيرون في الفصل الخامس ، منها مقالة « س . اليوت التسهيرة » التي كان قد نشرها من قبل في كتابه « مائة الشعر والبد » ثم أربع مقالات عن شيلي في الفصل السادس - أما كيتس ، فيبدو أنه على عكس اتجاهه الشعري لا يزال

يستأثر بأكبر قدر من الأراء المتضاربة حول مذهبه في الكتابة واسلوبه وفلسفته والفكره العامة - ففي الفصل السابع نراه يستأثر ببعض مقالات تعلق فليسا وتختلف كثيرا في منهجها والحقائق التي تقدمها .

ومحور هذا الكتاب هو الدكتور مايك هـ . ايرامز أستاذ الادب الانجليزى بجامعة كورنيل بالولايات المتحدة ، وسبق له أن نشر كتابا كثيرة يدور معظمها أيضا حول الشعراء الرومانسيين ، واشتهر خاصة في القاهرة هو « المرأة والمصباح - النظرية الرومانسية والتقاليد النقدية » - « ولما كان للمسر - إن يذكر شيئا يتنبئ به الدكتور ايرامز حتى في مقالاته القصيرة التي ينشرها في مجلة ذا كينيون ريفيو The Kenyon Review فهو منهج المحد للحد في دقته ، ولشبه الشقة الذليلة في تنقيها فهو (في هذا الكتاب وفي غيره) يمسد دائما بعرض نتائج دراسته في باب مستقل من أبواب مقالته يفسح في راسه رقم (١) لم ينتهي من هذه النتائج التفسيرية إلى تحليل أهم كوشعه تحت رقم (٢) ثم ينتفض في تفسير يتبند به عن التوصل للاحلا والفرقة العامة التي انهيها انتهى ، وهكذا .. حتى أن الر. ليش أنه يتطلع رسالة جامعية مصغرة أشهد التنصر في تروبيها وصنيتها وتلججها ومنطقيتها .. وكولا لفته التي يخلد دائما أن تكون ممتدة لأخرى بالقرب لكانت إبطاءه في تناول الجميع حتى المتدنيين منهم .

ومقالة التي أحاول عرضها هنا نموذج لكل خصائصه ، هذا إذا تجاوزنا من لفته ، فهي تمثل طرفتي في الدراسة والتحليل ، وما أحرقتنا - خاصة في دراسة الشعر - أن نضع هذه الطريقة - أنه يتناول صورة ثانية شاملة بين الرومانسيين - وهي صورة القسم في الشخصية السلي يتخذ دلالات فسيحة حيوية عند الشعراء ، ويمثل لديهم روحا في الطبيعة تتجاوب مع أوجهم ، ويرتبط عوده وخوبه بالاتجاه النفسي من عسود وهسيوب أيضا ، وهو في تناوله لهذه الصورة ينفرد بطريقة الخاصة في التحليل والوصف ، « يقدم بعض التواضع من اللذة التي جمعا من الشعر الرومانسي في بحثه لصورة « التسليم التجسرو » كما يسميها ، ويقد عرض هذه التسوادة ينتقل إلى أصل هذه الصورة في التراث الأدبي والسيميائي الذي انتهى إلى العصر الرومانسي ، ثم يتناقل قضية عامة في قضية « الانماط اللغوية » كما وضعها « كارل جوستاف يونج » ، وكما انتهت بها الآسنة - مودبودكين - في تفسير كثير من الشعر الانجليزى في كتابها - الأساطير العذرية في الشعر - ويرفض الإلح بها لأن اللجوء إلى علم النفس لتفسير الأعمال الأدبية أو حتى الفواهر الأدبية يحكم فردية هذه الأعمال ، ولا يلقى بالنص على جوانبها الفنية ، ويجعلها تشترك مع غيرها من الفواهر السلوكية أو تراث البشر الشائع الذي لم يتشكل بأشكال فنية .

يبدأ ايرامز مقالته بالإشارة إلى ملاحظة أبدعها أحد كتساب العصر الرومانسي للشاعرين ، والنشر فيها أول إشارة إلى هذه الصورة - صورة التسليم التجاوب - يقول :

« كتب صري تايلور عام ١٨٣٤ يقول إن الهجوم الذي شنه وردزورث على لغة الشعر من القرن الثامن عشر قد نجح في أن يجعل الشعر - من بعض خصائصه - فريبا من لغة الحديث الحديثة . ولكن لغة شعرية جديدة قد حلت في الواقع وبصورة خفية محل لغة الشعر القديمة - ثم يسفر من حيوم الرومانسيين على اللغة الخاصة بالشعر في القرن الثامن عشر قائلا أنه لم يقتصر على اصطلاح لمتهم الجديدة تلك ، وإنما حشوها بامطاط تقليدية ويمارسات شاعت بينهم وانتشرت في حسابا شعرهم طريقة تدل على أنهم لم يكونوا يحسون بدلائلها الحقيقية مثل كلمة « طليق » و « واضع » و « وحي » و « حلم » ، وخاصة الانكسار اللغوية المختلفة لكلمة « يتنفس » أو « التنفس » - ويضيف تايلور قائلا أن فعل يتنفس قد أصبح « كلمة شعرية يمكن أن تدل على أي شيء إلا التنفس » .

ويعتق ايرامز على ذلك قائلا : ان « انتقسي » مجرد مظهر واحد من مظاهر تيسار عريض ساد الشعر الرومانسي . وهو « حركة الهوى » بصفة عامة سواء كان ذلك سيمبا أو انغاسا ، رايحا أو شهيقا أو زفيرا ، وسواء كان الدافع على حركة الهوى قوى الطبيعة أو رثى الإنسان . وكيف نتجامل ان يكون شعر كورليج ، وودزورث ، وشيلي بيرون حاصفا تهب فيه الرياح من كل جانب ؟! ان يدهشنا الا تكون الرياح سمة من سمات النظر الطبيعي محسب ، وانما تكون عملا يؤثر اشد الاثر في نفس الشاعر وتفكيره ؟! ان الريح الهابطة التي تربط مادة بانتقال الطبيعة من الشتاء الى الربيع تسحبها عملية ذاتية معقدة وهي الاحساس بعودة الاتصال بعد العزلة ، وبجسد الحياة والتعبر العاطفي بعد موت الشاعر والخسود ، بل وترسم الازلي انطلاقة ، وقوة الخلاقة بعد فترة من علم الخيال .

وليد في قصيدة « كورليج » التي سماها « الحزن كورليج » مثل على هذه العاطفة الرمزية . فالشاعر يبدأ تأمل موضوعه في ابريل الشهر الذي يصبح - كما هو في قصيدة ت - سي - الثوب ، الاولي الخراب - التي الشهور ، لانه حينما يخرج الصبا من الاراضي الباردة ، يجدد الحياة العاطفية في قلب الشاعر ويخرج الذكرى بآثرية فيؤله ويوجه .

وحالا تبدأ القصيدة تذهب افاننا انعام نسيم غابت التبريات ، تنبت من مزارع حزين ، تردد ذبذبات العانة الغريبة في مقام القاصد التي نحن بصدها . لهذا الزمان التالى ينبى عن قرب هبوب عاصفة ينتظرها شاعرنا ، املا ان تولفته من سباه . ثم تطير بروحه وتلعب ، وتلعب ، والحرر المخلوق النائم الباراد الذى لا يعد له مرجحا مسما ولا حلاب .

ويتمنا يلمد الشاعر على استعراضي الاذن التي لمحت عليه كل سبيل للاتصال العاطفي بالبحرية ، وشئت ملكاته الشعرية كل روح ضياله الخلاقة . تهب الرياح من كل جهات وتزداد شدة حتى تصفى عاصفة تعطل بالامطار الغزيرة وتبت من الزمان موسيقى قصبة وسرعان ما تجد صدى الناطقة الطيفية يرتد في نفس الشاعر ، ان صاحب انعام الزمان انعام عاصفة حية متزايدة الشدة ، يسحبها الشاعر ، الحياة والمطلة التي تطير في داخله . - ولا تسكن هذه العاصفة الداخلية التي لهذا الريح في الخارج ، فتعود القصيدة موزنها وتعود الى حيث بدأت عاصفة رائعة ، هل حين يكون الشاعر قد انتقل من هذه العاصفة العاطفية الى عوده القلب الذي ارتوى لسكن .

وتشير خطابات « كورليج » الى ان هذه القصيدة قائمة على تجربة الريح ، فخطاباته تدل على التمتع التي كان يجدها في تامله الواقع والمواقف ، وتشهد كيف كان يربها باحاساس خاص وعبرة صبية وادراك للرباط العالي الذي يشد قوتها الى قوته ، كان يصير في قلها - كما يقول - « سهورا » . وقد غلبني حزن لا تسبر اوجاره » ويقول :

« لم يحض يوما ان شعرت بالوحدة وانا امير في احضان الصخور والقتال .. فاذا مشيت في طريق جبلي احسنت ان روسي تملو وتطلق وتحلق في ثوب كاتها ورنة تتخللها رايح الخريف ، لكم يملكني نشاط ملطيق الزمعات .. في الفكر والحيل والاماسيس وزروات الخلاقة .. يهب كانه ربح عاتية في قرارة نفسي ، تنجبه الى امكنة لا يعرفها البشر ، وتنبثق من منابع لا ادري تنبعا ، ولكنها تهر كياتي كله .. ولا يختلف وودزورث عن صديقه كورليج في هذا القول . تقول أخته دوروثي : « ان رايح الشتاء متحمه وبهجته ، واعتقد ان غصبت ذهني لا ينبع الا في هذا الفصل من العام » فلا تحسنا قصيدته الطويلة ، للامعة ، التي يرد فيها تاريخ حياته ، وجدنا شواهد لا تحصى على هذه التزعة - ان في البداية الى النهاية - نحن ان الريح التي تهب وتسكن ثم تعود الى الهبوب خيف يشبك في نسجها كله ، ويرمز الى التاكيد القائل في الحركة الخارجة في الطبيعة ، والقوى

الداخلية في الإنسان ، بل ان هذا الخيط هو الشعر الذي يضم خيوط الصور الغريبة ، ويمتد كالتياك الجارف في كل جزء منها ، دون ان يتقيد بزمن او مكان .

والا كان قد قام الشعراء ينشدون الانعام من رتبته ، فان وودزورث يستجوي التسيم في بداية هذه القصيدة ! يقول « ملتون » في بداية « الفردوس المفقود » :

من اول خطبة يفتقرها الانسان
وعن تلك القمرة الحمرمة
التي جلب عليها الميت الهلاك الى العالم
وجر علينا كل ماسن فيه من احزان
وأعدنا جنات عدن
حتى يعود الرجل الاعظم فينفنا
وميد البنا كرس التسيم
أشدني قاهرة الشعر فاطمة السماء ..
أما وودزورث ، فيبدأ « القعدة » قائلا :
« ا ! مباركة هذه الانعام الرقيقة
تلك التي تهب من القوتل الضمراء
ومن السحب والسماء والوزراء .. »

ان شاعرنا الرومانسي لا « يعرف » الله الشعر ، وانما يحس بالغيث الحياة فيستلهمها منه ، وهو كما نعرف لم يكن يجلس في حجرة يكتب شعره أو يمد يده على بناته كما كان يفعل ملتون ، وانما كان يقول أو يرسله - اذا جاز هذا التعبير هنا - وهو سائر في الهواء الطلق ، أي وهو الرب الذي الاله الحي في الطبيعة « الذي ينفض فيه من روحه .. انعام مباركة ! لند نعود من الدنيا ومن القال الكافي التي ترين على قلبه .. فقال : « تلك حلت انتس من جديد » فالطبيعة ايضا تتنفس .. وهو يصور الريح في صورة الفسائل الغابري لمبتل الرضى في قلبه - « لك القلب الذي عاد اليه الريح بعد فصل الشتاء » وفي تقابل ايضا بحث الانعام الشعرى في نفسه ، فالا به يمازج بين هذا التسيم وبين وهي الانبياء ، ان تقسم روح القدس - بل ان ثمة تقابل استماريا عابرا بين الطلق الشعرى وخلق الكون في صورته البدائية الاولى حيثما نطق الله بالكتابة .. « فالطبيعة نفسها » كما يقول وودزورث « هي انعام الاله »

فقد احسست حينما صبت انغاس السماء
الغنية على جسدي ، يسلم يتجارب مع انغاس الطبيعة
داخل قلبي .. نسيم ناعم خلقت ..
نسح في منتقل في رقة بين الاشياء التي خلقتها
لم يصبح عاصفة ، بل وقوة متفجرة مترددة
تخلط بين كل ما خلقت ..
انها قوة لا تأتي متسللة في الخفاء .. بل عاصفة
تهب لتزبل القلوج وفصل الصقيع الذي طال فاسن في
القلب

وتأتي معها بوعود خضراء .. في غمرة الربيع ..
رحلة مقبسة تصنعها الموسيقى والشعر ..
وجاءت بحت نبوية الى المقول القصيدة الملقية
فانتس انعام الشعر لتقاوية .. وارتدت وحي لوبا كسما
واغرقت بنفسها لصلابة ..

وهكذا لا تنبنا وصف « وودزورث » لانهارة النفس في « القعدة » وجدناه يماز القرات التي يتعبر فيها « كورليج » لحياته الشخصية في قصيدته « الحزن » ، ان نراه في قاع جذبه العاطفي ، حينما شعر « بالايحس المطلق » دون مايرى باستعادة اي أمل - نراه يعبر من شلاله بمغاطبة التسيم المتجاوز منه :

يا أيها البحر الجياش
انه من نطق من القوتل فندوها في رفق ..
أيتها الانعام والرياح الناعمة التي تنفس انعام الفردوس
وتسرب الى صق اعماق النفس !

ويقول : لقد عاد الربيع .. لقد رأيت الربيع يعود : بل انه يصور تأثير أخته « خوروني » عليه في صورة نسيم ربيع متعش :

أناك يا أختي الزينة
ربيع رديني يخطر أمام قدمي

كما ان معظم عيسيلات « وندزوث » التقليدية تشير الى « نسيم البهجة الذي يهب روجه » أو ال « الرياح التي تهب عليه من حول لم تزل نائمة » أو تراه يصفي الى اصوات « تسكن في الرياح البعيدة مقلقة بغموض وحوت نبل مها ترقى البصرة والتأمل أو يؤكد ان :
توى البصرة

تكنن في جيشان الريح الضحية
وتتجسد في أسرار الكلمات ..

وإذا كنا لا نزال نذكر العلم الذي راه « وندزوث » ورائه فيه البؤى التي يمتلئ ظهر جملة « فلاد اتنا نذكر أيضا ان فوطة اليدوي كانت « تصغر أصواتا عاصفة متوافقة الانغام وتحمل في طياتها أكثر من بيرة »
كان لها من الأصوات مالا تقربى على النطق به كل الرياح وكان لها من القوة ما يخلق بالروح في أجواء الأبراج »

وفي المعلقة التي يلتقي فيها وندزوث مع صديقه كورليدج لكي يقرأ له الأول قصيدته « القصيدة » ، نرى مشهدا فريدا بين الصديقين « ان كورليدج يعساني من عيوب صديقه في روجه الضخوية ، بل انه انقطع تقريبا في هذا الوقت عن الكتابة ، وعرضت عليه خمس سنوات - منذ ان كتب قصيدته الحزن - وهو في حالة يرثي لها من الكآبة والضييق - وأخذ « وندزوث » يقرأ في مهل قصيدته ، بينما أخذ كورليدج يصلي في صمت ، وقد تملكه صوت الشاهر كانه « ربيع هابة تصاعب روجه الخاملة بعد أن كاد ألقها ان يلوى » فابتغوا بقلعة « مؤلة » ال أحس « الأنفاس الحية الخفية تتسرق الى نفسي كأنها روح النسمو الربيعي » .. فكتب قصيدة التي وليم وندزوث يصور شعوره فيها قائلا :

لقد مرقتني العاصفة وداثرت بين
حتى أصبحت أفكارى جيشانا مجيدا

آه ! يسما كبد استمع اليك معلم مبدع
عند كياي ان الحفان من جديد
ومتعنا تعود الحياة الى العرفى

ويشير فرح الحياة الملتهم حشدا من الالام

أصبحت بوحى لمع العادة ، سيعبد كنهها راسع مشاغب يصرخ صرخته الاول في نفس
ويستمر الدكتور ايراز في تصديده الشواهد الشعرية والمثالية ، ثم يعبر مسير الكرام على بيرون قاتلا انه يسير في نفس الانجاه « ان تشايك هارولد وجد روجه تشاوك « منصف الخامسة الالية « وصور الموازي بين حالته النفسية وبينها حين تغير الشعر في واديه في تلك المعلقة « ويشير الى دي كوينسي قائلا حينما كان دي كوينسي طفلا في السادسة تسلل سرا ووقف الى جانب مربي أخته الحبيبة التي كانت تحضر « لهدات ربيع وزيئة في الهرب » في حين « سمعت اذنه هذه الاسام الابولية العيدة « وتحوطت عينه من « الخج الدمعي للحيات في الجرح من ظهر اجد ايام المصيف « لكي « تسير الى الصديق الذي انتشر عن وجه أختي .. وفي الحال تملكنتي غيبوبة .. وغيل الى ان روجي ترتفع في الهواء كأنها تملأ بها أجسام هابة » .

ولا يفت المؤلف طويلا عند شغل وانما يشير اليه أيضا في أجيست قائلا ان اشهر قصيدة كتبها شغل موجه مباشرة الى ربيع في صورة من يطلب الالام ويلتصم القفران « على القفرات الاولى من القصيدة نجد «الرياح العريضة الضاربة مدبرة للحيات وحافلة لها في الوقت نفسه ان انها في الغريب

تنتزع الأوراق العجفاء وتمزقها وتحطم البلور ، لكي تهب في فصل قادم رياح غربية من لون آخر « أحتك الزرقاء التي تهب في الربيع » ، فتنتفخ بوق البعث « وتعيد الحياة الى الجسور « وتعود الريح الى الضمام كأنها طفلان الانعام .. وما طامها هنا الا الريح نفسها التي تهزها ويثب لها الحياة .. وفي القفرة الأخيرة روى شغل يصبح طابعا من الريح ان يهب عليه في غريب ثرى « بل تهب فيه وتنفس فيه من روجها كأنه زميل أو فياترة هوائية .. « لئلا تشاركك عند جعلت الدابة قينارك « ويطلب منها أيضا ان تسوق الأوراق الدائبة في الكفارة البيتية وتدروها على السكون « حتى تسرع باليلاد الجديد « وفي قمة القصيدة حيث تنفخ الريح العاصفة بوق العناء والبعث تصل للقارة الى ذروتها بين تأثير الريح على الارض التي لم تستقل بعد « واستلهم النشد للشعر « وديع الريح الانسانية في كل مكان :

لشكوتي اربوا الروح المتوحشة روحى انا انا
فلشكى انا أيتها اللطيفة التي لا تهاب بشي ..

لشكوى خلال شفتي الى الارض الدائمة ..
بوحى يحمل النبوءات : ايه أيتها الريح
نرى هل يفيك قدوم الربيع اذا ماجاه فصل الشتاء ؟!

ونجد الريح عند شغل عن مواضيع أخرى كثيرة مثيرة للاهتمام وجزلا له « في مقالاته النثرية وقصائده على حد سواء « تبدأ قصيدة « الاسير » بطلب الالام من « أم العالم الذي لا يسير له فور » :

في رزاة وسكون

كاننى قبارة نسبها الماثور طويلا
يظلم الان انماك ايها الكبير

عسى ان نلقى اوتاري اذا عشتنا نعمت الهواء

أما حمام صائمه عموما فهو دائما مريح من الريح العظيمة والريح المجازية ، بل من مزيج من الاصل واليأس والتحول الدائم من السكون الى الفرح ومن الفرح الى السكون :

ان الاكليم المثل كبت اقتدعا في اغصني

نظاظ على الكالوخي - وتوسق سليلته روحى

يهدى في الساطي .. بعيدا عن الحنن المرتد

دى ل سلام بوحى أسرته الى العاصفة ..

درب الارض والسواك المسبعة دورات أبدية

ووجدتني أوله حال .. بعيدا .. في الظلام والظن ..

وإذا تناولنا هذه المعادلات الرمزية - كل معادلة على انفراد -

وأعنى بها المعادلات الرمزية بين التسميم والانفاس ، وبين

التفسي والتفسي والالام وبعث الحياة في الطبيعة والروح -

ثم نجد ان آيا منها دومانسي اصصيل ، او من ابتداء قريبة

حديثه العهد الى الاطلاق .. فكلها اقدم من التاريخ المدون .

وهي كانت في تكوين المفات القديمة وشائعة في اوسع نطاق

في الاساطير والفنون الشعبية بل تكون بعضا من اعظم مظاهر

الثقافة العظيمة « فالكلمة الانليزية Spiritus كانت تعني

الروح والانفاس والتفسي جميعا ، وكذلك كلمة Anima

اللاينية وكلمة Premna اليونانية وكلمة racha

العبرية - وكلمة Altan السنسكريتية ، وسائر الكلمات

المماثلة في اللغات « ولقدنا العربية بطنية الحال « اصف الى

ذلك انه في الاساطير والدين تلعب الرياح والاعاصف غالبا دورا

جوهري في خلق الكون والانسان « ففي اليه تحركت روح

الاه « او انفسه او ريمه على وجه الاقواء « وبعد ان تشكل

الانسان « نفخ الله فيه من روحه أنفاس الحياة فاصبح

الانسان روحا حيا « وحتى في التوراة كان للانفاس والرياح

قوة ضالفة الى بعث الحياة بعد الموت « يأس الاسات « سا

وتل للريح « أيتها الانفاس حي من الرياح الازمة وابعثني

بأنفاس في صلاء القتل حتى تعود لهم الحياة « وقال للمسيح

ما يشبه هذا « لا تعجب اذا أخبرتك أنك لا بد ان تولد ثانية ..

ان الريح تهب بعد ان تتوقف .. وهكذا يجب ان يبعث

الخارجة عن حدود الزمان» ، وجدنا أن نقد الصور العفوية سوف ينبع ويعتمد أساساً على الاستجابة الإنسانية العامة لهذه الصور في كل زمان ومكان .

وبالنسبة للتحقق الأدبي نجد أن الرأي الأخير لا يقتضيه مقدار
سريع الظاهرة تبصيرا فطريا ، وإنما يستلزم دائما إلى
ارتداد إلى تفسير أحد النصوص واستنادا إلى هذا الرأي يمكننا
أن نضم النقد القائم على أساس نظريات الصور الفطرية بأنه
قد يشهد أن لم يحطم خصائص الاتصال الأدبية التي يبرحها ،
فإن الفأري، الذي يصر على البهر في الخصائص القلبية الدقيقة
للصبي وتوحيدها عنه يكتشف أنماطا لغوان بدائية عامة
لا يقتضها الشاعر وخارجة قطعا عن نطاق التصيد ، بل يعتبر
ذلك أهم من التصيد نفسها ، بل هو فردية التصيد ، ويحدد
بالعالم كإثباتها كمثل قتي . . . وإن كان نتيجة هذه القراءة هي
تفطيم التنوع العائلي التي يتسم به كل عمل فني وحصره
على مفهوم واحد أو في عدد محدود جدا من المفهومات أو
الأنماط الفطرية ، والذي يمكن أن نشترك فيه أكثر من
صبي ، بل والذي نشترك فيه مقامه كثيرة غير فنية كالأساطير
الإسلام وتوحيات اللاشعور .

ويتمنى الدكتور يرازم من بعثته الشائق الى ان الموضوع
جديد بالدراسة الفنية اولا قبل ان يكون جديرا بالدراسة
الفلسفية ، وكم من موضوعات تتصل بعلم الإنسان A Herpology
وعلم الاجماع وا علم النفس يمكن ان تغفل سير الباحثين
ان تتعرف بهم عن الدراسة الابدية الخاصة ، ولتجرب بهم في
استاذي لا مثيلة مثيرة لها بالان في ذاته .

أما المجلات الأخرى التي يشملها الكتاب فهي متنوعة جدًا ، ولكن أكثرها أهمية وجدة هي المقالة التي عرفناها ، والمجلات الخاصة بوليم وريذورث . وذلك الخاصة بالتسارع جون كيتس . لا يمكن أن يقال بعد ذلك إلا أنه كتاب جدير بالقراءة والتأمل الدرس .

المجهود المجهود عشائي

سيرالاف جاردنر
مختبر البصريات

EGYPT OF THE PHARAOHS

An Introduction

by

Sir ALAN GARDINER

مؤلف هذا الكتاب علم من أشهر علماء مصر القديمة وأبجدهم
تتألف من مادة وأفراسم التاج - اللق حياته منذ كان صبيا
أوشك أن ختم عهد الملامسة - كما قال - لدراسة مصر
القديمة ارتباطا ولغة وآثارا ، وأدبهم على طاقته العلمية وروية
العربية - وما زال - يدرس لغتها القديمة وأدبها بتوسع خاص
حتى جاوز من عمره ثمانين حولا ، فذهب إلى مكتبة المتحف
العصرى من الكتب والبحوث والرسائل والصور ما لم يتحفظه
السلطة القوية والمحافظة الدائمة ، ويعرض على العلماء والطلاب

كل من خلقته الروح « ولكن انقاس الله في الانجيل يمكن
ان تكون ايضا عاصفة مدمرة ، ترمز الى انفجار غضب الله ،
كما ترمز الى نعمة الحياة والرضا .

وعلى نفس الصورة نجد أن آلهة الريح في أساطير اليونان والرومان تبدو مفعلة لأبد من إرضائها وتقديم القرابين لها - وهي مع ذلك - وبخاصة الرياح الغربية « (زايروس) » أو « (فانويوس) » ظالا تنزى إليها قوة الأحياء والاختصاص - وهذه حقيقة لا تلت مئذني دوائر المعارف في العصور الوسطى ، كما اشتد إليها تشبوس أيضا .

فإنما هي فيروسيات بالخاصة الحديثة

قالهم النباتات الرقيقة حياتها

٢٠٠٠

فالمالحة إذن بين الريح والالهام
عليها اللفظ الأخير Inspire الذي كان يعني يوما ما
« يبلِّغ أو ينفِّس في الداخل » Inspire وحينما تقول إن رجلا
تلقى الوحي المقدس Divine afflatus فإن اللفظ العربي
لذلك هو أنه تلقى أنفاسي أو رياح الإله أو ربة الفن - وحينما
نلقائنا القديمة كانت هذه الأنفاس الصادرة عن قوى ما وراء
الطبيعة ، تدفع الأنبياء أو الشعراء للتنبؤ بالأمور
المستقبلية ،

وبعد أن يستعرض المؤلف جلود هذه العلاقة في الديانات
السامية وسواها ، ويستعرض جلودها في فلسفات اليونان
والرومان والجماعات البدائية ، يتساءل قائلا :

ويحق لنا الآن أن نسأل هذا السؤال ^٢ : ماذا تعني كلمة الروح
من ظاهراً ، المصمم المتجسّس ، في التفسير الرباني ^١ ؟
الإجابة تبدو واضحة للغاية في هذه الأيام وقد يبدو من العربي
أن الرُّبُوب طويلاً أن اسمي الربيع ، عبودية لغوية ، ^٣ وقد كان
يؤمن أن الآتد في استصاقل هذه اللفظ السهل ١٣١ ما بين
أحدنا مجرد التوحيد بين رمز مادي دائم وبين حالة نفسية ٠٠
إن أن اصطلاح « صور لغوية » كما هو مستعمل الآن في النقد
الحديث يوسى بفالات لا نريدنا هنا ، فمثلاً نحن نلحظ أصل
وعلى صورة الربيع كرم للحياتة اليافعة في الإنسان والاشياء
يكنى أن تفسر إلى طبيعة الإنسان التي لظهر الله عليها ولا
يهتبه المادية العامة فكون الانفساس والربيع مظهرين لشيء
واحد هو حركة الهواء ، وكون النفس دليلاً على الحياة وتوقه
دليلاً على الموت ، أمور بلا حقيها الإنسان العادي مثلما تيسر
لشعيق والوزير ، والياس والفرج ، والنشاط والصلو
والمال والوفاة في الاضغاط البهية الباطنة للظلمة من سكون
واضحة ، وجاف وامطار ، وشاء ، وربع ، واذا ، فلذا كانت
هذه لغة ملائكة بين تجربة داخلية عامة ، وبين شبيه لها في
عالم الطبيعة أصبح من السهل أن تشيع في تراث الفخر
الديني ، ويضمونها أدب الانفسانية المتنازع ، المكتسب منه
والاشغوف ، أو اعتقد أن بنا حاجة إلى أن نفرض مثلما يعمل
« يونغ » أن الصورة الفنية بعد أن تأخر في جهازنا الحسي
تتصرف إلى الساطن ثم تظهر بصورة متقطعة من لا شعورنا
للشعور ، ولكنها طبيعية الحال اذا أعطنا الصورة اللغوية
سباجاً من الحصاد العلم أي اذا تبنينا كل اشارات الغضة إلى
الصور الباطنية « أو إلى « الدائرة الشرية » أو إلى « الإيمان

بغير استثناء، وكان أشهر ما أخرج من ذلك كتاب فظم فظم
في أجمرية اللغة المصرية القديمة في عهدنا الزاهر .
والؤلف يقدم لنا هنا من عسارته دراسته الفسوفية التي
استغرق حياتاه ، كتاباه هو أحدث ماصدر له ومن أحدث ماصدر
في تاريخ مصر القديم بسلة علة .

عل ان هذه العقبه من تاريخ مصر عازلات ميدانا فسيفسياه
خصبيا تدعو المؤرخين والكتاب الى بذل الجهد للانفال فيه بالبحث
والاستقصاء ، ومع ذلك فلم يصدر فيها مند مطلع هذا القرن
كتاب له من غزارة المادة والشمول مثل مالكتاب بريسته الذي
صدر سنة ١٩٠٥ الا كتبا قليلة . ثم ان ما صدر بعد ذلك
لا يتناول اكثره الا جانبيا من جوانبه او وجهة من وجهاته . غير
ان كتاب بريسته عل غزارة مداته قد تطلب وعنى به العهد به
الذي خرج الى النور من الكشوف الاثرية عل مدى يزيد عل
لصف قرن من الزمان ، ولا شك في ان احدا مؤلف كتابنا هذا
الى زميله الراحل بريسته ولا يستوفى النظر واعتراف بفضل
السابلين ارجو ان يكون لنا فيه اسوة حسنة .

والؤلف عالم من علماء اللغة المصرية وحجة من حججها ، وهو
بحكم تخصصه فيولوجي قبل كل شيء ، فلا يكاد يؤمن الا
بالتكلمة المكتوبة والنطق الذي يترجم عن الاحداث ويؤرخ لها ،
ولذلك فهو يمتنع في كتابه من اوله الى آخره - ما استطاع -
عل الوثائق ذات النصوص المكتوبة ، بل لعل ميلا هذا يتضح في
تاريخه للجر التاريخ المصري وطلاع صيته ، فيتلمس الاحداث
- جهده - مما ورد من نقوش قليلة شبيهة عل بعض الآثار تلك
العقبه من بطالات العلاج وصفائح الحجر ، وهو يمتزفيلذلك في
صدر كتابه فيقول « ان الفن والآثار ليستا بحال خارجا لثقافة
اجتماعي ، ولكني اعترف انها انما تحتل عكوى لدرجة دنيا ، ولذلك
فقد وقع ان هذا الكتاب انما صدر عن اتجاه فيولوجي صريح »
وهو يعلن كذلك ان كتابه هذا لا يمكن ان يكون دراسة شاملة
جامعة ، وانما هو - كما يامل - توجيه لبعض القراء ليوفلوا
بهيدا « في ميدان دراستنا هذا الاسر » ، وتاريخ مصر ودراسة
حضارتها القديمة في رايه موضوع يشر الناس كما امر هو .
ولقد سيطرت هذه الفسكرة عليه فكان عنوان الفصل :
« المصولوجيا قديما وحديدا » حيث يسمسوا ايمانه بان علم
المصولوجيا لا يرجع ال مطالع القرن التاسع عشر مند كشف حجر
رشيده ، وانما هو علم قديم يرجع ال قرون من قبل مولد المسيح ،
فقد كان في مصر والمصريين من الزاايا عاجل افقة من الناس
تهوى اليهم كان الفليم من الافريق ، شاعلوا عجلها ثم
تعدلوا وكتبوا حين رجعوا الى اهلهم ، وكان اشهرهم هيرونوت
ولذلك فان الذي ولد بكتشف حجر رشيد سنة ١٧٩٩ انما هو
العلم نفسه في صورته الجديدة حين قدر له ان يدخل طور
العلوم الحديثة التي تقوم اسما عل الوثائق التاريخية وتبنى
عل التحقيق والتعميس .

وقد شاء المؤلف قبل ان يدخل الى صلب الكتاب ان يعيد
الطريق فيقدم دراسات ميدلية جعلها مدخلا لتاريخ المصري
وتوطئة لهمه ، وبينما لعله التي وجهت مجراء وشكلت معلة ،

فدرس البلاد وجيرانها ومواردها ثم مضى الى دراسة « اسس
التاريخ المصري وطبيته ومنتاج المؤرخين في دراسته ومقدار
ما ينبغي ان تعتمد عل الوثائق الكتوية من مصادره وعلى المناظر
المصورة عل آثاره ، وهو يبرز طبيعة المصريين في المحافظة على
القديم وحرصهم على التزام التقاليد ولو عل حساب الواقع
وذلك كالباقية في تعجيد الملك مياقة قد تسوق الخراب الى
نتائج تيمد عن الواقع الصصح . ولقد تعرض في هذا الفصل
لاهم مصادر التاريخ المصري من قوائم الملوك وسجلات الاحداث
مع المقابلة بينها وبين النفاها او اختلافها ثم قارن بينها وبين
ما ورد من المؤرخ المصري القديم مانيثون ومن لعق به او اخذ منه
من المؤرخين الاقدمين .

ولم يستع المؤلف وهو يروي تاريخ هذا العلم ان يفصل
اسما الظلية من العلماء الذين جاهدوا بانواعهم وانسهم في
سبيله وحملوا لواءه في اوربوا وامريكا حتى احتلوا له مكانه
اللائق في الجامعات « فلم تعد جامسة تحترم تسما الا ولها
استلا او محاضر في هذا الموضوع »

فانا دخل الى تاريخ مصر عالج بهجرة للنس قرن من الزمان ،
وهو حريص عل ان يعز الطلاق بفقرات من الوثائق القديمة في
ترجمة امينة دقيقة ليس القدر منه عل ايرادها ، وهو حريص
مع ذلك عل ان يقدم للنقري امهات المراجع والصادر لسانة
الوسوع . ولقد حرص في دراسته عل ان يبرز تاريخ البلاد
وتشاعها السياسي والممراني دون ان يتقيد بتقسيم هذه العقبه
من تاريخ مصر وفق عهود ملوكها كما جرت عادة السكتير من
المؤرخين كما انه يخالف النهج التقليدي في تاريخ مصر فبيدا
بتوليف السولة القديمة الذي ييدا بالاسرة الثالثة موقلا فحصر
التاريخ وصعبه الى نهاية الكتاب حيث لعق به ليتا بقما
الملوك والمقاهم كما وردت في الآثار وما يقابل ذلك ما ورد عند
مانيثون .

بذلك استطاع جاردن ان يجعل من كتابه هذا سفرا فيما
للدارسين والمؤرخين جميعا حيث اسهم في توضيح كثير مما
لعى من تاريخها وفق أحدث ماكشف من آثارها ومع ذلك ..
فقد أبى له تواضعه الا ان يسعي مقدمة ييدا بها الطلاب
والدارسون .

أحمد عبد الحيد يوسف

روبرت استودر
البحاث واضطراب العلاقة الانبوية
تسند ١٩٦٠

Delinquency and Parental Pathology,
A study in Forensic and clinical Psychology
by Robert G. Andry

London : Methuen & Co. Ltd.1960

تحتل الدراسات التي تبعت جناح الاحداث مكانة خاصة
متيزة بين دراسات علم الاجسرام ، حتى ان بعض الباحثين في
الولايات المتحدة الامريكية يرون انه قد ان الاوان لكي تصيح

ذكر المؤلف في البداية أن هناك ثلاثة كتب تعد بمثابة الملائح التي هدته في طريقه . أولها كتاب بولبي عن «الرعاية الأمومية والصحة العقلية» الذي صدر عام ١٩٥٢ ، فلهذا أوضح الآثار السلبية التي تنجم من فقدان الطفل للرعاية الأمومية ، وذكر أن هناك عدة عوامل تتحد مدى الضرر الذي يلحق بالطفل من جراء حرمانه من الرعاية الأمومية وهي :

١ - السن الذي حدث فيه الحرمان .

٢ - طول فترة الحرمان .

٣ - درجة الحرمان .

٤ - مدى تكرار الحرمان .

٥ - نوع العلاقة بين الطفل والأم قبل الحرمان .

٦ - خبرة الطفل مع بديل الأم .

٧ - نوع الاستقبال الذي يلقاه الطفل من الأم حين تعود إليه .
وتحدث بولبي بالتفصيل عما يصيب الطفل من آثار سلبية تنبع حرمانه من أمه .

أما الكتاب الثاني الذي نأثر به المؤلف فهو الكتاب الشهير : « كشف الستار من جناح الأحداث » تأليف الباحثين الأمريكيين أليانور جولد وشسلسدون جولد وقد نشره عام ١٩٥٠ فحدث آثارا هامة في ميدان دراسات جناح الأحداث . ولعل أهم ما لفت انتباهنا من أبحاثهم ما جاء في جداول التنبؤ بالجناح قبل حدوثه .
أما الكتاب الأخير فهو « أساليب التنشئة وعلاقتها بالتسريب البورستالي » تأليف دهايم ويكترز . صدر عام ١٩٥٥ .



وقد جرى المؤلف في تصميم دراسته على النحو التالي : حدد منذ البداية الهدف منها وهو البحث المتعمق لمدى كل من الأب والأم ، ليرى هل هناك فروقا بين الجانبين وغير الجانبين في مدى كفاية كل أب في القيام بدوره . واختار المؤلف عينة من الجانبين الأحداث مدغم . أ. جانغا (ويطلق على هذه العينة في الاصطلاح العينة التجريبية) كما اختار عينة من الأحداث غير الجانبين مدغم . ب. فظلا أيضا (ويطلق على هذه العينة في الاصطلاح العينة الضابطة) . وقد رأى المؤلف أن يصاحبه بين العنتين لكي تكونا متساويتين بالنسبة لستة عوامل : متغلبة الإقامة ، فئات السن ، معدل الذكاء ، الحالة العقلية ، السمات الاجتماعية الاقتصادية ، الطيفية الأسرية .

وفي سبيل أن يتم الحصول على البيانات المطلوبة بطريقة موحدة صمم المؤلف استبيان Questionnaire ، وهو قائمة تتضمن الأسئلة التي يراد المؤلف أن يحصل على إجابات عليها ، وتصمم القائمة بطريقة فنية معينة حسب قواعد متعارف عليها في مناهج البحث .

وقد بحث المؤلف حالة أباء ثلاثين حديثا من كلا العنتين التجريبية والضابطة . وتحدث المؤلف عن الوسائل التي أتبعها لضمان ثبات Reliability وصقل Validity البيانات التي حصل عليها . ودون أن ندخل في تفاصيل فنية ، يمكننا أن نذكر أن المؤلف كان موافقا في اتباعه شروط اللغة العلمية الواجبة في مثل البحث الذي قام به .

دراسات الجناح علما متميزا بذاته يسمى علم جناح الأحداث . وقد يبدو التعرّف والمقالة في هذا الرأى ، ولكن إذا عرّفنا أن نسبة جناح الأحداث في الولايات المتحدة الأمريكية من أعلى النسب في العالم ، لأدركنا سر اهتمام الباحثين الأمريكيين البالغ بموضوع جناح الأحداث ، وهذا الاهتمام الذي يبدو في مئات البحوث التي تجسرى عنه ، وفي عشرات الكتب التي تخصص لمعالجته .

ولعل هذا الاهتمام بجناح الأحداث في مختلف الأنظار يجد تبريرا له في العبارة الشهيرة التي نذهب الي أن « حدث اليوم هو مجرم الغد » . وعلى ذلك فمعرفة ديناميات سلوك الأحداث الجانبين أمر بالغ الأهمية ، لأنه السبيل الوحيد الذي يتيح للسلطات المعنية أن تضع برامج الوقاية من الجريمة على أسس علمية رشيدة .

وإذا ألقينا نظرة نقدية على الدراسات العديدة التي أجريت على الأحداث الجانبين ، لرأينا أن الغالبية الكبرى منها عاملت الأحداث الجانبين باعتبارهم مجرد حالات Class ، ونسى الباحثون أن الحدث الجانح يعيش - غالبا - في أحضان أسرة تكون من أب وأم وأخوة ، يعيش أيضا في مجتمع معني ، يحدث كثيرا أن يكون له نسق من القيم يختلف عن نسق القيم السائدة في المجتمع الكبير . وإذا كان الباحثون قد نهجوا إلى دراسة المجتمعات المحلية التي ينتمى فيها الأحداث ، إلا أن قلة من البحوث هي التي اهتمت بدراسة شخصيات الآباء أو الأمهات لمعرفة العلاقة العلية - ان وجدت - بينها وبين جناح الأبناء .

ولقد دراسته بولبي Bowlby التي أجراها عام ١٩٤٤ ونشرها بعنوان « أربعة وأربعون لصا حديثا » أول دراسة لفتت الانتباه إلى أهمية الحرمان من الأم Maternal deprivation كعامل من العوامل الهامة التي تؤدي إلى اضطراب شخصيات الأحداث وإلى انحرافهم ، وأصبحت هذه المسألة أشبه بالطلق الثابتة في العلوم الاجتماعية المختلفة . ولكن ظهرت منذ مسنين قليلة آراء تنقد هذه الفكرة السائدة ، على أساس أنها تركز تركيزا شديدا على دور الأم ، ولا تولي اهتماما متناسبا للدور الذي يلعبه الأب في الأسرة .

وقد أراد الدكتور دوبرت أندري وهو الهنغاري نفس الكينسي ، يدرس الأمراض النفسية بجامعة لندن ، أن يمد هذه الفكرة القائلة في الميدان ، فقام بدراسة ميدانية لكي يبحث عن علاقة اضطراب العلاقة الأبوية بالجناح ، وكتب من دراسته تقريرا علميا كاملا ضمنه الكتاب الذي نعرض له اليوم . وقد قدم للكتاب حرمان دهايم الأستاذ بجامعة لندن بمقدمة التي فيها على جهد المؤلف ، وأظهر أهمية الدراسة التي قام بها .

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسية : مقدمة عامة ، النتائج ، خاتمة . ويتضمن الكتاب ثلاثة ملاحق : استعراض وجيز للنزاع ، وقائمة مراجع ، ونس استمارة القابلة التي طبعها على عينة البحث . وسنحاول فيما يلي أن نطو فكرة عامة عن الدراسة التي قام بها المؤلف .

وقد حدد المؤلف عدة قطاعات تنور حولها الأسئلة وهذه القطاعات هي :

- ١ - الخبر الإنفعالي في الأسرة ، ويتضمن ثلاثة جوانب :
التعاطف الأبوي ، الاتصال بين الأب والطفل ، المناخ المنزلي .
 - ٢ - التدريب ، ويتضمن تدريب الطفل ، التدريب المتأخر .
 - ٣ - آثار السلوك الذي أسبغته الأب ، ويتضمن ديناميكية سلوك الطفل ، والجناس .
 - ٤ - الانفصال : ويبحث فيه الانفصال القادي .
- وفيما يلي تعرضي بإيجاز أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة .

أولاً - الجو الإنفعالي في الأسرة :

(١) التعاطف الأبوي :

- ١ - يميل الجانيون إلى الشعور بأن أمهاتهم يحبوهم أكثر من آبائهم ، في حين يشعر غير الجانيين أنهم محبوبون من آبائهم وأمهم على السواء .
- ٢ - مال الجانيون إلى الشعور بأن آبائهم كانوا يخطئون من إظهار تعاطفهم نحوهم بطريقة صريحة ، في حين لم يشعر غير الجانيين بهذا الشعور .

- ٣ - مال الجانيون أكثر من غير الجانيين إلى الشعور بالخطأ من إظهار حبهم بصراحة لآبائهم .

(ب) الاتصال بين الأب والطفل :

بحث المؤلف جانبين متقاطعين للاتصال بين الأب والطفل أحدهما يثنى ، والآخر سيكولوجي .

ففي الجانب البيئي من الاتصال وجد أن :

- ١ - آباء الجانيين ليس لديهم وقت فراغ كاف يتيسح لهم الاتصال بآبائهم ، على عكس آباء غير الجانيين .
- ٢ - فرص الاتصال بين الأب والطفل بالنسبة للجانيين كانت أقل منها عند غير الجانيين .

- ٣ - الاتصال بين الأب والطفل عند الجانيين من ناحية الكيف (مشاركة الأب للطفل في هواياته) أقل منها عند غير الجانيين ، وفي الجانب السيكلوجي من الاتصال :

- ١ - فرد غالبية الجانيين أنهم لا يلجأون إلى آبائهم إذا واجهتهم مشاكل ، في حين فرد غالبية غير الجانيين أنهم يلجأون لآبائهم .

- ٢ - فرد غالبية الجانيين أنهم يفضلون أن تتعالج الأم الإخلاء التي يعانون فيها ، في حين فرد غالبية غير الجانيين أنهم يفضلون الأب .

- ٣ - يميل غالبية الجانيين أن يلجأوا للأم لامتصاص النصيحة في حين تتجه غالبية غير الجانيين للأب ، أو كلا الأب والأم .

(د) المناخ المنزلي :

- ١ - يساهم آباء الجانيين في أحداث تنور عام في المنزل ، وذلك لأنهم يكونون عادة أقل مرحاً في المنزل .

الجانيون .

ثانياً - التدريب :

(أ) تدريب الطفل :

- ١ - ليست هناك فروق بين الجانيين وغير الجانيين فيما يتعلق بتدريب الطفل على ضبط التبول ، والمشي والجلبوس ، والكلام .. الخ .

- ٢ - بين أن الجانيين رفضوا من إنداء أمهاتهم لفترات نفل عن غير الجانيين .

(ب) التدريب المتأخر :

- ١ - لم يكن آباء الجانيين يقومون بدورهم بوضوح كفاءة لاسرهم في حين أن دور آباء غير الجانيين كان واضحاً .

- ٢ - لم يظهر آباء الجانيين اهتماماً بإقامة التوازن بين الضمة والتدليل في تربية الأطفال ، في حين يهتم آباء غير الجانيين بذلك .

- ٣ - يشعر الجانيون أنهم في حاجة إلى أن يناقوا قدرات أكبر من التثاء من والديهم (وخاصة من آبائهم) في حين لا يشعر غير الجانيين بهذا الشعور .

ثالثاً - آثار السلوك الذي أنتجته الأب :

بحث المؤلف عن آثار السلوك الذي أنتجته الأب في نشئة أولاده من ناحيتين : ديناميكية سلوك الأطفال ، والجناس .

(أ) ديناميكية السلوك :

- ١ - مال الجانيون أكثر من غير الجانيين إلى أن يكونوا عدوانيين في إسجائاتهم لوظائف الأمات .

- ٢ - مال الجانيون أكثر من غير الجانيين لمقاومة العنوسيات الأبوية . ومن هذا يظهر أن الجانيين يكونون منذ وقت مبكر معرضين للجناس أكثر من غيرهم .

(ب) الجناس :

درس المؤلف جناس الأحداث ومدى وعي الآباء بجناس ابنائهم وردود أفعالهم بالنسبة إليه ، وكانت النتائج كالآتي :

- ١ - السلوك المتحرف (كالشرذ والرفة) كان أكثر بين الجانيين ويبدأ في وقت مبكر منه بين غير الجانيين .

- ٢ - كان آباء الجانيين أقل وعياً بالسلوكات التي يرتكبها أولادهم عن غير آباء الجانيين .

- ٣ - أظهر آباء الجانيين قصوراً شديداً في مجابهتهم للأفعال الجانية التي ارتكبها أولادهم .

رابعاً - الانفصال :

لم يثبت أن هناك فروقا جوهرية بين الجانيين وغير الجانيين فيما يتعلق باتار العرمان من الأم أو الأب .

هذا ملخص سريع لأهم نتائج البحث .

ويجدر بنا في نهاية هذا العرض أن نشير إلى أن البحث الذي قام به أستاذي - بالإضافة إلى مستواه العلمي الدقيق - يمثل قدماً واضحاً في ميدان دراسات جناس الأحداث ، لأنه استطاع أن يلفت النظر إلى بعض جوانب القصور المنهجية الموجودة في الميدان .

السيد ياسين

مجلة المجلات



المجلات العربية

حسن كامل الصديقي

المعرفة (دمشق)

واصل الدكتور جميل صليبا موضوعه القديم « موقفنا ازاء الفلسفة » وهو هنا يشير الى حاسبا ل نفسه عربة صعد هذه .. وهو يقول تمهيدا لذلك ان التجارب الفلسفية التي يصيرها الانسان في بعض ظروف حياته تجعل نفسه لطيفة وعاقبة ترفقة ناهيك عن تأثرها في سلوكه وعمله . والحق ان الانسان لا يعرف قبلة في الحياة ولا يدرك مبداء وفائته . ولا يعلم كنه القوام الحقيقة به الا اذا عرف نفسه . ومعرفة الله اسمى الفلسفة كما ان مجاوزة الذات والاحاطة بالكل غزيرة . ولا بد ان يفتتح الى ضرورة نشر التفكير الفلسفي في المجتمع بوسائله الصحفية والادبية والمحاضرات والندوات العامة مثل دور .. بعضها في المدارس . على انه يرى في هذه الحالة ان يفتح التفكير الفلسفي الاصطلاحات الجردية وان يخاطب الثاني على قدر عقولهم بفلسفة واضحة سهلة مستمدة من ثقافته من الحياة والتجربة .. فتمت النشرت هذه الثقافة الفلسفية في المجتمع ادت الى ارتفاع المستوى العقلي وتوطيد حرية الرأي .

ويقول الدكتور صليبا انه ليس الغرض من تعليم الفلسفة وتشرها في المجتمع ان تقتصر على جانبها التربوي ، بل الغرض الاول من ذلك في نظرها تعداد الجيل الجديد للاتجاه الفلسفي التفكير . فربما كان ضبط هذا الاتجاه ناشئا عن شعورنا في هذه المرحلة في تطورها ببعاجتنا الى الاقتباس . ويتطرق من ذلك الى الكلام على الفلسفة العربية المتجددة التي يرى ابتعاها مؤلفنا ليوننا ومصرنا ومصرنا من اسالتنا فيقول انه لايسهل الى ايجاد هذه الفلسفة الا بمجاوزة امثال الفيلد قديما كان او حديثا . ومن ثروة هذه الفلسفة ان تعبر عن منازع العقل العربي وحاجاته . وان تعمل على اصلاح المجتمع العربي الحديث حتى يصبح كغيره من المجتمعات القريبة الرافقة نداء وبليدوا . ومن شروطها ان تدفع الشخصية العربية الى التماهي حتى يتجاوز ذاتها وتحيث بمسا حولا . ومن شروطها اخيرا ان توضح المواقف الفكرية التي ينبغي للعرب التزامها في تنظيم شئونهم الداخلية وعلاقاتهم الخارجية . وله ينضم الى هذه الشروط شروط اخرى كاطلاق حرية الفكر ، والتوفيق بين حاجات القلب وحاجات العقل ، والتوحيد بين المنازع القومية والاهداف الانسانية .

واخيرا يدعو الكاتب الى التعرف بفلسفتنا العربية القديمة ، وهو يستعين من تلقائى ان يكون جاهلا بتاريخه الفلسفي . ان في الفلسفة العربية قاذ يدعو الى ترجمة كتبها الاصلية وترجمها وتوسيعها ولا يستعين من المتقنين الا ان بقوا اراءها موقعا سلفا

ومن مقالات هذا العدد مقال عن « خصائص الادب العربي » للدكتور يوسف الذي ذكر فيه ان الادب العربي يتصف خاصة بانه ادب المعرفة والتهديب والتوحيد والروح . وقد عرض في هذا المقال وجهات نظر مختلفة تدعو الى المناقشة .

وفي هذا العدد دراسة واثية مسيحية من تعريف الدكتور قديمها من ترمس عثمان الككاك في وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية لتكون معتمدا في العمل في ميدان المأثورات الشعبية (الفولكلور) كما نشرت هذه المجلة في باب محاضرات الموسم التالي من المحاضرة التي القاها في القاهرة ثم في دمشق الشترق الاناسي الدكتور طائر يراويه الذي قدمه لقرأ مجلة « المجلة » في العدد السابق في باب « التسودات » حين التي محاضراته في « الالتقاء بين الشرق والغرب منذ العصور الوسطى الى اليوم » . اما محاضراته التي نشرت في مجلة « المعرفة » فهي من « الوجودية في الجاهلية » . وقد اراد ليها ان يمتلئ اليوم على السبيل في الشعر العربي فساق رأى ابن قتيبة الذي يقول به ان السبيل جزء القصيدة الذي يميل به الشاعر لانتباه سامعيه مدله ان النظرية التقليدية في السبيل ليست متمثلة وانه يعتقد ان صحيح السبيل الصحيح هو صدد واحد يتفق فيه النسب الشاذ والنسب العادي . وقال : اقدم لكم ما يظهر لي بعد مدايرت الشعر الجاهلي دراسة متعلقة بالاساليب البارزة التي يسالها اللسان والاداء في اياتها عامة (اعني الوجوديين) واعتقد ان موضوع النسب الصحيح هو الموضوع الذي حرك الانسان في كل زمان ، وفي الموضوع الذي يرتفع عن وعيه . والذي ينشأ الانسان من حين الى حين ، ولقد اوضح الذي يسترجع فيه انسان اليوم وزده واهميته . وهذا الموضوع هو اختبار الفناء والفناء والتناهي . ثم ورد اساسا في سبيل جديد من الارض قال : هذه الايات تنسج قديم ام لاحد الشعراء الوجوديين في وقتنا هذا ؟ اما تعرف صوت هذه الصرخة في الشعر العربي حليفة ؟ أغمرني تلك الايات هو السؤال الذي يسالها انسان اليوم والذي يسالها الانسان في سبيل الزمان . وهذا هو السؤال الذي يسالها الانسان مهما نسيه ورد من وعيه . السؤال في اختبار الفناء والفناء والتناهي .

وعاد المحاضر بعد ذلك يقول ان خوف الفناء والتناهي هو موقف الانسان في تاريخه كله ، فانه يشعر دائما بتهديب الفناء وتوعد الفناء ، وهو ينقل الى الموت اليقين . ويدعاه ذلك بخلف موقفه باختلاف الشروط التاريخية ، فمن الممكن ان تكون حياة الناس في الحضارة القديمة حياة مطمئنة يظف احتملتها من الخوف المتطرف . ذلك ان انسان ذلك الوقت كان يخاف من الموت الفردي فانه كان يرى يامل ياتين نمو الحياة الساكنة كما كانت عند اجداده منذ اجيال ، ولكن يحدث احيايا في تاريخ الانسان ان يتنامى اساس الحضارة الوثوق به . وان الايمان بما يضمن الامل اليقين يضيع . وكان عصر ما قبل الاسلام - كما افن - وقتا من هذه الاوقات عند العرب . اخبار القضاة والفناء والتناهي . هذا ما كان يشعر به شعراء العرب ، وهذا الشعور صبر عنه في نسب قصائدهم . ولكن بعد ذلك في القرون التالية حينما خطف الايمان الجديد من خوف الانسان اصبح الناس لا يدركون ماحرك القضاة ، وما يتوهمهم ، وبعت فيهم الغلو ، وصاروا يظلمون مجرد التمسك اللغوي ، ويدسون الاكلاف واللغة والاوزان والقوافي ، ويسمون خصوصا التشبيب القنان بوردما

يسخر احدهم مما يقرأ في القاصد القديمة من الشكوى القتالية
وسيل الفوج الدائمة من اجل شجرة شيب .

الآداب (بيروت)

يفتح مدد حوربان « بنية » من هذه المجلة موضوعاته بقل
كتبه رجاء النقاش عنوانه « الوحدة والثورة » تحدث فيه من
المفهوم القديم للوحدة العربية الذي كان يريد ان يوثق الوطن
العربي من الانزواء فيشير مشكلة الخلافة الاسلامية حيناً او
الرأية الاسلامية حيناً آخر في عصر وفي غيرها من الانفس
العربية . ولكن هذا المفهوم الرجعي للوحدة العربية ليس هو
مفهوم الجاهليين . وليس هو مفهوم الثورة العربية في المرحلة
الراحة . لقد كان هذا المفهوم الرجعي يصر على ابعاد قضية الوحدة
العربية عن أي معنى من معاني التحول الاجتماعي او التحول
الاقتصادي في داخل الوطن العربي ، فالوحدة بهذا المعنى لم تكن
الا إضافة ممكنات جديدة الى ملك أو أمير .

ثم يقول الكاتب ان المفهوم الجديد للوحدة العربية قد تطور
بعد تجارب ثورية متعددة ، واصبح هذا المفهوم مرتبطاً بتمسك
الارباب بكل مطالب الجماهير المعينة .

ويضيف قائلا انه من خلال المعارك المختلفة التي خاضتها الامة
اصبح واضحا ان الوحدة العربية تمثل ثلاث ثورات متكاملة لا
ثورة واحدة :

فالوحدة العربية هي اولا ثورة قومية تريد القضاء على التجزئة
التي اصابت الوطن العربي واصفته .

والوحدة العربية هي ثانيا ثورة سياسية تهدف الى تطبيق
الوطن العربي من كل نواحي اجنبى .

والوحدة العربية هي ثالثا ثورة اجتماعية . لانها في مفهومها
الجديد تقوم على أساس جديد هو : الاشتراكية .

وذكر ان هذه الثورات لامت متصلة من بينها بل هي مترابطة
ليسا بينها كل الارتباط وان من يعارض واحدة منها او ينكح في
وجهها فهو في الحقيقة انما يعارض الثورتين الاخرتين تمام
المعارضة .

وانتهى في مقاله الى اثبات وضوح الارتباط التكامل في قضية
الوحدة العربية بين الثورة القومية التي تهدف الى توحيد الوطن
العربي ، وبين الثورة السياسية التي تهدف الى تحقيق الاستقلال
الوطني وحياته ، وبين الثورة الاشتراكية التي تستهدف
ال تطبيق للنظم العربي وتحرير الطبقات الشعبية في الوطن
العربي . ومن يحاول الفصل بين هذه الثورات انما هو في
الحقيقة خادع لامة العربية ومعاد لقضية الوحدة .

ويواصل يوسف الشاروني البحث في موضوع النصحي
والقنطرة فهو في هذا المدد يكتب عن « لغة الصوار والعلوم
الافتراضية » فهو بعد ان يشرح علينا طائفة من الحصول التي
يقترنها فريق من رجال الفكر كالدكتور له حسين والاسماتلة
عيسى الطراد وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وفريد ابو حنيد
ويشرح يقول اننا نستطيع ان نخلص من هذا الى ان اصحاب
الفكر القويرون ان مشكلة الحوار لاتعني من وجود النصحي
والطعية ، لهذا الازواج موجود في كل لسان العالم ، بل هي
تتبع من وجود الهوية بينهما في كفتنا في الفسردات والقواعد
والنطق والتركيب . وان مؤلف يضمن تقديم في المستقبل على
أسس التقريب بين الفئتين على عوامل ثلاثة ، اولها المعامل
السياسي الذي يشتمل في الاخذ بالسياسة الاشتراكية ، والعالم
الثقوي الذي يحرره مشروعات تسير النحو والكتابة العربية ،
ثم العامل التربوي الذي يشتمل في محور الاسية اللغوية نتيجة
لتحقيق الماثلين السابقين .

وتمة مقال عن « فلسفة الجمال بين سقراط والافلاطون » عرض
فيه الدكتور زكريا ابراهيم الضلوع العربية في فلسفة افلاطون
الجمالية . وعهد الكاتب الى ربطها بالاصل السقراطي الذي صدرت
عنه . وقال : وليس من شك عندنا في ان الافلاطون قد رثى حكمه
على الفن بنظرية الفلسفية في الفن ، فضلا عن انه قد جعل من
الذي مجرد واسطة لتفهم الاخلاق في فن قال : ومن القريب ان هذا
الغنان العظيم الذي تضمه معاورته العديدة في مصاف كبار
الشعراء ، لم يستطع ان يقدم لنا نظرية حقيقية في الفن ، بل
هو قد انتصر على البحث في مفهوم « الجمال » دون ان يتمكن من
إقامة تفرقة واضحة المعالم بين القيم الثلاث المعروفة : الحق ،
والخير ، والجمال . ثم قال الكاتب ان افلاطون على الرغم من انه
قد فطن الى أهمية « الجمال الحسن » فتحدث عن جمال الانوار
والاشكال والاصوات والانغام الا انه سرعان ما ضحي بهذا « الجمال
الحسن » الذي تقوم عليه شتي الفنون ، لتصايب ضرب من
« الجمال الخلق » الذي انتفضت فريوة فلسفية في القول بنظرية
النقل . وهكذا انتصر الافلاطون الفيلسوف على الافلاطون الفنان ،
عاديات الفلسفة قاعا مباشرا لثقل ، في حين ان الفيلسوف
تقليد لتأشباح النمل !

ومن مقالات المدد مقال عن الشاعر اليمني المعاصر ابراهيم بن
أحمد الحضارمي بقلم هائل ناجي لم مقال من اللغة والمزج ، قسم
أوتو جيسرير والرجلة حسان الغليلي لم مقال عنوانه « كمال
عبد الجواد الامتنتي » بقلم حسن البطولي . وقد تناول فيه
الكاتب تحليل هذه الشخصية التي أظهرها نجيب محفوظ في
اللاس .

وفي مدد سيج لفتاه ليجور صيدح ومحمد جميل شلبي
ومنت فيه ابراهيم راميس شتار وكل المل وناسي طرش ومحمد
عمر . كما ضم المدد حسي قصص ومسرحة لفرز فريج وممد
الله وترس وجاركو أحمد ومحمد حويوه وديري الأمير . ومن
أشخص (أشخص قصة لاطون تسكوف ترجمها دسوان ابراهيم .

الآداب (بيروت)

بحث : - حاسة التذوق الفنية - كتب الدكتور محمد حاج
جيسرير مقالاً فيقال عن رأي جوستاف فلوبر الذي يطالب بأن
تكون الفنان فناناً لأنه يستطيع باللهبه وحاسته الفنية أن يتغلغل
الى الاز الكني ، ويعلمه بدقة ، ويقوض على مواطن الجمال فيه
ليرشد القراء اليها فيشاركو الفنان مشاركة وجدالية تتيج لهم
هذه اللذة .

ويشاول الدكتور نعيم عطية استاذ علم النفس التربوي في
الجامعة الأمريكية والمهاجر في علم النفس العام في الجامعة
البنائية موضوع « المدرسة مؤسسة اجتماعية » ليشير الى انه
يعبر في الدراسات المقارنة الحديثة الاحاديث اعشار رئيسيات في تحليل
المدرسة يمثل كل منها مؤلفا متكاملا متكاملا ، ويمكن صمدا
الاضلاف بدوره اختلافات نظرية خطيرة . ثم يقول ان الاتجاه
الاول يعتمد دوماة الفكر في حاصله ، فياخذون نظاما فلسفيا
بنظام آخر ، او مؤلفا نظريا بمؤلف آخر ، ليتبين ماهية
الاساسية وابتداء اوجه الشبه والاختلاف فيما بينهما . اما الاتجاه
الثاني فانه ينطلق من مسلمات مختلفة ، فهو يعتبر الفكر الحاصل
ولا سيما في الشؤون الحيوية ، انعكاسا لاحتاجات نفسية اجتماعية
تنشأ وتتبدل في فترة النضال للبناء الافضل .

ثم يقول : ومن الطبيعي ان تختلف مواقفنا من مفهوم المدرسة
ودورها في المجتمع بالتسوية الى أي من هذين للتجهيز نضيد -
وعندي انه مهما كان الاتجاه الاول مقيدا في ايفساح التبايرت
الفكرية وابتداء ماهية الاساسية ، فان تلهنا للفكر التربوي
وتطوره يقياسا ما لم تنقص جلورهما اجتماعية - التاربية
وتنظر في المدرسة كمؤسسة اجتماعية ينحسها من الصراع
الاجتماعي مايلن الى مؤسسة حيوية اخرى .

محاولة تمهيدية يراد بها فتح هذا الباب لبحث يكون أوسع نطاقا وأكثر دقة .

ومثال « **الفني العام للعلم** » وهو عرض وتلخيص قام به عاطف أحمد لكتاب العالم البلويدي جاكوب برونوفسكي ، وهذا الكتاب محاولة متعمقة لاكتشاف الأساس الفلسفي للعلم في تطوره عبر التاريخ وفي علاقته بالتقنية الإنسانية والمجتمع الإنساني ، والفكرة الرئيسية في الكتاب هي النظر إلى العلم من خلال الإنسان نفسه في محاولته المستمرة لخلق نظام فكري يستمد من الحقائق التجريبية ويرشده إلى كيفية صياغة المستقبل .

وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب يناقش المؤلف دور العلم في قضية الحرب والسلام فيرى أن العلم قد ضخم عملية الحرب وشوخوا بمدة طرق ، فهو أولا ضاعف قوة تجار الحروب بامتداحهم بأواع جديدة من الأسلحة ، وثانيا أدت وفرة الإنتاج الصناعي - في النظام الرأسمالي - إلى فائض الإنتاج تبذل الحروب كوسيلة لتصريفه ، وثالثا خلق العلم أضرار الحرب وحسب الأضرار التي أوجبت منها أحدث انقسامات حادا بين الجانب الإنساني والجانب الحيواني داخل نفوسنا . ويرى المؤلف أن العلم ومبادئه الاجتماعية يعيشان في محنة - والحل لا يبدو كليهما ، وإن علينا أن نناقش بينهما بأن نعلم كلا منهما ، ثم يقول : وهذه هي رسالة العلم : أن نصح الكارثا والعلية ، ثم مرة ، غير جادة ، وإن تصبح إنسانية وأن تصبح أسوة في ذاتها . وينبغي على ذلك بقوله : ولا أريد بذلك دستورا ماديا ، بل ألقى اعتقد أننا بذلك نزيل التصدع الروحي الذي خلقته في ضمير الإنسان حربان متتاليتان ، ونحن نتجاذب إلى قيم أخلاقية وواقعية في نفس الوقت .

ويختتم كتابه بذلك : أنني أؤمن بأن العلم يستطيع خلق القيم كالآداب تماما بأن يمتدح الشخصية الإنسانية ، بأن يكتشف عوامل تضامها وعوامل تألقها . أنني أعتقد أننا نستطيع بذلك أن نخلق الوحدة بين العلم والقيم في لافاننا المعاصرة .

الفكر (تونس)

ويرواها في العدد الثامن من هذه المجلة الصادر في شهر مارس مصدرا بمقال للدكتور عبد الجليل دقي الله من « **الاستراتيجية ومبادئها الأساسية** » ، وأثر عنوانه « **القيمة كاملة فينا** » كنهه مصطفى اللامي . ثم « **التعريف للعلمون** » بقلم محمد الرزواقي ، ويخصه به كاتبه الأدب الفصيح أو الشعر الفصيح ، ويقول الكاتب إن إطلاق هذين الاسمين على الشعر المنحرف خطأ يجب تصحيحه . وفي رأيه أن الحسن تعريف لذلك ما غبطه الدكتور حسين نصار بقوله : **الأدب الشعبي هو الأدب البهول المؤلف العامي اللغته للتواتر جيلا بعد جيل بالرواية الشفوية** . ثم يارز ولا يغني إن هذا التعريف يشتمل على أربعة شروط هي : جهل المؤلف ، وعامية لغته ، وتوارث أجيال عدة عليه حتى يصبح من كنهان الشعب ، ووصوله اليها بالرواية الشفوية .

ولمة مقال كبير من نص محاضرة ألقاها المستشرق جاك باراك من « **التجاهات الثقافية في الغرب العربي ومستقبلها** » وقد قام بتقائها في العربية قبل وفاته المحرم الدكتور فريد غازي .

وفي العدد ست قصائد للشعراء جعفر ماجد وعبد المجيد بن جدر ومحمد لنده وسعد الفزول والشاعر السوفيتي إيفان باربارجينا شعرا نور الدين صمود . ثم القصيدة لرشيد العالي ومصرية لصالح القاسبي .

ولمة مقال عنده الأستاذ **نقولا يوسف** عن كيسة شامرات الاسكندرية اليونانيات المعاصرات وهي الشاعرة ، **بتروندية باليونانو** تقدم عرضا تاريخيا لحياة هذه الشاعرة التي تركت الاسكندرية إلى قبرص في المهينة التي يناديها الحب والوفاء ذكريات خالدة . وقد ترجم الأستاذ نقولا يوسف قصيدة عن « **الاسكندرية** » لهذه الشاعرة بأسلوبه الشعري الجميل فكانت تحفة أدبية رائعة .



ومن مقالات العدد مقال « **تزايد السكن ومشكلة الفضاء** » للدكتور **محمد عبد الفني سعودي** ، ومقال من **العالم الفئوي الأب الفلسطيني** من **مرجى البومعيني** الذي توفي في شهر أبريل الماضي بعد أن جاول الثمانين بقلم **يوسف أسعد داف** . كما ضم العدد تسع قصائد للشعراء **وديع ديب** وعبد القم عواد يوسف وعبد العزيز التسوي وخالد الطي وعبدل مردم بك ويونس الابن وحسن الكرمي وجورج كمدى ومحمد شمس الدين لم قصيدة شريرة لثريا ملحم وثلاث قصص انتقاء ترجمها عيسى المعزوي ومبارك إبراهيم والثالثة من تأليف مصطفى أبو النصر .

العلوم (بيروت)

عرض عبد الطيف شرارة في عدد حزيران من هذه المجلة حياة الكبة الأمريكية التي بدأت في الصين وتفتتت قاذف أهل الصين ، ومارست الحياة المعاصرة في شتى أبعادها ومختلف عوائلها ، ولماضت إلى أممها وتسللت كرواتها ، والتي صرقت حسانها في مقاومة التنوير العنصري وحداثتها في الدعوة إلى المساواة بين الجناس والألوان والأفواه في محيط الحياة الدولية والمعاملات الإنسانية . تلك هي الكاتبة **بيرل باك** صاحبة « **الأرض الطيبة** » والتي فازت بجائزة نوبل .



وتحت عنوان « **لغز استعصى على الحل في حياة المتنبي** » سألوا شاعر البحرين إبراهيم العريضي مسألة نسبة **الغزل** لقصي إلى الملويين . وقد تناول هذه المسألة منذ الشيخ **عقيل بن حبيب** الأستاذ محمود شاكر في مجلة المتنبي في « **ملاحم المتنبي** » .

وتناول الأستاذ العريضي في مقاله موضوعا آخر هو كسبية أبي انطرب بانيس فيقول إن هذه التسمية نشأت على أترضوه فرض الثورة التي قام بها في سبيل علويته وبدافسج منها ، وتلبس امرها من قبل القرفسين .



وتناول غالي شكوي في مقال قيم أدبي عبد المعيد جوده السحار لغرضي لكفة « **وسوسة الشيطان** » في مجبوعة « **هزات الشيطان** » التي أصدرها السحار سنة ١٩٤٤ وقال أن هذه المرحلة الأولى في نظرية السحار إلى الجنس تنتم بطفة إيجابية غاية في الأهمية ، هي هذا التنوع الصبور للمصادر النفس في تكوين الشخصية الفنية ، وبغض النظر عن أن هذا التنوع لا يؤدي إلى انجمان متعلق أو كتمان ينال في الشخصية ، فإن هذه السمة في أدب السحار ظلت تنكح به رويدا عن القرفسيات المسبقة التي تقل شخصياتها وتجدد أحداث تجاربه الإنسانية . ويقول الكاتب أن النهاية دائما في قصص السحار تدلج التجربة وتبشرها إشلال ، لأنها غائمة مجلوبة من خارج التجربة ، قائمة من حياتنا البوذية مسفا إليها ما يعتمد بين جنات المؤلف من قيم ..



ومن مقالات العدد مقال كتبه **آبي القمسي** من « **الأصول العربية في اللغة الإنكليزية** » وقد قدم في هذا المقال بعض الإنلاط الإنجليزية التي ترجع إلى أصل عربي مثل أمير البحر والقاضي وغير ذلك . وقال إن تعقيقه لهذه الإنلاط ليس إلا

فجرات الانجليزية والأمريكية



تقدمها

مجلة شعر
شهرية تصدر في شيكاغو

وقد نادى مكتب الحديقة عرس لرحلات جديدة صدفرت في الولايات المتحدة لرحلات شعر الملهاة الإيقية أريستوناس، فقد شرعت مطبوعات جامعة ميتشجان في إصدار رحلات جديدة لأحدى عشر ملهاة معروفة لهذا الشاعر إلى جانب مسرحيات اكتشفت حديثا ليابندر، وقد صدر منها حتى اليوم ترجمة لانسلي أهل الفرائى والطهور، وفي نفس الوقت تقوم دار نشر متمسكة على إصدار ترجمة أخرى لأعمال أريستوناس صدرت منها حتى اليوم الطيور والفلاندز وفيد النساء ولينستوتا، والترحمة إلى العائنين مثل الشعر اليوناني القديم وتحتوي استعمال المصطلح الأمريكي الدارج وخاصة في أحداث النمر التي تصغر من عدد من الشخصيات «الضحية» في الملهاة، وقد ألفت المسألة بين المترجمين الجديدين لموسوعة الطيور، والفرصة للكاتب لتعرض لبعض المشاكل الأسبسية للترجمة موما وترجمة الشعر خاصة ويضع لكرمي الإضلال انقلبة التي أوردها أنا ما ولنا يحدري جدي في المثال الذي يطهر به التكوين وهو أن تصبح الترجمة بوتا مثلا يوكل إلى آلة الترجمة كما توكل الغرب والقصبة والعمليات الرياضية المعقدة إلى الآلة الحاسبة، ولعلنا جيبنا سر في أنفسنا بما أن الأعمال الأدبية لابد تستغل ترجمتها آليا حتى بعد مئات السنين، فكل من المترجمين استألف في الفهراسات اليونانية، وكلاهما شاعر وقد اختلف لتفسيرهما للنص اليوناني واختلف تبعاً لذلك الشخصيات اليونانية كما صوراهما، فأحدهما يرى في الرجلين اللذين ينادان أينا في مرحلة الطيور شخصين يهربان من موحاة أشبه بالكاريكاتير تعود المدينة بعد حرب عظمت أصعب الجميع، فأشبه الحزن بشي تجاره والصدق بصديقه حتى لم يعد لهما مبرر على الحياة.

والآخر يرى في مرحومهما مظهرًا من مظاهر طاعة الآلهيين ودايمهم على تحقيق أحلام بعيدة المثال.

وليست هذه أول مرة يترجم فيها أريستوناس إلى الإنجليزية فهناك ترجمات شهيرة من القرن التاسع عشر، ثم هنريك ترجمات جليتر مري التي يستمد عليها الباحثون عندما، ولكن الترجمات الجديدة أقرب إلى روح النص اليوناني إذ تتضمن كثيرا ما حدثه المترجمون السابقون لئلا يات للردق أو الأدب في المجتمعات الحديثة، ولكن خلفه مما يشوه أدراكنا فروح الأصل اليوناني، وهنما للمجتمع الذي كتبت له المسرحية أصلا.

ولعلنا لا نبالغ إذا جزمنا بأن المجتمع الأمريكي الحديث أبعد المجتمعات العاصرة من حضارة الإغريق، ولكن هذا لم يخل دون صدور ترجمات متعددة لأمثال الملهاة، فلابد الاتساق الذي أثبت قيمته على مر العصور لا يعرفه اليوم ولعلنا، وهو ملاذ الإنسان الثقاف في كل مكان سواء في ذلك الأدب الهندي أو الفارسي أو العربي أو اليوناني واللاتيني.

مشتورات اتحاد اللغات الحديثة

وهي أهم الجلات الأكاديمية الأمريكية في ميدان اللغات الحديثة وآدابها.

وفي عدد مارس ١٩٦٦ عدد من البحوث لفت نظري منها بحث من رواية أميلي بروتي الشهيرة «السادية وقتل الأطفال في رواية مرتفات وفرنج».

وقد كثرت في هذه الأيام البحوث عن هذه الرواية، تناول منهاه الفني والصور والرموز التي ترسب بها، وفي هذا المقال يلتفت الكاتب انظار القراء إلى أن الأطفال في القصة يشبون ينشأ، وقد لقد معظمهم رعاية الأم في سن مبكرة، متلم في ذلك مثل الكاتبة وشقيقتها، وهم في القصة يكامحون في سبيل البقاء إذ الكثير مصممون على انتم أو أصابهم، ويغرب لذلك مثلا بالشخصيات العديدة في القصة، وكلها تقدر رعاية الأم في وقت مبكر.

وليست هذه الظاهرة مقصورة على رواية مرتفات وفرنج بل تتضح فيما كتبه أميلي بروتي من شعر إذ يبدو من دراسة شعرها أن هناك صورة مسيطرة على خيالها هي صورة طفل جميل يشب في حياة تامة أو أجرام، فالوقت خير لهذا الطفل من الحياة، وفي الرواية تساعد الرزول على تقوية صورة الطفل التبول، إذ يتكرر فيها صرخ الحيوالات الصغيرة الرقيقة (أرباب - طيور - كلاب).

ويخلص الكاتب من هذا إلى أن الطفولة والموت مرتبطان ارتباطا وثيقا في ذهن الكاتبة.

ويسود الألم في عالم الرواية كثرورة من فريديات الحياة وما أكثر المؤلف التي يؤدي إليها الشك والاضطراب ويؤدي الصلابة بعضهم بما أدى جيبنا محسوبا في الرواية.

ويظن البعض شخصية البطلة على أساس أنها كانت في مرحلة الطفولة نوبة الاحتمال تحدي الآلم وتنتهي من يؤدونها لم أصبحت بدخلها في مرحلة الرافعة طفلة لا تتحمل الآلم ويشر الصراع في نفسها على أنه صراع بين حبيها الطفولي للفرق لتتفكك -الجويها الراشد وجوها- وبجوها من الآلمة سيمًا، يفتي كتيل من ما من تلقت أحلام شبابهم بذلك الصب

التحدي الكائن في كاترين وشيكليف في مرتفات وفرنج، ومن لاداج هذا الصب في باب العلاقات المحرقة أو الشاذة، كما استتتسى اليوم Perverse. والواقع أن مجهر القرن لمسر لم يدع سيد غرام من حصل بهم الأدب الرومانسي في كل اللغات إلا وسلط عليه عدساته الباردة فخلع عنه رونق الشاعرية وحلل الجمال ليظهره في النهاية إنسانًا شاذًا عاجزًا من الصب السوي الذي يستوجب صحبة كالفين ويستندف أبقه النوع، يستوى في ذلك فرتر جونه مع قبس بن المخوج وبزل وفريجي.

تولين دراما ديجو: Tulane Drama Review

(قلمية تصدر من جامعة ترلين في نيويورك بالولايات المتحدة)

خصص العدد الأخير (ربيع ١٩٦٦) من هذه المجلة لمرح المبت مند جيني Geot وأريستوناس Ionesco وجيني من أوائل كتاب الطليحة في المسرح الحديث، ظهرت له مسرحية الفتيات في باريس سنة ١٩٤٦ وكانت بداية اتجاه جديد يمكن أن يسمى بالأسرح وقد حدث هذا في السنة التي ظهرت فيها رواية نالاي ساروت صورة رجل مجهول فكانت بمثابة حركة اللاوعي في ميدان القصة.

والفقد حائل بالبحوث القيمة من مسرح عيلين الكاتيبين في مقدمتها فصل طويل من كتاب لجان بول سارتر بعنوان الحيات جيني: ممثل وقصص إلى لها مذكرات من المسرح بقلم جيني نفسه، وخطاب موجه منه إلى أي مخرج يحاول أخرج مسرحيته السود، في الخطاب توجيهات تبين المعنى الذي يود المؤلف أن يفهمه القارئ، ولعلنا على ما يلفت النظر هو أنه يشترك الجمهور في المسرحية، فالمرحمة موجهة للجمهور على أيدي الجمهور أبيهي والمتلجن سود، وقد تلاشي تماما ذلك الحائظ

منذ سبع عشرة سنة ، أى بعد انتهاء الحرب العالمية الماضية ولكن أحلامها من الحب والسمادة تيدت ، بسبب الشقاق الدائم بينهما ، ومن ناحية أخرى فالرماس فى الخارج لم ينقطع طرول هذه السنوات ، ولا سبيل إلى الفرار أو الاعتناء بجدار البيت أو الأسرة أى الحياة الخاصة ، وإذا نحن نلجأ من الرماس فلا نلجأ من الجوع ومن جثث الضحايا ، فسيحيايا الحرب والسلام على السواء .

كيتون ويلز : The Canyon Review

(قصيدة صدرت فى نوفمبر فى الولايات المتحدة)

فى العدد الأخير (ربيع ١٩٦٧) عدد من المقالات والقصص الجديدة كما جرت العادة فى هذه المجلة ، وبه منتقبات من الشعر ويلز حائل لعرض الكتب .

نقى باب المقالات بحث طويل من الرواية الإسبانية المعاصرة يعرض فيها الكاتب إلى أهم الروايات الإسبانية المعاصرة ، وإلى تأثير الحرب الأهلية فى تطور الرواية الإسبانية ، ويبرز الكاتب أثر حكم فرانكو فى محتوى الروايات المعاصرة ، وإلى مفردات الكتاب من التصق فى مشاكل النخب الأسبانية ، ويربط بينها وبين التراث الروائي الأسباني من نوع البيكارسك ، وهو مقسبل على بالتمام على أن يمكن إيجازها فى هذا المجال الضيق ، وفى مقال قريب شائق يربط كاتب يلقي روبر شاونو بسين مارسيل بروسست وسارتر والموسيقار الروس سترافنسكى على أساس أن موضوع الخلق لكل منهم هو « الزمن » .

ويبدأ الكاتب بطرح الدور الذى تلعبه الموسيقى فى رواية بروسست الشهيرة بحثاً عن الزمن القلود ول رواية سارتر الفثيان ، ويقول الكاتب من هذه الرواية الأخيرة ، أن سارتر قد كتب قصة لعوق قصة بروسست فى نظرها الجاهلية وأن كانت لا تربط إلى شخصية خلقها الأدبى ، وفى قصة سارتر يجد محور الحدث شخصية تصمت إلى تسجيل أو أسطورة كما يصمت البطل إلى الموسيقى فى قصة بروسست ،

لما سترافنسكى فقد كرس تاريخه الطويل فى الموسيقى ، أرقصة الزنس ، والموسيقاء تعبر تعبيراً لا يتنى عن النظام والمهنية التى تسيطر بها الأحداث ، تعبيراً موسيقياً يوفق التعبير الأدبى عن الشخصيات داخل الشخصية ويميل أدق أن سترافنسكى لا يقتصر على توليف الزمن بل يخلق .

ويورد الكاتب نصوصاً من مؤلف لسترافنسكى من نظرية الموسيقى بعنوان Poetics in Music ، يشير فيها الموسيقار إلى « الأهمية القصوى للزمن » ويرقى فيه نوعين من الزمن : الزمن السيكلوجى الذى يختلف تبعاً للاتجاه الداخلى للشخص وتبعاً للأحداث التى تؤثر فى شعوره ، والزمان هو الزمن الانولوجى (الخاص بتماسيح الوجود) وهو يعادل الزمن « الحقيقى » أى زمن الساعة ، فمصر دقائق فى صعبة حبيب تنظف من عشر دقائق فى انتظار الكرسي الكهربائى ، وينضح للوحة الأولى أن هذه بالخطى فى المشاكل التى يعالجها الروائيون المحدثون وكلهم مشغولون بفكرة الزمن هذه .

وفى باب القصص قصة قصيرة بقلم دوريس ليج ، ودوريس ليج كاتبة معاصرة من روبريس الجارية حان الوقت لتقديم بعض أعمالها لقراء العربية ، وهى تقيم فى إنجلترا منذ ١٩٤٩ ومعونة من المودة إلى وطنها أو المهاجرة إلى أستراليا وذلك للوفاء الذى تتخذه فى نفسها من مشاكل القرنة المصرية ، فمنذ نشرت روايتها الأولى العشب يبنى وقد جعلت بطلتها البيضاء تنفذ عشيقاً زنجياً أصبحت من فسير

الغروب فيها فى وودسيا . ومنذ استقر بها لثاقم فى إنجلترا وأنها النجاح متصلاً .. ولظهور لها قصص كثيرة ، وإن لم أر لها فى مكتبات القاهرة إلا مجموعة قصص قصيرة ومسرحية واحدة .

وقصصها اليوم لصالح مشاكل الحياة الجديدة فى المجتمع الحديث ، وهى تعالج هذا الموضوع بصدق وصدق ولقدن للقرارى صورة تلجأ إلى التأمل حقاً ، وفى هذه القصة ترى أوديسا ناعلاً أصبح مؤلفاً فى الإذاعة ومثله كمثل غيره من أوساط

الوهمى بين غشبة المسرح والجمهور ، ويسر المؤلف على أن المسرحية موجهة إلى جمهور أبهى ، فإذا حدث وكان جمهور المتفرجين كله من السود وجه أحضر مترج واحد أبهى يتجلى فى العذارة ويرجعه إلى التمثيل وإذا تمل ذلك وجه أن يتخذ أحد المترجين السود قنماً أبهى .

وفى الجزء الخامس بإيرنستو عدد من المقالات بقلم إيرنستو نفسه جمعت من أماكن متفرقة ونشرت هنا بعنوان مفكرات من مسرحى ، ويحت بقلم مارتن ماسلين مؤلف كتاب مسرح العت والبحث من « إيرنستو ومشكلة الخلق الفنى » تعالج مشكلة الفنان الذى يستخدم خبراته الداخلية (النفسية) فى تشكيل العمل الفنى .

ولعل أطرف ما فى العدد مسرحية حديفة لإيرنستو كتبها سنة ١٩٦٢ ولم يسبق نشرها بالإنجليزية ، وقد وردت كاملة فى هذا العدد والمسرحية بعنوان مهرجان الجيم (أو الجنون) للثنى أو أكثر Bedlam Game for two or more شخصيات المسرحية الرئيسية الثال : رجل وامرأة ، منته فى ذلك مثل مسرحيات إيرنستو الأخرى : الكرفس ، أميدى ، العبير الخ .. فالرجل والمرأة سواء كانا زوجين أو عشيقين يتطلان دائماً محور مسرح إيرنستو ، والرجل والمرأة معاً حبيسان فى دارهما أو بالأحرى فى شغتهما ، وهذا موقف مشابه لموقف الرجل والمرأة فى تلك المسرحيات أيضاً ، وفى هذه المرة نعلم أنهما يعيشان فى هذا الوضع منذ سبع عشرة سنة ، وقد هجرت المرأة زوجها تنهرب مع هذا الرجل الذى يسدو فى المسرحية على أنه مخرج من الآخر زوجته ، أو بالأحرى مخرج زوجته ، والمرأة لا تلتأ تنهى عليه بالولم لأنه « غديها وأفراما » ولو بقيت مع زوجها الأول لكانت اليوم سيدة ولانجيت أملاً الخ ، وهو ما فنى رضى عليها بالولم قلاً ما كان قد حقق نجاحها كبيراً وأصبح لشخص مرموقاً ، لا يعرف بالضبط ماذا ولكنه على أى حال يعرف أنها كانت حجر مثرة فى سبيله فاقته من تحقيق جيد مجهول .

والإنسان فى هذا القطار منذ بدأ حياته ملء ، وهى بجادلان كل كره ، ويمتل كل منها وجهه نظر جيله على المقوم ، وهذه الدراما المصنعة داخل الشقة تتخلها أصوات الرماس والقنابل من الخارج ، ونفهم أن هناك حراً ما دائرة فى الخارج ويتمتع على الخط بين الفئتين المتنازعين ، وتصاميم أصوات الرماس فلا يجدان منها مغراً ، سبدان التسامد بالمرية ، وسبدان الياب بدولاب الملايس ، وهذا فى الشقة كالغار فى المصيدة ، لا سبيل إلى الخروج خوفاً من الرماس ، والياب الخلفى للبيت يسده الزكام بفعل القنابل - والمرء تلوم الرجل لأنه اختار السكن فى شارع يقع بين الفئتين المتنازعين ، وهو يرد بأن الحرب فى كل مكان .

والطريف أنه إذ يطل من شق فى الثالثة ليعد القطنى يقول : ثلاثة واحد من كل فريق وواحد من المعادين . ويكتفى الثالان إذ يسبحان وقع أقدام ثقيلة تصعد السلم لم تبطل ثالثة ، فهما مستغيان خوفاً بالرم من أنهما لم يفلا شينا وليس لهما فى النزاع الدائر ثالة ولا جمل . ويشهد الغرب فى الخارج لتعز جدران الحجر ، وفشل القذائف من الشباك ثم فى نفحات تصدق فى السائط ويمكن أن نقول أن الجدار يتهاك حتى لا تصبح للبيت أى حرمة أو خصوصية ، والتراب والجبر المتناقص من آثار الحركة كل ذلك يفرهما ، كما أنهما جاثان .

وفى النهاية بعد أن يسكت صوت الرماس ، إذا بأحسام آدمية بلا رموس تتدلى من السقف ، ويوسى أخرى بلا أجسام تتدلى إلى جانبها ، وتصرخ هى فى فرع قاتلة : ماذا يفعلون الآن ؟

هو : لا تترين .. لقد انتهوا من الحرب والان يجيئون العدل !

والمرحبة وأهمة العنى لا لى فيها ولا فوضى بالرم من أنهما من مسرح « العت » فالرجل والمرأة مدأ حياة جديدة

الناس ، وقد جعل همه اقتراض القرص نفوذات هراية مع شهرات النساء ، فلذا بلغت امرأة الشهرة لسبب من الأسباب وسببها في قائمة في دهنه وصل على أن يصل إليها يوما ، ولا يحق به العشل حقا إلا يوم يلتقي بفتاة ، أو بالأحرى سيدة عاتة تصل مسحة ديكور للمرحوم وتبلغ الشهرة فبرعها الرجل في قائلته القصيرة كما تسمى القصة ، حتى تعين له العرصة يوما أو يكلف بأجره حديث معها للادامة .

ونرى في القصة كيف تحبب كل خطوة من « التنكيك » الحكم الذي أمده بقلعة ، تحبب لغيره أن السيدة تستجيب لسبب لحرثاته استجابة مادية ، استجابة رمالة في صل ، لا استجابة انوية ، وهو يصل في النهاية الى غرضه ولكن بطريقة أهون منها العشل ، ولطيف برامة الكاتبة في هذه القصة في أنها لا تجعل من السيدة البطلة التي تروى القصة من وجهة نظرها ، بل تروينا من وجهة نظر الرجل ، وإن كانت المرأة في البطلة الحقيقية والرجل هو الذي يشير الإزداء والسخرية .

مجلة الأدب الإنجليزي *A Review of English Literature* (فصلية تصدرها دار لونغمان للنشر وتعرف عليها ديس لم الأدب الإنجليزي بجامعة ليدز بالإنجلترا)

جرت عادة الشرفين على تحرير هذه الملة على تخصص موضوع لكل عدد نشر عنه مجموعة من البحوث ، الى جانب قلة من البحوث المترفة في مختلف الدراسات المتعلقة بالأدب الإنجليزي ، والموضوع الخاص في هذا العدد الأخير (أبريل 1967) يدور حول المجلات الأدبية ، وقد قدم له الأستاذ نورمان جينارس رئيس التحرير لفتت الأنظار الى أهمية عدد مسن المجلات الأدبية التي تليارت دور النشر في القرن التاسع عشر على اصداها ، واجتذبت الى هيئة التحرير فيها عددا من الكتاب ، كان من بينهم المشاهير الذين يعرفهم القراء أصلا ، وتدرج فيها عدد آخر من الكتاب يلغوا الشهرة من طريقها ، وفرب لذلك مثلا الكتاب الإنجليزي شارلس ديكنز ومجلة *Household* ، الكتاب لآركي ومجلة *Cornhill* (تصدر الى اليوم ولكن باسم *Fortnightly*) .

من الحروف أن الفاليسية الطمعي لقصصنا في القرن التاسع عشر كانت لها مجلات لفتتاهة تسلمد في نفسهم في الكتاب وإن بعضها قد أنشأ ومن مددا من المجلات الأدبية التي لعبت دورا هاما في الحركة الأدبية ، ويوم الاساد جينارس أن دراسة هذه المجلات الآن خير معين لنا في دراسة تاريخ الأدب والمكر .

والبحث الأول من مجلة أدبية شهرية اصنعتها دار لونغمان سنة 1887 ، وهي مثيل للمجلة الأدبية الشهيرة حتى يومنا هذا ، وقد قام بالبحث أحد كبار المدبرين في مؤسسة النشر هذه لفتهم جينارس والمعلومات والإرادات ، والامداد الهامة في السنونات المختلفة وأكثر الموضوعات رواجاً الى غير ذلك من البيانات الدقيقة التي تعتبر مثالا يحتذى في التأليف لصحافة عموا والمصاحفة الأدبية بوجه خاص .

ولعل خير ما يشوق قاريي العربية في هذا العدد مقال طول من **بعض المجلات الإنجليزية في الهند** بقلم الأستاذ بتر استال الأدب الإنجليزي في جامعة بنغلادش ، ويوضح من هذا المقال أن اللغة الإنجليزية - وقد كانت لغة التعليم والحكومة طوال قرن من الاستعمار الإنجليزي في الهند - ما زالت الى اليوم ضرورية في التعليم ، وقد طن القائلون بأمر التعليم بمد الاستقلال أن يطوا محليا اللغة الهندية *Hindi* ولكن خص عشرة سنة من التجربة أثبتت أن الهندية بالنسبة لكثير من الشعوب الهندية ذات اللغات المترفة أصعب من الإنجليزية وهي أقر بطبيعة الحال ، خصوصا فيما يتعلق بالتراث الطمعي والحضرة التكنولوجية .

ولقد بدأ لفتين أن اصناف تلمع اللغة الإنجليزية قدس يجم من ضعف المستوى العلمي للطلاب في المدارس والجامعات لأن حركة الترجمة من وإلى اللغات الهندية المختلفة لا تسير بسرعة تلاحق سرعة تقدم العلوم وتطورها .

ويستعرض الكتاب عددا من المجلات الأدبية والفنية التي تصدر في الهند باللغة الإنجليزية منها مجلة تسمى **العيان الأدبي** *The Literary Criterion* . تصدر من جامعة ميسور ، ومجلة أخرى تصدر من جامعة شنتاليا في حيدر آباد .

ولعل أهم مجلة تصدر في كلكتا تصدرها جامعة أدوية باسم **ورثة الكتاب** ، وكثرت في سنة 1968 ، يلتقي أسطوفا صياح الأحمد من كل اسبوع يناقشون المشكلات الأدبية ويتقدمون صياح سواء كتب في الهند أو في إنجلترا أو أمريكا ، ويرى اصحاب هذه الجامعة أن مقدور الشاعر الهندي إذا كان يقن اللغة الإنجليزية أن يعبر عن « حديثه » تعبيراً صادقا بالإنجليزية ويقول الاساد الإنجليزي أن بعض هؤلاء الكتاب يطهرون الخوف من أن يمدحهم تقائهم العربة من حلوهم الإصيلة ويورد نصا لكتاب همدى يقول فيه :

أنا اليوم لا تسمى بالإنسانية العلمية كما أننا نقتصد نظرتنا القائمة ، وجب الطبيعة وهما ما يميز حضارتنا ، وإنكره فن تشرب بنظرة مترفة معززة من خلال العصبانية ، وإنكره ودراسة الأدب الغربي اتجاه الشمال في الحياة وفهر الطبيعة وهو اتجاه يسير جنباً الى جنب مع التطور العصفدي والتصنيع .

ويستطرد الكاتب الهندي قائلا أن الهند استطاعوا التشرب بروح وديزوت وشيلي وكيتس بدون أدنى صعوبة لأن هؤلاء الشعراء أولوا عنة التأمل وحس الطبيعة ، أما كتاب القرن العشرين فتصنعهم سمة الرما والجلال التي تميز الأدب العظيم ، ولا يد الكاتب الشرقي أن ينتخب ما يتفهم وينبذ ما لا يقع فيه ليصطب بتيمة الشرقية ، وقد يؤدي في هذا السبيل خدمة قصوى للرب ، ذلك الغرب (القطوع من شجرة) الذي أحد اليوم ينجه الى الشرق باعنا في وموز من أمل جسد يد في ميلاد جديد للشرق يمكن أن يوفر فلسفة الانداس مقابل أمريكا الغربية عليه : **الآلة**

ومع **الكتاب المقدس** التي يبرز فيها هؤلاء الكتاب المنسود عتيقهم **الاستخدام** كتاب الغرب للثورات الشرقية ، فهذا كتاب يقد استخدام ت.ب.س. اليرت **للجنة** في الربابيات ويثبت أن اليرت قد أصفى على هذا الكتاب الهندي مسحة مسيحية من عند وأنه لم يعبر جيدا معنى الآلهة وأعمالهم ، وهذا ما فعله غيره من الكتاب الغربيين .

وإن الباحثين منا في المثرات الشرقية من الأدب الإنجليزي ليعرفون جيدا كيف أخطأ الكتاب والشعراء الإنجليزي فهم المصنوع الغربية وكيف حملوا من الحنى ما بلأم أعمالهم الأدبية بعرف الطر من محتواهم العمل .

وتصطب كتاب هندي في مجلة تسمى البحث **Quest** من سوه الحق الذي حائل عرف الهند على الثقافة الغربية الا اقتربت في ألهاتهم طوال سنوات طويلة بالاستصمار ، مسا أدى الى تلتاية يقضة في شخصية الهندي المنكف ، فقد كان كل ما هو حديث يقترن بالغرب وبالتفوق المعنوى ، وكل ما هو وطني مقرونا بالتأخر والانتطلل .

ولعل أكثر ما عازلوا يذكرن يوم كانت كلمة « بلدى » أو « مربة » أو « قلاع » معنى متافرا ، وكلمة « المرمي » معنى راليا . وفي هذا العدد بحث من اللغة الإنجليزية في غرب إفريقيا وتتامل الكتاب من خلال دراسة عدد من المجلات والكتب والصادرة الإنجليزية في غرب إفريقيا ، يتبادل مع بطمسور الأفريقيون الإنجليزية الى لغة جديدة . . .

وقد كثرت في هذه الأيام البحوث من دول إفريقيا الناشئة التي تستخدم الإنجليزية أو الفرنسية لغة رسمية للتواصل والتعبير الفني ، ويبدو القائلون على شئون النشر في أوروبا اهتماما بالما بهذه البلاد على أنها أسواق خام لتسويق الطبعات سواء بالإنجليزية أو الفرنسية ، وهذا موضوع جدير باهتمام جاد من باحثينا إذا كانا نلج في توثيق علائقنا بالشعوب الإفريقية الحقيقية .



قبل ٦٠ سنة...

يوليو ١٩٠٣

اعداد: اسنور الجندى

المصطف

مؤتمر اللغات الشرقية

• استحدثت الحكومة المصرية حفرة العالين عزلا احمد بك زكى السكرتير الثانى لمجلس النظار ومصطفى بك بيسم وكيل النائب العموس ليتويا منها في مؤتمر اللغات الشرقية الذى عقد في مدينة هيمبورج بالمانيا في شهر سبتمبر سنة ١٩٠٢ ، فخطب الاول في كتاب قديم عنوانه « الفن والنافع في الجاهدين بالدافع » مؤلفه ابراهيم بن احمد هاتم الاندلسي ، وخطب الثاني في الجامع الازهر .

وقد طبع خطبته واحدى البنا نسخة منها فلذا به يبحث فيها من تاريخ بناء الجامع المذكور وسبب تسميته بالازهر وطريقة التدريس فيه ونحوه وارواقه المختلفة وديروسه الخاصة والعامة .

ومما جاء فيه ان عدد الطلبة بلغ ١٠٠٢٠٠ اثنى في السنة الدراسية منهم ٦٤٥ طالب اجنبي .

المنار

صف عربية في المهجر

• مرعنا بالجريدة التي يصورها في سان باولو البرازيل ثم الذي ليكي السوري ، وسبق ان افترضنا بنهضة السوريين المهاجرين الى امريكا في الاداب لاجلها فلانا كنا معجبين بحرية هذه الجريدة وانصافها وشدة خيرة منتسبيها على قومه وحبه لجنسه ولوطنه وحسن اختياره فيما يكتب وتوخيه النفع فيه . ومن دلائل طغورية الشعوب الشرقية - حادث اليابان - ان يطر صاحب هذه الجريدة النافعة الى ابطالها بعد جهاد بضع سنين .

• طلب الزواج بلسان الصحف :

راينا في بعض المجلات مادة جديدة قلد المصريون فيها الادويين ، وهي طلب الزواج بلسان الصحف ، يكتب الفتى شيئا في ترجمة نفسه ومورد معاشه ثم يذكر الصفات والتعودات والحالات التي يحبها فيمن يريد التزوج بها .

التريا

الشيخ ابراهيم اليازجي والحروف العربية

عرف بما له من الباع في الصناعات اليدوية ممسكا كان يتعمده بين الحين بعد الحين تقصيا من مناه الاقلال العقلية منها صناعة التصوير الشمسي والرسم والتصوير بالالوان الزيتية . ومنها شغلة الحروف النولانية لصنع الامهات التي تسبك عليها حروف الطابع .

وهو اول من اشتغل بهذه الصناعة في الديار السورية واكثر الحروف الشائعة الآن في الفطر السوري والمصري مأخوذة من صنع يده . وقد عني باختصار قاعدة الحروف المعروفة ليومنا هذا تسهيلا لعامة الطباعة وتخليفا من كلعتها فرد عدد الامهات الى خمس ما هي عليه بان حصرها في نحو ستين ، حاول كون عددها في المؤلف لا يقل عن الثلاث مئة .

وقد سبك من هذه الحروف وطبع بها اعلانا مطولا نشره في جريدة لسار الحال المشهورة بين فيه مزية هذا الحرف على الحرف المستعمل وما فيه من تسهيل لنشر المطبوعات وتخفيف اثمانها ولكن حذل دون الاقبال عليه بما عهد عندنا من استعجاب ما لم تألف ، والاستيحاش من كل جديد - الا ان يكون من الاثراء والمعدات - ولعله اذا تكرر نشر نموذجات منه تأله الانصار ، وهو لا يفرق من القاعدة المتعارفة الا في هيئة الوصل بين الحروف مع بقاء صورها المؤلف كما هي .

الفتاح

الروايات التمثيلية في مصر

يضع افاضل الكتاب واعظم المؤلفين من الغربيين الروايات الادبية ليقتل على مراسم بلادهم مفعمة بالحكم العالمة والاصالاح العالمة والافكار السديدة والمواضع المفيدة ينتقدون فيها عادات البلاد ويتقوون امواجها ويهدبون اخلاق العامة ويصلحون شئونهم .

اما نحن فليس لنا من الروايات المؤلفة الموضوع - غير المصرية - الا نضع روايات حلها - ان لم نقل كلها - مطووعة بالخرافات والافهام والفرصلات .. لحصها الخيالات الكاذبة وسداعها مرد احبار الجن والمقاربت وما شاكل ذلك من الامور المسحكة السخمة والباطيل الملققة السخية ، فهي تشد عقول العامة ولا تروق لدى الخاصة ولا تجدى نفعا .

اذن لا غرابة بعد ذلك اذا قلنا اننا بالنسبة الى فيرتا في منتهى العصور والتقصير ، وان التمثيل في بلادنا على حاله الحاضرة يكاد يكون معدوما بالرة ، وهو امر يوجب الحر والاصف ويبيى كل حر يرود على تقدم البلاد واعلام شأنها . فلماذا لا نهم ترقية - مراسم التمثيل - واصلاح شأنها لتكون مدرسة اعلى ولترقى من المدارس المكتبية العادية فتثبت في افراد الامة على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم حياة جديدة وروحا شريفة .

اما وجه اللوم على الحكومة في هذا لانها لا تساعد مراسم التمثيل ماديا وادبيا ، فهي عداها الله تسلمد المراسم الاربعية في كل عام بنحو ستة آلاف حنيه في حين انها لا تليد الامة والبلاد في شيء .

ونعني بجزء قليل من هذا ذلال الكثير للاجواق العربية الوطنية يدعوى انها لم تصل الى الدرجة التي تؤهلها للحصول على هذه المساعدة .

على أن الحكومة مطلوبة فيما تعمل على كل حال لانها تعلم ان الأمة ممتدة وليس فيها رأى عام حر يناقشها الحساب .

اما وجه اللوم على المتأخرين وأصحاب المراسم فهو لانهم يفتخرون بين رجالهم من فئدت أسلافهم وأنشطت أديابهم فيحطون من كرامة هذه الأمة الشريفة ، ولهم ينتقون الروايات السحرية لتمثيلها على مراسمهم مراعاة للخطر وأسمها وحيا في الربح والكتب .

لعم ٠٠٠ انه ليس بين ظهرانيها من المؤلفين المختارين المحدثين كسند هذا المعوز ، ولا فيها من الفارس الخاصة بتعليم فن التنثيل ما تعتمد عليه ، ولكن خير لنا أن نعمل رواية واحدة في السنة بمدد قليل من المؤلفين أولى من أن تكون مضمضة في الأنواء وأضحوكة بين العالمين .

فهم اما معزبون ينتقون لينا من الروايات لأمرجية ما يخالف عادائنا وأقوائنا وتسننونا وربما أضر بنا أو مؤلثون يملأون رواياتهم بالخرافات والخرعيلات .

كما أن مسئولية أصحاب الصحف في هذا لا تقل من مسئولية غيرهم ، فقد تعودوا على تقريب أعمال المراسم ومفصحا ، كما يفرطون الكتب والمؤلفات ، في حين أن الصحف الأوروبية التي تطبع في مصر وفي غير مصر تخصص الأنهر الراسمة والصناعات المسبحة لاستناد الروايات الشخصية والظاهر وجه الخطأ في الاقتداء والتشبه .

الجامعة

هنا وهناك

كتاب بقلم : أحمد أفندي حافظ عوض

أمانة الآن كتاب صغير الحجم كبير الفائدة ، عنوانه : هنا وهناك ، بقلم جناب أحمد أفندي حافظ عوض أحد محرري جريدة المؤيد .

موضوع هذا الكتاب يبحث في حالة الأحوال في القصة ومقابلته بالاحتلال في مصر .

ويظهر من مطالعة صفحاته أن جناب المؤلف من الفئة التي تبتى مطالبة بحق الحرية والاستقلال ، وبذلك يكون على خلاف مع حريده لانها صارت في الدلة الأخيرة من الفئة التي ترى أن القوة حائلة لا تقاوم ، فاذا قاومت خسرت الفوائد التنسي تتج من المسألة .

قال جنابه في الصفحة ١١ :

« والذي يطالع الجرائد التي يحررها اليهود أنفسهم بالغة الانجليزية يهجم من أول وهلة أن الانجليز أصلها البلاد الهندية تماما وورثوا أهلها ، ونظمو أسورها ، ولكن الباحث المدقق الذي لا يأخذ الأمور بظاهرها لا يكتفي بذلك ، فانه يقرأ في الصفحة التالية أو في النهر التالي ما قرأه من الجريدة شكوى من القحط والمجاعة أو الفقر أو سوء الإدارة في الحكومة الهندية ، مصحوبا كل ذلك بالتسطف والرجاء حتى يكاد يضيع صواب القارىء ولا يعرف أى القولين يصحق من أعمال انظرا .

واذا طالع الإنسان الجرائد التي يحررها الانجليز يجد في كل صفحة وفي كل نهر من الجريدة ما يراد في بعض الجرائد المصرية التي أحلت على نفسها أن تبرر أعمال الانجليز دائما بعير تمحيص أو تدقيق وتحرقهم بخور التناش في كل صباح وساء وهو ما لا يحبه ولا يتولى به الانجليز أنفسهم »

وفي هذا الكتاب فوائد كثيرة مؤيدة بالأرقام من الهند وسياستها وتجارتها فحسب القراء في الهند على اقتنائه ومطالعة .

القصيدة

القصيدة ولؤلؤ أمير حمص بقلم إبراهيم اليانجي والأب لويس شيخو

جاء في كتاب محاني الأدب الشهير لحصرة الأب « لويس شيخو اليسوعي » في ترجمة المتنبي ما يأتي : « وأما نيل له المني لانه أخص النبوة في بداية المساواة وتعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم ، فخرج اليه لؤلؤ أمير حمص نائب الاحشيدية ماسره وتفرق أصحابه وحبيه يوليا ثم استنابه وأطلقه »

وجاء في ترجمة لؤلؤ أمير حمص المذكور ما يأتي : « لؤلؤ أمير حمص » كان مملوكا ولده صاحب حلب الب أرسلان المعروف بالأخضر على أمور دولته . ولما قنصل الب أرسلان بقي لؤلؤ هو المنكم على البلاد ، فلما كانت سنة ٥١٠ هـ - ١١١٦ م سار لؤلؤ الى قلعة جيمر ليجتمع بسالم ابن مالك القسبي صاحب القلعة فوثب عليه جماعة من الأتراك وقتلوه بالشباب .

ولا يخفى أن المؤلف قد غلط وأخطأ الحضرة إذ خلط بين رجلين متفقين اسما مختلفين عصرا ودولة وسجل ولاية .

فلاول هو المذكور في ترجمة المتنبي كان من عمال الدولة الاحشيدية على حمص أما الثاني فهو من ممالك الدولة السلجوقية كان مديرا لأموارها على حلب ، ولا يخفى الفرق بين الدولة الاحشيدية والدولة السلجوقية وبين أمير حمص ومملوك صاحب حلب ، وكيف يزعم حضرة الأب انهما واحد الآخر .

ويضا يدعي زعم هذا قولته من المتنبي انه توفي سنة ٢٥٤ أما لؤلؤ المذكور في الشرح قتال انه قتل سنة ٥١٠ هـ ، فحين عهد أحد الرجاين والآخر - برواية المؤلف المدقق نفسه - ما يورد على قرن ونصف ..

أول كذا يتبع ههنا وأداني أن أحدهما يقبض على الآخر وحبيه مع اختلاف مصرهما فرما يدعي أنه « من مسبو سبيل الحروف » أو أنه استند رايه السيد هذا الى أحد المؤرخين « كياتوت » مثلا ، أو غير ذلك من الدعاوى التمسقة والأملاذ الملققة ، ولكن الحقيقة في ذلك كان باية من آياته « التنسوية » ومجانبه التاريخية التي ذكرها بعضها في ما مر من أعداد القصيدة ، وسنذكر غيرها فيما يأتي إن شاء الله .

كتاب « الدين والعلم والمال »

لنرح اتون

لا يزال حفرة زميلنا العاقل « فرح أفندي اطون » منسوبة مجلة الجامعة القراء يتصف قراء العربية في كل حين بكل ما يطرح من الروايات المنقضة الأرشاد والتنسويد ونشر الآراء السديدة . وقد قدم من مجلة ما أصدره من إيدام هذه الرواية التي تضمن أهم مباحث العمران وهي : العلم والدين والمال ، وما بينهما من التناقض والأشكال .

مجلة السيدات والبنات

قصه « لحن كيوتو » لتولستوي

كتب الفيلسوف تولستوي الروسي رواية ثمانية سماها « لحن كيوتو » وقد نقل هذه الرواية الى اللغة العربية جناب رفول أفندي سعادة في البرازيل ونشرها تباعا في جريدة الماطر العراء .

أما آراء تولستوي في هذه الرواية كآرائه الاعتباطية بعضها صحيح يمكن العمل به في كل زمان ومكان وبعضها لا يمكن العمل به إلا بانقلاب عظيم يحدث في تربية البشر ومعيشتهم ، ولكن مما لا رسب فيه أنه لو حدث هذا الانقلاب وتغيرت معيشة البشر طبقا لتعاليم تولستوي فلي الشر يتناقض في الأرض ويكثر الخير ويصبح الناس أكثر هناء وأقل شقاء .

الندوات الثقافية ...

تقدمها: نجاة شاهين

والعطلات الناحية والارصاد المختلفة ، وأعطت اهتماما خاصا لرياح المحملة للأمواج والمواسف والأثواء واتجاهاتها ولسيبتها من كل اتجاه ، وتتلخص أهم النتائج التي وصلت اليها من دراسة هذا الفصل .

أولا : أن الرياح الشمالية بالمنطقة تبلغ أشدها في شهور الشتاء والربيع ، وأن الرياح التي تهب من الجنوب الغربي والغرب ، ثم تلك الآتية من الشمال الغربي والشمال .

ثانياً : أن سرعة الرياح العالية من الرطوبة تفوق مثيلاتها من السواحل كالاسكندرية وبورسعيد ومع ذلك لا يستشعرها المصيفون بالمنطقة ، ويرجع ذلك لامتداد الرملة الكبير ممثلاً في الكثبان الرملية التي تغطي الرطوبة .

ثالثاً : كمية المطر السنوي تتراوح في المتوسط بين ١٠٠ ، ١٥٠ ملمتراً مما لا يمكن معه الاعتماد عليها في الزراعة .

والفصل الثاني من القسم الطبيعي تناول دراسة جغرافية المنطقة دراسة فيزيوغرافية وتتلخص هذه الدراسة في نقاط ثلاث هي :

١ - دراسة مجرى النهر من حيث طولها والحدوده وعرضه وعمقه .

٢ - دراسة سهل الدلتا الى شرق وغرب مجرى النهر .

٣ - دراسة فيزيوغرافية الساحل الشمالي الذي ينقسم الى الساحل الى الشرق من المصب وهو ساحل يحسره المنزلة الشمالي ويتضمن دراسة العوامل التي تؤثر في تشكيله من رؤاسب نهريّة وتيارات بحرية وأمواج ومضيق المد والجزر ، ثم الساحل الى الغرب من المصب وهو شاطئ رأس البر وامتداده الغربي . وقد افصح من دراسة هذا الفصل ان أهم العوامل التي تكون وتشكل منطقة مصب دمياط ثلاثة :

١ - نهر النيل عطية وارساباته .
٢ - البحر المتوسط بأمواجه وتياراته وارساباته .
٣ - الرياح السائدة الهاجمة على المنطقة .
وقد علمت هذه العوامل على :

دراسات جغرافية في منطقة مصب دمياط

في كلية آداب جامعة عين شمس نوقشت الرسالة المقدمة من السيدة سعاد الصحن العبدية بالكلية لثيل درجة الماجستير في الجغرافيا ، وهي عن منطقة مصب دمياط ، ولقد اختارت الباحثة هذا الموضوع لأن وضع الكثافة التورق البحري والذي يمكن ان يجد فيه المدارس تنوعاً في مظاهر النشاط البشري يمكن تفاعل المظاهر الطبيعية مع بعضها البعض من جهة ، ثم تفاعل هذه الطبيعة مع صور النشاط البشري من ناحية أخرى .

ومنطقة مصب دمياط تمثل بروزاً مصبياً يمكن تحديده بحد دمياط وقرعة النعامية جنوباً ، والبحر المتوسط شمالاً والحدود الإدارية الغربية لناحية السنائية ، والسواحل الغربية لبحيرة المنزلة من الشرق بحيث يدخل في نطاق البحث ذلك الحاجر البحري الذي يفصل بحيرة المنزلة عن البحر المتوسط .

تقول الباحثة أن منطقة مصب دمياط منطقة تتعدد بؤسها نواحي الدراسة الجغرافية وتتجمع تلك النواحي لتجعل منها منطقة ذات شخصية مستقلة وطابع تفرده من باقي اجزاء الدلتا ، ورغم ذلك لم تسمح لها ظروفها بدراسة جسيمة واستثمار الأراضي آملّة أن تنجح لها الفرصة في المستقبل لاستكمال النواحي الأخرى .

وقد قسمت البحث الى قسمين رئيسيين الأول ويتناول دراسة الجغرافية الطبيعية للمنطقة ، وتشتمل أولاً على الدراسة الناحية للمنطقة ، وقد بدأت بهذه الدراسة لأنها ضرورة حتمها موقع المنطقة الساحلي ، وثاني فيزيوغرافيتها تأثراً بالغا بالعوامل الناحية المختلفة ولا سيما عنصر الرياح ، وما يتولد عنها من أمواج وتيارات بحرية ، وما تقدمه لنا الدراسات الناحية من تفسيرات لكثير من الظواهرات كشكل الساحل ، وما يتعرض له من تحت وارساب ، ثم الكثبان الرملية وأشكالها واتجاهاتها ، وتحركاتها ، وقد حاولت ترحي الدقة في استقراء البيانات

أولاً : تقسيم المنطقة الى تسعين طبيعيتين يختلفان في المظهر الطبيعي ، الأول منطقة شطوط دمياط ، والثاني منطقة السناتية بمستقعاتها وكتباتها .

ثانياً : تعرض يوغا دمياط للاستعداد نتيجة تراكب الطبس والرمال والأرسابات البحرية المختلفة التي تحطمها الأمواج والتيارات البحرية وبعوض الشتاء إلى مدخل النهر ولا نجد حيثما لا التيارات العكسية الآتية من النهر ما يكفي لإزاحتها والاتقاء بها في البحر وتطهير اليفرث منها ، ويحدث هذا الاستعداد على الرغم من انخفاض قاع النهر من مستوى سطح البحر .

ثالثاً : تراجع خط الساحل في أكثر من موضع ، والسبب هو نقص كميات الطين الواصلة إلى السواحل الشمالية بعد انتهاء الفيضان تقصاً ملحوظاً لا تستطيع معه تعويض ما يفقد من طريق التحت الساحلي .

والقسم الثاني من الرسالة يعالج ناحية استثمار الأراضي بمعناها الواسع بحيث يشمل : الاستثمار الزراعي ، تربية الحيوان ، صيد الأسماك ، صيد البعوض ، صيد الطيور ، استثمار الأبحاث ، رأس البر كسوق استهلاكي ومورد اقتصادي . أما من الاستثمار الزراعي فقد تناول ناحيتين .

أولاً : العوامل المؤثرة في الإنتاج الزراعي سواء أكانت طبيعية كالسواخ أو بشرية كنظم الملكية والريادة ، والإيجار والمواصلات ، والسوق ، والري ، والعرف .

ثانياً : نظم استثمار الأرض الوادية ويتناول توزيع الزمام بين الزرع واليور والسكن والفتح الماء ، الدورة الزراعية ، دراسة المحاصيل الزراعية .

وهي تربية الحيوانات تناولت في دراستها ، أهمية تربية الحيوان بالنسبة لمرع عامة وسكان الطب خاصة ، الدورة الحيوانية بالمنطقة ، الإنتاج الحيواني ونسبته ، تربى السناتية .

وتناولت في دراسة صيد الأسماك ، صيد البعوض ، والبحر ، وصيد السمك والمصنوع .

أما رأس البر فقد كانت دراستها على أساسين : الأول : كمصيف يحقق المراضة .

الثاني : كعنصر اقتصادي وسوق استهلاكي ومورد من موارد الدخل .

وأهم النتائج التي نخرج بها من هذا القسم ، هو أن المنطقة تعتمد فيها صور الاستثمار الاقتصادي ، فهي لها طابعها الزراعي يحكم كثرها جزوا من أرض الدلتا الطبيعية بقصد إنتاجها السكان ، ثم أن لها طابعها الرعوي الذي أفسد به شمال الدلتا المصري منذ عهد فديم ، كما أن لأرباط المنطقة بالتل من ناحية ، وبعيرة المنزلة من ناحية أخرى ، والبحر الأبيض من ناحية ثالثة يضيف إلى ثروات المنطقة ثروة الصيد .

وبعد أن انتهت الباحثة من تقديم ملخص بحثها الذي تضمن أربع سنوات بدأ ذو لجنة المناقشة وهي مكونة من الدكتور دولة أحمد صادق رئيسة قسم الجغرافية بالكلية والمعرفة على الرسالة ، والدكتور محمد إبراهيم زرقانة رئيس قسم الجغرافيا بجامعة القاهرة والدكتور نصر السيد نصر الأستاذ المساعد للجغرافيا بكلية عين شمس .

بدأ المناقشة الدكتور زرقانة الذي اتنى على مجهود الباحثة ولكنه اعترض على صيغة عنوان البحث ، فقال أن كلمة دراسات تعني دراسات متنوعة ، وليست دراسة محددة من النوع الذي

يستلزمه البحث في موضوع علمي ، كما أخذ عليها عدم المراد فصل لتحديد منطقة موضوع البحث بدلاً من ذكر هذا التحديد في صفحة ونصف ، وناقش الباحثة في صحة بعض أسماء جرد بحيرة المنزلة .

ثم تحدث الدكتور نصر السيد ، فقال أنه قد سبق أن ناقش المتحدث في جلسات خاصة استقرت أبحاثها لثلاث ساعات وأنه يتكفي الآن بمناقشة بعض النقاط العامة ، وقد أشار بوجود قيام دراسة الجغرافيا الاقتصادية للمنطقة بأسلوب أحصائي مدروس ، وأن كان هذا من مستلزمات رسائل الدكتوراه لا الماجستير إلا أنه يحسن إتمامه هنا أيضاً ، ثم ناقش موضوع سد دمياط ، وهل في الإمكان « زرعته » إلى الشمال من موضعه الحالي .

وأخيراً تحدثت الدكتورة المشرفة ، فأيدت بعض ملاحظات عامة ، وقد نالت السيدة سعد الصحن على بحثها درجة الماجستير بتقدير ممتاز .

التغيير في عالم الطبيعة وفكرة الزمن

إن الرقعة التي تلج علينا جميعاً في الغاء نظرة إلى ما وراء التلطة التي نعيشها سواء في الماضي القريب أو البعيد أو في المستقبل القريب أو البعيد ، إنما هي رقعة ندية قدم الإنسان نفسه ، وقد تكون تلك الرقعة مقصورة على فحص الظواهر الطبيعية أو ظواهر الحياة أو الروح أو القلب ، وقد تمتد فتصبح نظرة إلى الكون بأسره أو إلى آخر جرد يتألف منه . . سواء أكانت تلك - الظواهر - نفس فرداً - أو جماعة - أو جنوع .

وقد قرر لنا الدكتور جيوفاني يوغاني ورئيس المجلس القومي للبحوث بالجمهورية الإيطالية في محاضرة القاها : باللسنة الإيطالية في المعهد الإيطالي للثقافة « الظاهرة » عنوان : « التغيير في عالم الطبيعة وفكرة الزمن » هذه الظاهرة البشري التي تجعل من حياتنا خيرة من أنواع دالم للطفة التالية لتلك التي نعيشها ، وجودة وثق - وطنش - لكشف والمعرفة والتسلط على كافة العنصر التي تتصلق بالتطور .

ولي رأيه أن هذه الظاهرة مشكلة شائكة نشأت مع الفلسفة تلياً بها أهل « ملطية » من أتباع تاليس الملطي ، وحسدها « هيرقليطس » بمبدأه الشهير « الأشياء دالة السيلان ، وأتكر هذا البذا » بوميندس ، ثم جاء أفلاطون لوفق بسين الانجابين المعارضين ، وأخيراً نذر لهذه المشكلة أن تهر على يد أرسطو ، وهو الحل الذي تناقلته الأجيال المتتالية إلى أن جاء « هيجل » وخلفاؤه في العصر الحديث لبحث المشكلة من جديد وعبرجت بأسلوب آخر .

وفي ميدان الطبيعة تعلق المشكلة باستمرار تغيير صور الأشياء وولاتها بعضها ببعض ، وإذا ارتفعنا من النظرية الجزيئية إلى النظرية العامة الشاملة تبين أن المشكلة تتعرق بالعلم المشترك لكافة النظريات الطبيعية .

أذن فإن مجال علم الطبيعة ، أن يتحدى الحل للكشف عن طريقة التغيير وتواتره ، دون أن يصل إلى الكشف عن جوهره الذي قد لا يستعني على العقل البشري ولكنه يفرح من لطاق علم الطبيعة .

ولد وضع جاليليو صاحب المنهج التجريبي الذي هو أساس علمنا الحديث مبدأ مقرواً ألا وهو وحدة تطور المشكلات الطبيعية ، أي وجود روابط لابد منها بين كاش وآخر وبين عملية وأخرى ، وبالأخص وجود قوانين وأسباب ومسببات ، ومن هنا جاء تأكيد جاليليو بأن « الطبيعة هي بالضرورة وخالدة » ، وأن الضرورة هي ملك وشرط جوهرى للأشياء الطبيعية

والواقعية ، وكل حادث يخالف ذلك الذى لوحظ فعلا لا يمكن وقوعه ويناه على ذلك فإن الطبيعة قابلة لا ترحم راسخة لا يمحوا أن يكتشف الناس من خفاياها .

وعلى ذلك فقد قرئ على التغيير الطبيعى أول قانون وهو قانون وحدة التطور ، أو ما يمكننا أن نغير منه بقلة الأخلاق فنقول أنه قانون انعدام الصدفة ، وانعدام حرية الاختيار فى تطور الظواهر الطبيعية .

وبعد التسليم بعمدا الضرورة الطبيعية أمكن إيجاد تبرير منطقي للنتائج التجريبية ، وتكليف علماء الطبيعة بالبحث فى ميدان التغيير فى العوامل الطبيعية وهذا التبرير هو القياس المنطقي - الذى يرد وقوم من عهد جاليليو وما بعده - كافة الأبحاث التجريبية ، وصار أساسا لكافة التطبيقات الطبية لدينا .

ولكن جاليليو فعل أكثر من ذلك فقد استمد فكرة أن الظن الصحيح والعلم الصحيح هما اللذان تصل إليهما بالمنطق والاصابة المنطقية - فادخل فى الطبيعة علم الرياضيات لا باعتبارها مجرد تمرين منطقي بحث على كائنات مجردة ، ولكن تسخير داخلي وذاتى للطبيعة وتعبير صحيح لها وكلمة تطلقها . وكان فى ادخل الرياضيات ما فيه الكفاية لجعل كل نتيجة صحيحة + بل وصحيحة حتما من أجل ذلك كتب جاليليو « أن المعرفة الإنسانية تعادل العلم الإلهي فى يقينها الموسوم لأنها تصل إلى إدراك ضرورتها إلى حد لا يمكن أن تقوم لغة أعظم من ذلك » . وهذه الضرورة هى الرياضة + ولم ير جاليليو فى هذا التطبيق للرياضيات فى علم الطبيعة مجرد مادة للبحث ، بل برهاناً طبيعياً يتمتع تغير الطبيعة لضرورية الأشكال الرياضية . وإذا تابعت هذا التفكير أعتنا القول بأن مصرفة طرق سير الطبيعة ولد من الناحية الكلية .

وبمعنى آخر تغير الطبيعة ، تعتبر معرفة كاملة على الأقل من الناحية المنطقية التصورية ، حتى أنها جعلت تصوير الميكانيكا بواسطة الرياضيات على يد نيوتن وإدموند هويغز ولاجرانج ، ودلجبر كتب لابلاس يقول : أن العقل إذا أرسل فى وقت ما إلى معرفة كل القوى التى تحرك الطبيعة وأحوال الكائنات التى تتكون منها ، وإذا كان هذا العقل من الإجماع بحيث يخضع هذه البيانات للتجليل الرياضى فإنه سيجمع فى نفس المعادلة حركة أكبر الأجرام الأرضية وأسفر الفلك والى يخفى عليه شيء وسيكون المستقبل والماضى ظاهرين لعينيه يقول الدكتور جيوفانى : « أنه لا يسمتع أراء هذا الكلام اهتمام لابلاس بالمفردة إذ كانت مشكلة التغيير على الأقل من الوجهة النظرية وفى ميدان المعرفة الكمية الخالصة لا التكميلية ، وبالتالي وعلى لحماضيه من علماء الطبيعة أصبحت فى حكم الحلولة أو على الأقل فى حكم المشكلة التى لم تعد تثير أى اهتمام فى ميدان المعرفة » .

والحقيقة أن افوال لابلاس إنما هى دعوى لم تصح فى كمال الأحوال ، فإن نهياً لنا تطبيق النتائج التى أشار إليها لابلاس أى نتائج الميكانيكا ، على وحدة كالفلك تتكون من مدد لا حصر له من الجزئيات الصغيرة جدا ، ويتمتع للحصول على الحل الذى يتفق والسلوك العنلى لهذا العدد الضخم أن يلجأ إلى افتراضات خاص يضمن استمرار حركات الكرات فى فوضى أى تغلر أن تقوم بينها حركة جماعية أو أى تناسق أو اتفاق ، ولما كان هذا الاحتمال مفترضا دالما فى هذه الحالات فإن هذا دليل على سحر الطرق الميكانيكية البهتة من حل المسألة .

وهذا المجزئ نابع من عدم تحديد تلك الطرق لعنى الزمن + وبالتالي من استحالة معرفة اتجاه تطور الجزئيات التى يتألف منها الفلك ومعرفة تغيرها .

وقد رأينا أن هذه الأسس النظرية تفترض مبدأ ألا هو مبدأ وحدة التطور الذى حاز موافقة الانطية ، ولكن ليست هذه المرة الأولى التى يتضح فيها أن التأكيدات لا تقوم على أساس صحيح حتى تلك التى تكتسب موافقة الغالبية ليحسن أذن اخضاع هذا المبدأ للتفتد ، الذى يمكن الحكم على قيمة الحل الذى وضعه جاليليو لمشكلة التغيير .

ومن الطبيعى أن الحكم النهائي على المسألة لا يأتي إلا بالتجربة وجاليليو نفسه قال أنه يتعين الانتماء على التجربة وحدها وقد سبق أن رأينا أن وحدة التطور مجرد احتمال أصلت التجربة ولا شيء آخر ، ومن أجل ذلك فهو احتمال مشروع ، ولكنه بهذه الصفة يسقط إذا انتهى الأمر ، أى إذا كذبت التجربة . ولو أننا بدأنا من هذا الافتراض إلى يقين الملام لتعريف الأحوال الفردية ونسألنا بعد ذلك هل من الممكن الوصول إلى وصف دقيق للنظم المركبة المعقدة كل التعقيد الخاصة بالكون ، فالجواب هو أن هذا الانقراض إلى التعيين يمكن تلافيه بالجانب الاحصائى المجموع الذى يتأثر ، باحتمال كبير الوضع الأكثر احتمالا ، وهكذا يصبح لدينا نظرية احتمالية احصائية ، ولم يعد التغيير مجرد مظهر للأفراد بل هو مظهر احصائى للمجموع .

وبما يمكن من أمر النظرة الاحصائية إلى التغيير فإن ثمة نتائج ذات أهمية بالغة نشأ منها ، فالقول بأن الأخذ بمبدأ الشك الذى يجعل فكرة التطور محددة معناه أن تقوم خاصية طبيعية يمكن بالنسبة إليها ادراك السابق واللاحق فى تغيير الشيء موضوع البحث ، ويمكن بذلك أن نضع لهذا الشيء أيضا ورسم خاص يبين لوقوع الحوادث ، وهذا الرسم هو بالضرورة غير قابل للأخطاء ، وأن افورنا المكان التمييز فى التغيير بين السابق واللاحق ، وفكرة الرسم الإحصائى يمكن تعديدها بزيادة ثمة نظام يفسح لسلسلة من التعديلات والتحويلات ، ومن الجائز أن نقول أنه بما فى ذلك هذا النظام يكشف من أرون من التحول متعلق بذاته فى اللحظة التى يكون فيها النظام فى آخر مراحل تطوره .

ومما يجدر بالذكر أنه لو وجد رسوم بيانية يمكن أن نحى دون أن نشأ غيرها بدلا منها ، أما إذا جعلنا الانتشار يحدث بطريقة مفاجئة ، فحينما يتبع هذا التحول تحول آخر معها يمكن وضعه ، ونعت أن آخر لا يعمى ، فإذا تكبر ميدان التجربة الضيق ، حتى لو سلمنا بشرحيته واتخذنا العالم مثالا انظام ، وجب علينا أن نعلم بأن العالم يعمل فى ذاتيه ماضيه من طريق أثر لا يحى وتغيير تدريجيا دون أن يعود فى تغييره إلى شكله الأساسى ، وهذا هو نفس طابع الزمن من حيث أنه يسيل ويتغير ، وكثيرا ما كان الزمن موضع تأملات الفلاسفة وعلماء الطبيعة كما كتب عنه كثيرون ولكن قد يكون ما كتبه الفلاسفة « أوجستين » أمضى ما قبل ما الزمن إذ نساها ، ما الزمان ؟ إذا لم يسألنى أحد فأنى أعرف ، وإذا أردت أن أشرحه للسائل فأنى أجعله » .

ذلك هو موقفنا من فكرة الزمن وهو على كل حال يتشابه موقفنا حيال التصورات البدائية لعلنا ، إلا أنه من المؤكد أننا نشبه الزمن بيقى يسيل سمرما ، فهو رغم أنه يتسبب إلى مكان قائم يوحى بفكرة النظام ويمثل فكرة السابق واللاحق ، وهو يشبه بذلك تنابع الآثار التى تطبع العالم بتغيره .

فالذا لم تخطئ بين التغيير وبين الزمن رغم ارتباطه به ارتباطا لا تنقسم عراه والذى الزمن عبارة من سبل لا يعود إلى الوداد كما نحى به ، فإن التغيير هو نتيجة لعدم إمكان التغيير أن يعيد بناء ذاته .

واختتم الدكتور جيوفانى محاضره القيمة بقوله إن اللداسة الفيزيائية للتغير ، دراسة تقوم على ارتباطات وثيق نظريات

جاليليو إلى على النحو الذي يتفق أشد الاتفاق مع معطيات التجربة دون أن تضيف إليها شيئا لا تحدده ولا تقدر التجربة على تحديده ودون أن تتنزع منه شيئا ، هذه الفراسة تقولنا كما يحدث دائما عند السعي لفهم الطبيعة لها مميّا ، أشق مشاكل وجودنا وتغيرنا .

التأميم والقانون الدولي

وفي جمعية العلوم السياسية تحدث دكتور أحمد غيرت سعيد نائب وزير الخارجية السابق عن موضوع التأميم والقانون الدولي . وقد مالح سيادته في بدء محاضراته موضوع الملكية وتطورها بوصفها فريضة ثم حين أصبحت متعلقة بالمصالح العام ، فقال أنها كانت حقاً مقدساً يحترمه الحاكم منعاً يضع القوانين الوضعية التي أن جاءت الثورة الفرنسية ، على أساس من الفلسفة الفرية ، وجعلت التمكن للأشخاص من تحقيق أملكائهم غاية للمجتمع ، ومن هنا جاء تقديس الثورة الفرنسية الملكية الفردية ، وقد وضعت هذه القواعد في بداية الأمر خصيصاً للأجانب ثم امتدت فغطت سائر الناس باعتبارها مستمدة من العقل الطبيعي كما ساعدت الأديان على نشر هذه المبادئ ، ومن هنا أصبح حق الملكية من الحقوق المقدسة ، ثم جاء التشريع المدني أعقاب الثورة الفرنسية سنة ١٨٠٤ وهو ينص على أنه حق الإنسان في التصرف فيما يملك لا يحدّه شيء ، وأن نزع الملكية للشعنة العامة لا يجوز إلا مقابل تعويض كامل يدفع مقدماً ، وقد استفاد المجتمع الأوروبي من هذا القانون إلى أمد حد ، فنشأت طبقة بورجوازية ، انضمت ميدان المستعانة والتجارة بعد أن تحررت من القيود وكوّنت هذه الطبقة لثروة طائلة ، والحق يقال أن هؤلاء الرأسماليين لم يكونوا يتبعون قواعد الرحمة وقد استغلوا الرجال والنساء والأطفال إلى أمد مدي ، فكانت ساعات العمل طويلة ، ومن هنا جاءت حركات اجتماعية بعيدة المدى تبدأ من التالية إلى الاشتراكية للتعبير عن وري الاجتماعيين أن الملكية هي عبارة عن علاقة الفرد بالمجتمع وهذه نظرة جديدة تختلف من النظرة التي كان ينظر بها رجال القانون ، ويبدأ تنمو ككثير من الترميمات الاجتماعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكان لهذا التطور في النظريات الفكرية أثر كبير في أوائل القرن العشرين بالذات إذ في أعقاب الحرب العالمية ٢١ يناير سنة ١٩١٧ وضع الدستور المكسيكي ، ويشير سيادة المحاضر إلى مادة من مواد هذا الدستور خاصة بتعريف الملكية ، تقول هذه المادة : أن الملكية ليس مصدرها الحق الطبيعي بل الشعب ؛ ملكية الأرض والمياه داخل الأراضي الوطنية هي أصلاً ملك للشعب وهذا التعريف لا شك يخالف النظرة التقليدية ، وبين لنا في وضوح أن هذا التعريف لم يعد مستلذاً إلى حق طبيعي لا يجوز المساس به بل معنى أكثر نجساً ، وهو أنه ملاقة بين الفرد والمجتمع ، فالملكية وليست اجتماعية ، وما أن مصدرها الشعب لا يجوز وضع حدود لها تتفق مع مصلحة الجماعة .

ويبقى سيادته في تصوير المراحل التي مرت بها الملكية في مراحل التطور ، فيقول : أن فكرة أن الملكية وظيفة اجتماعية لمجتمعات نجاحاً كبيراً إلى حد أن بعض الدول لجأت إلى نزع الملكية لأغراض تسمى الجماعة .

وفي أكتوبر سنة ١٩١٧ قامت الثورة الشيوعية ، ولجأت روسيا من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٢٧ إلى تأميم جميع الصناعات ، وكذلك إلى إنشاء المزارع التعاونية الجماعية ، ولا ملاقة في الواقع بين الفلسفة والمقيدة الفرية ، وبين ما لا يحقّه في جميع الدول الأخرى . وقد أشار سيادته إلى الثورة الشيوعية ليدل على أن جزءاً كبيراً من دول العالم تقي على مبدأ احترام حق الملكية الخاصة ولجأ إلى التأميم .

في سنة ١٩١٩ صدر في ألمانيا ما يشبه نص هذا القانون ، وفي إسبانيا سنة ١٩٣١ صدر قانون بجواز تأميم الثروات العامة التي يتم اقتصاد الدولة ورفاهيتها .

وفي فرنسا ١١ أغسطس ١٩٢٦ نص القانون على تأميم جميع الصناعات الحربية حماية للفرد .

حتى في أمريكا صدر قانون أياح السلطات استغلال وادي تنسي وهو من الضخامة بحيث يعتبر أكبر مشروع اقتصادي في العالم .

وجاءت بعد ذلك الحرب العالمية الثانية ، ووضعت حركة المقاومة على رأس برنامجها الاجتماعي التأميم باعتباره الوسيلة للاستقلال .

أتمت فرنسا نصف صناعات الفحم ومواد والمواصلات والكهرباء والغزل ، ثم جاء دور الجزائر وكان حزب العمال قد وضع كسياسة لتأميم الطيران المدني والمواصلات والسكك الحديدية ، والنقل ، وشراء القطر الخام ، والكهرباء والغزل ، ثم توالت التأميمات في بلاد أخرى منها جمهوريتنا العربية فيما يتعلق بمشروع قناة السويس .

ثم شرح سيادته معنى كلمة التأميم ، فقال : أنه وليد ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية وإذا أردنا أن نلجأ إلى التعريف الذي ذكره معهد القانون الدولي لقلنا أنه يختلف من نزع الملكية للشعنة لا نزع الملكية للشعنة العامة فنصيب على مقدار معين أي أن مذهب وآراء محدود والغرض من نزع الدولة لتسلطها المالي العادي وليس له أسباب اقتصادية ولا سياسية ، بينما التأميم هو عمل من أعمال السيادة يتصل بصميم أعمال الدولة بهدف إلى غرض اقتصادي واجتماعي ، فالشروع المهم يجب أن يكون من الأهمية بحيث يلزم التأميم ، ويختلف من المصادرة لأنها عقوبة لا تأنيلاً ، لا بهدف إلى إجراء أحد بل مصلحة الجماعة ، ولا يجوز سيادة الدولة هنا إلا إذا فصل يحدث سياسي كما حدث في مصر تدخل في قناة السويس ، والتأميم يرتبط بسيادة الدولة بحيث لا يجوز للدول الأخرى الاعتراض عليه . ولكن على الدولة التي قامت بالتأميم اتباع المبادئ التي يتوّم على أساسها .

أول هذه المبادئ : عدم التفرقة .

الثاني : أن يكون المشروع المزمع ضرورياً للمصلحة العامة . الثالث : أنه يجب ألا يكون التأميم قد تم بمخالفة لانفاذات دولية أو معاهدات ، وهذا تطبيق للمبدأ الذي أصدرته محكمة العمل الدولية .

الرابع : ألا يكون التأميم قد صدر من مخالفة لتشريعات الدولة الداخلية إذ قد ينص الدستور على عدم جواز التأميم أو صوره بناء على تعويض .

الخامس : التأميم يجب أن يتم مقابل التعويض والتعويض ينقسم إلى شقين ، مبدأ التعويض ، ومذهب . وبعض الدول سواء من الناحية الشرقية والغربية اتفقت مبدأ التعويض أساساً ، كما في المكسيك . وقد مرّض لهذا الموضوع معهد القانون الدولي وأصدر قراراً بأنه إذا كان التعويض ، يدفع بحيث يكون علاناً لاكتنايل الدولة .

أما فيما يتعلق بمبدأ التعويض فنلك هي المشكلة التي لم تنقر على الإطلاق بشكل مستمر ، ففريق يرى أن التعويض كامل وفريق ثان يراه عادلاً . وفريق ثالث يراه مناسباً لامكانيات الدولة .

واختتم سيادته محاضراته القيمة بالعودة مرة أخرى إلى موضوع تأميم قناة السويس فقال أن الحكومة غابت بالتزاماتها كاملة من الناحية الدولية .